11

التواصل

AT-TAWASUL

فصلية ثقافية شاملة

السنة الثالثة ـ العدد الحادي عشر ـ الفاتح 1374 من وفاة الرسول ﷺ سبتمبر 2006 مسيحي

مساجد من أرض الابتسام

إيان ليندل / بريطانيا

أفكار حول احترام كرامة الإنسان

د. عارف علي النايض / ليبيا

الإيمان والعقل والجامعة

إبراهيم الحلبي / سوريا

البابا وجحيم دانتي

أ.د. مهدي امبيرش / ليبيا

من مأدبة الله

محمد القاضي / المغرب

ثقافة الحرية وتجسيد قيم التواصل

أكبر وأجدى من الاعتذار


ن والقلم وما يسطرون

د. عبد العاطي محمد عبد الجليل *

إساءة للقيم والمثل والأخلاق

هل صحيح أن الإساءة إلى القيم والمثل العليا تعتبر (حرية تعبير)؟

وهل صحيح أن النيل من دعاة الخير والعدل والسلام تصنف من باب (حرية الرأي)؟

هل صحيح أن الانتقاص من قيمة الحضارات من خلال النيل من رموزها ومؤسسيها وبناتها يمكن أن يعتبر (حرية رأي وتعبير)؟.

هل صحيح أن استفزاز أتباع عقيدة ما - بغض النظر عن موقف غير المؤمنين بها منها - يعتبر (حرية رأي وحرية تعبير)؟.

وهل صحيح أن النيل من خصوصيات أمة ما يعتبر (حرية رأي وتعبير)؟.

في المقابل: هل صحيح أن الدفاع عن القيم والمثل يعتبر حجرا على (حرية الرأي وحرية التعبير)؟، وهل صحيح أن الدعوة إلى احترام دعاة الخير والعدل والسلام يعتبر انتقاصا من (حرية الرأي وحرية التعبير)؟.

هل صحيح أن احترام التراث الحضاري واحترام رموز ذلك التراث ومؤسسيه وبناته يعتبر حجرا على (حرية الرأي والتعبير)؟.

وهل صحيح أن التعبير السلمي عن المشاعر التي يثيرها استفزاز أتباع عقيدة ما يعتبر انتقاصا من (حرية الرأي وحرية التعبير)؟.

وبين هذا وذاك: هل يجوز في عالم يسعى إلى الحوار والتعارف والتواصل أن يجبر المسلمون دون غيرهم على تقبل كل إساءة أو انتقاص دون أن يكون لهم الحق في التعبير عن شعورهم بالألم الذي تلحقه بهم تلك الإساءة وذلك الانتقاص؟.

هل تجوز الإساءة إلى الحضارات والأمم والشعوب والعقائد في عالم هو في أمس الحاجة إلى التعاون من أجل التنمية، والحوار من أجل فهم متبادل، والتعارف من أجل فهم أكثر عمقا ووضوحا، والتواصل عبر جسر لا تعلق فوقه لوحة الإقصاء؟

هل يجوز شن حرب إعلامية لا هوادة فيها ضد الحضارة الإسلامية والشعوب المسلمة والعقيدة الإسلامية تحت شعار (حرية الرأي وحرية التعبير) بينما لا يجوز لكائن من كان أن يتساءل حول أحداث تاريخية لم يتفق عليها المؤرخون الأحياء؟!

وبعد هذا وذاك: أليس خطأ وخطرا أيضا أن تتكاتف أيد وتتوحد أصوات وتتراص كلمات وجمل من رموز ثقافية وسياسية ودينية من أجل وضع الحضارة الإسلامية والشعوب المسلمة بين مطرقة الإساءة وسندان الاتهام تحت عنوان (حرية الرأي وحرية التعبير) دون أن يكون للمسلمين والمتعاطفين معهم والذين يدركون حقيقة حضارتهم الحق في إيضاح الصورة بله تصحيحها؟!

أليس من الخطأ غض البصر عن جرائم وأعمال عنف وتفرقة عنصرية واضحة المعالم والشخوص والوقائع، عانت منها شعوب وأمم وحضارات في فترة زمنية لم يلفها النسيان بستائره؟

أليس من الخطأ والخطر أيضا، التوجه بالإساءة إلى الحضارة الإسلامية والانتقاص من قيمتها، وأثرها الإيجابي على الإنسانية جمعاء، ومنع كل من يحاول أن يصحح الصورة السلبية التي يتم رسمها، رغم كل العيوب التي تعاني منها تلك الصورة التي يراد رسمها؟

إن الإساءة لأي نبي، أو التطاول عليه هو في الحقيقة إساءة وتطاول على القيم والمثل التي يدعو إليها، وليس نبيا ولا رسولا ولا مصلحا ولا حكيما كل من دعا أو يدعو إلى القتل والتدمير والإقصاء والتعالي والاستعباد والاستغلال.

لقد غضب المسلمون كثيرا حين أسيء إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، لكنهم لم ينتبهوا إلى أن الإساءة التي لحقت به هي في الحقيقة إساءة لقيم ومثل وأخلاق رفيعة وسامية، ولم يدرك المسيئون أنهم - بعملهم ذاك - قد أساءوا لقيم نبيلة ومثل عليا، وأخلاق سامية.

وحين يتم التنكر للقيم النبيلة والمثل العليا والأخلاق السامية، بحجة (حرية الرأي وحرية التعبير) فإن ذلك يعني بداية النهاية لكل من أغمض عينيه عن رؤية الحق، ومن أصم أذنيه عن سماع الحق، ومن أقفل فاه عن قول الحق...

---

* صحفي، كاتب، أستاذ جامعي / ليبيا



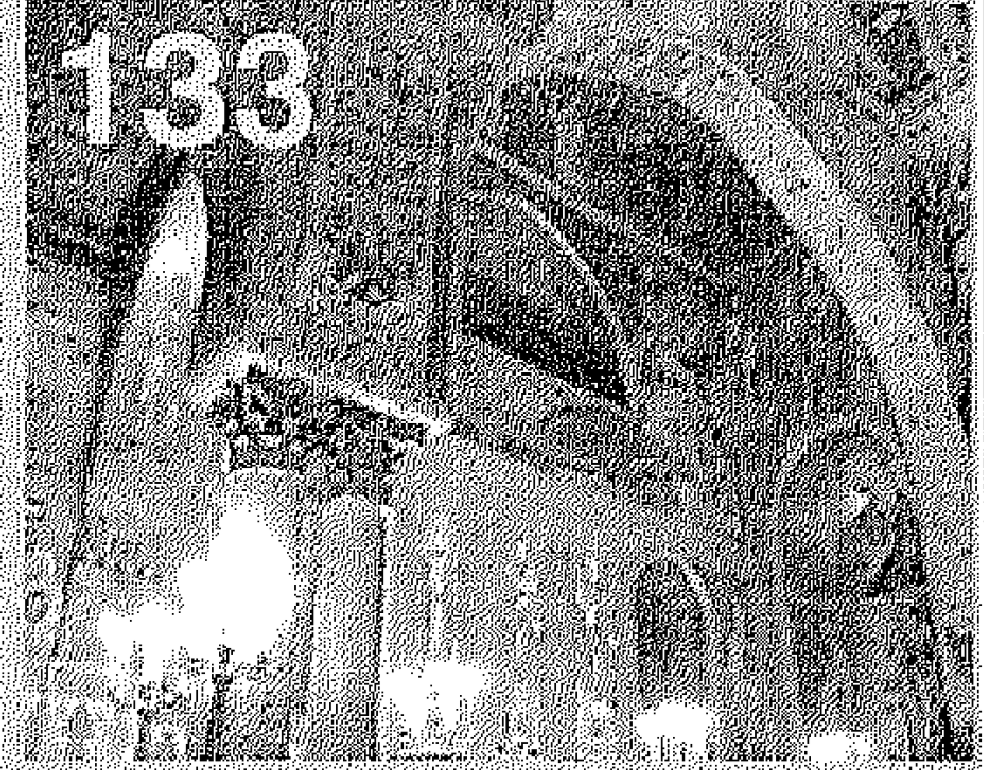
في هـذا العـدد

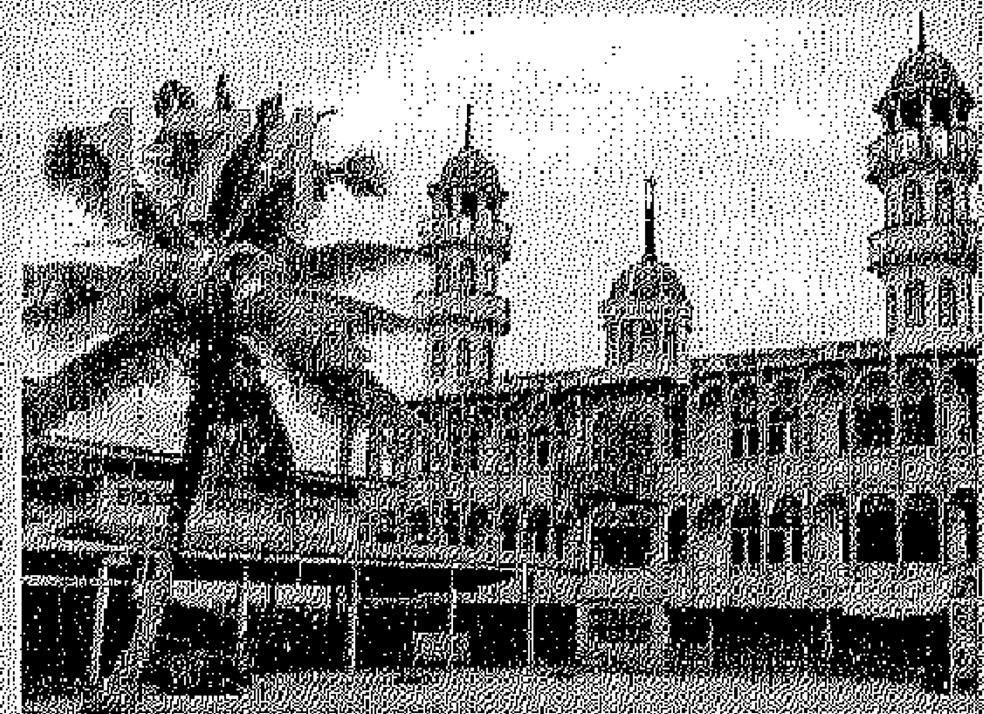
الافتتاحية

مقالات

قضايا وآراء

أكبر وأجدى من الإعتذار







التواصل
AT-TAWASUL

تصدر عن
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

السنة الثالثة ـ العدد الحادي عشر
الفاتح 1374 من وفاة الرسول ﷺ
سبتمبر 2006 مسيحي

المراسلات باسم
أمين هيئة التحرير
طريق السواني ـ كلم 5
هاتف: 4800730 / 4808461.5
بريد مصور: 4800736 – 4800730
ص.ب: 86086
طرابلس . الجماهيرية العظمى

البريد الالكتروني
INFO@AT-TAWASUL.INFO
ARAA@AT-TAWASUL.INFO

الموقع على شبكة الانترنت
WWW.AT-TAWASUL.INFO

دراسات

محاضرات

استطلاعات

تقارير

الواحة

كتب

المكتبة

منتدى التواصل

ونتواصل

شـــروط النـشـــر فـي مجـلـة

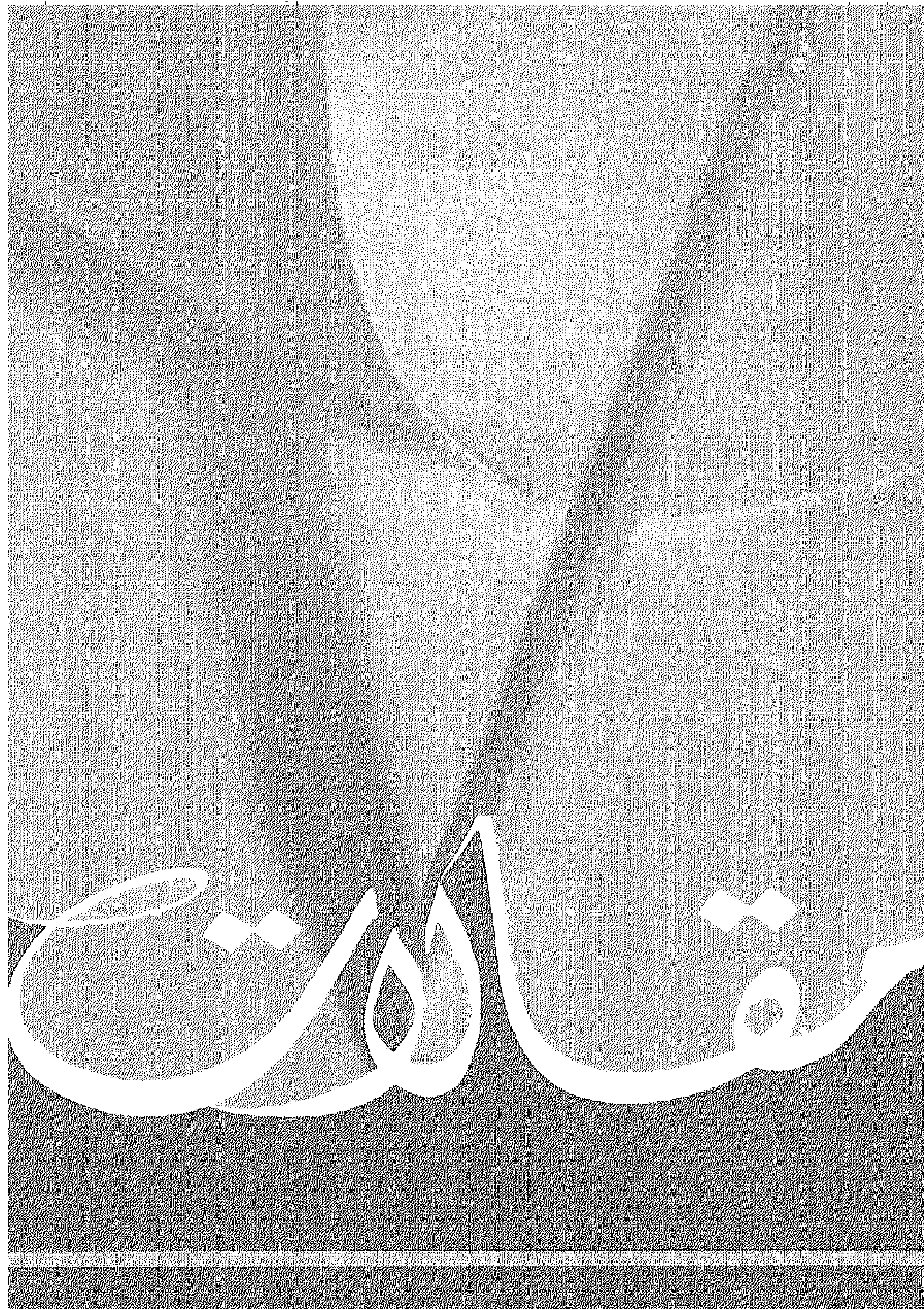
التواصل

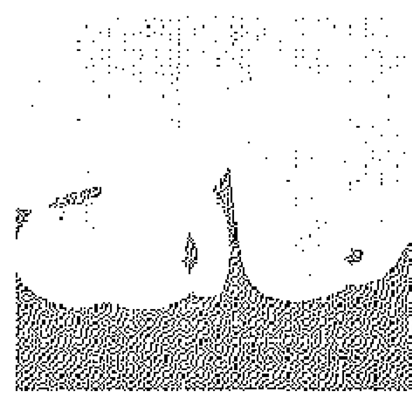
ترحب مجلة التواصل بكتابات المفكرين والمثقفين العرب والمسلمين وغيرهم الذين ينشدون التواصل المعرفي من خلال لغة الحوار والنقاش المستنير بعيداً عن التعصّب بجميع أشكاله، وسعياً لدرء أسباب الخلاف والفرقة، مع الالتزام بأسس العقيدة الإسلامية وثوابت الدين في المعالجات الفكرية والثقافية. وتحقيقاً لهذه الأهداف يشترط لقبول نشر البحوث والمقالات:

- ❖ أن يتسم البحث بالجدّة والموضوعيّة، وأن يتّبع في كتابته الأساليب المنهجية في البحث العلمي من تسلسل منطقي في العرض، وتوثيقٍ للمصادر والمراجع.
- ❖ أن يُراعى تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في البحوث التي تتضمنها.
- ❖ أن يكون البحث أو المقال خِلواً من الأخطاء اللغوية والإملائية، مع مراعاة علامات الترقيم وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.
- ❖ ألاَّ يكون البحث أو الدراسة المقدمة للنشر في (التواصل) جزءًا من أطروحة ماجستير أو دكتوراه.
- ❖ ألاَّ يكون البحث قد سبق نشره في مطبوعة أخرى.
- ❖ أن يكونَ البحثُ أو المقال مطبوعاً، أو مكتوباً بخطٍّ واضح.
- ❖ ألاَّ يقلّ عدد كلمات البحث أو الدراسة عن 8000 كلمة ولا يزيد على 12000 كلمة.
- ❖ ألاَّ يقلّ عدد كلمات المقال عن 4000 كلمة، ولا يزيد على 6000 كلمة.
- ❖ أن يُرفقَ الباحثُ ببحثه سيرته الذاتية.
- ❖ في حالة الترجمة لا بدَّ من أن يرفق النصّ المترجم بلغته الأصلية.

ملاحظات:

- للمجلة الحق في اختيار العدد المناسب لنشر البحوث المجازة.
- ترتيب نشر البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.
- لا تردّ البحوث إلى أصحابها سواء أنشرت في المجلة أم لم تنشر.
- تعرضُ الأعمال المقدّمة للمجلة على لجنة تقويم النصوص فيها لإجازتها.
- تمنح البحوث والمقالات المجازة مكافآت مالية مناسبة.


مقالات



من مأدبة الله

في المأدبة والأدب (2)

أ. د. مهدي امبيرش *

القول بالمصطلح، ونحن نعالج العلاقة بين مفهوم الأدب والمأدبة، هو القول بالصلاحية، على اعتبار أن دلالة الصلاحية يفهم منها امتداد هذا الذي نصفه بالصالح، والصالح في دلالته أبعد من المفيد والمربح والنافع والممتع، وغيرها من المصطلحات التي تدور ضمن المتظرف، أي الذي يقع داخل الظرف، والقابل للقياسات الحسية والمادية الواقعية والوضعية، ولنا أن نشير هنا إلى العلاقة بين الصوت والمفهوم والمعنى في اللسان العربي، إذا اعتبرنا اللسان ليس هذه الجارحة التي تساهم في إظهار الأصوات، بل اللسان على أنه منهج التفكير، أو نحو التفكير، وعلى النظر إلى النحو على أنه ابعد من القواعد، فالقواعد محاولة تقنين الظاهرة الصوتية، والظاهرة الصوتية هي تعبير عن المعنى، ومن ثم فإن القواعد تدخل ضمن ما يطلق عليه الفلاسفة (المنطق)، الذي غايته الوصول إلى الأحكام، وإن كان الوصول إلى الأحكام يرتبط بالفهم والمفهوم، والفهم والمفهوم أدنى من المعنى، ولهذا نبهنا إلى أن القرآن لا يمكن أن يفهم دون النحو العربي، أي منهج التفكير العربي، ودون اللسان العربي، حتى الأحكام، أو القواعد المنطقية، لا يمكن إدراكها إلا ضمن النحو، وضمن منهج التفكير، ولهذا يقول البعض، بقواعد النحو، وهم يعترفون بأن القواعد ليست كل النحو، وإدراك الأحكام يقع ضمن البيان، الذي هو أبعد من المنطق، مثلما اللسان أبعد من اللغة، والنحو ابعد من القواعد.

على أن المفهوم ليس المعنى، والقول بمعاني القرآن، هو قول فيه مبالغة وإغراق، كأن نجد في بعض المحاولات الاجتهادية لفهم نصوص القرآن، وصف هذه المحاولات بأنها معاني القرآن، أو تفسير القرآن، أو إلى أبعد من ذلك، في القول بترجمة معاني القرآن . إن المفهوم هو ما ندركه، أو نلحق به، أو نفهمه من المعنى، فالمفهوم، إذا ارتبط بالمعنى، هو بعض المعنى لا كله، ولهذا يكون الاختلاف والخلاف، اللذان يحتدمان إلى حد الصراع والاقتتال، إنما يدور حول المفاهيم، وحول ادعاء البعض أن فهمه الجزئي والمحدود هو المطلق، وهذا تمامًا مثل القول بأن المعرفة هي العلم، والقرآن الكريم يؤكد أن الإنسان بحكم محدوديته لا يمكن أن يصل إلى إدراك المطلق واحتوائه، والمعنى هو العلم الذي هو نهاية المعرفة، حيث لا يصل الإنسان إلى

---

* باحث، كاتب، أستاذ جامعي، الأمين المساعد لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية/ ليبيا.

العلم إلا إذا اكتملت مسيرة الإنسان في حياته الدنيا، وهذا ما يؤكده الحق تبارك وتعالى في قوله:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية 85]

فهذه الآية دليل محدودية الإنسان على إدراك المطلق، أي مطلق الحقيقة، أو العلم الذي يمتد إلى الغيبي، والى المجهول، فما عند الإنسان محدود قياسًا بالعلم.

على أن هذه المحدودية إذا لم يعترف الإنسان بها، أو إذا استخدم وسائل وأساليب لا تعترف بهذه المحدودية والعجز، أي إلى وسائل وأساليب تتقدم نحو العلم، فإن الإنسان سيقع في متاهة الظن، وبالتعبير القرآني، سيدخل صحراء التيه، ولهذا يحاول البعض القول بالمنهج العلمي، أي وصف هذا المنهج أو ذاك بالعلمية، لإعطاء شرعية لما يصلون إليه من مفاهيم، وفي نظري فإن المنهج العلمي، هو ذلك المنهج الذي يؤكد هذه المحدودية، وأن ما عندنا هو بعض العلم لا كل العلم، وأن علم الإنسان بنفسه هو الذي يوصله إلى إدراك كم هو جاهل، ومصداق ذلك قوله تعالى، في الآية التي أشرنا إليها، من أن الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً، وأن الفعل (يُؤتى)، قد نسب إلى المجهول، أو بالأحرى إلى الغائب، أي إلى الله المطلق، الذي هو خالق المكان والزمان، والذي لا يدرك حقيقة علمه، الإنسان المحدود، ولا العلم به على وجه التأبيد، لأنه الحق، وهذا يظهر الفرق بين الحق والحقيقة، فالحق اسم معنى، أي أنه أكبر من المحدود والمتظرف، والحقيقة تمظهر الحق، والحقيقة في العربية جاءت على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي أن الحقيقة تحمل إمكانية التحقق منها، أو إمكانية إدراكها، وإن كانت هذه الإمكانية قد تمتد إلى ما هو أبعد من المحدود المكاني والإنساني والزماني.

إن ما يدركه الإنسان المسلم من القرآن، إذا فهمنا القرآن بالمفاهيم التي يقدمها مصطلح القراءة، والتي هي أبعد من هذه التي تعلمناها في المدارس ، والتي أشرنا إلى طرف منها عند الحديث عن العلاقة بين القرآن والمأدبة، والقرآن والقِرى، والقِرى هو ما يقدم للضيف، فالقراءة رقي نحو المعنى من خلال المفاهيم، والقراءة قرى، والقراءة رقية، أي شفاء للنفوس المريضة، وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء: الآية 82]

ولنا أن ندرك العلاقة بين التنزيل والقرآن والشفاء والرحمة والإيمان، بين هذا القرآن الذي هو شفاء للناس في الدنيا والآخرة، بين هذا الغيبي الذي ندرك مظهره لا حقيقته، وبين هذا الظلم، والظلام، والضلالة، التي تأتي من ادعاء القدرة على إدراك المطلق، فإذا عجز البعض لجؤوا إلى التأويل، أي إلى ادعاء معرفة قصد الأول الذي هو الله الأول والآخر والظاهر والباطن، والتأويل ابتغاء الفتنة.

مناط التكليف في الشريعة هو الوسع، أي مدى الوسع البشري، على مستوى الإنسان الفرد، ومستوى الإنسان الجماعة

من هنا يتضح مدى الخطل والادعاء من قبل البعض أنهم قادرون على إدراك المعنى، وفي هذا المقام، إدراك المعنى القرآني، أو القول: بتفسير القرآن، دون معرفة مفهوم دلالة (فسّر) في العربية، هذه الدلالة الحسية التي يستخدمها العرب في قولهم: (فسّر اللبن)، إذا أزال الغشاوة التي قد تعلو اللبن، والقرآن كتاب فصلت آياته، كتاب بين في ذاته، مبين لما سواه، والقول بغير ذلك هو ادعاء وتمحل، أما إدراك المعنى، أو بالأحرى إدراك المفاهيم المرتبطة بالمعنى، فهذا يتعلق بالوسع، لا وسع المعنى، ولكن وسع الإنسان، ومناط التكليف في الشريعة هو الوسع،

أي مدى الوسع البشري، على مستوى الإنسان الفرد، ومستوى الإنسان الجماعة:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[سورة البقرة: الآية 286]

فالله ذو الرحمة اقتضت مشيئته أن يخلق كل شيء بقدر، وأن يخلق الإنسان على هذا القدر، أو على هذا الوسع، ولأنه ليس بظلام للعبيد، فهو لا يحمل الإنسان فوق طاقته، ويبقى لهذه النفس الإنسانية ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، ضمن محدودية الإدراك والمعرفة والفهم والوعي والإرادة والفعل، حيث يتحول الفعل لذلك إلى فعل إنساني، ضمن الإيمان بالله، بهذا العلم الغيبي الذي هو فوق المحدود، ويكون من مقتضيات الإيمان أن الفعل المتظرف والبشري لا يقع إلا ضمن الغيبي والإلهي، أي لا يفعل الإنسان فعلاً إلا ضمن المشيئة الإلهية

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾

[سورة الكهف: الآية 23]

فالغد زمن يقع في الغيبي، والحاضر والآتي محيط بالغيبي، هو دليله لا هو، ومن يدرك حقيقة نفسه، يدرك أن المحدود ليس المطلق، وأن المعرفة ليست العلم، وأن المفهوم ليس المعنى، أن الواقع ليس الحقيقة، كما أن الحقيقة ليست الحق، وهذه كلها لا تخرج عن سياق الأدب، الأدب في معرفة القدر، وأن كل شيء بقدر، ومنتهى الأدب أن يعرف الإنسان قدره، فلا يهبط إلى ما دونه، ولا يظلم فيتجاوز حدوده، وإن مقتضيات الرحمة الإلهية أن يجعل للإنسان حدوداً، ومحاولة الخروج عن الحدود والقدر، هي تاريخ الظلم، وتاريخ التجاوز، والعلاقة بين الظلم والظلام، والظلام والضلالة، لا تخفى على كل من ألقى السمع وهو عليم بنفسه، بحدوده وقدرته، أي بحدوده وقدره، ويكفي أن نشير إلى أن القرآن نزل في ليلة القدر، أي ليلة المقادير، فالقرآن يضع الإنسان ضمن المعرفة بالمقادير والقدر، ونزول القرآن في الليل، هو إشارة إلى هذه الظلمة والضلالة التي يعيشها البشر، وإن كانت هذه الليلة سلام هي حتى مطلع الفجر، حيث الفجر هو لحظة انفجار النور، وبداية الصباح، أي بداية تاريخ انقشاع الغشاوة، وزوال الظلمة، إذا قرأ الإنسان باسم ربه الأعلى، أي إذا نفّذ الأمر الإلهي في قوله تعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [سورة العلق: الآية 1]

منتهى الأدب أن يعرف الإنسان قدره، فلا يهبط إلى ما دونه، ولا يظلم فيتجاوز حدوده

فالقراءة لا تكون إلا باسم الله، والاسم غير الفعل، فالاسم خارج المكان والزمان، والفعل داخل المكان والزمان، أي أن القراءة هذا الفعل المحدود بقدر للقرآن، لا يتم دون وعينا بعجزنا على إدراك الاسم، وإضافة الاسم إلى الرب، ووصف الرب، على قياس الاستخدام البياني العربي غير الحسي، أنه الأعلى، هذا ما يجعل القراءة موضوع وسع، وموضوع قدر، وأن مسيرة الإنسان عبر التاريخ، هي مسيرة فعل حتى الآخرة، مسيرة إما نحو السمو والتعالي، أو نحو الهبوط أسفل سافلين، والنجاة تكون، كما أشرنا، في القراءة باسم الله، الأعلى، الذي خلق الإنسان الذي لن يكون الأعلى، أو المطلق، ولكنه يمكن أن يكون قادراً على القراءة باسمه تعالى، وهذا ما يجعلنا نربط بين القراءة، والقرآن، وبين الدعوة إلى القرآن، والدعوة، ضمن الحكم العربي، إلى الطعام، وبين الآدب الذي هو الداعي إلى الطعام، والآدب، الداعية، الذي يدعو الناس إلى مأدبة الله، وكل ذلك لا يتم إلا بالأدب، بالمفهوم القيمي والأخلاقي.

إسرائيل والخيار الصليبي

(الانعزال والاستعلاء والعداء)

عمر سعادة *



لم تخلف الغزوة الأوروبية الصليبية لبلاد الشام، والتي استمرت أكثر من قرنين من الزمن، سوى بعض الحصون والقلاع الخربة، وروايات المعارك والمجازر، التي لونت تاريخ تلك الحقبة بلون واحد، هو اللون الأحمر. لقد انسحب الصليبيون من تاريخ المنطقة وجغرافيتها وحضارتها، دون أن يتركوا شاهداً واحداً، يؤكد تفاعلهم الإيجابي مع إنسان أو ثقافة البلاد، التي سيطروا عليها بقوة السلاح.

أصر الصليبيون على أن ينظروا لوجودهم في المنطقة، باعتباره تجسيداً لواقع أنهم منتصرون أمام مهزومين، أقوياء يتسلطون على ضعفاء، متحضرون في مواجهة بدائيين، مؤمنون يحاربون كفاراً، ولعل هذه الثنائيات المتناقضة، تختصر كامل مفردات الوجود الصليبي، الذي انكفأ عن المنطقة بالطريقة نفسها التي جاء بها إليها.

لقد كان الانفصال المادي والمعنوي عن المنطقة والاستعلاء عليها، والعداء لشعوبها، هي المقومات الأساسية للوجود الغربي الصليبي في المنطقة. كما

(*) كاتب وباحث / سورية.

كانت في الوقت نفسه، العوامل التي مهدت وسهلت لعملية مواجهتها ومن ثم اقتلاعه من المنطقة.

حظيت الحروب الصليبية باهتمام بالغ، من مؤرخي الشرق والغرب، على امتداد القرون الماضية وحتى اليوم، إلا أن نصف القرن الماضي، شهد اهتمامًا غير عادي، بدراسة التجربة الصليبية من قبل البحاث الصهاينة، الذين انكبوا على تتبع دقائق وتفاصيل الحملات الصليبية، والممالك التي أنشأها الصليبيون في بلاد الشام، والأسباب التي أدت إلى إخفاق التجربة الصليبية، واندحارها الشامل عن بلاد العرب والمسلمين.

إن النهاية التي آلت إليها الغزوات الصليبية، تشكل هذه الأيام هاجسًا مرعبًا لمفكري وقادة المشروع الصهيوني الجديد في المنطقة، وتبدو أوجه الشبه العديدة بين التجربتين: الصليبية والصهيونية، وكأنها تقرع ناقوس الخطر باستمرار، حول حتمية النهاية المشابهة لنهاية التجربة الصليبية.

ومن هذه الزاوية، فإن مجموع الدراسات الصهيونية للتجربة الصليبية، تأخذ طابع الدراسات المقارنة بين التجربتين، سعيًا للوصول إلى استنتاج مسبق، يؤكد على عناصر الاختلاف بين التجربتين، من حيث الدوافع والخصائص، وصولاً إلى نفي حتمية أن يصل المشروع الصهيوني إلى النهاية نفسها، التي وصلتها التجربة الصليبية من قبل.

غير أن مقاربة موضوعية للتجربتين: الصليبية والصهيونية، تضع الباحث أمام كم كبير من أوجه الشبه، التي تبلغ حد التطابق أحيانًا، بين دوافع وخصائص وأهداف كل من التجربتين، مع الأخذ بعين الاعتبار، الفاصل الزمني والتطور التاريخي، وللعالم بصورة عامة.

ومع التحرر الكامل من منطق الحتميات التاريخية، فإن رصد مسارات النشأة والتطور والتوجهات الراهنة، للمشروع الصهيوني، يفضي إلى حقيقة ملموسة وواضحة، وهي أن هذا المشروع يتجه بثبات نحو تعميق انفصاله عن محيطه الحضاري والثقافي، واستعلائه عليه، وترسيخ طابعه ووظيفته العدائية له، بمعزل عن الشعارات الدعائية، والسياسات المرحلية، بما فيها الاتفاقات السياسية مع بعض الأنظمة الحاكمة في المنطقة.

الانفصال والانتماء الوهمي:

ظل الصليبيون غرباء في بلاد الشام، على امتداد قرنين كاملين، رغم عشرات الاتفاقات العسكرية والسياسية، التي عقدوها مع دول المنطقة، والتي لم تكن من المنظور الصليبي، سوى تكتيكات لتشتيت قوة أعدائهم في المنطقة، بما يسمح لهم باستمرار الصراع ضد الجميع من جهة، وينقل جزءًا من هذا الصراع، إلى داخل الجبهة العربية الإسلامية من جهة أخرى.

إنها الوظيفة نفسها، التي يعيشها الكيان الصهيوني، منذ بداية وجوده في المنطقة، ففلسطين اليوم، هي أرض غربة اليهود، أكثر من كونها وطنًا لهم، وهي وضعية إرادية صهيونية، ولدت من صلب العقيدة الصهيونية، وترسخت كطبيعة سياسة ثابتة، للكيان الذي خططت له الحركة الصهيونية، وصاغته على مثالها ووفق قوالبها الفكرية المسبقة.

أسست الحركة الصهيونية منذ نشأتها، لحالة من الانفصال النفسي والثقافي اليهودي، عن العالم غير اليهودي(❖)، ولم تكن مقولة «العداء للسامية»، أكثر من ذريعة لهذا الانفصال، فاللحظة التاريخية التي

❖ يرجع بعض مفكري الصهيونية الدينية، النزعة الانفصالية اليهودية، إلى أصول الدين اليهودي نفسه، ويقول الفيلسوف الصهيوني (جاكوب كلاتزكين): «إن الانعزال القومي جزء لا يتجزأ من قوانين وأنظمة ديننا؛ وليس من وحي أخلاقنا؛ ديننا المتناقض مع الأخلاق المجردة».

أنشأت فيها الحركة الصهيونية في أوروبا، كانت تتسم بانفتاح الطوائف اليهودية على المجتمعات الأوروبية، واندماجها اقتصاديًا وثقافيًا في تلك المجتمعات، وكما يتفق العديد من مؤرخي الصهيونية، فإن الصهيونية في جانب هام من جوانبها، جاءت ردًا على حركة الاندماج الثقافي والاقتصادي والاجتماعي ليهود أوروبا، في مجتمعاتهم.

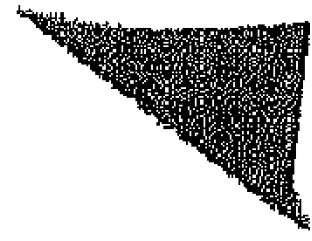
ويمكن للمرء أن يلمس بسهولة، مدى الجهد الذي بذلته الصهيونية، على المستويين: الثقافي والسياسي، في محاربة الاتجاه الاندماجي ليهود أوروبا، ومدى الحقد الذي كان الصهاينة وما زالوا، يحملونه لدعاة الاندماج اليهودي، والذي يفوق كثيرًا، حقدهم على أعدائهم التقليديين اللاساميين.

ومن هذه الزاوية، فقد مثلت الصهيونية. منذ نشأتها. حلاً انهزاميًا لما أسمته بالمسألة اليهودية، والتي أسست على مقولة: إن العداء للسامية هو ظاهرة كونية وأزلية؛ فبدلاً من أن تدعو هذه الحركة الطوائف اليهودية في أوروبا، إلى التماثل مع مجتمعاتها ومقاومة الأسباب الحقيقية لما أسمته باللاسامية، والكفاح مع الشعوب التي يعيش اليهود بينها، من أجل المساواة والتقدم؛ فقد دعت الحركة الصهيونية تلك الطوائف اليهودية، إلى الانسحاب من مجتمعاتها الطبيعية والانعزال عنها، والتجمع في (غيتو) كبير تقيمه الصهيونية لليهود، بعيدًا عن الشرق الأوسط.

استهلكت الصهيونية نصف جهدها الفكري على الأقل، لإقناع يهود أوروبا باختلافهم عرقيًا عن الشعوب الأوروبية، وبتناقض ثقافتهم اليهودية مع الثقافة الأوروبية، وبالمخاطر المترتبة على اندماجهم الثقافي بالشعوب الأوروبية، وكانت الغاية من كل هذا الجهد الصهيوني الوصول إلى الاستنتاج، الذي يشكل الركيزة الأساسية لمحتوى العقيدة الصهيونية، وهو استحالة التعايش الاجتماعي والثقافي والاقتصادي بين اليهود، وبين محيطهم الأوروبي المسيحي، ولم يكن التغني الصهيوني الدائم، والمبالغ فيه بالخصال والمزايا الروحية والثقافية الفريدة لليهود، إلا وسيلة لخلق حالة من الانفصال والاستعلاء، تجاه الشعوب الأوروبية وثقافتها، وذلك سعيًا لإقناع يهود أوروبا بجدوى المشروع الصهيوني، القائم على ضرورة تجميع اليهود في دولة يهودية خاصة بهم.

لكن التناقض التكويني الأول، الكامن في صلب الفكرة الصهيونية، تمثل في دعوتها إلى أن تكون دولتها العتيدة في فلسطين، جزءًا من البنية السياسية والثقافية لأوروبا، مع انفصال مطلق، عن المحيط الثقافي والحضاري للعالم العربي والإسلامي.

ما هي عناصر الاختلاف بين التجربتين الصليبية والصهيونية وما هي أوجه الشبه بينهما؟!



يقول هيرتزل في كتاب يومياته: «إذا ما قيض لنا أن نقيم دولة لنا في فلسطين، فسوف نكون ممثلين للحضارة الغربية، بما فيها من نظام وترتيب ونظافة».

وفي المنظور الصهيوني، فإن الانتماء إلى الحضارة الغربية، لا يعني مجرد هوية ثقافية للمشروع الصهيوني في المنطقة، بل يجسد حالة من الانفصال، عن المحيط الحضاري والثقافي، وتأسيسًا لصراع شامل، في مواجهة هذا المحيط، فهيرتزل نفسه، وفي موضع آخر من كتابه السابق، يؤكد على أن الدولة العتيدة ستكون «حصن الحضارة الغربية في مواجهة الهمجية»»

فالحضارة الغربية لا تعني - في الرؤية الصهيونية - فضاءً ثقافيًا وإنسانيًا، قابلاً للتفاعل الإيجابي مع الحضارات الأخرى، بل هي ميدان صراع مادي، ينهض فيه الكيان الصهيوني بدور الحصن، وهو ليس صراعًا بين حضارات متكافئة، بل هو صراع

الحضارة الغربية في مواجهة الهمجية!، الأمر الذي يضفي على الصراع منذ بدايته، طابعه التناحري.

لكن التناقض الصهيوني في حقيقته، أعمق من ذلك بكثير، فالصهاينة دعوا، وما زالوا يدعون يهود العالم، وخاصة في الغرب، إلى الانفصال عن مجتمعاتهم الغربية، والانتقال إلى الشرق، حيث الكيان الصهيوني، وحجتهم في ذلك، أن اليهود يختلفون عن محيطهم الغربي، لأنهم ساميون، يتتمون في ديانتهم «القومية» وثقافتهم، إلى الشرق الأوسط موئل الجنس السامي (وفق التصنيف التقليدي للأعراق البشرية)، وأن الغرب معاد للجنس السامي.

وبمجرد انتقال اليهودي إلى الكيان الصهيوني، يجد نفسه فجأة وسط كيان ثقافي واجتماعي، يعتبر الحضارة الغربية مثله الأعلى، ويعتبر نفسه ممثلاً لهذه الحضارة ومدافعًا عنها، في مواجهة الخصوم الشرقيين الساميين (العرب والمسلمين).

العداء للسامية ذريعة للانفصال النفسي والثقافي اليهودي

وهكذا، فعلى اليهودي، وفق الرؤية الصهيونية، أن يكون شرقيًا في الغرب، وأن يصبح غربيًا في الشرق؛ بحيث تظل حالة الانفصال الاجتماعي، والنفسي، والثقافي، هي التي تحكم حياته وسلوكه، حيثما وجد.

لم يكن الدين اليهودي عنصرًا أساسيًا في تحديد هوية المشروع الصهيوني، فالحركة الصهيونية التي ولدت في الغرب، وجسدت منذ انطلاقتها، نقطة تقاطع المصالح الاستعمارية في العالم العربي، كانت في جوهرها حركة علمانية أوروبية، حاولت جهدها، إضفاء طابع قومي على الدين اليهودي، لتسهيل تجنيد الطوائف اليهودية، في مشروعها الاستعماري. ولم يكن الدين اليهودي بحد ذاته، يمثل أكثر من هوية لتعريف العناصر، القابلة للانخراط في هذا المشروع الاستعماري الغربي.

لقد جرد الصهاينة الثقافة اليهودية، من كامل عناصرها الشرقية الأصيلة، المرتبطة بنشأة وتاريخ الديانة اليهودية، وبتعايش اليهود لقرون طويلة، وسط البيئة العربية الإسلامية، حيث شهد اليهود أزهى عصروهم الحضارية والثقافية، وخاصة في زمن الدولة العربية في الأندلس. وعوضًا عن ذلك، تم استعارة العناصر الثقافية الغربية التي اكتسبها اليهود الأشكناز في أوروبا. واعتبرت الثقافة الغربية الإطار الوحيد لتعريف الثقافة اليهودية، وتحديد سماتها، وأصبح مصطلح «اليهودية العالمية» ينصرف إلى اليهودية الغربية حصرًا.

الوجه الآخر للانتماء للثقافة الغربية، كان يعني من المنظور الصهيوني رفض كل ما هو شرقي والاستعلاء عليه. حتى اليهود الشرقيون، لم يشفع لهم دينهم اليهودي أن يكونوا جزءًا من اليهودية العالمية، وقد لخص بن غوريون موقف الحركة الصهيونية من اليهود الشرقيين بالقول: «لقد فقد اليهود الشرقيون قداستهم الدينية على مر العصور»[1].

أما غولدا مائير فكانت ترى أن «اليهودي الذي لا يتكلم لغة الييديش ليس يهوديًا كاملاً»[2].

والييدش هي رطانة من لغات أوروبية عديدة، كانت تستخدمها الطوائف اليهودية في أوروبا الشرقية والوسطى.

إن القطيعة الحضارية والثقافية، التي كرسها الصهاينة بين كيانهم وبين المحيط العربي

---

1 ـ مجموعة من الباحثين السوفيات: «الصهيونية عدو السلام والتقدم الاجتماعي»، دار دمشق، 1987 مسيحي، ص: 204.

2 ـ إسرائيل الثانية (المشكلة السفاردية) مجموعة من الكتاب اليهود، ترجمة فؤاد شديد، منشورات فلسطين المحتلة، 1981 مسيحي، ص: 23.

والإسلامي، الذي يتواجدون في وسطه، تكاد تكون الثابت الوحيد، الذي حكم سلوك الكيان الصهيوني تجاه العالم العربي والإسلامي.

فمنذ بداية الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، بدأ الصهاينة بتأسيس وجودهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، على أرض فلسطين، كمحاولة منفصلة ومعادية لأصحاب البلاد الشرعيين(❖❖).

وكانت المستعمرات الصهيونية الأولى، المحاطة بالسور والبرج، تجسد هذه الحالة الانفصالية العدائية تجاه المحيط الفلسطيني، وكان شعار «العمل العبري» الذي رفعه الصهاينة، منذ مطلع العشرينات يعني استبعاد العمال الفلسطينيين من العمل في المشاريع اليهودية، ويؤسس لبناء كيان اقتصادي يهودي مستقل، داخل المجتمع الفلسطيني.

ومع تصاعد وتيرة الصراع على الأرض والموارد بين الفلسطينيين والصهاينة، منذ مطلع العشرينات، رفض الصهاينة بإصرار كل الحلول والتصورات، التي كانت تقوم على مبدأ التعايش المشترك ضمن دولة ديمقراطية، ونبذوا من بين صفوفهم الأصوات القليلة، التي أيدت مبدأ التعايش بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود(❖❖❖)، وأصروا على المطالبة بكيان يهودي مستقل.

وكان هذا المطلب الصهيوني ينطوي ضمنًا، على نية استبعاد الفلسطينيين وإجلائهم عن أية مساحة من فلسطين، تتحقق عليها السيطرة للصهاينة.

كتب الزعيم الصهيوني يوسف فايتس عام 1940 مسيحي: «بيننا وبين أنفسنا يجب أن يكون واضحًا أنه لا يوجد مكان في البلاد للشعبين معًا.. فمع وجود العرب لا نتمكن من تحقيق هدفنا.. إن الحل الوحيد هو أن تصبح أرض إسرائيل، على الأقل ارض إسرائيل الغربية (كل فلسطين زمن الانتداب) بدون عرب، ولا توجد طريقة أخرى لتحقيق ذلك، غير نقل العرب من هنا، إلى الدول المجاورة. نقلهم جميعًا. بحيث لا تبقى هنا قرية واحدة أو قبيلة واحدة، ويجب أن يتم النقل إلى العراق وسوريا وشرق الأردن..»(3).

وكان مشروع التقسيم لعام 1947 مسيحي، هو المشروع الأول الذي حظي بموافقة الصهاينة، بعد أن بيتوا النية لطرد أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين من حدود القسم المخصص لليهود، وفق قرار التقسيم، كما بيتوا النية لتجاوز هذه الحدود بالقوة العسكرية، وهو ما تحقق للصهاينة في حرب عامي 1947–1948 مسيحي.

ومع إعلان قيام الكيان الصهيوني، على أرض فلسطين المغتصبة، كان لابد من إعلان هوية هذا الكيان وانتمائه، حيث أعلن بن غوريون منذ مطلع الخمسينات: «إن ما يربطنا بهذه المنطقة هو العنصر الجغرافي فقط، وهو العنصر الجامد الوحيد من بين العناصر المكونة للحضارة. أما من حيث العناصر الديناميكية الحية، مثل أنماط التفكير والطاقات الإبداعية والإنمائية الثقافية فنحن ننتمي للغرب»(4).

وهكذا فإن بن غوريون، بقدر تأكيده على «غربية» المشروع الصهيوني، فإنه يؤكد على عمق انفصاله

❖❖ في العام 1908 مسيحي، كتب إسرائيل زانغفيل، زعيم الصهيونية الاقليمية: «فلسطين المطلوبة مكتظة بالسكان، والبدائل المتاحة أمام الصهيونية، محصورة في الحصول على فلسطين بقوة السيف أو التورط بعدد كبير من السكان الغرباء، ومعظمهم من المسلمين المعادين».

❖❖❖ من الأمثلة العديدة على ذلك، ما أورده آرون كوهين في كتابه: «إسرائيل والعالم العربي» حيث يقول: «أرغم المؤتمر الصهيوني السابع عشر، الدكتور حاييم وايزمن، على الاستقالة من رئاسة الاتحاد الصهيوني، بعدما عبّر في خطابه الافتتاحي أمام المؤتمر، عن الاستعداد للترحيب بالاتفاق بين اليهود والعرب، على أساس المساواة السياسية، أما حاييم أرزولوف، الذي رفع شعار: «التعايش بين الشعبين» فقد أقدم الصهيونيون التصحيحيون، أتباع جابوتنسكي، على قتله عام 1933 مسيحي.

3- حبيب قيرجي، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين، منشورات مؤسسة الأرض 1977 مسيحي، ص: 109.

4- إسرائيل الثانية (المشكلة السفاردية) مجموعة من المؤلفين الإسرائيليين، ترجمة قسم الدراسات في حركة فتح 1980 مسيحي، ص: 20.

عن المحيط العربي الإسلامي الذي زرع هذا المشروع في وسطه.

حرب التغريب :

عشية إعلان قيام دولة «إسرائيل» كان اليهود الأشكناز يشكلون 87 بالمائة من مجموع اليهود المستوطنين في فلسطين، ولم تكن الأقلية اليهودية الشرقية، وغالبيتها من يهود اليمن، تشكل أي تهديد للطابع الغربي للمشروع الصهيوني. فلقد قنعت الأقلية اليهودية الشرقية بوضعها الجديد في الكيان الصهيوني في أسفل الهرم الاجتماعي والاقتصادي. وكان أفراد هذه الأقلية الشرقية قد تم استجلابهم منذ مطلع القرن الماضي بنفس الروح والكيفية التي تم بها استجلاب الزنوج الأفارقة إلى القارة الأمريكية الجديدة.

غير أن الفترة التالية لقيام الكيان الصهيوني، شهدت موجة واسعة من الهجرة الجماعية للطوائف اليهودية من البلاد العربية، فخلال السنوات الخمس من 1948 ـ 1953 مسيحي، هاجر قرابة 650 ألف يهودي غالبيتهم العظمى من يهود البلاد العربية، الأمر الذي شكل تهديداً جديًا للطابع الغربي للمشروع الصهيوني، واستدعى، بالتالي، سياسات حازمة من قبل النخبة الأشكنازية الحاكمة.

لقد تعامل الصهاينة الغربيون مع اليهود الشرقيين تمامًا، مثلما تعامل الصليبيون مع مسيحيي المشرق العربي، فاليهود الشرقيون لم يكونوا، في نظر الأشكناز، يهودًا، بل كانوا مجرد عرب ينتمون في لغتهم وثقافتهم إلى المحيط العربي الإسلامي، وقد مورست ضد هؤلاء اليهود سياسة فصل عنصري، تمثلت في عزلهم جغرافيًا عن المجتمع اليهودي الغربي، وجرى توزيعهم على المدن والقرى الفلسطينية المهجورة، وعلى المستعمرات الحدودية النائية، وتم النظر إليهم كبدائيين «ينبغي على رسل الحضارة الغربية أن يأخذوا بيدهم على طريق المدنية».

وعلى الصعيد الثقافي، فقد تم التنكر لثقافة هؤلاء اليهود الشرقيين ونبذها، وتم فرض المعايير الثقافية الغربية باعتبارها الخيار الوحيد المتاح أمام اليهود الشرقيين للصعود الاقتصادي والاجتماعي في الكيان الصهيوني، فإما البقاء في أسفل الهرم الاقتصادي الاجتماعي في حال التمسك بالقيم الثقافية والحضارية الشرقية، وإما الصعود اقتصاديًا واجتماعيًا بالتخلي عن كل ما يمت إلى العالم العربي والإسلامي من روابط ثقافية وحضارية.

على اليهودي أن يكون شرقياً في الغرب وأن يصبح غربياً في الشرق

لم يبد اليهود الشرقيون مقاومة شديدة لعملية الطمس الثقافي، التي مارسها اليهود الغربيون ضدهم، لأن الحرب لم تكن متكافئة بحال من الأحوال، فبينما كان الأشكنازيون يتسلحون بأجهزة الدولة الغربية، التي أنشأوها وبإمكاناتها الضخمة، وبالدعم اللامحدود من الغرب، الذي ينتمون إليه، فإن اليهود الشرقيين كانوا عزلاً تمامًا. إضافة إلى كونهم ينتمون ثقافيًا وحضاريًا، إلى محيط يعيش في حالة حرب مع الكيان الصهيوني.

وهكذا، تم إلباس هؤلاء اليهود الشرقيين، بالإكراه أو التضليل، الزي الثقافي الغربي، وسلخهم، ولو بصورة مؤقتة، عن جذورهم الثقافية الأصلية، بل إن قسمًا من هؤلاء اليهود الشرقيين، لا يتنكر اليوم لأصوله الثقافية الشرقية فحسب، بل يبالغون في تقمص الشخصية الغربية السائدة في الكيان الصهيوني، ويزايدون على الأشكنازيين في عدائهم الشديد للمحيط العربي والإسلامي، وذلك سعيًا لمشاركة الإشكنازيين في مغانم وامتيازات السلطة.

غير أن ما تحقق للأشكناز، من إنجازات على صعيد تغريب اليهود الشرقيين، لم يكن ليتحقق إلا في أجواء الصراع المستمر، وحالة العداء الشديد تجاه المحيط العربي والإسلامي، بل إن استمرار وجود هذه الإنجازات، يرتبط عضويًا باستمرار حالة الصراع والتوتر.

ولعل هذا ما يفسر إلى حد كبير، حرص النخبة الحاكمة في الكيان الصهيوني، على استمرار حالة العداء مع المحيط العربي والإسلامي، لتتمكن من صهر الطوائف اليهودية المختلفة، في بوتقة المشروع الصهيوني الغربي.

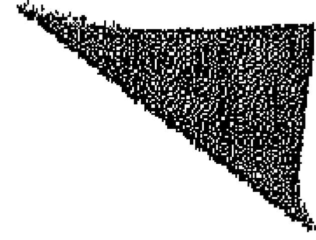
وقد أشار بن غوريون إلى هذه الحقيقة عندما قال: «إن العداء المستمر من جانب العرب قبل إنشاء الدولة، أدى إلى قيام مجتمع يهودي أكثر تماسكًا في البلاد... ومنذ ذلك الحين كانت العداوة العربية المتواصلة، حافزًا لتطوير إسرائيل»(5).

إن انتفاء حالة الصراع بين المشروع الصهيوني، ومحيطه العربي والإسلامي، تنطوي على خطر جسيم، عمل مؤسسو المشروع الصهيوني على تداركه، وهو خطر ذوبان التجمع البشري اليهودي، في محيطه العربي الإسلامي، وهم ينظرون إلى اليهود الشرقيين، باعتبارهم المؤهلين للقيام بدور جسر التواصل الثقافي والحضاري، مع المحيط العربي والإسلامي. وأن حالة الصراع مع هذا المحيط، هي الضمانة الوحيدة لتعطيل مثل هذا الدور، ومنع انحلال التجمع البشري اليهودي في المحيط العربي الإسلامي، وهو ما تعكسه المقولة الصهيونية، التي تكررت على لسان أكثر من زعيم صهيوني.

أما اليهود الشرقيون، فإنهم من جانبهم يدركون أن الأشكناز، قد استغلوا أجواء الصراع، وعمدوا إلى تصعيده ومواصلته، لطمس الهوية الثقافية لليهود الشرقيين، باعتبارها ثقافة تنتمي للأعداء.

وقد ترافقت عملية الطمس الثقافي، مع تكريس حالة من التمييز العنصري ضد اليهود الشرقيين، على كافة الصعد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، رغم حقيقة أنهم يشكلون الأكثرية العددية في الكيان الصهيوني.

استجلبت الأقلية اليهودية الشرقية بنفس الروح والكيفية التي تم بها استجلاب الزنوج الأفارقة الى القارة الأمريكية



وتعلن زعامة اليهود الشرقيين على الدوام، أنها إذا كانت قد رضخت لهذه الوضعية الدولية في ظل ظروف الصراع المحتدم مع المحيط، فإنها لن تقبل بها في حال زوال التهديد الخارجي للمشروع الصهيوني، وبالتالي فإن كل ما أنجزه الأشكناز طوال العقود الماضية، هو تأجيل الصراع بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وليس إلغاء هذا الصراع.

يقول إيلي الياشار، رئيس مجلس الطائفة السفاردية في الكيان الصهيوني: «إذا ما تحقق السلام يومًا في الشرق الأوسط، فستقع لدينا حرب أهلية...»(6).

وبغض النظر عن الصورة التي ستتخذها هذه الحرب الأهلية، فإنها ستقوم على مبدأ استعادة اليهود الشرقيين لهويتهم الثقافية والمطالبة بتحقيق

5 ـ إبراهيم أبو لغد: تهويد فلسطين، ترجمة أسعد رزوق، مركز الأبحاث، بيروت 1982 مسيحي، ص: 260.

6 ـ مؤسسة الأرض، دمشق نشرة الأرض نصف الشهرية السنة الخامسة العدد (4) 7/10/1977 مسيحي، ص: 3، نقلاً عن:
Israel: Social Structure and Change eds Michal Curtis and Others (New jersey 1973) P.330

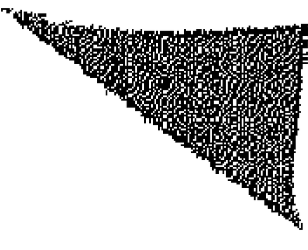
المساواة الكاملة مع اليهود الغربيين، الأمر الذي يعني انقلاباً شاملاً لأسس ومعايير ووظيفة المشروع الصهيوني، وبالتالي فقدانه لمبرر وجوده الأساسي في المنطقة.

معركة الانفصال عن المحيط:

إذا كان ما تقدم هو موقف اليهود الأشكناز، من أبناء دينهم من الطوائف اليهودية الشرقية فإنه يمكن للمرء تصور موقفهم من الشعب الفلسطيني، والأمة العربية والإسلامية، التي تختلف عنهم في كل شيء.

فلقد سعى الصهاينة منذ بداية مشروعهم، إلى الانفصال الثقافي والحضاري عن العالم العربي والإسلامي، بشتى السبل، وعلى كافة المستويات، وتكريس حالة من العداء تجاه الحضارة العربية والإسلامية والاستعلاء عليها.

ما هي مظاهر التمييز العنصري داخل اسرائيل بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين؟



يقول أربيه الياف، أحد أقطاب حزب العمل السابقين: «كانت تجتاحنا، نحن الأشكنازيين، موجة عاتية من الاحتقار العميق والغطرسة الشديدة حيال العالم العربي، وقد بلغت هذه الموجة ذروتها كما نعلم غداة حرب الأيام الستة 1967 مسيحي، ولكنها كانت قد بدأت مع هزيمة العرب عام 1948 مسيحي، ولم نر أنه من المفيد في شيء أن نعلم اللغة العربية لأطفالنا في المدارس، لقد جعلنا اللغة العربية والثقافة العربية أشياء مكروهة ومحتقرة»(7).

ومن المثير أن بن غوريون، قد تباهى في مذكراته، بأنه قد تعلم اللغة اليونانية ليتمكن من قراءة أفلاطون، وتعلم الإيطالية لكي يقرأ دانتي، واللغة الألمانية كي يقرأ غوته، ولكن هذا «المثقف» الذي عاش نصف قرن على أرض الفلسطينيين، وفي محاربتهم، لم يحاول تعلم اللغة العربية، بل كان يفاخر بأنه لا يعرف حتى كلمة واحدة من اللغة العربية.

وبصورة عامة، فإن الحركة الصهيونية، منذ نشأتها، لم تقم بأي محاولة لخلق أساس للمصالح أو المفاهيم المشتركة، مع المحيط العربي والإسلامي، بل اعتمدت دائماً على دعم القوى الأجنبية لفرض وجودها على المنطقة رغم إرادة أصحابها، وهي تقاوم بشدة أي نزعة للتعايش أو الانفتاح الثقافي على المحيط العربي والإسلامي.

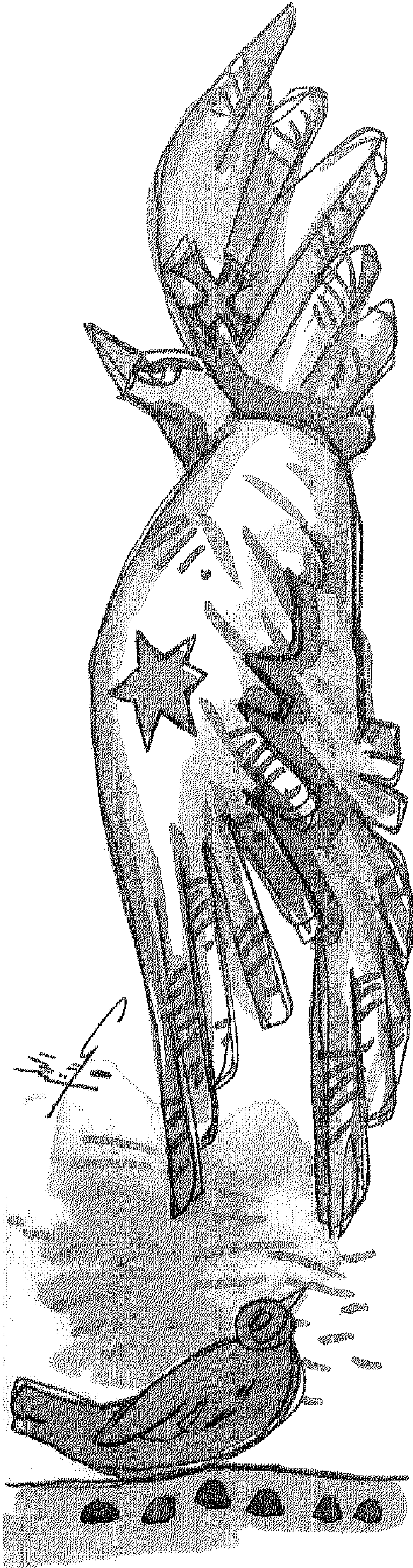
فالتعايش الوحيد، المقبول بالنسبة لها، هو ما حدده في مطلع السبعينيات وزير الحرب الصهيوني الأسبق موشي ديان، عندما قال: «إن التعايش بين العرب واليهود غير وارد إلا في ظل حراب الجيش الإسرائيلي(8).

أما بعض الدعوات للانتفاع والتعايش السلمي، التي تنطلق بين فترة وأخرى من داخل الكيان الصهيوني، فلا تعدو كونها رسائل دعائية صهيونية، تهدف إلى تجميل صورة الكيان الصهيوني، لدى حلفائه في الغرب، خاصة في موازاة السياسة العدوانية التي ينتهجها الكيان الصهيوني، تجاه الشعب الفلسطيني والمحيط العربي والإسلامي.

فالدعوة التي أطلقها شمعون بيرس، منذ مطلع ثمانينيات القرن الماضي لإنشاء «شرق أوسط جديد» والتي انطلت حتى على بعض المثقفين العرب، تفتقر في حقيقتها إلى أي أساس موضوعي يجعلها قابلة

7 ـ إسرائيل الثانية، ص: 38.

8 ـ مؤسسة الأرض، دمشق، نشرة الأرض نصف الشهرية، العدد (11) 1981/4/21 مسيحي، ص: 28، نقلاً عن هآرتس 1973/11/30 مسيحي.



للتحقق. بل إن قسمًا من الصهاينة أنفسهم، سخروا من تلك الدعوة للتعايش، لكونها كما يرى «شلومو بن عامي» الذي ترأس الوفد الصهيوني في مفاوضات أوسلو «تفتقر إلى فضاء مؤسساتي وثقافي مشترك، بين إسرائيل والعالم العربي. فمثل هذا الفضاء غير موجود الآن، ولن يكون موجودًا في المستقبل القريب»(9).

بل إن ما يجري على أرض الواقع داخل الكيان الصهيوني، هو على النقيض تمامًا، من أي توجه يدعو إلى الانفتاح الثقافي والحضاري على المحيط العربي والإسلامي؛ فالمؤسسات الثلاث الأكثر أهمية وفعالية في الكيان الصهيوني، وهي: المؤسسة التعليمية، والمؤسسة الدينية، والمؤسسة العسكرية، تعمل بصورة متناسقة ومتكاملة، على تعميق حالة الانفصال والاستعلاء والعداء، تجاه كل ما هو عربي وإسلامي.

وبالعودة إلى استقراء التجربة الصليبية، فإن ما نجح فيه الصليبيون فعلاً، هو أنهم حافظوا على حالة الانفصال والعداء للمنطقة، خلال مائتي عام، انتهت بالنهاية المعروفة.

يقول يوفال نتمان، وزير التعليم الأسبق في الكيان الصهيوني: «إن اليهود عاشوا هنا دون سلام مائة عام. وهم الآن يستطيعون البقاء، دون سلام لمدة مائة عام أخرى...»(10).

لكن ناحوم غولدمان، الزعيم السابق للمنظمة الصهيونية العالمية،لم يكن على نفس القدر من تفاؤل نتمان، فقد قال: «ليس هناك أي أمل لدولة يهودية يكون عليها أن تحارب خمسين سنة أخرى ضد العرب»(11).

9 ـ شلومو بن عامي، أي مستقبل لإسرائيل؟، المستقبل العربي، العدد 25 حزيران 2002 مسيحي.

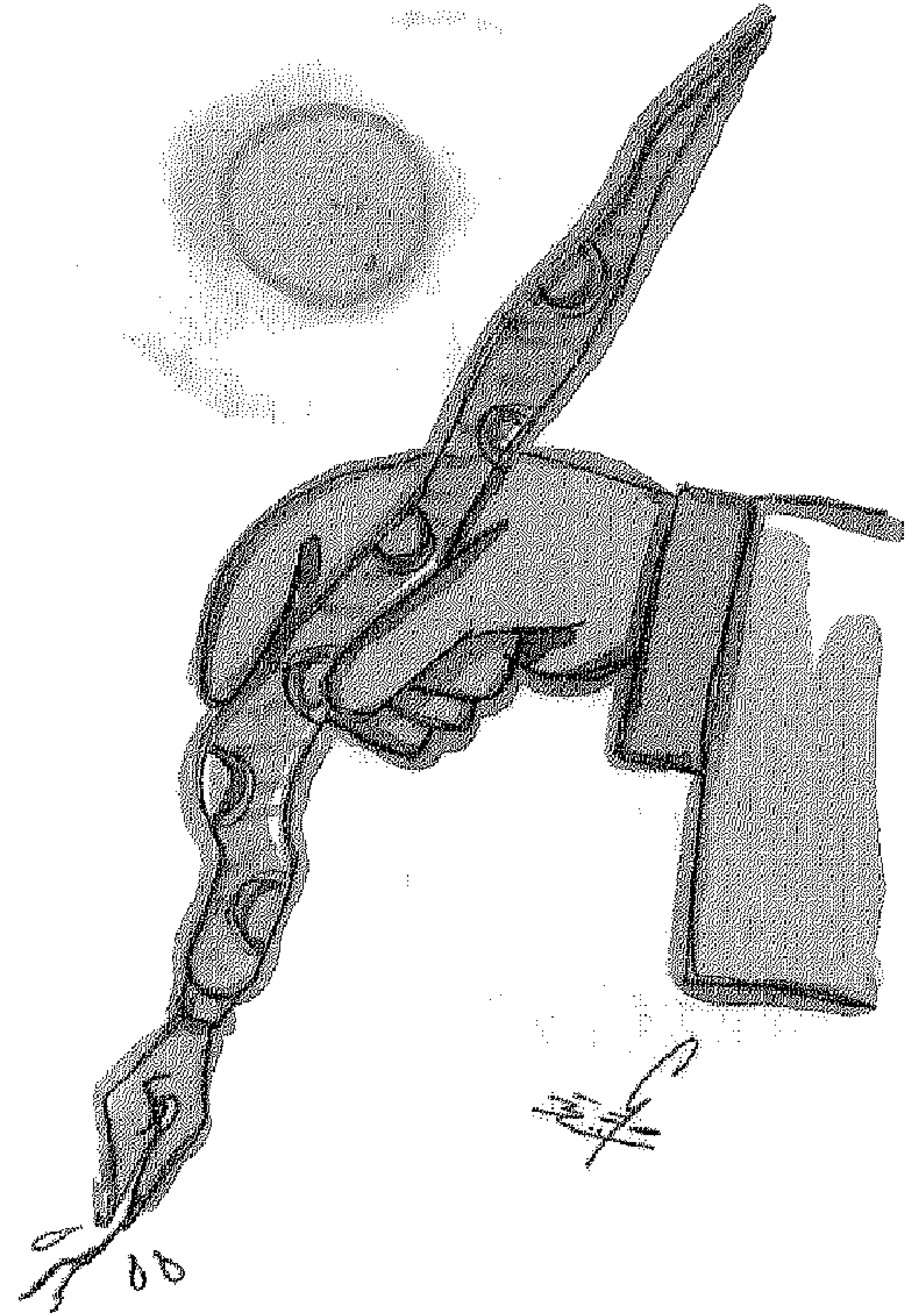
10 ـ نشرة الأرض، العدد (17) 1991/5/14 مسيحي، ص: 32، نقلاً عن يديعوت أحرنوت 1991/5/9 مسيحي.

11 ـ ناحوم غولدمان، المفارقة اليهودية، ترجمة قسم الدراسات في حركة فتح 1982 مسيحي.

ثقافة الحرية وتجسيد قيم التواصل

محمد القاضي *

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى من يظن أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ما زالت السراج المنير»..



تتنوع جبهات التحدي التي يقودها الغرب ضد الإسلام والمسلمين من يوم لآخر، ويمكن القول بأن النيل من الإنسان المسلم، لا زال المحور الأساسي لاستراتيجية كل هذه الجبهات، التي تعمل بتناسق وانسجام.

يرى المفكر الإسلامي الألماني (مراد هوفمان) «بأن الإسلام يواجه بحملات معادية في الغرب، شملت حتى الذين هداهم الله لاعتناق الإسلام، أو الذين يقدمون دراسات موضوعية عن الإسلام كدين، وقد امتد العداء إلى العديد من المستشرقين، الذين اعتنقوا الإسلام، وطالبوا الغرب التخلي عن الإرث المعادي لهذا الدين القيم...

إن الغرب مطالب باحترام الإسلام والمسلمين،

*باحث و أستاذ جامعي / باحث / المغرب.

وعدم اتخاذ مواقف معادية من الدين الحنيف»[1].

ولم يدخر الإعلام الغربي بكل فروعه، وطيلة مختلف مراحله، أي جهد في إلصاق التخلف والدونية بالإنسان المسلم، كخاصية تاريخية وحضارية وبشرية. وتحت مبررات حرية التعبير تنتهك المعايير الأخلاقية للعمل الإعلامي، وتداس تحت الأقدام مواثيق شرفه، بشعارات زائفة من حرية التعبير وحرية طرح الرأي، والرأي المضاد.

إن الحق في حرية التعبير، الذي تكفله القوانين الغربية (الأوروبية بالخصوص) يمكنه أن يتحول إلى «حق» في الإساءة إلى الآخرين وإلى مقدساتهم.

النبي محمد ﷺ في الكتابات الغربية:

استهوت شخصية النبي محمد ﷺ، العديد من المستشرقين والباحثين في الغرب منذ القرن العاشر الميلادي، وحظيت بتقدير كبير عند بعضهم، فدرسوها وأنجزوا عنها أبحاثًا عديدة يصعب حصرها وإحصاؤها، تناولوا فيها جوانب كثيرة من حياة الرسول ﷺ، كما عقدت ندوات حولها، شارك فيها باحثون من الشرق والغرب؛ بالرغم مما تكلفه مثل هذه اللقاءات من مجهود مادي ومعنوي. فلماذا هذا الاهتمام بشخصية الرسول محمد ﷺ وحياته؟ وإلى أي مدى يمكن التعامل مع هذه المنجزات؟ الدكتور عبدالغني أبو العزم، يرى أن الدراسات الإسلامية بأوروبا المسيحية، كانت تتم تحت إشراف الكنيسة، ويقوم بها رجال الدين، واحتكروها لسنوات طوال، وغدوا بذلك المرجع والمبادر في ميدان الترجمة، حيث انحصرت رؤيتهم للأشياء في العقيدة المسيحية، باعتبارها ديانة الحق والعدالة، وأن كل الديانات الأخرى ما هي إلا تشويه للحقيقة، مع العلم أن دراسة شرائع القرآن والفلسفة الإسلامية، قد ساهمت كما يقول (مونتغمري واط) في خلق وعي ديني بالهوية الأوروبية، وعلى حساب الإسلام، مما أعطى إمكانية تأسيس نظام فلسفي منطقي ورؤية فلسفية جديدة للعالم.

وكان ينبغي انتظار عدة قرون لكشف هذا الواقع؛ ومما يلاحظ أن الصورة الوهمية الخيالية التي تكونت في أوروبا، عن النبي محمد ﷺ، لا يمكن فصلها عن الرؤية الفكرية الأوروبية اللاهوتية للقرآن؛ وترجمة القرآن لم تكن في الواقع إلا مدخلاً لمعرفة السيرة النبوية، وهذا ما عبر عنه (جان دي سركوفي) و(نيقولا دو كوس) في دراستهما.. إذ في ضوئها شاعت كل خرافات القرون الوسطى التي ظلت مهيمنة، وقد تغلغلت في الوسط الشعبي الأوروبي، ومن بين هذه الخرافات، اعتبار النبي محمد ﷺ رجلاً مسيحيًا ضالاً وهرطقيًا ادعى النبوة، لأنه لا يستطيع تحقيق طموحه الأدبي، في أن يصبح بابا بعد أن وصل إلى مرتبة كاردينال[2].

وضمن هذا السياق ظهرت مجموعة من المقالات والروايات، التي لا حصر لها، تتعرض إلى شخصية الرسول ﷺ. ولنقرأ ما كتبه توفيق الحكيم في كتابه (تحت شمس الفكر - ص17 و18) عن فولتير وقصته التمثيلية (محمد):



توفيق الحكيم

«قرأت لثلاث عشر سنة خلت، (1925) قصة (فولتير) التمثيلية (محمد)، فخجلت أن يكون كاتبها معدودًا من أصحاب الفكر الحر، فقد سب فيها النبي العربي سبًا قبيحًا عجبت له، وما أدركت له علة!... لكن

---

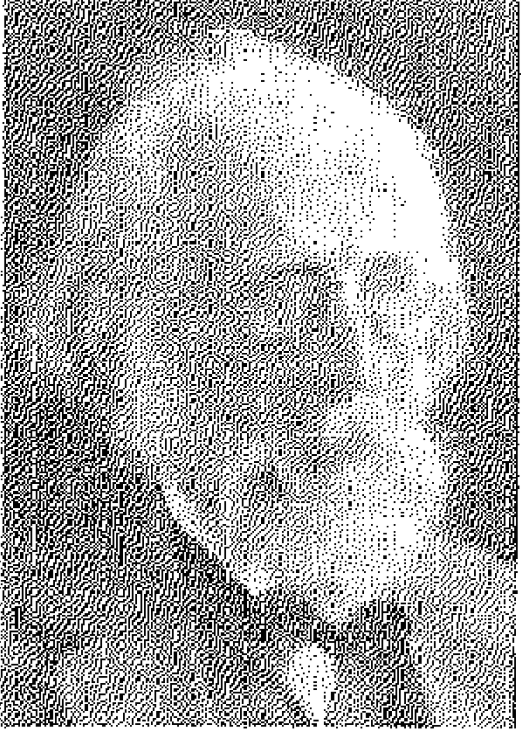
1 - أنظر حوارًا معه في صحيفة (الشرق الأوسط) عدد: 1996/8/19 مسيحي، ص:10 (أجراه من القاهرة محمد بيومي).

2 - بتصرف عن الملحق الثقافي لجريدة (الاتحاد الاشتراكي)، عدد: 2006/2/17 مسيحي، ص:6 (الرؤية الغربية لصورة النبي محمدﷺ في أدبيات القرون الوسطى).

عجبي لم يطل، فقد رأيته يهديها إلى البابا (بنو الرابع عشر) بهذه العبارات: «فلتستغفر قداستك لعبد خاضع، من أشد الناس إعجابًا بالفضيلة، إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية، ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية، وإلى من غير وكيل رب السلام والحقيقة، أستطيع أن أتوجه بنقد قسوة نبي كاذب وأغلاطه! فلتأذن لي قداستك، من أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه، وأن أجرأ على سؤالك الحماية والبركة، وإني مع الإجْلال العميق أجثو وأقبل قدميك القديستين». فولتير 17 غشت 1745 مسيحي)».

ومن المفيد أن نشير هنا، إلى الانعطاف الذي حصل في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر المسيحي، حيث دخل علم الإستشراق مرحلة جديدة، في محاولة جديدة لفهم عالم الشرق، وفهم الذهنية الشرقية والعقيدة الإسلامية، وفي هذا الإطار ترجمت أمهات الكتب التي تتناول الإسلام وحياة الرسول محمد ﷺ. وتعتبر سيرة ابن هشام، المصدر الأول والأهم، الذي حفظ لنا المعلومات الخاصة بالنبي ﷺ، ونشاطه وأصحابه وزمانه، وقد ترجم في البداية إلى اللغة الألمانية سنة 1858 مسيحي، تلاه كتاب «تاريخ الأمم والملوك» للطبري، الذي ترجم سنة 1879 مسيحي، وكتاب «المغازي» للواقدي سنة 1882 مسيحي، وتاريخ اليعقوبي سنة 1883 مسيحي، وانتهت هذه المرحلة بترجمة كتاب «البخاري» سنة 1895 مسيحي.

ويقسم الأستاذ حسين أحمد أمين، كتابات الغربيين حول سيرة الرسول ﷺ، منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلى اتجاهات ثلاث: هذه الاتجاهات واضحة وتكاد تكون متعاقبة الاتجاه... والذي يهمنا هو الاتجاه الثاني، وخيرة ممثليه هو: (جولدزيهر) و(لين بول) و(فرانتس بول) و(تور أندري) و(مارجوليوت) و(ريتشاردبيل) و(نودلكه) و(فلهاوزن) و(هاملتون جيب).


جولدزيهر

فقد كان لأصحاب هذا الإتجاه، فضل إيضاح الكثير مما كان غامضًا في تاريخ الإسلام والسيرة، وتسهيل فهم التاريخ العربي في الجاهلية والإسلام. وإن موقف هؤلاء من السيرة موضوعيًا، قدر ما في وسعهم من الموضوعية، رأوا فيه شخصية قوية مؤثرة، استطاعت أن توفر الحل لمشكلة بالغة الصعوبة والتعقيد، ألا وهي بناء دولة وإمبراطورية عظيمة، من لبنات القبائل العربية المتفرقة المتنازعة، وإيجاد المنفذ للعبقرية العربية الخلاقة، حتى تساهم مساهمة إيجابية في تاريخ العالم وحضارته. وقد أنصفوا في بيان جوانب عظمة النبي ﷺ ورجاحة عقله»[3].

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأ الدارسون يفضلون دراسة شخصية النبي محمد ﷺ، وذلك بظهور العديد من الأعمال الهامة.

فالدراسة الوافية التي قدمها المستشرق الإنجليزي، (مونتغمري واط) عن حياة النبي ﷺ، قد أبرزت الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية وخلفية نشاطه. وأوضحت ذكاء علاقته بالقبائل، كما أبرزت السؤال المعقد، عن جدارة المواد التي تعتبر مرجعًا لدراسة حياة الرسول ﷺ ومجراها. ودافع في دراسته عن زيادة الاعتماد على المصادر التقليدية للمعلومات المتعلقة بذلك، بأكثر مما رآه الجيل السابق للدارسين.

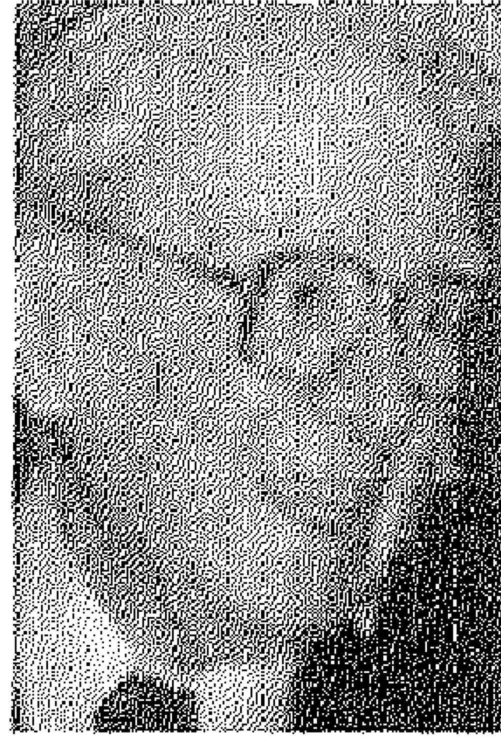
وأهم سمات مؤلف (مونتغمري واط)، هو

3ـ أنظر دراسته عن (تأملات في تطور كتاب سيرة النبي ﷺ في الشرق والغرب) مجلة (العربي) الكويتية/ عدد: 215/ 1976 مسيحي، ص:112–113.

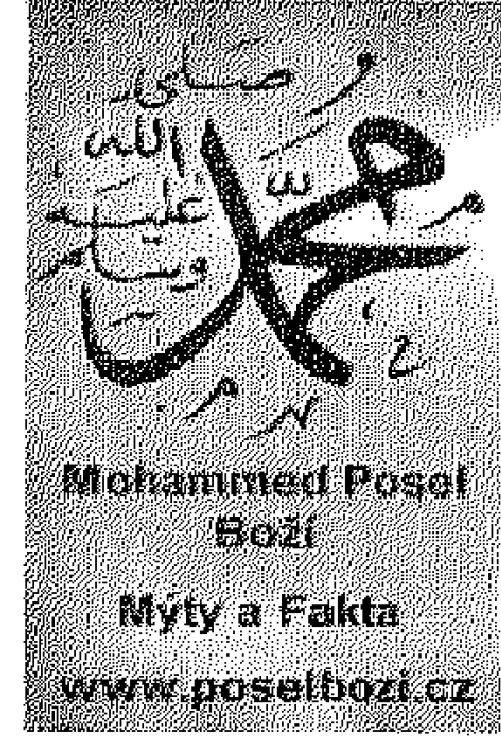
حساسيته للمسائل الأخلاقية التي يواجهها بالضرورة أي شخص غير مسلم، يدرس النبي محمد ﷺ، وأراد أن يتفادى أية مبالغات، وحتى أية لغة من شأنها ولو ضمنيًا، أن تصدر حكمًا على المعنى الديني، الذي يراه المسلمون في النبي محمدﷺ. وقد غطت دراسته كل حياة النبي ﷺ ولمست معظم المشاكل المطروحة؛ ولهذا اعتبرت أهم دراسة كتبت عن النبي منذ السيرة التي كتبها (فرانتز بول) والتي كانت المعيار السابق في الوسط العلمي الغربي(4).

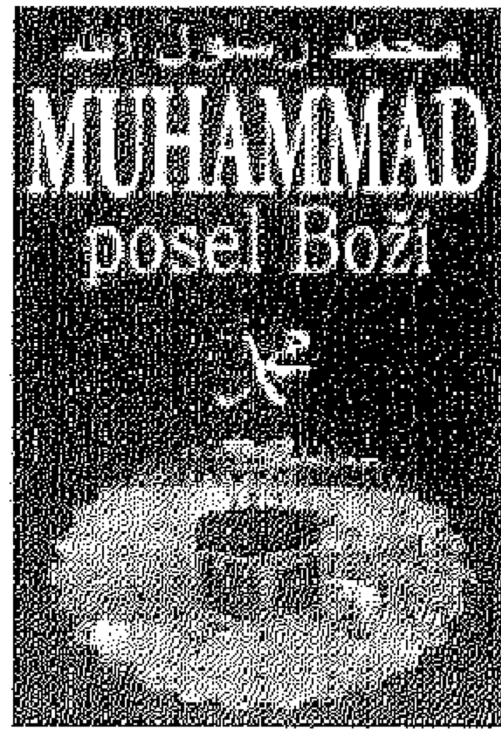
أما المستشرق الفرنسي (مكسيم رودنسون)، فيرى أن الكثير من كتب المستشرقين حول النبي محمد ﷺ، قد قومت شخصية الرسول بشكل إيجابي، وفيها الكثير من التمجيد له، ولكنها بالطبع ليست كتبًا دينية، لأنها كتبت من طرف مستشرقين غربيين، وقام بإنجاز دراسة قدم فيها جردًا بالدراسات المحمدية، وقد نشرها في المجلة التاريخية (عدد: يناير - مارس 1963 مسيحي/ ص:169-220). وأعلن بأنه كان مولعًا كثيرًا بحياة الرسول ﷺ فيقول: «فضمنت ولعي في كتاب عنه، وأعلنت بأنني معجب بعظمة هذا الرسول وعبقريته، لكنني عندما أدرسه، أدرس حياته وفق منظور تحليلي مادي، أعتبره المنظور الصائب الذي يمكن عبره فهم حياة الرسول ودوره التاريخي الهام، أو إنسانية الرسالة التي أثر بها».

الكتاب يحمل الكثير من التمجيد لشخصية



مونتغمري واط





الرسول ﷺ، باعتبارها واحدة من تلك الشخصيات الهامة، التي غيرت تاريخ العالم.. ويضيف قائلاً: منذ البداية ظهر الرسول محمدﷺ، كزعيم ديني وسياسي ومشرع في نفس الوقت، معطيًا السلوك والحياة للمجتمع الصغير الذي يحكمه، والذي سيصبح فيما بعد، ذا أبعاد عالمية»(5). ويجب التذكير هنا، بأن بعض كتابات هؤلاء، مع ما فيها من مجهود جبار وموضوعية، لا تخلو من هفوات، ولهذا وجب التصدي لها بعد فحصها ودراستها وتصحيحها، بدلاً من انتقادها ورفضها «لأنهم أثروا المكتبة الإسلامية بالدراسات والبحوث والتحقيقات التي استفادت منها السنة من حيث لا يريدون طبعًا.

لقد نبشوا وفتشوا وأثاروا قضايا، ما كان لها أن تثار، وحملوا على السنة حملة شعواء. فكان أن شمر الباحثون المسلمون عن سواعد الجد، وانبرت الأقلام وشحذت الأذهان، للدفاع عن السنة المطهرة»(6).

الفتيل الدانمركي لحرب الحضارات:

عاش العالم الإسلامي خلال شهري (أي النار والنوار) يناير وفبراير 2006 مسيحي، على إيقاعات الغضب العارم، جراء الرسومات المسيئة للرسول محمدﷺ والتي نشرتها الصحيفة الدانمركية (يُولند بوسطن)، بعدما طلب محررها الثقافي من مجموعة من الرسامين إنجاز هذه الصور، وبقدر ما كانت الإساءة للنبي شديدة، بقدر ما كانت الاحتجاجات

---

4 - أنظر ما كتبه في هذا الموضوع عبدالمحمود نور الدائم الكرنكي في صحيفة (القدس) عن (فصل الإسلام عن سياقه الديني والحضاري للشرق القديم) عدد: 25/26 نوفمبر 1995 مسيحي، ص:14.

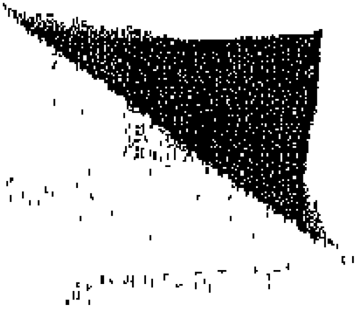
5 - أنظر حوارًا معه في مجلة (رسالة الجهاد) / ليبيا عدد: 70 ص:61 والملحق الثقافي لصحيفة (الأنباء) الكويتية عدد: 10/3/1982 مسيحي، ص:5.

6 - أنظر مجلة (المنهل) السعودية عدد: 484/1990 مسيحي، ص:125 (مناهج المستشرقين في دراسة الحديث النبوي) محمد رضوان صالح.

والمظاهرات قوية وشديدة، بلغت في بعضها حد إحراق السفارتين الدانمركيتين (دمشق ولبنان) والنرويجية (دمشق)، وتم إضرام النار في العلم الوطني الدانمركي، في العديد من العواصم الإسلامية، وبادرت العديد من الدول الإسلامية، بسحب سفرائها من كوبنهاكن، ودعت مواطنيها لمقاطعة البضائع والمنتجات الدانمركية وطالبت الحكومة الدانمركية بتقديم الاعتذار إلى العالم الإسلامي، وكل مسلمي العالم أينما وجدوا.

ولا يسع أي مسلم إلا أن يناهض كل من سولت له نفسه الإساءة إلى النبي الأكرمﷺ، سواء بإعادة نشر الرسومات الساخرة (الكاريكاتورية) الدانمركية، أو بنشر أي كلام يستهدف شخص الرسول ﷺ، أو الدين الإسلامي الحنيف عمومًا.

إن استفزاز مشاعر المسلمين، من طرف غيرهم ليس أمراً جديداً، لكن الجديد هو هذا النفاق الصارخ، الذي يحمل بيد شعار الانفتاح وحرية التدين وحوار الحضارات والأديان، وباليد الأخرى رسومات وإساءات بالتصريح والتلميح بالجملة



لقد كان مستهجنًا أن تعيد الصحف الغربية نشر الرسوم المسيئة للرسول ﷺ، في فعل تضامني في الإساءة للمسلمين ونبيهم، كما كان مستغربًا أن يفاخر رئيس وزراء الدانمرك (أنديرزفوخ راسموسين)، بتضامن الرئيس الأمريكي جورج بوش مع بلاده!!...

وصرح محرر القسم الثقافي بالصحيفة (فليمنج روسه)، على شاشة القناة الثانية الدانمركية، يوم الأحد 2006/1/29 مسيحي، تعليقًا على مطالب الاعتذار قائلا: «إذا كان المسلمون يطلبون اعتذارًا من صحيفة (بولند بوسطن) فإنهم يطرقون الباب الخاطئ»[7]. كما عبر رئيس تحرير الصحيفة (كارستن جيست) في رسالته الإعتذارية الثانية قائلاً: «دعوني أولاً أؤكد أن صحيفتنا تؤمن وتثمن حرية الانتماء الديني، وتساند الديمقراطية وتحترم حرية كل فرد. الذي حدث ـ مع الأسف الشديد ـ هو سوء تفاهم كبير، لا أكثر ولا أقل، حول الرسومات التي شبهت الرسول الكريم ﷺ.. ومن المهم جدًا هنا، الإشارة إلى أن هذه الرسومات لم يكن القصد منها النيل من شخص النبي بتاتًا»[8]. كلام غير مقنع ولا يرقى فعلاً لمستوى الاعتذار المطلوب تقديمه للمسلمين عبر العالم. فكيف يمكن تصديق ما يزعمه المعتذر. وهو الذي (يؤمن ويثمن) حسب زعمه حرية الانتماء!

إن استفزاز مشاعر المسلمين، من طرف غيرهم، ليس أمرًا جديدًا، لكن الجديد هو هذا النفاق الصارخ، الذي يحمل بيد شعار الانفتاح وحرية التدين وحوار الحضارات والأديان، وباليد الأخرى رسومات وإساءات بالتصريح والتلميح بالجملة، وتأكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن بين المسلمين والغرب، هوة سحيقة يبدو أن التقريب بين طرفيها أمر شاق. وتأكد كذلك أن كلاهما يحمل أفكارًا مغلوطة عن الآخر، وتأكد فضلاً عن هذا وذاك، أن المنعطف والحكمة والتروي والحلم، لم تعد سوى مفاهيم يُستأنس بها في دروس الفلسفة، والتربية الوطنية تختزلها الذاكرة!

إن الرسومات بكل ما تعكسه من كراهية، وحقد وتحقير وافتراء، تثير الكثير من الأسئلة حول حوار الحضارات، أو (صدام الحضارات) الذي يتمنى تحقيقه كثير من عشاق (صمويل هنتنغتون)، والذين

---

7 ـ نقلاً عن صحيفة (الدعوة الإسلامية) / ليبيا عدد: 2006/2/1 مسيحي، ص:4.

8 ـ أنظر صحيفة (الصحراء المغربية)، عدد: 2006/3/1 مسيحي، ص:14.

لا يصدمهم في الواقع، إلا عشاق فيلسوف أكثر رزانة وحكمة، هو (وليام جيمس) المؤسس الحقيقي للفلسفة النفعية (البراغماتية)، التي تنبني على أنه لا وجود لحقائق مطلقة، وأن المستقبل مفتوح أمام الإبداع، والإنسان يمتلك الإمكانيات لخلق عالم أفضل. أما الدين فقد استخدمه استخدامًا نفعياً (براغماتيًا) حيث اعتبر أنه «طالما أن الدين يحقق الراحة للإنسان ولا يؤذي الآخرين فهو نافع»، البراغماتيون طالبوا باعتذار الصحيفة والصحف التي التحقت بركبها، والحكومة الدانمركية ومن سار على طريقها في أوروبا. إنهم يعلمون أن الدين قد يكون صمام أمان للتماسك الاجتماعي داخل المجتمعات الأوروبية، وأيضًا على المستوى العالمي، كما يمكن أن يكون جذوة تذهب بالقليل من (حوار الحضارات)، الذي جرى إلى اليوم. وكان المفكر الفرنسي (أندري مالرو) الذي توفي في شهر نوفمبر سنة 1976 مسيحي، قد تنبأ (بأن القرن الواحد والعشرين سيكون قرن تدين أو لا يكون) ومنذ ذلك الحين تغير كل شيء ولكن النبوءة تحققت(9).

صحيح أن علاقة العالم الإسلامي مع العالم الغربي، تتميز بالتوتر والاضطراب واللاثقة منذ ما قبل أحداث 11 سبتمبر 2001 مسيحي، إلا أن هذا التوتر تصاعد بعد اتهام الإسلام بالإرهاب والمسلمين بالإرهابيين. وبدا للمسلمين أن هذه التهمة لم تعد تخص فئة قليلة فهمت دينها خطأ، بل إن الغرب أصبح ينظر إلى الإسلام في حد ذاته، باعتباره فكرًا (إيديولوجية) دمويًا إرهابيًا هدفه الوحيد القتل والتدمير ولا شيء غيرهما، فجاءت القطرة التي أفاضت كأس الأمة الإسلامية من الدانمرك، ليتفجر بعد ذلك بركان غضب المسلمين، ويكبر شيئًا فشيئًا إلى أن انفلتت الأمور، ببعض الدول العربية والإسلامية.


الدكتور طيب تيزيني

وفي ذلك السياق وفي حمأة الحدث، يرى الدكتور طيب تيزيني «ظهر الحديث عن ضرورة التمييز الدقيق بين خطابين اثنين: خطاب في حرية الرأي النقدي العقلاني، وخطاب في الإنسان والإنسانية، وفي ضرورة احترام مقدساته، كما في النظر إليها بمثابة خط أحمر، لا يجوز اختراقه هجاءً أو هزلاً أو قدحًا أو غمزًا، وقد لقي هذا التمييز إقرارًا ضمنيًا ومعلنًا من قبل جل الناس، وجدير بالإشارة، أن المسألة المطروحة هنا تجد جذورًا عميقة لها في التاريخ البشري وفي صراع البشر، فكريًا ودينيًا وسياسيًا، ولعلنا نجد هذه الجذور ماثلة في تاريخ العالم كله، ومن ضمنه التاريخ العربي والآخر الأوروبي الوسيط والحديث، وظهر ذلك خصوصًا، في معضلة العلاقة بين الخطابين الديني والعلمي، الشرعي والفلسفي، وتعاظمت هذه المعضلة، حين انتقلت إلى مستوى الحياة السياسية، بحيث أخذت تسهم في إشعال العواطف الدينية، وتحويلها إلى مطالب ومبادئ واستحقاقات سياسية، تتصارع حولها الخناجر(10).

ويبقى الأهم في كل ما جرى هو ما بعد هذا الحديث، هل تتجه العلاقات بين المسلمين والغرب إلى القطيعة والمواجهة؟ أم أن كل ما جرى يعتبر فرصة للحوار؟

أهمية الحوار والتفاعل بين الثقافات والحضارات:

لقد أضحى واجبًا اليوم، على مختلف دول العالم ومنظماته المدنية، أن تتعاون معًا لنقل الحوار حول

---

9 ـ أنظر صحيفة (الصحراء المغربية)، عدد: 2006/2/19 مسيحي، ص:15.

10 ـ أنظر صحيفة (الصحراء المغربية)، عدد: 2006/2/12 مسيحي، ص:14.

تلك النوعية من الأزمات، التي تعكس وتمس اختلاف الثقافات والأديان والقيم، بين شعوب العالم إلى المستوى العالمي، وما يعبر عنه من منظمات وبخاصة منظمة الأمم المتحدة.

إن التوافق على فتح حوار موسع، بداخل الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة، حول كيفية التوفيق بين قيم العالم الحديث، وفي مقدمتها حرية الرأي والتعبير، وبين احترام تعدد الثقافات والأديان والقيم، واحترامها، سيكون البداية الجادة لحل الأزمة الحالية، ووضع أساس صلب لمنع تكرارها، بشأن أي دين أو ثقافة أو شعب في أي مكان من الأرض.

ونظرًا لما للحوار من مكانة في التثقيف والتواصل الإنساني المعرفي، فقد أولاه المسلمون قسطًا من اهتماماتهم. ومما جاء عن المسلمين، أن رجلاً نصح ابنه قائلاً: (تعلم حسن الاستماع قبل أن تتعلم حسن الحديث) بالعودة إلى الماضي، نجد أن دعوة الإسلام إلى الحوار تتمثل في العودة إلى الأرومة الإبراهيمية، موحداً بذلك بين الأديان السماوية الثلاثة، فقد جاء مجدداً الحنيفية، مزيلاً ما علق بها من أساطير وطقوس رهبانية في الديانتين السابقتين، ولا علاقة لها بدعوة التوحيد البسيطة، التي بشر بها إبراهيم الخليل. وتواصل الحوار في المستوى الحضاري والتعايش، بين مختلف الأديان والطوائف داخل المجتمع الإسلامي، أما ما ظهر هنا وهناك من موجات تعصب ورفض للآخر، فقد كانت أسبابه سياسية، كما هو الشأن اليوم، ولا علاقة له بالإسلام. إن كتب التراث العربي الإسلامي، زاخرة بمظاهر التعايش السلمي بين المسلمين وأصحاب الديانات السماوية الأخرى، بل حتى مع من لم يكن من أهل الكتاب كالمجوس مثلاً، فقد عوملوا في فترة الفتوحات الكبرى معاملة أهل الكتاب[11].

إن الحوار والتفاهم والتعاون أصول ثابتة في الإسلام وثقافته، ويلتزم بها المسلمون منذ أمد بعيد، ولكن هذه الأصول لا يمكن أن تثمر إلا مع وجود حسن النية والرغبة الحقيقية لدى الطرف الآخر، والذي يظهر من التصرفات والمواقف أنه لم يدرك بعد، أن الحوار والتفاهم يقتضيان تجاوز إرث الأساليب القديمة.

دعوة الإسلام إلى الحوار تتمثل في العودة إلى الأرومة الإبراهيمية، موحداً بذلك بين الأديان السماوية الثلاثة

يقول الدكتور طارق البشري: «..والحوار الحضاري يقوم في ظني على اعتراف طرف بأن للطرف الآخر «مرجعية مختلفة»، أي موقف ثقافي مختلف، وأسس مختلفة تقوم عليها أصول شرعية، ومعايير الاحتكام لديه، ذلك أن الوضع الحضاري في ظني، هو في النهاية (وجهة نظر) حاكمة، هو (شرعة) بالمعنى اللغوي للفظ الشرعة أو المشرع، أي نقطة البدء، على أن يرتبط كل ذلك بجماعة ممتدة في صيرورة تاريخية، فتمثل هذه الوجهة، قوة التماسك الجمعي والتاريخي لهذه الجماعة، وتشكل لها لغتها الذهنية ومعايير قيمها، من حيث السلوك الفردي والقيم والتعامل بين الناس، وبناء هياكل نظمهم ومؤسساتهم...»[12].

إن العالم الواحد يقوم على حضارات إنسانية متميزة عن بعضها بعضًا، تشترك في أشياء وتختلف في أخرى، كما أن كل حضارة واحدة تقوم على

---

11 ـ أنظر ما كتبه الدكتور: الحبيب الجنحاني في صحيفة (الحياة)، عدد: 1998/1/26 مسيحي، ص:11 عن: (الحوار بين الأديان: عقبتنا السياسة واللاهوتية).

12 ـ أنظر صحيفة الشرق الأوسط، عدد: 1996/4/30 مسيحي، ص:17 (ملاحظات حول الحوار بين الإسلام والغرب).

ثقافات قومية متميزة عن بعضها، بخصائص تختلف من أمة إلى أخرى.

فالمصدر الواحد للخلق ـ الله تعالى ـ، هو الذي جعل الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ومن تعددهم واختلافهم وتبادل المعرفة بينهم، يزدادون تطورًا وتقدمًا، في جدل اجتماعي يتميز به الإنسان منذ بدء الخليقة.

﴿...وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾
[سورة المائدة: الآية 48]

علمًا بأن هناك جهودًا متواصلة، تبذل منذ سنوات للتقريب بين الثقافات والحضارات والديانات، ولبناء علاقات الاحترام المتبادل بينها، إعلاء لمصالح الشعوب، ومن أجل إزالة أية مواقف، تحرض على الكراهية على أساس ديني وعنصري أو قومي، أو تزكي الصراعات التي تهدد مصالح الشعوب جميعًا، إلا أن هذه الجهود تواجه أحيانًا بمواقف وأحداث سلبية، فتعود بها إلى نقطة الصفر، وهو ما يمثل تهديدًا فعليًا لعلاقات الاحترام المتبادل بين الثقافات والأديان المختلفة.

يقول المفكر والسياسي الدانمركي (أوله فولورز) -اعتنق الإسلام منذ سنة 1986 مسيحي- «هناك أغلبية في أوروبا، وأنا منها، تؤيد الاتصال والحوار مع الأجانب، لأنه مفيد، ونرى أن فتح حوار مع الآخر، هو أفضل طريقة للاتصال والتفاهم معه. وقد تعلمنا نحن في أوروبا، ومن خلال تاريخ علاقتنا التي تمتد لقرون طويلة مع العرب والمسلمين، أن الحوار يؤدي للتفاعل والتطور والرقي العالمي، ونرى اليوم توجهًا لفتح حوار هادئ بين الجميع في عالم اليوم»[13].

ودعا عبدالله أحمد بدوي، رئيس الوزراء الماليزي، الرئيس الدوري لمنظمة المؤتمر الإسلامي، العالم الإسلامي والغرب، إلى تغيير المفاهيم السلبية عن الجانبين، وتشجيع المزيد من الجماعات الساعية إلى جسور التقارب بين الحضارتين، معتبرًا أن المفاهيم السلبية بين بعض الجماعات من الحضارتين، قد تأصلت وانتشرت على نطاق واسع، حاثًا على تغيير الوضع بالحوار وليس بمجرد الكلام، وطالب وسائل الإعلام الرئيسة بأن تولي مزيدًا من الاهتمام، لأصوات الساعين إلى مد جسور التقارب بين الحضارتين، الذين يعملون تجاه تحول حقيقي في العلاقات، مما ينهي عداء وخصومة الماضي والحاضر... وأضاف: أنه حينما يصل الساعون إلى مد جسور التقارب إلى مرحلة مهمة، فإن قوتهم الجماعية ستساعد على تدمير الجدران، التي أقامها من يعكفون تمامًا على الفصل بين الإسلام والغرب[14].


عبدالله أحمد بدوي،

إن خير الإنسانية لا يقوم إلا بالحوار الثقافي والحضاري الجاد، والاستعداد الجاد لقبول الحق الذي لا يتصادم مع فطرة الإنسان ومتطلباته التكوينية، وعلى الغرب أن يصغي للمسلمين بكل جدية وموضوعية، ليفهم نظرتهم ويدرك معيارية التعامل معهم، ونحن نعيش قرن تواصل وتعايش وتحاور، لأن التقدم البشري في مختلف المراحل والمجالات، ليس إلا حصيلة الإبداع الفكري والتعاون والاحتكاك بين المجتمعات، وبالحوار المفتوح الجاد والمؤدي إلى صيغ ممكنة ومعقولة، تتوجّه نحو التفاهم البناء والتعايش السلمي، والتعاون بين الطرفين سوف يصنع مستقبلاً منشودًا خاليًا من الصراعات والمصادمات المدمرة، وحافلاً بالتعاون بين المسلمين والغربيين لما فيه مصلحتهم ومصلحة الإنسان حيثما كان.

---

13 ـ أنظر حوارًا معه في جريدة الشرق الأوسط. عدد: 2004/12/3 مسيحي، ص:15.

14 ـ أنظر صحيفة (الصباح) المغربية، عدد: 11-2006/2/12 مسيحي، ص:13.

ملف

حوار الثقافات

بين الإمكان والإستحالة

محمد الشحومي *

تنبأ الكثير من العلماء والباحثين بأن الألفية الثالثة ستنطلق ـ ككل بدايات القرون السابقة ـ بفظاعات ووحشيات ، لا تمت إلى الأخلاق الدينية والثقافية بصلة، وهذا ما نعانيه من ترد خطير في العلاقات الدولية، وفي انتشار حركات تعصب وتطرف، تدفعنا إلى التساؤل عما يحدث؟! وما الذي يحكم تصرفات الدول والجماعات والأفراد؟!

هل نحكم على بني البشر بالتخلف، وقد بلغ تقدمهم العلمي والمعلوماتي، أعلى مراتبه، وكيف أن هذا التقدم، يوازيه شيوع أشكال من العنف، والتعصب والصراع؟! مصحوباً لَغَوي، يلوك عبارات مثل: الصليبية، والجهاد، والإرهاب، والمقاومة والعنف، ينبعث من عقول تطغى عليها أحاسيس، ومواقف عدائية وعنصرية، ولم يتوقف ذلك الصخب عند حدود اللَّغو، بل تجاوز ذلك إلى التنظيرات، التي تقرع طبول حرب عالمية ثالثة.

في هذا الجو المشحون بالتأزم في العلاقات الدّولية، وإفلاس النظام الدّولي التقليدي، ومؤسساته التي تتهمش، واضمحلال خطابات التعايش والتسامح، تبرز مفارقة عجيبة بين دعاوي الديمقراطية، في تنظيم علاقات الأفراد داخل المجتمع، وغيابها على مستوى العلاقات، بين الدول والمجتمعات، الأمر الذي يفسح المجال واسعاً، للكيل بمكيالين.

النتيجة المنطقية لهذه الأوضاع، هي: استحالة شيوع السلام العالمي، الذي أصبح حلماً بعيد المنال، بعد أن انزلقت العلاقات الدولية إلى مأزق خطير جداً، يتجاوز فضائع العنصرية، التي يصفها (حنا أرندت) بأنها: «القوة الإيديولوجية للسياسات الإمبريالية، خلال القرن العشرين»، ومن ذلك يتضح لكل باحث أن القرن الحادي والعشرين، مطبوع بنزعة عدوانية، ترجعنا إلى حالة من الهمجية، تمتلك أعتى أسلحة الدمار الشامل، وتسيطر على الملعب الدولي، سياسات العداء، والعداء المضاد، وقد أدمجت في منطقها الجميع، وبات من المستحيل إقامة حوار حقيقيّ وصادق.

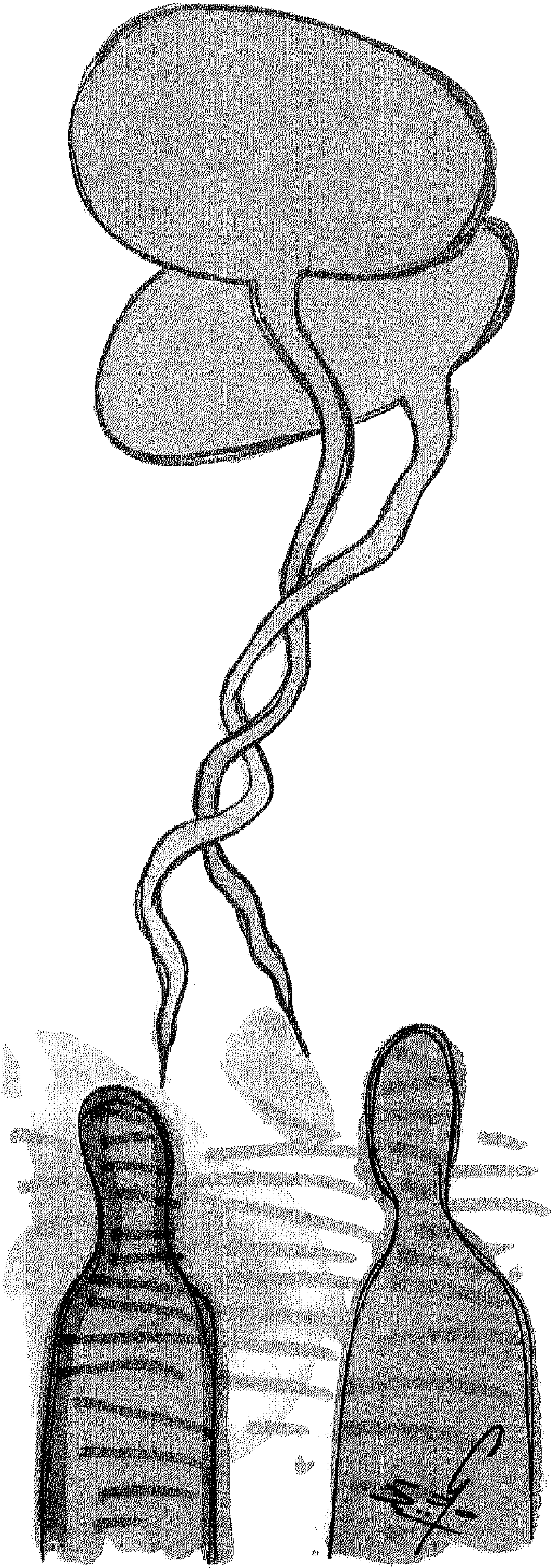
(*) كاتب/ ليبيا.

1 ـ الرجاء :

يعلمنا التاريخ، أنّ لا شيء يبقى على حاله، وأن الأوضاع لا تدوم وأن الأيام دُول، وأنه مهما طال ليل الظلام، لابد أن ينجلي على ضياء الصباح، واليأس يعقبه أمل، وبالتالي فإن الحكمة المؤسسة على معارف العقل، تضعنا في حالة من الرجاء المتفائل، الذي يرى من زاوية أن الاختلاف بين البشر لا ينبغي أن يؤدي حتمًا إلى العداوة التي تستفز العصب السلبي، الذي يفرز الحروب العسكرية، أو الفكرية (الإيديولوجية) أو الإعلامية، أو الاقتصادية، وهذا لن يكون، إلا إذا رأينا أن الاختلاف حالة سوية في إطار ثقافة التنوع، وأن التدافع الفكري ضروري للتطور البشري والرقي الحضاري، الأمر الذي يفرض على دعاة الحوار تشكيل فرق خبراء السلام في مواجهة «خبراء الرعب الجدد» الذين يروجون لدعاوى الصراع.

إن الحكمة العاقلة تقول بامكانية الحوار، ولكن ليس بين المجردات: «ثقافات، حضارات، أديان...»، بل بين المشخصات والأعيان، والمقصود الحوار بين المثقفين في سياق متحضر، بعيد عن السلوكيات الهمجية المتخلفة، لذلك فإن فضاءات الحوار تتأسس على منتديات التعارف، وتبادل المعارف والخبرات، ونقل التقنية، والعمل على استنباتها دون حدود أو قيود، لتحقق الإنجازات الحضارية المشتركة التي تصون الأفراد والشعوب، وتخدم المواطنين والأوطان.

إن الحكمة تعلمنا وبصريح العبارة، أن الأديان والثقافات والحضارات لا تتحاور، وإنما الحوار يتم بين الأشخاص الذين يمثلون واقعًا ثقافيًا يغطي الثقافات العالمة، والثقافات العامّة والشعبية، وأعيان وأشخاص ينتمون لمختلف الفئات المجتمعية، وما يعزز صلاحية هذا الطرح أن المعرفة المعاصرة بكل فروعها تأسست على معطيات جديدة، من أخص



خصائصها، أن مفهوم الحقيقة تحت لواء الفكر التنويري، استقر على أن الحقيقة الكاملة، لا يمكن لفرد أو أمة، أو ثقافة، أن تدعي امتلاكها لوحدها، كيقين مطلق، فالكل يمتلك جزءًا من الحقيقة، التي تقترب من الكمال، بتجمع أكبر عدد من أجزائها، ولا يمكن لأحد أن يدعي بأن ما يتملكه من حقائق هو الصحيح المنفرد.

إن الحوار الإيجابي، هو: ذلك الذي يتم بين أعيان مستوعبة لماضيها، ملامسة لحاضرها، ممتلكة لناصية المعارف المعاصرة، والخبرات العلمية المتراكمة المستجدة، مع ملاحظة أن الحوار لا يعني المناقشة والجدال، أو السجال أو التناظر، وهي أشكال حوارية مارسها الفكر الإنساني منذ «سقراط» قبل ميلاد المسيح، إلى الفكر العولمي المعاصر، مرورًا بفلاسفة ومتكلمي اليهودية، والإسلام، ومفكري العصور الوسطى وعصر النهضة والتنوير الأوروبي، بل إن الحوار الذي نعنيه، هو ذلك الذي يمارسه الإنسان المعاصر، والذي لم يعد يعبر فقط بصوته، بل تراه يعبر عن نفسه بالحضور الجسدي، ويفهم غيره بالكلمات، والحركات، والإشارات، والسلوكيات، والأحاسيس، والملابس، وكل ما يؤثث وسطه الطبيعي، إنه الحضور الإنساني بكل تجلياته، يبث المعنى المباشر، الذي يكشف عن الحقيقة والواقع، دون تدجيل أو تزييف، في وقت قد تخدع فيه الكلمات وتكذب، أو تعجز عن التعبير عن القناعات والإرادات، إنه عصر الحضارة المباشرة، بكل أشكالها السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، الأمر الذي يفرض ضرورة تجاوز المعنى اللغوي للحوار إلى الدلالة الاصطلاحية والتقنية، لتتوافق مع اللحظة الراهنة، وهي دلالة تحيل إلى اعتبارات نفسية وقيمية، وجودية وأخلاقية، إلى هوامش فكرية وسياسية، وبالتالي تجيب عن سؤال محوري هام: كيف نجوّد تبادل المعلومات ونفعلها، في عصر العولمة التواصلية، لتوجيه الاختلاف نحو إنتاج توافقات مشتركة حاسمة؟!

فضاءات الحوار تتأسس على منتديات التعارف، وتبادل المعارف والخبرات، ونقل التقنية

2 ـ التعارف أولاً:

كثيرًا ما تسيطر على منتديات الحوار التقليدية رغبة كل طرف، إثبات أن غيره على خطأ دون الإنتباه لحقيقة أن إثباته خطأ الغير، لا يعني أنه على حق، وكثيرًا ما تكون الصورة التي يحملها كل طرف عن غيره لا تمت إلى الواقع بصلة، ولكنها صورة مشوهة بفعل تدخلات مصلحية تاريخية، ليتورط الجميع في حالة عبثية، يحاور فيها غيره غير الموجود، ولن يستقيم توجيه الحوار دون أن يعرف كل طرف غيره على حقيقته، وهذا لن يكون إلا إذا قدم كل طرف نفسه، التي لا يعرفها أحد أفضل منه، وأن يعمل الجميع على البحث عن القواسم المشتركة، لتشكيل مرجعية يؤسس على قاعدتها الحوار التواصلي المنشود، والعمل على حل اشكالية المفهومية، والتأسيس لنظرية ايجابية للحوار التواصلي، تمكن في تحليل واقع الخطاب ورسائل التواصل، تحليلا ناجحًا، الأمر الذي يفرض أن يكون المُحاور متوفرًا على كفاءة حوارية، تمكنه من الوفاء بمهمته، وبأسلوب منطقي، على نسق المدرسة الوجودية، حين اهتدت إلى نسقية الحوار التي تعتبر فيها أن (الغير) أو (الآخر) يعتبر شرطًا وجوديًا للذات، أو الأنا (جدلية الأنا والأنت)، حسب تعبير الوجودي (مارتان بوبر)، وتمييزها بين الحوار المغلوط «المونولوجات المتبادلة»، والحوار الصحيح، «الحوار التفاوضي، الذي يؤدي إلى توافقات وضوابط محددة»، الأمر الذي يقتضي التكافؤ والمسؤولية

للإقرار والاعتراف المتبادلين، وعلينا هنا أن نقر بأن طرح مشكلة العلاقة بين الأنا والأنت، بين الذات والغير، يعود الفضل فيها إلى الفلسفة الوجودية القائلة: «إن إدراك الغير، يكون انطلاقًا من الذات، أو أن إدراك الأنا يتحقق انطلاقًا من معرفة الآخر».

إن الواقع الذي أبرزته فتوحات (تكنولوجيا) المعلوماتية وإظهارها لوجه الحداثة المتواصلة، برهن على فعالية العقول الحوارية، الداعية للتواصل، وأكد انتشارها في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، والعقل التواصلي الحواري هو: «العقل الذي لا يجبر أي طرف، من الأطراف المتحاورة، على التنازل عن رأيه، أو قبول رأي غيره، إن لم يكن مقتنعًا بذلك»، وهذا الموقف يحاكي النسق (الكانتي)، في رؤيته للعقل العملي وتداعياته التي أسست لفكر التنوير الغربي، التي كانت أشد بروزًا في اجتهادات، (يورغن هابرماس)، المؤسس الفعلي لفلسفة التواصل، التي أكدت على الحقيقة التالية: «إنه بحكم الانخراط في حوار ضمني، بهدف التوافق، يكون الشخص قد نزع إلى ممارسة فضيلة عرفانية للحياد العاطفي تجاه الاختلافات المتبادلة، والتي تظهر في إدراك الأوضاع المتناظرة»، هذا الموقف الذي وصفه (كارل بوبير): «بأخلاقية المناقشة العقلانية النقدية»، ومن هذه الدلالات التواصلية يلتزم (هابرماس) بتأسيس معقولية ترى الشخص المنتمي إلى أي شكل ثقافي، لابد له من أن ينخرط في ممارسات تواصلية، ومن ذلك لا بد أن يعزز فرضيات عملية تدل على التوافق العام، ذلك ما يصطلح عليه بالوعي التواصلي، الذي ينمو ويزدهر بالنقاش الحر، ويتوافق مع عصر العولمة التواصلية، ويؤسس لالتزام أخلاقي، ليس فيه أي انحياز للذات، أو للغير، بل ينصفهما بما يتوافق مع قيمهما المتناظرة، وهو في الوقت نفسه، ضرورة وجوبية، بحيث لا يمكن تصور وجود الذات، إلا بالغير، وإذا عملنا على البحث عن هذا العقل التواصلي، نجده في كل الثقافات والحضارات والأديان، خاصة إذا كان البحث على قاعدة إدراك ضرورة التنوع والتعدد، بحيث لا نعمل على تذويب الاختلافات، بل إقامة خط انسجام أفقي بينها، مثل ما يعرف بالهارموني في علم الموسيقا.


كانط

3 ـ النقيض :

ليس من الغريب، أن يفهم بعض الملتهمين للأفكار، دون نقد أطروحات سطحية، مثل ما طرحه (صموئيل هانتنجتون) من أن الثقافات نماذج مغلقة، تزرع العداء المتبادل بينها، وأن حروب العصر ستكون حروبًا ثقافية، وبالتالي حروبًا دينية وحضارية، هذا المنطق السطحي، الذي يأخذ بفكرة الصدام، بدل التركيز على التفاعل التاريخي البطيء والمستمر، بين الثقافات والحضارات، وما تكون فيما بينها من استعارات متبادلة وتعايش، وما ينتج عنها من تشابهات، ليبرز الفرق بين القراءات الواعية لحركة التاريخ وما تقول به النظريات التبسيطية المزيفة، التي تطرح النقيض الفعلي للحوار، في دلالته الاصطلاحية، الذي لا يكون إلا العداء المفضي إلى المنازعة، المفضية بدورها، في أغلب الأحيان، إلى الحروب المسلحة والمواجهات الفكرية (الإيديولوجية).

تأصيلاً لهذا التوجه، لابد من وقفة تفصيلية، للحديث عن نقيض مفهوم الحوار، في أكبر تجل له، وهو الحرب كمفهوم مركزي، وقضية أساسية، وبصفة عامة يمكن القول بأن الحرب، هي: المواجهة العنفية المسلحة، بين طرفين أو أكثر، داخل الدولة، أو بين

دولتين أو أكثر من الدول، في إقليم أو أكثر، يسعى كل طرف من الأطراف المتحاربة إلى تحقيق أهداف سياسية، أو اقتصادية، أو عقيدية؛ ويمكن تصنيف الحروب التي عرفها التاريخ البشري، ماضيًا وحاضرًا، إلى عدة أصناف أهمها:

1 - **الحروب العالمية**، وهي نزاعات مسلحة بين مجموعتين من الدول متحالفة، أو غير متحالفة، تقع جغرافيًا في إقليم، أو أكثر من إقليم، ونماذجها الواضحة، هي: الحرب العالمية الأولى (1914/1918 مسيحي) والثانية (1939/1945 مسيحي)، وحرب الخليج الثانية (1991 مسيحي)، والحرب الراهنة، على ما يسمى بالإرهاب التي بدأت عقب أحداث 2001/9/11 مسيحي بأمريكا.

2 - **الحروب الإقليمية**، وهي نزاعات مسلحة بين دولتين أو أكثر، داخل إقليم جغرافي واحد، ومعظمها ناتج عن مخلفات الاستعمار، أو بسبب السعي إلى توسيع مناطق النفوذ السياسي أو الفكري (الإيديولوجي)، أو فرض هيمنة عرقية أو دينية.

3 - **الحروب الأهلية**: وهي نزاعات مسلحة تنشب داخل الدولة الواحدة، في إطار الصراع على السلطة، أو بسبب نزاعات طائفية، أو عرقية أو دينية.

ولقد قام «المعهد الفرنسي لعلم الحرب» بحصر الحروب التي نشبت، بين عام (1470 و1974مسيحي) فوجدها (336) نزاعًا مسلحًا، منها (114) بين دول، و(174) أهلية و(36) بدأت أهلية، ثم تحولت إلى حرب بين دول، و(3) حروب بدأت حربًا بين دول، ثم تحولت إلى نزاع ضمن دولة، وأن (246) حربًا، من الحروب المشار إليها كانت نزاعات حدود، أو لاكتساب أراض جديدة، والحرب المتبقية كانت نزاعات سياسية، أو اقتصادية، وقد عمت تلك الحروب جميع أنحاء العالم، وكان ربعها حروبًا وقعت في مناطق المضائق البحرية، وبقيتها كانت في مناطق لها علاقة بالنفط، أما الضحايا من الأرواح البشرية فإنها تتراوح بين بضع عشرات إلى ثلاثين مليون نسمة، كما هو الحال في الحرب العالمية الثانية، وفي الغالب تنتهي الحروب والنزاعات باتفاقية سلام، أو بإعلان شفوي للصلح، دون اتفاقية، ومنذ عام 1945 مسيحي تجنبت القوتان العظميان (أمريكا وروسيا)، التدخل في النزاعات المسلحة، باعتبار الردع النووي إبان القطبية الثنائية، مع أنهما يتحملان نصيبًا من المسؤولية في كثير من الحروب، التي تمسهما مباشرة، ولم تقع بينهما مجابهة إلا في برلين (1946 مسيحي) وفي كوبا (1962 مسيحي)، وبعد انهيار الإتحاد السوفييتي وسقوط جدار برلين، دخل العالم في قطبية أحادية شرسة، زادتها شراسة أحداث نيويورك وواشنطن في 9/11 عام (2001 مسيحي)، والنتيجة أن طبول حرب بدأت تدق باسم الحرب على الإرهاب، وما يهمنا في ضوء هذا التوصيف المختصر، أن الحرب ظاهرة اجتماعية، وإنسانية، متأصلة منذ بدء الخليقة، أو كما قال (هيرقليطس) (النزاع أبو الكائنات) وعزز (هوبز) هذه الحقيقة مؤكدًا: «أن الكون هو كون الحرب، يشنها الكل ضد الكل»، ومرد هذا التجذر الوجودي للحرب هو شيوع العداوات، وتعارض المصالح، وتصادم المطامح، بين الأفراد والجماعات، ونزعة الغلبة والسيطرة، وقد فصل (سيجموند فرويد) القول في تجذر الحرب، اجتماعيًا ونفسيًا، مبرهنًا على أن الحروب، لا يمكن أن تتوقف، ما دامت الأمم تعيش تحت ظروف الاختلاف، وما دامت قيمة الحياة الفردية، تحسب بطرق متباينة،

الوعي التواصلي، ينمو ويزدهر بالنقاش الحر، ويتوافق مع عصر العولمة التواصلية، ويؤسس لالتزام أخلاقي، ليس فيه أي انحياز للذات، أو للغير

ومادامت العداوات تمثل قوى غريزية في العقل، إذ يبرهن البحث النفسي (السيكولوجي) على أن الجوهر العميق للطبيعة الإنسانية، يقوم على الغرائز التي هي مشتركة بين جميع الناس، والتي تهدف إلى إشباع حاجيات ضرورية معينة، وقد وضع (فرويد) مبحثًا في شكل رد على خطاب وصله من (ألبرت اينشتاين)، في إطار مشاورات، نظمها المعهد الدولي للتعاون الفكري، تحت رعاية منظمة عصبة الأمم عام (1933 مسيحي)، واختار العنوان التالي للمبحث: (لماذا الحرب؟)، وللإجابة على ذلك السؤال المحوري يقول: (فرويد) من بين ما يقوله: «إنّ صراعات المصالح مقرونة دائمًا باستخدام العنف، وتحدث أحيانًا صراعات في الرأي، قد تصل إلى أعلى نقطة من التجريد، فتبدو أنها تتطلب نوعًا من الأساليب لتسويتها، وكانت القوة العقلية الأكثر تفوقًا هي التي تقرر من يملك الأشياء، وإرادة من هي التي تسود، وقد أضيفت الأدوات إلى القوة العضلية، حتى أضحى الفائز هو من يملك الأسلحة الأفضل، أو من يستخدمها بطريقة أمهر، ومن اللحظة التي شرع فيها الإنسان باستخدام الأسلحة بدأ التفوق العقلي يحل محل القوة العضلية»، ومن هذا العرض التحليلي يتضح أن مواجهة نقيض مفهوم الحوار (الحرب والعداء)، هو مفهوم الحوار ذاته بين الأعيان أي أولئك المنتمين إلى العقل التواصلي، المبني على المعرفة والحكمة معًا.


فرويد

4 ـ شروط الحوار:

تقول الحكمة الكونفشيوسية[1]:

«ما أشقى ذلك الذي يملأ بطنه بالطعام، دون أن يجهد عقله في شيء، ولا يفعل في حياته شيئًا خليقًا، بأن يأخذه الغير عنه، ثم يعيش إلى أرذل العمر، إن هذا الكائن وباء»، ويقول كذلك «إن الذي لا يصحح خطأه إذا عرفه، إنما يرتكب خطأ أفدح منه».

من مثل هذه القراءات يتشكل الوعي الحواري التواصلي، الأداة الرئيسة، لكل حوار حقيقي وصادق، الذي لا يضع أمامه سوى معرفة الحقيقة، والتزام الحق والتواصي به لتجنب الخسران الذي يهدد كل إنسان.

﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

(سورة العَصر الآيات: 1-3)

ولا يمكن أن يكون للمعرفة قيمة، ما لم يتبعها موقف عملي، يلتزم بمعارفها، كما أنه لا يمكن أن يكون للتواصي بالحق معنى دون الإقرار بالاختلاف مع الغير، المراد التواصي به ومعه، بالتواصل المبني على احترام الغير، المختلف والمستقل، وقراءة موضوعية في محيط من الحرية التامة، دون أحكام مسبقة، أو مواقف متحيزة، والابتعاد الكلي عن كل نزوع ذاتي أو ذوقي (نرجسي)[2]، ودون فرض الرؤية الشخصية على الغير، وإلزامه في الوقت نفسه بالامتناع، عن فرض رؤاه على الذات المحاورة، المتصلة والمتواصلة.

---

1 ـ الكونفشيوسية، نسبة إلى الفيلسوف الصيني الشهير الذي عاش خلال الفترة (551-479ق.م) والذي أسس مذهبًا أدبيًا يدعو إلى حياة عائلية واجتماعية مثالية.

2 ـ النِّرجسية: مصطلح ومذهب فكري، تعود جذوره إلى أسطورة يونانية قديمة، ومن ضمن معانيها في التحليل النفسي المبالغة أو الإغراق في حب الذات، وإنكار أو نفي الآخر. (التحرير)

إن الحوار بين الذات والغير، والأنا والأنت، هو التواصي الذي يفضي لإدراك الحقائق، حسب فرضيات تاريخية، لعلوم الكلام التي تؤكد أن للفكر مظهرين: ظاهر عام، وباطن خاص، والحوار التواصلي، لا يهتم بالإقناع، إنما همه الأساس، هو: إدراك الحقائق والتواصي بها، وبعبارة أوضح، ليس المهم في الحوار الموصل للتواصي، مجرد الاستماع، وإن كان ذلك ضروريًا، وإنما الأهم، هو التحليل، والتأويل، وإنتاج أنماط من التفاعلات، إن التواصي بالحق، هو أن يحاور الإنسان، حتى يعبر المسافة التي تفصله عن محاوره، ليتحد معه في إدراك الحقيقة، وتنشأ العلاقات الحوارية، عندما تحتد مظاهر التأزم، في فترات التفاعل السلبي للأحداث، واشتعال الفتن والمواجهات، بين الأديان، أو الثقافات أو الأفكار (الأيديولوجيات)، أو المصالح السياسية والاقتصادية، عندها يصبح الحوار ضروريًا، لتخفيف حدّة التأزم، ولا تكون له جدوى، إلا إذا كان بين عينين، تتجسدان في شخصين، هما نتاج سياقات فكرية واجتماعية مختلفة.

من هذا الفهم، يتضح جليًا، أنني ممّن يرون، بأن القول بحوار الحضارات، أو حوار الثقافات، هو من قبيل الوهم، إذ لا يصح عند عاقل أن يكون هناك حوار بين مجردات، مع التأكيد الشديد، على أن الحوار التواصلي الحضاري، لا يتأسس إلا على قواعد أخلاقية، وفكرية وروحية، وذلك شأن الإنسان الحضاري المتمدن، الذي يطلب الحقيقة بالتواصي، ويقف مواقفها بالصبر، وهذه الحقيقة، هي التي تجعل أفق الإنسان العاقل، متميزًا عن أفق البهائم، حيث إن الحوار ظاهرة إنسانية، والعراك ظاهرة بهيمية، والحوار التواصلي، المفضي إلى التواصي بالحق والصبر، لا يمكن أن يكون، إلا بين عارفين وعلماء يتغيئون التفاهم، انطلاقًا من بدهيات ومسلمات فطرية، وبصدد قضايا محددة، وباعتماد ما هو مشترك، للوصول إلى توافق يتواصى به، وتتمخض عنه في نهاية المطاف، أشكال من المواقف، يكون من الأهمية بمكان، العمل بموجبها، بالتعايش، والتعاون والتعاضد، والصبر عليها، والتواصي بها.

عليه فإن الأصل في الحوار التواصي، وهو اختلاف الرؤى وفي قبول هذا الاختلاف، يتجلى التفاهم والتواصي، الذي يمليه احترام الغير، المختلف والمستقل، عملاً بحرية الفكر، كمعطي وجودي وأخلاقي:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

(سورة البَقَرَة الآية: 256)

وهذا ما يميز الإنسان الحضاري (المكرم)، على عكس التعصب والتعنيف الوحشي الهمجي، الذي يتسم به سلوك البهائم.

لا يمكن أن يكون للمعرفة قيمة، ما لم يتبعها موقف عملي، يلتزم بمعارفها، كما أنه لا يمكن أن يكون للتواصي بالحق معنى دون الإقرار بالاختلاف مع الغير

إن الحوار الاتصالي، المفضي إلى التواصي بين أعيان، تسبح في سياقات تاريخية واجتماعية، يتأسس على قواعد، تؤطرها أصول وتقاليد، وتحكمها أخلاقيات؛ إذا لم يؤخذ بها جميعًا، يفقد الحوار حقيقته، ولا ينتج تواصلاً، ويصبح الأمر مختلفًا، يتعلق بمقاصد أخرى، وقد تكون التحامل، أو التهافت، أو التشنيع، أو الهيمنة، وقد أثار التراث الفكري العربي مبكرًا، متعلقات الحوار بمفهومه التواصلي، مثل ما قاله ابن حزم في كتابه: مراتب العلوم: «ولقاء المتنازعين، وحضور المتناظرين، فبهذا تلوح الحقائق، فليس من تكلم عن نفسه وما يعتقد، كمن تكلم عن غيره، وليست الثكلى كالنائحة المستأجرة، ومن لم يسمع إلاّ من عالم واحد، أو شك

أن لا يحصل على طائل، وكان كمن يشرب من بئر واحدة، ولعله اختار الملح المكدّر، وقد ترك العذب، ومع اعتراك الأقارب ومعارضتهم، يلوح الباطل من الحق...».

وقد أكد ابن حزم هذا الإقرار الواضح، بضرورة الغير المختلف في رسالة أخرى هي: (التقريب لحد المنطق)، إذ يقول: «اعلم أنه لا يوصل إلى معرفة حقيقة بالاستدلال، إلا بالبحث، والبحث يكون عن تذاكر، إما من معلم إلى متعلم، وإما من متناظرين مختلفين، وهذا الوجه هو آخر ما يتوصل به إلى بيان الحقائق بكثرة التقصي فيه».


ابن رشد

ونجد تدقيقًا لهذه الفكرة عند ابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) إذ يقول: «لابد أن يسمع الإنسان أقاويل المختلفين في كل شيء يفحص عنه، إن كان يجب أن يكون من أهل الحق، ومن العدل: أن يقام بحججهم من ذلك ويناب عنهم، إذ لهم أن يحتجوا بها، ومن العدل أن يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي لنفسه».

لا أعتقد أن هناك من يعترض على حقيقة، أن الحوار يؤدي إلى المعرفة، عن طريق إعداد الأسئلة الجوهرية، الهادفة إلى الحصول على التصورات الموضوعية الدقيقة، وبذلك يكون التصور الصحيح للحقائق، ومن المعلوم كذلك أن السؤال ابن المعرفة، كونه يستهدفها، ويصدر عنها في نفس الوقت، ويكون ذلك بفحص آراء المحاور، أو بنقد معاييره وفق معايير ملكة العقل، والسؤال مسؤول، لأن المحاور يسأل ويُسأل، وبذلك فإن الحوار كونه معرفة وأخلاقًا، يكون كذلك اختلافيًا ونقديًا، للإجابة عن أسئلة تتطلب جهودًا تبريرية، بأدلة معقولة ومقبولة من طرفين، ليتم التواصل والتواصي، دون تعنيف أو استبعاد للإختلاف، إنها ضوابط وجدت مصادرها، في الفكر الذي أنتجه، الأدباء والفلاسفة العرب المسلمون، وقد عبر عن ذلك أبو حيّان التوحيدي قائلاً: «لكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس، في صناعتها وحلّها وعقدها كمال وتقصير»، ليؤكد أن قيمة الحوار في الإيمان بالنسبية الفكرية، وأنْ لا أحد يملك الحقيقة المطلقة متفردًا، أو على حد تعبير ابن خلدون، في مقدمته عندما قال: إن الحقيقة لا يملكها طرف واحد.

ويذهب الأمر بالمفكرين العرب المسلمين إلى اشتراط النقاوة في لغة الحوار، مما يسبغ عليه أجواء الاحترام والتعاطف، من خلال العبارات الراقية النبيلة، وهذا ما يشترطه الجاحظ في المناظرة السليمة، التي ينبغي أن تكون خالية من التشادق في الكلام، والإغراق في غريب اللغة، والتكرار والحشو، وغير ذلك ما من شأنه أن يؤدي إلى شرود الفكر عند المتحاورين، وكل ما ورد على لسان مفكرينا من اشتراطات واحتياطات، كما جاء على لسان محمد أركون، في كتاب: «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل» عندما قال: «يؤطر الحوار تأطيرًا أخلاقيًا، للخروج من السياجات الدوقمائية(*) المغلقة»، والانفلات من هذه السياجات إلى روح التفتح على الغير واحترامهم، والتعاون معهم، من أجل بناء عالم أفضل، يليق بالإنسان (المكرّم) بالعقل، وكما قال (يوحنا بولس الثاني) في كلمة ألقاها في اليوم العالمي، من أجل


محمد أركون

---

* الدوقمائية أو الدوغماتية: نهج فكري يقوم على التزمت والإيمان بامتلاك الحقيقة . (التحرير)

السلم، عام 1992 مسيحي: «إن العلاقات بين الأديان، تبدو الآن كطريق لا محيد عنه، لكي لا تتكرر العديد من التمزقات المؤلمة، التي عرفتها القرون الماضية، ولكي تلتئم الجروح التي ما زالت قائمة.

والقرآن الكريم يأمرنا:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾

(سورة الأنفال الآية:61)

ويأمرنا بالتعاون على البر والتقوى، وأن لا نتعاون على الإثم والعدوان، ويأمرنا بأن ندفع بالتي هي أحسن، والكثير من آداب الحوار التواصلي، الذي يحتاجه عالمنا المعاصر، للخروج من دائرة الخسران المحقق، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، ولن يكون ذلك إلا بالحوار التواصلي وكما يقول حكيم الكونفشيوسية (كونج) في حكمته: «كلما سرت مع رجلين وجدت لنفسي أستاذين، من له فضائل يكون قدوتي، ومن له رذائل يكون عبرتي»، ويقول كذلك: «إن الفضيلة الإنسانية الصحيحة، تتطلب قدرة جبارة، والطريق إليها صعب المنال، ولا يمكن تلمسها بالأصابع، أو الوصول إليها بالأقدام، ومن يستطع أن يقترب منها أكثر من الآخرين، يعتبر أفضلهم، والأفضل يعتبر مقياسًا لغيره، أما بالمقياس المطلق للفضيلة فيكون من المستحيل أن تجد شخصًا فاضلا».

إن المفاهيم التي عولجت بها مواضيع التفاعل الحواري بين الثقافات، أو بمعنى أصح بين الدوائر الثقافية المتقاطعة، والتي تفوق في كميتها الدوائر الحضارية، باعتبار أن الحضارات لا تتعاصر بل تتناوب، في حين أن الثقافات تتعاصر داخل فضاءات جغرافية متعددة، وتدخل في علاقات تفاعلية فيما بينها، دراسة وتأويلاً، محاكاة وترجمة، بحيث يتفاعل الأشخاص، كحاملين للثقافة بين دوائر ثقافة متنوعة ومختلفة، ومن شأن التفاعل أن يضعف أو يقوي أطرافه، ومنه يحدث التغيير نحو الأحسن، أو نحو الأسوأ، وقد اتضحت صورة هذا التفاعل في عصر العولمة، المحمول على جناحي ثورة الاتصالات، وثورة المعلومات، حيث تجسد الحوار بين الأعيان، على أرض الواقع، بعد أن تواجد في مدينة واحدة، ودولة واحدة، بل وحي واحدة، شتى الأنماط والأشكال الثقافية، العالمية والشعبية اللباس التقليدي، إلى جانب الملابس العصرية، واللغة الوطنية، إلى جانب اللغات الأجنبية، وعدة أنماط من الموسيقاء إلى المعمار، غيرت الواقع السمعي والبصري، وتحولت المحمولات الثقافية المتعددة والمتنوعة، إلى سلع إستهلاكية، حتى اتسعت فضاءات التفاعل، في إطار النظام العولمي، واحتدت درجة هذا التفاعل، وتنوعت تجلياته، وكانت النتيجة، المساس المؤثر بنظرية النقاء العرقي، والمعرفي والثقافي، وبات السؤال المؤرق هل يستطيع أيًّا كان، أن يقول بأن هويته ثابتة متفردة، لم يدخلها أي خليط ثقافي مختلف، لقد أصبحت الهوية مرتبة، تبنى وتشيد وليست جوهرًا ثابتًا، الأمر الذي دفع (هابرماس)، إلى القول: بأن قيمة الإنتماء لثقافة واحدة، تعرقل وجه التحرر الفعلي للفرد.

يذهب الأمر بالمفكرين العرب المسلمين إلى اشتراط النقاوة في لغة الحوار، مما يسبغ عليه أجواء الاحترام والتعاطف، من خلال العبارات الراقية النبيلة

لقد أصبحت المواطنة بذلك متعددة المشارب الثقافية، ولم يعد للمثقف باطن وظاهر، بل شفافية معرضة للإنجذاب، دون حدود أو قيود، وأصبح الحوار غير منطوق وغير مفكر فيه، بل هو حياة ومعيشة، ومن هنا يمكن الجزم بانقطاع تام بين حوار المجردات، وحوار الأعيان، بين الثقافات والأشخاص، ومن ذلك تستجد ثوابت ومتغيرات، وتنصب الرهانات

الكبرى للمستقبل من أجل أن يقوم النظام التربوي والتعليمي والإعلامي، بتنمية وتحفيز العقل الحواري التواصلي، لإنسان العولمة بالمعرفة العميقة، لكل أنماط وأشكال الدوائر الثقافية، من أجل القضاء على الجهل المتبادل مع الغير، الذي هو السبب الحقيقي والأساس في حالة الإضطراب، التي تعرفها العلاقات بين المجتمعات، ولا سبيل لإنقاذ البشرية مما تتخبط فيه من حروب، وكوارث مأساوية، وما قد يحدث من مواجهات أعنف وأشد، إلا بتقديم الأشياء على حقيقتها المجردة، لينتهي الجهل الثقافي المنتشر، خاصة عند النخب السياسية الموجهة لأحداث العالم، والأمل كل الأمل، في العقل الجماهيري التواصلي، المسلح بالمعرفة، الذي يسلك سبيل الحوار التواصلي، المفضي للتواصي بالحق، من أجل إدراك الحقيقة، والوقوف مواقفها، والتواصي بالصبر عليها، وإرساء دعائم ثقافة السلام، بدل ثقافة الحرب، وإدراك بأن الحروب تنشأ في عقول البشر أولاً، لذلك يجب انتزاعها من تلك العقول بالتربية والعلم والمعرفة والتواصل والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

5 ـ أدب الحوار :

يزخر التراث العربي الإسلامي بأدبيات وقواعد توصل لما يجب أن يكون عليه المتحاورون، وفي هذا الصدد تصدّى الفيلسوف الأندلسي ابن حزم في كتابه: «الأخلاق والسير في مداواة النفوس»، مؤسسا لمجالس الحوار، التي كانت تعرف بمجالس العلم، قائلاً: «إنّ حضرت مجلس علم، فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علمًا وأجرًا، لا حضور مستغن بما عندك، طالب عثرة تشيّعها، أو غريبة تشنّعها، فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في العلم أبدًا»، وفي كتابه الشهير: «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، يضع منهجًا للمناظرة، فيقول: «كتب كثيرون في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتبًا كثيرة جدًا، فبعض أطال وأسهب، وأكثر وهجر، واستعمل الأغاليظ والشغب، فكان ذلك شاغلاً عن الفهم، وقاطعًا دون العلم، وبعض حذف وقصّر، وقلل واختصر، وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات، فكان في ذلك غير منصف لنفسه، في أن يرضى لها بالغبن في الإبانة، وظلمًا لخصمه في أن يوفه حق اعتراضه، وباخسًا حق من قرأ كتابه، إذا لم يغنه عن غيره، ومنهم من عقّد كلامه تعقيدًا يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم، وحلق على معاني من بعد، حتى صار ينسى آخر كلامه أوله، فكان هذا منهج غير محمود في عاجله وآجله»، أما «الشهرستاني» في كتاب (الملل والنحل) فيقول: «شرطي على نفسي، ألا أفاوض الخصم بغير صنعته، ولا أعانده على لفظ توافقنا على معناه وحقيقته، فلا أكون متكلمًا جدليًا، ومعاندًا سوفسطائيًا»، وفقًا لهذه القواعد جادل ابن رشد في كتابه: (تهافت التهافت)، كتاب (تهافت الفلاسفة) الذي كتبه قبل عصره بكثير شيخ الإسلام أبو حامد الغزالي، وكان في مجادلته موضوعيًا، ومنصفًا، لأنه ملتزم بما أكده في كتاباته عن قصد الحوار، إذا كان «ليس هو معرفة الحق، وإنما هو إبطال الأقاويل، واظهار الدعاوى الباطلة، فقصد لا يليق بالإنسان، بل بالذين هم في غاية الشر» يقول: «هبك إذا أخطأ المحاور في شيء، فليس من الواجب أن يذكر فضله في النظر، وما كان يمكن أن يسهم في إغناء العقول».

إن المتابع للتراث العربي الإسلامي، يجد دون شك تأصيلاً راقيًا لفن الحوار وآدابه، ويجد

الحضور الإنساني بكل تجلياته، يبث المعنى المباشر، الذي يكشف عن الحقيقة والواقع، دون تدجيل أو تزييف.

المحصلة كلها أصول وقواعد تجنب الأسلوب التهديمي، وتحول دون أن يصدر عن غير الجاهل قول جاهلي، وليتضح كذلك أن الفكر العربي الإسلامي الصحيح، أبعد ما يكون عن التطرف والغلو، والتحيز والتعصب، بل إنه يستنكر هذه السلوكيات ويستهجنها، على لسان الجاحظ في رسائله، التي تستنكر «العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لم تبق ديناً إلا أفسدته، ولا دنيًا إلا أهلكتها»، ومن ذلك يثبت أن الحوار الحضاري الراقي، يقف ضد كل تعصب، ويمنع أي تطرّف، وعلينا أن نعي ونفهم، أنه إذا أردنا حوارًا بناءً ومنصفًا، لا بد من الاصغاء الذكي، لمثل النصوص، التي أوردها القرآن الكريم عن أدب المجادلة، وما سنة الرسول الكريم ﷺ الذي أوحي له النص وفهمه، وما يزخر به تراثنا العربي الإسلامي، من نصوص، التي لا نشك في أن ليس لها مثيلاً في فكر الغير من الأمم، إذا تمكنا من تتبعها وإبرازها للخروج من السياجات (الدوقمائية) المغلقة، والانفلات منها إلى روح التفتح على الغير، المختلف، واحترامه والتعاون معه، من أجل بناء عالم أفضل يليق بالإنسان المكرّم، وتشكيل قناعة مشتركة تمكننا من تجاوز أحقاد الماضي، وتراكماته السلبية، التي شوهت الصور وحرفت الحقائق، وهذا ليس بالأمر السهل أو الهين، بل إنه في غاية التعقيد، ولكن طرّق مجالاته بات ضروريًا للتخلص من منطق الصدام والحروب والصراعات، وصولاً لمجالات التفاعل والتعايش، والتسامح والتضامن، وما علينا سوى أن نستوحي من التراث الفكري المشترك نسقًا قيميًا عالميًا، يضع أسس التحاور والتعامل والتفاعل بين المثقفين والمفكرين، تكون غايته معرفة الحقيقة والتواصي بالحق، والتزام الفعل الصالح الناتج عنه، والتواصي بالصبر عليه، لأنه حتمًا لن يكون بالأمر الهين، وهذا ما يؤكد أن الحوار الحقيقي، الباحث عن الحقيقة، والمفضي للتواصي بالحق، لم يبدأ بعد، ونكون قد جانبنا الموضوعية، إذا لم نقر بوجود معوقات ما زالت قائمة لعدم وضوح الغايات والأهداف، وغياب المنهجية الواضحة للقواعد المشتركة، ناهيك عن الصور المشوهة والحقائق المحرفة، والتي لا زالت تحرف دون توقف، ولكن هذا يجب أن لا يفت في عَضُد المخلصين، حتى يواصلوا الجهد المعرفي المعمق في زمن العولمة لمعرفة الغير، معرفة صحيحة ومعمقة، فكرًا وعقيدة، وأسلوب حياة، ومذاهب فلسفية، وأساليب سياسية، ومصالح مادية ومعنوية، وأن يرادف ذلك التزام يتمثل الغير ويفهمه، والإمتناع عن إصدار الأحكام المسبقة عليه، التي غالبًا ما تكون مغلوطة وفاسدة، وهذا لن يكون إلاّ بتجاوز الظرفيات، والتفكير فيما يمكن أن يكون إنسانيًا، ومستمرًا وشفافًا، ومعمقًا ومرسخًا لعلاقات التعايش والتشبث بمفاهيم نسبية الحقائق، المؤسسة لمفاهيم التعددية والتكامل، مع الإصرار على توظيف كل ما هو مشترك، دون إنكار لمواضع الاختلاف، وتجنب التفاخر المبنى على فكرة التراتبية الحضارية، أو الأفضلية العرقية، مع تحييد النزاعات التي تعمل على إدامة أجواء التوتر، ومقاومة مروجيها والعاملين على الاستفادة منها، والتأكيد الموضوعي على أنه من المستحيل وجوديًا، أن ينفصم (الأنا) عن (الغير المختلف)، لأن كلاً منهما ضروري لتألق التميز عند الآخر، الذي يغتني دون شك بالتناظر والتشابه.

الرهانات الكبرى للمستقبل أن يقوم النظام التربوي والتعليمي والإعلامي بتنمية وتحفيز العقل الحواري التواصلي بالمعرفة العميقة



التواريخ المستحيلة

بقلم: إدوارد سعيد *

ترجمه عن الإنجليزية: **محمد العالم** **

راجع الترجمة وأعدها للنشر: **الصديق بشير نصر** ***

يناقش هذا المقال كتابين هما :

- **الإسلام : تاريخ قصير، بقلم كارين آرمسترونغ، المكتبة الحديثة 2002 مسيحي.**
- **ما الخطأ الذي حدث؟ التأثير الغربي ودور الشرق الأوسط. بقلم برنارد لويس، مطبعة جامعة أوكسفورد 2002 مسيحي.**

اتسم تاريخ محاولة إيجاد تفاهم مع الإسلام المقولب روائياً أو (المُركب) في أوروبا، وبعدها في الولايات المتحدة، دوماً بالأزمة والصراع، أكثر من الرصانة وتبادل وجهات النظر. وهناك عامل آخر يضاف الآن، وهو نشر الكتب التجارية، حيث يجد المراقب كتاباً لخبير ماهر، يقفز إلى قائمة الأكثر مبيعاً، وهو يخبرنا عن كل ما نحتاج إلى معرفته حول الإسلام، ومشاكله وأخطاره، وآفاقه المستقبلية. وقد برهنت في كتابي (الإستشراق) أن السبب الحقيقي للمحاولات الأوروبية للتعامل مع الإسلام، كما لو كان كياناً ضخماً، هو ضرب من الجدل اللاّهوتي... أي أن الإسلام قد اعتبر تهديداً لأوروبا المسيحية، وأنه يجب تحديده أيديولوجياً، مثلما حدد (دانتي) محمداً على أنه في الدرك الأسفل من جهنم.

وبمرور الوقت ومع تطور الإمبراطوريات الأوروبية، ارتبطت معرفة الإسلام، بالسيطرة والنفوذ والحاجة إلى فهم «العقل»، والطبيعة الجوهرية لثقافة مقاومة، إلى حد ما، كطريق إلى التعامل، تنفيذاً مع ذلك الغريب القامع في قلب الإمبراطوريات المتمددة؛ وخاصة البريطانية والفرنسية.

---

* باحث أمريكي من أصل فلسطيني.

** صحفي / ليبيا.

*** كاتب وباحث وأستاذ جامعي/ ليبيا.

وأثناء الحرب الباردة وعندما كانت الولايات المتحدة في خصومة مع الإتحاد السوفييتي، حول السيطرة، أصبح الإسلام بسرعة يمثل قلقًا أمنيًا أمريكيًا. حدث ذلك أثناء تفجر الثورة الإيرانية (وبعدها إبّان الغزو السوفييتي لأفغانستان) عندما انتهجت الولايات المتحدة سياسة تشجيع وتأييد فعلي للجماعات السياسية الإسلامية، والتي كانت بالتحديد مناوئة للشيوعية، وهي ذات فائدة في معارضة الحركات الوطنية الثورية (الراديكالية) والتي كان يريدها السوفييت. وبعد انتهاء الحرب الباردة، وبروز الولايات المتحدة «كقوة عظمى وحيدة في العالم» سرعان ما بدا جليًا أنه في البحث عن توازن دولي وأعداء خارجيين كان الإسلام المرشح الأول، وأبرزت من جديد (الكليشيهات) الدينية القديمة عن الإسلام الذي يتبنى العنف والمناوئ للحداثة والمتسم بالرتابة. ولقد كانت (الكليشيهات) ذات فائدة لإسرائيل ولمؤيديها، من السياسيين والأكاديميين في الولايات المتحدة، وخاصة بسبب ظهور حركات المقاومة الإسلامية، للاحتلال العسكري الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية واللبنانية.

وفجأة حدثت فورة لمعلومات وافية، وتسربت إلى الصحافة، يخلص معظمها إلى إيجاد صلة «للإسلام» بتلك الإنفعالات الدنيا والمنافية للعقل، على شاكلة الغضب ومعاداة الحداثة، ومعاداة المبادئ الأمريكية، ومعاداة العقلانية والعنف والإرهاب. ولم تكن بمفاجأة، عندما بالغ (صموئيل هنتينغتون) في تقديره بمقاله حول صدام الحضارات والذي ظهر عام 1993 مسيحي، وكان الطرح موضوعًا للصراع بين «الغرب» و«الإسلام» (والذي حذّر بحكمة من أنه يمكن أن يصبح أكثر خطرًا عندما يتحالف مع الكونفشيوسية) وما لم تتم ملاحظته فورًا في ذلك الوقت، هو كيف استُعير عنوان (هنتنغتون) وأطروحته من عبارة وردت في مقال كتب عام 1990 مسيحي، بقلم الأكاديمي البريطاني، الذي كان يعيد أفكاره وهو: (برنارد لويس) بعنوان: «جذور الغضب الإسلامي» وكان لويس، خبيرًا بشؤون تركيا الحديثة، منذ حوالي أربعين عامًا، إلا أنه حَلّ بالولايات المتحدة، في منتصف السبعينيات، وأصبح من أقطاب الحرب الباردة، يطبق مبادئه الإستشراقية، على مواضيع كبيرة، والتي كان لها هدفٌ آنيٌّ وهو: اظهار الصورة «الأيديولوجية» للإسلام والعرب بما يتناسب مع مواقف السياسة الخارجية الأمريكية، المؤيدة للإمبريالية والصهيونية. ولا بد من ملاحظة أن المعرفة الإستشراقية نفسها، كانت مقدمة منطقية تأسست في غيبة، أو صمت صاحب الشأن، والذي مَثَّله خبير غربي، يتكلم من على عرش أسقفية سابق، نيابة عن ذلك المواطن (المسلم)، ويتم تقديم ذلك المخلوق غير المحظوظ، على أنه متخلف وناقص وغير متحضر، ولا يستطيع تمثيل نفسه. ولكن، وكما أصبح الآن من غير اللائق للعلماء البيض، التحدث نيابة عن السود.. فإنه منذ انتهاء الاستعمار الأوروبي (الكلاسيكي) لم يعد مطابقاً للحداثة ولا مقبولاً الحديث عن العقلية الشرقية (من مسلمين أو هنود أو يابانيين) باسلوب كهنوتي.


ادوارد سعيد


برنارد لويس

واستثناءً من المفارقات التاريخية مثل: لويس، وفي سياق الكتب والمقالات ذات الوتيرة الواحدة، والتي تحتوي على عبارات لاذعة، لا يفل عزمها تجاهل التقدم المعرفي، الذي حدث مؤخرًا في (الانثربولوجيا) والتاريخ والنظريات الإجتماعية، والدراسات الثقافية؛ ويُصِرُّ على الخدع المستقاة من

فقه اللغة التاريخي، كاستنباطه جزئية ولوع الإسلام العربي المعاصر، بالعنف الثوري طبقًا لمواصفات بدوي يربي الإبل. وبالنسبة للقارئ فإنه لا يفاجأ ولا يكتشف جديدًا في أي شيء يكتبه (لويس) ما دام كل ما يضاف إلى رؤاه، هو تأكيد للنزوع الإسلامي للعنف والغضب، ومعاداة الحداثة، بالإضافة إلى ضيق أفق الإسلام (وخاصة العرب) وولوعه بالرق وعدم قدرة المسلمين على الإهتمام، إلا بأنفسهم وما شابه ذلك.

و(برنارد لويس) قابع الآن في عليائه ببرنستون، (وهو في الوقت الحالي، متقاعد وفي أواخر الثمانين من عمره، ولكنه لا يزال يعمل بدون كلل، من أجل الدعاية الدينية السياسية الناتجة عن الجدل). ويبدو أنه لم يتأثر بالأفكار والرؤى، بالرغم من أن معظم خبراء الشرق الأوسط، قد أهملوا أعماله وضعفت ثقتهم بها) جراء التقدم العربي الأخير حول الأشكال الخاصة للخبرة الإسلامية.

وكان (لويس) المعروف بمظهره الخادع، في استعماله للغة الإنجليزية، واستعداده التام لعدم التشكيك فيما يقوله، وهو الآن المشارك المناسب في مناقشات، ما بعد سبتمبر، وإيضاحاته الفجة، بإفراغه القديم في قالب جديد، في كل من صحف: «نيويوركر The New Yorker» و«ناشيونال ريفيو National Review» ، وكذلك في برنامج تشارلي روز Charlie Rose، ويبدو أن حضوره يسعد محاوريه ورؤساء الصحف.

ويقابل أسلوبه اللاذع، وقصصه ونوادره عن التخلف الإسلامي، ومعاداة الحداثة، بكل تلهف. أما وجهه نظره فيما يتعلق بالتاريخ، فهي داروينية فجة، تتصارع من خلال الثقافات والسلطات، من أجل السيطرة، وبعضها ينجو وبعضها الآخر يغرق. ويبدو أن نزوات (لويس) (وهي قلما تكون أفكارًا) تشوبها أفكار (اشبنغلريه)❖❖ غامضة، بالرغم من أنه ليس له صلة بفلسفة (شبينغلار) أو طموحاته وآفاقه. ولم يبق الكثير أمام (لويس) ليقوله من أنه يمكن قياس الثقافات بشروطها المرعبة: (أن ثقافتي أقوى.. أي بمعنى تملك قطارات أفضل، وبنادق أفضل، و(سمفونيات) أفضل و(أوركسترا) أفضل، مما عندكم) ولأسباب واضحة إذْ ظهر كتابه الأخير: What Went Wrong ماذا حدث من خطأ؟ والذي كُتب قبل الحادي عشر من سبتمبر، ولكنه نشر بعده.

المعرفة الإستشراقية نفسها، كانت مقدمة منطقية تأسست في غيبة، أو صمت صاحب الشأن

وقد أحدث الكتاب رواجًا في قائمة الكتب الأكثر مبيعًا وسدَّ نقصًا يشعر به الكثير من الأمريكيين الذين يريدون التأكد بأنفسهم، لماذا هاجمهم «الإسلام» بهذا القدر من الوحشية والعنف، في الحادي عشر من سبتمبر؟ ولماذا استحق ذلك الذي حدث خطأ بالإسلام، هذا العمل المخزي المثير للاشمئزاز؟ وموضوع الكتاب الحقيقي هو ما الخطأ الذي حدث مع (لويس) نفسه؟ موضوع حقيقي أكثر منه ملفق.

أما بالنسبة للكتاب، فهو كارثة أخلاقية وفكرية وأنه الصوت المرعب المبحوح والمثير للأعصاب، والخالي من أي رأي أكاديمي، هو خالٍ تمامًا من أية خبرة مباشرة عن الإسلام، فهو يقولب القديم في صيغ جديدة، ويعيد معالجة الإستشراق جزئيًا (نصف الحقيقة أو أقل).

ولنتذكر أن لويس، يدعي أنه يناقش «الإسلام» ككل، ليس فقط المقاتلين المجانين في أفغانستان أو مصر أو إيران، هو يحاول أن يجادل في أن كل شيء

❖❖ نسبة إلى اشبنجلر، فيلسوف الحضارة، صاحب كتاب (تدهور الحضارة الغربية).



سار على نحو «خاطئ»، كما لو أن كل الشعوب، وكل اللغات، وكل الثقافات، قد تم الحكم عليها بصورة مطلقة، من قبل شخص ليس لديه أية خبرة عن أي مسلم، (عدا حفنة من الكتاب الأتراك الصغار). كما لو كان التاريخ موضوعًا سهلاً للحقوق، كما تضع السلطة تعريفًا لذلك.

إن الأمر في الحقيقة أسوأ من ذلك، مع وجود استثناءات، حيث كانت جميع حواشي الكتب التي ألّفها لويس، والمصادر الراسخة (بالرغم من ندرة إشارته إلى مصادر راسخة يمكن للشخص أن يقرأها) كانت تركية. كل تلك المصادر كانت عدا النزر اليسير، من المصادر الأوروبية والعربية، فكيف يسمح له ذلك بالإشارة إلى أن مصادره تلك تكتسي أهمية، وعلى سبيل المثال، لم يتطرق إلى الدول العربية التي تبلغ إحدى وعشرين دولة، أو أندونيسيا أو الباكستان أو المغرب، أو إلى ثلاثين مليون مسلم صيني، وهؤلاء جميعًا جزء متكامل من الإسلام، ولم يذكر لويس في الحقيقة، تلك الجماعات التي تحمل بشدة على الإسلام، والتي تدعمها مصادر تركية.

وبالرغم من حقيقة أنه حمى نفسه، أولاً: بقوله إن جدله (بشكل خاص وليس حصريًا) يهتم بمنطقة يسميها بغموض الشرق الأوسط، فقد قام بإلقاء التحفظ في مهب الريح، وبإعلانه أن المسلمين كانوا يسألون منذ زمن طويل ماذا حدث؟. شرع بعد ذلك في إخبارنا ماذا يقولون، وماذا يعنون؟ ولم يذكر اسمًا واحدًا إلا نادرًا، لا في حلقة من سلسلة أو حقبة،

عدا في العموميات. إن المرء لا يسمح لشخص غير خريج بالكتابة بشكل عرضي، هكذا مثلما يفعل هو في القرن التاسع عشر. إن المسلمين كانوا «قلقين» حول فنون الحرب، وفي القرن العشرين، وأكثر وضوحًا في الشرق الأوسط، وعبر جميع بلاد الإسلام، أصبحت الأشياء تنحى منحى سيئًا للغاية. إن كيفية تأثير (برنارد لويس) على رجل الشارع الأمريكي بشكل عام، لا يمكن أن تمرر في أي مجال آخر، أو دين آخر، أو بلد آخر، أو على شعب آخر، وهذه علامة على ضحالة المعرفة عن البلدان الإسلامية، وكم كان لويس مجردًا من المبادئ الخلقية في ترويجه لذلك التجهيل. إن أي قارئ متعقل لا يمكن أن يقبل البتة تلك الجمل اللاعقلانية من قبيل: (اختارهم عشوائيًا) والتي تتحدى التفكير البديهي.

«لقد كان القرن التاسع عشر برمته ومعظم القرن العشرين، مجالاً للويس، للبحث عن الطلسم الخفي (وهذا من مخترعات لويس) وكان المفترض أن يكون هذا نزوع المسلمين لمحاولة تفسير السلطة الغربية» وهذا الطلسم يتركز في شيئين: الاقتصاد، والسياسة، أو كما وصفها بطريقة مختلفة «الثروة والسلطة».

فما هي الحجج التي قدمت في بحر مائتي سنة من «البحث» والتي شغلت جميع أنحاء العالم الإسلامي؟ بيان واحد صدر في بداية القرن التاسع عشر من قبل السفير العثماني في باريس، أو اعتبار تلك دقيقة على حد سواء وأنها كانت عموميات أنيقة.

«قدمت إيطاليا وألمانيا خلال عقد الثلاثينيات (أيديولوجية) ونماذج سياسية جديدة ومع ازدياد الإغراء لمعارضة النفوذ الغربي (ناهيك عن إهدار الوقت في «المعارضة»، ولويس لا يأبه لأن يخبرنا إلى من وُجهت تلك النماذج، وبأية طريقة، وطبقًا لأية براهين؟. إنه يمشي بإعياء شديد على أي حال، ولقد نال ذلك تأييدًا كبيرًا، حتى بعد هزيمتهما العسكرية في الحرب العالمية الثانية. وبقيتا تعملان كنماذج خفية، في كل من: الأيديولوجية وفن إدارة شؤون الدولة».

وبما أنها كانت نماذج غير معلنة، فإن المرء لا يحتاج لسَوْق أية براهين على وجودها كنماذج وفي الواقع فإن لويس لم يقدم شيئًا، أو اعتبار ذلك أكثر جلالاً ونفاسة، والذي يراد منه أنه عندما تتم ترجمة الكتب من اللغات الأوروبية فإن المسلمين البائسين لا يقومون بعملهم بجدية، «لاحظ المقدمة الباهرة» الترجمة تحتاج إلى مترجم. «وأنه ينبغي على المترجم أن يعرف كلتا اللغتين» اللغة التي نقل منها واللغة التي نقل إليها. (من الصعوبة عليّ اعتقاد أن لويس كان يقظًا، عندما كتب هذا الهراء الغريب، أو أن ذلك مجرد حقيقة بديهية ثاقبة؟ وهذه المعلومة مثلما تبدو غريبة كانت على نحو كبير من الندرة في الشرق الأوسط حتى وقت متأخر نسبيًا.

هل من الحكمة إبطال العمل بالبراهين التاريخية عندما يكون الإسلام موضوع البحث؟

وكان هناك القليل من المسلمين الذين عرفوا أيًا من اللغات المسيحية، حيث اعتبر ذلك غير ضروري وإلى حدٍّ ما حَطّاً من القدر. وبالنسبة للمترجمين فعندما تمس الحاجة إلى ترجمة تجارية أو دبلوماسية أو عسكرية، فإنهم يعتمدون أولاً على اللاجئين والمتمردين من أوروبا. إن كلا الطرفين قد فقد الإهتمام أو القدرة على انتاج عمل أدبي مترجم إلى لغات الشرق الأوسط.

ولا يوجد دليل ولا أسماء ولا إثبات أو وثائق ملموسة، على عدم قدرة أو أهلية المسلمين وأهل الشرق الأوسط، أما بالنسبة للويس فإن ما يكتبه عن «الإسلام» هو بديهي وبيّن بذاته، حيث سمح لنفسه

بمجافاة أعراف الخطاب الفكري، بما في ذلك الإتيان بالبراهين.

وعندما عرض كتاب لويس، في مجلة نيويورك تايمز، من قبل الألمعي بول كينيدي، من جامعة (ييل) كان هناك إطراء مبني على رؤية نقدية ضعيفة، كما لو أنه قد اقترح أن الحكمة من البراهين التاريخية، وجوب إبطال العمل بها، عندما يكون «الإسلام» موضوع البحث. ولقد تأثر كينيدي خصوصًا بجزم لويس، في فصل غلب عليه الخروج عن موضوع الدراسة، وهو: «أنماط التغيّر الثقافي» واختار لويس الإسلام، دون ثقافات العالم حيث قال: إن الإسلام لا يعير اهتمامًا إلى الموسيقا الغربية.

وبدون أية مبررات البتة، بدأ كينيدي بالمراوغة ونفي الحقيقة عندما قال: إن أهل الشرق الأوسط يحرمون أنفسهم حتى من موزارت! وهذا في الواقع ما أوحى به لويس ـ بالرغم من أنه لم يذكر موزارت ـ. وباستثناء تركيا وإسرائيل فإن «فن الموسيقا الغربية» يلقى آذانًا صماء في العالم الإسلامي. وهذا شيء كما يبدو الآن أعرفه، ولكن ثمة حاجة إلى بعض الخبرة المباشرة العملية، أو لحظات الممارسة الحياتية الحقيقية في العالم الإسلامي، لإدراك أن ما يقوله لويس، هو باطل في مجمله ومجانب للحقيقة لكونه لم تطأ قدماه البلدان العربية، أو لم يمض وقتًا ذا أهمية في هذه البلدان.

إنّ عدة عواصم عربية تملك معاهد ممتازة للموسيقا الغربية مثل القاهرة وبيروت ودمشق وتونس والرباط وعمان، وحتى رام الله في الضفة الغربية. وقد خرّجت تلك المعاهد آلافاً من الموسيقيين المرموقين والمتخصصين في الموسيقا الغربية، والذين اشتركوا في عزف عديد من السيمفونيات في حفلات نفذت تذاكرها، حدث هذا في جميع أنحاء العالم العربي. ويوجد العديد من حفلات الموسيقا الغربية، هناك وفي القاهرة (حيث أمضيتُ جزءًا كبيرًا من المراحل الأولى لحياتي، قبل أكثر من خمسين عامًا مضت). توجد العديد من الأماكن المرموقة للدراسة والإستماع ولمشاهدة الموسيقا الصامته، وتلك المغناة والتي يتم أداؤها على قدر كبير من الجودة. لقد كانت دار (الأوبرا) في القاهرة رائدة في أداء العروض (الأوبرالية) باللغة العربية وفي الواقع تحصلت على قرص مدمج تجاري يحتوي موسيقا موازات «زواج فيغارو» وقد تم أداؤه بصورة جيدة باللغة العربية. أنا أعزف عزفًا متواضعًا على البيانو ولقد عزفت ودرست وكتبت ومارست التدريب على تلك الآلات الفائقة، وأن السواد الأعظم من تعليمي الموسيقي قد تلقيته في القاهرة، على أيدي مدرسين عرب، والذين ألهمتهم الموسيقا الغربية حبًا ومعرفة (ولموزارت أيضًا) والذي لم يفارقني أبدًا، إضافة إلى ذلك، يجب أن أقر بأنه خلال السنوات الثلاث الماضية، رافقت (دانيال بارنبويم) في الإشراف على مجموعة من الشباب العرب والموسقيين الإسرائيليين، الذين حضروا لمدة ثلاثة أسابيع خلال فصل الصيف، للتدريب على موسيقا (الأوركسترا) أو موسيقا الحجرات. وكان المتدربون من العرب قد تلقوا تعليمهم في معاهد الموسيقا العربية. كيف استطاع بارنبويم وأنا أن نكون أعضاء هيئة تدريس في ورشة عمل، إذا لم يكن هناك مؤيدون للموسيقا الغربية بين المسلمين؟ أضف إلى ذلك لم اتخذ لويس وكينيدي الغياب المفترض للموسيقا الغربية، منبرًا للتحامل على الإسلام. ألم يكن هناك أنماط كثيرة من أنواع الموسيقا الفنية عند المسلمين

هل يمكن للمرء أن يقرأ ويفهم الإسلام بالطريقة التي انتهجها الكثير من الكتاب الخدام؟

التي يمكن أن نأخذها في الإعتبار، عوضًا عن الأغراض في ذلك العبوس المثير للضحك؟

ولقد عرضت كل تلك التفاصيل لاعطي شعورًا بعدم الراحة للهراء، الذي ورد في كتاب لويس، والذي من المفترض ألاّ يخدع مؤرخًا على شاكلة بول كينيدي، وهذا مؤشر كم كانت توقعات الناس منخفضة عندما تأتي المسألة إلى مناقشة الإسلام، جراء الخيالات (الأيديولوجية) العبثية التي كان يروج لها الخبراء الزائفون، أمثال برنارد لويس والذي قام بخداع رجل الشارع بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، عوضًا عن توفير فرصة للناس لتعليم أنفسهم، لقد فسد الجدل العام القائم (بالكليشيهات) المقتضية التي تضمنت الشكوك التي ساقها لويس. إن أسوأ جزء في هذا النهج أنه ينزع الصفة الإنسانية عن الناس، بطريقة منهجية، ويحولهم إلى مجرد شعارات لأغراض عدوانية ميالة إلى القتل. هذا ليس شيئًا عقلانيًا يمكن تفهمه. إن دراسة الثقافات الأخرى هي في الواقع متابعة إنسانية ولا تخصّ الإستراتيجية أو الأمن.

لقد أفسد لويس الجمهور وتظاهر بأنه يخبر بالحقيقة، استنادًا إلى مصادر عليا. وفي الواقع إن قراءة خاطئة لكتابه تظهر أنه نجح فقط في تحويل المسلمين إلى أعداء، ناهيك عن الإهانات وعبارات الإزدراء التي كالها لهم.

وسواء كان ذلك لجهل منه، أو لعدم الفهم الكافي بأن ذلك شأنه، أن يضع جهده في فئة الأعمال المنحطة لدفع الناس المترددين من القراء إلى التفكير في «الإسلام» والدفع بهم إلى الحكم عليه بالطبع بالرفض.

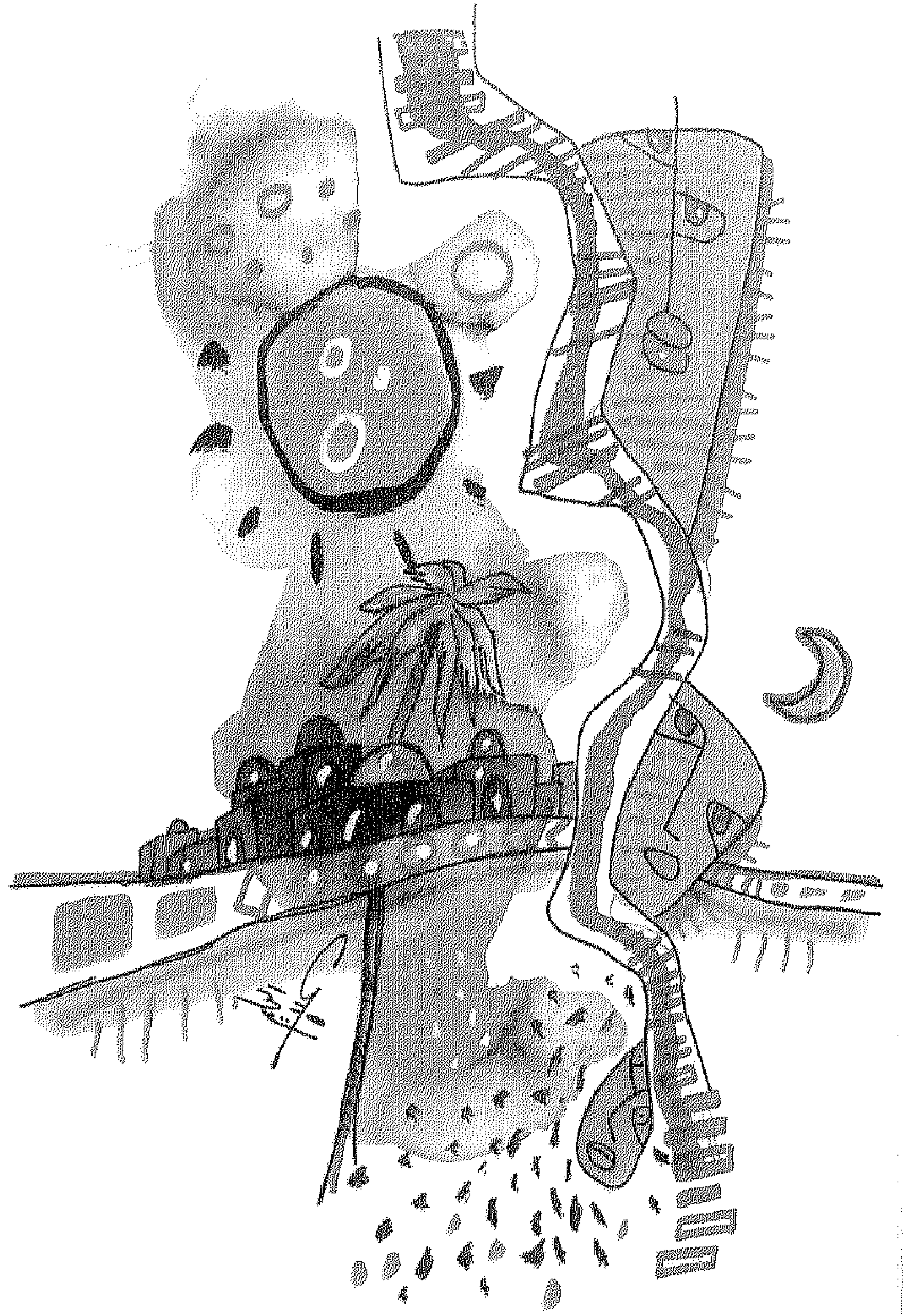
كاتبة أخرى هي (كارين ارمسترونغ) حققت كتاباتها مبيعات كبيرة، وقد اهتمت أجهزة الإعلام بها خلال الأشهر الأخيرة. وشأنها شأن لويس، قامت بتأليف كتابها The Battle for God، منذ وقت طويل قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكل الناشرين قدسوه على أنه حل لمشاكل وقتنا الحالي، آمل أن أتمكن من القول بحماسة أنه بالرغم من تواضعها فإن كتابها مفيد، ولكن يا للحسرة على الوقت الطويل الرتيب الذي انتابني في قراءته.

إن نواياها تبدو مخلصة بما فيه الكفاية، ان معظم أجزاء الكتاب كان يطلق النار على التاريخ وسرد الأحداث التاريخية منذ مولد محمدﷺ بدون نظرة فاحصة أو معرفة. ويمكن للقارئ أن يخرج من موسوعة جيدة عن «الإسلام» بمثل ما جاءت به المؤلفة. وتبدو ارمسترونغ مجدة بالرغم من أنها ليست ملحة بما فيه الكفاية فعربيتها ليست جيدة بالقدر المطلوب، فضلاً عن التشويش الذي غلب على سردها. وفوق كل ذلك فإن المرء يقرأ سطورها بدون شعور بالإثارة والتشويق. إن كتابها على شاكلة لويس يباعد الشقة ويسبغ عدم الإنسانية أكثر من التقارب فيما يتعلق بالإسلام.



كارين ارمسترونغ

وخلافًا للويس، أولت اهتمامًا بالنواحي الملموسة للحياة في الدين الإسلامي، وهذا الجزء من حججها يجعل كتابها، يستحق القراءة. إن الفصل الأكثر قيمة في كتابها ذلك الذي ناقشت فيه جميع أنماط الأصولية الحديثة بدون إثارة الحسد المعهودة عن الإسلام وبدون النظر إليه كظاهرة سلبية، وهي تقدم هدية مثيرة للإعجاب لفهم الأصولية من خلاله. وذلك بالإلتزام بعقيدة مهددة من الديكتاتورية العلّمانية. وباعتباري مفكراً علمانياً، أجد نفسي مع ذلك متأرجحًا بين حججها العاطفية، والمقنعة في هذا الفصل وتمنيت لو أنها عوضًا عن الوقوف في نهج السرد التاريخي العقيم، منحت لنفسها الفرصة بايراد مختلف مناحي الحياة الإسلامية الروحانية،



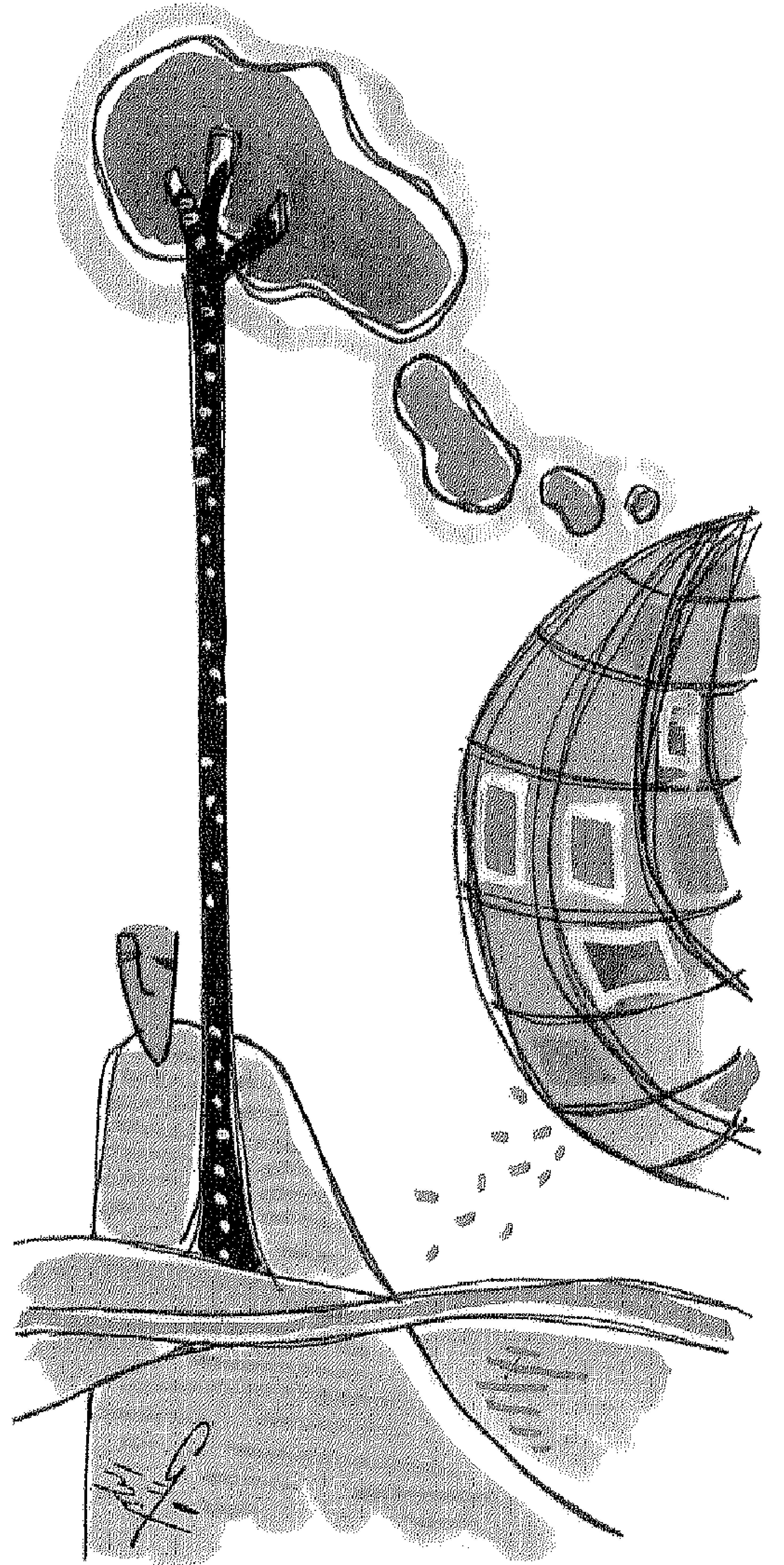
والتي هي بصفتها راهبة سابقة سوف تجده أكثر مجانسة لها.

بالطبع يمكن للمرء أن يقرأ ويفهم الإسلام ولكن ليس بالطريقة التي انتهجها الكثير من الكتّاب الحذاق، والذين يفعلون ذلك بطريقة خاطئة، ولفهم أي شيء عن التاريخ الإنساني، من الضروري أن تتم رؤيته من وجهة نظر أولئك الذين وضعوه، وليس التعامل معه على أنه سلعة مغلقة، أو استخدامه كوسيلة عدوانية. لماذا عالم الإسلام مختلف؟ أود القول إن المرء ينبغي أن يبدأ بالأعمال الكثيرة للأوائل باللغة الانجليزية والتي تصف، ما معنى أن تكون مسلمًا؟ كما في كتاب محمد أسد، الرائع «الطريق إلى مكة» والذي يمثل وصفًا يشد الإنتباه لقصة اعتناق ليوبولد نايس (1900 ـ 1992) الإسلام والمولود في لفوف Lvov والذي أصبح سفيراً لدولة باكستان في الأمم المتحدة. أو في رواية مالكوم إكس المتمثلة في مذكراته، أو في رواية طه حسين العظيمة «الأيام» والتي هي سيرة ذاتية له. إن الفكرة بأسرها، هي إيلاج عوالم الإسلام فيما يتعلق بالحياة، لا بالإنغلاق ووضعه في صندوق مشفّر مكتوب عليه «خطير».

وفوق كل ذلك فإننا لا نستطيع المضي في التظاهر بأننا «نعيش في عالم خاص بنا، وبالتأكيد وباعتبارنا أمريكيين، فإن حكومتنا لها نفوذ في جميع أنحاء العالم، من النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية، فلماذا نفترض أننا نقول إن ما نفعله حيادي؟ في الواقع إن له عواقب وخيمة على بقية الجنس البشري. وفي مجابهتنا مع الثقافات والأديان الأخرى. يبدو أن الطريق الأمثل لإنجاز شيء ما، هو ليس بالتفكير على شاكلة الحكومات أو الجيوش أو المؤسسات، ولكن بالتذكر والفعل طبقًا للخبرات الفردية، والتي تشكل حياتنا. وللتفكير بطريقة إنسانية ومجردة، والإبتعاد عن الشكلية فإنه من الأفضل قراءة الآداب القادرة على تبديد الأفكار (الأيدلوجية) الضبابية، والتي عادة تحجب الناس بعضهم عن بعض. وتجنب التراجم الحرفية والكتيبات المختزلة، والابتعاد عن الهواجس التي يطلقها خبراء الأمن، وفكرة أننا ضدهم. وفوق كل ذلك أنظر بعين الشك إلى كل شخص يريد أن يخبرك الحقيقة المثلى، عن الإسلام والإرهاب والعصيان العسكري، والتعصب الخ.... يمكن أن تكون قد سمعت ذلك من قبل. لماذا لا يتم البحث عن محتوى لمختلف أنواع الخبرات البشرية. وترك بقية المواضيع الأخرى للخبراء.

سنن الفطرة
ومنطق التجديد الحضاري

عطية فتحي الويشي *



في سياق الاجتياحات المادية لعديد من وجوه الحياة المعاصرة، وما تسببه من شيوع ظواهر التسرب الأخلاقي والقِيَمي والحضاري، وما ينذر به من مخاطر هائلة قد تضع مستقبل الأجيال الإنسانية المعاصرة على شفير سنن الاستبدال، التي تمضي في الناس جزاء التولي عن مقتضى الفطرة والشرود عن سواء السبيل، والعوث فساداً وتهديداً لحق الناس في الحياة، وفق منطلقات الحق والعدل والبر والمعروف والإحسان!.

تأتي أهمية تجديد الرؤية الإنسانية لسنن الفطرة، من حيث كونها واحدة من أهم فروض التجديد الحضاري، التي تعيد كثيراً من مجريات الأمور في هذا الكون إلى نصابها الموزون على منهج الله - سبحانه وتعالى -!.

وبادئ ذي بدء، نعرِّج على بعض المعاني الحيوية للفطرة، التي تخدم ذلك الاتجاه التجديدي في بيئتنا الحضارية بوجه عام، من منظور الفكر الإسلامي، فالفطرة ابتداء، هي «الخِلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه، وهي الطبيعة السليمة التي لم تُشبْ

* باحث، كاتب/ مصر.

بعيب»[1]. وهي: مجموعة الصفات والخصائص المركوزة في النفس الإنسانية لدى أصل الخلقة وتركيب الجِبِلّة. وكما أنها تعبيرٌ عن الاستعدادات الذاتية والميول الطبيعية للذوق السليم التي تعمل مع السُّنن الربانية والاجتماعية جنبًا إلى جنب بمنهج الناموس الإلهي في إطار مختلف الدوائر المتعلقة بنشاط الإنسان؛ فهي كذلك بمثابة المجال الحيوي للحراك النفسي والجسماني للإنسان باتجاه التعاطي مع الكون والحياة والعمران من منطلق أخلاقيٍّ أصيل، فقد جعل الله - سبحانه وتعالى - البشر جميعًا مَفْطورين على «محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه، وفطَرَهم حُنَفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه»[2]. وقد جُعلت شرائع الفِطرة على نوعين؛ بعضها يرجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب، حيث يُطهر القلبَ والروح، وهو الإيمان بالله وبتوابعه: من خوفٍ ورجاء، ومحبّة لله والإنابة إليه .. فهذه تُزكّي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتُذهب عنه الآفات المرذولة، وتحليه بالأخلاق الجميلة والسّجايا النّبيلة، وتعمُرُه بقيَم الفضيلة !. والنوع الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ونحو ذلك مما يُعنى بتنظيف أعضاء البدن وصيانتها، لتتم صحتُها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها»[3]. والطريف أن هذه المعاني هي التي جاءت بها الرسل على تواتُرهم في العالمين، وتواضعت عليها المناهج الإلهية..!

ولقد ذهب أكثر العُلماء إلى أن «الفِطرة هي السُّنة»[4]. أي الطريقة التي جاء بها الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وقد أمر الله سبحانه نبيه المصطفى ﷺ بالاقتداء بهم في قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾

[سورة الأنعام، الآية: 90]

وقالوا: إن «المراد بالفطرة في هذا الحديث: الدين. وقال البيضاوي: الفطرة المُرادَة هنا هي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع وكأنها أمر جِبِلّيٌّ فُطِرُوا عليه»[5]. إنها إذًا طريقة الله وشريعته، وهي صراط الله المستقيم، وهي أسلم سبل الوصول وآمَنُها وأيسرها إلى الله - سبحانه وتعالى -. وهذه السنن هي التي تهدي الإنسان بصورة تلقائية إلى الطرق التقليدية للتفاعُل الإنساني داخل المحيط البيئي للإنسان بغير تكلُّف. فهي المجال الحيوي للحراك النفسي والجسماني الإنساني باتجاه التعاطي مع الكون والحياة والعُمران!

ما أهمية الرؤية الإنسانية لسنن الفطرة؟ وكيف نوظف ذلك في بيئتنا؟

وهذه السنن، غالبًا ما تشُد الإنسان في سياق تفاعُله - سلبًا وإيجابًا - مع الكائنات من حوله إلى قواعد هداياته الأولى، مهما عرض له من صوارف وملهيات عن مقتضى وجوده وسواء فطرته! المهم هو: تحقيق توازن القوى الإيمانية التي تمده بأسباب انتشاله من حضيض الآثام والمنكرات المزريات، فيرتفع ويرتقي في مراقي فطرته التي فطره الله عليها، وذلك انطلاقًا من مرتكزات أخلاقية وقِيَمِيَّةٍ

1. سعدي أبو حبيب - القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا - دار الفكر دمشق - 1419هـ - ص:288.
2. عبدالرحمن ناصر السعدي - بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار - منشورات الرئاسة العامة لإدارات الدعوة والإفتاء والإرشاد - الرياض - د.ت - ص:64.
3. عبدالرحمن ناصر السعدي - بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار - المرجع السابق - ص:64 - بتصرف.
4. الخطابي معالم السنن - بهامش مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري - تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي - دار المعرفة - بيروت - د.ت - 6/ 100. وانظر كذلك : سعدي أبو حبيب - القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا - مرجع سابق - ص:289.
5 - يقول النووي : جزم الماوردي وأبو إسحاق وقالت طائفة : المعنى بالفطرة الدين، وبه جزم أبونعيم في المستخرج. وقد استشكل ابن الصلاح ما ذكره الخطابي وقال معنى الفطرة بعيد من معنى السنة، لكن لعل المراد أنه على حذف مضاف أي سنة الفطرة. وتعقبه النووي بأن الذي نقله الخطابي هو الصواب (نقلاً عن: ابن حجر - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - دار الحديث - القاهرة - 1419هـ - 10/ 409).

جميلة كلها، أجمل ما فيها أنها بمثابة قواسم فطرية مشتركة بين سائر البشر، لا تحتاج في تعاطيها إلى لغة ولا إلى مذهب ولا إلى خلفية دينية أو معينة فكرية (أيديولوجية..!) كذلك هي بعيدة تمامًا عن مجرد التعصب الديني والجمود والغلو والتطرف، وحتى في وسائلها لا تكلف الداعين إليها عنتًا أو مشقة أو رهقًا، فقط تحتاج من الإنسان أن يسلم نفسه لله رب العالمين، ملتزمًا الحنيفية التي تعد في منطق التوصيف بمثابة الرافد الأساسي لسنن الفطرة، ما يكون مناسبًا للتدافع بما فيه من حوار وصراع، أو مد وجزر.

دعونا الآن نتأمل قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

[سورة البقرة، الآيات: 135ـ138]

ولعلنا نلاحظ مدى التركيز القرآني والنبوي، على جوهر الحنيفية ومنطقها التجريدي، الملائم لاستفتاح القلوب التي تصدُّها التوعكات الحضارية، على امتداد مسيرتها في هذه الحياة؛ وإن آيات الذكر الحكيم، دائمًا ما تشد حالات الجموح والتهور والانفلات إلى مرتكز أخلاقي وحضاري، لا يختلف عدلان من أهل الأرض بشأنه!!

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الروم، الآيات 28ـ30]

أي فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها» (6).

ولقد كانت وظيفة الرسل في كل أمة، هي العودة إلى حظيرة الإيمان وإلى خط الفطرة الأصيل، كلما ران على قلوبهم ما يقدح في إنسانيتهم ويتحول بها عن مقتضاها الأخلاقي والحضاري. ولقد جاءت رسالة عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ في موعظة الجبل متممة في هذا السياق «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل»(7). وها هو يقول: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»(8). ويقول تعالى:

﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾

[سورة الأحزاب، الآية:38]

فانتفاء الحرج، يعني ملاءمة منهاج النبوة لسائر تفاعلات الحياة، بعيدًا عن اعتبارات الانتماء العقدي أو الموقع الفكري، فالفطرة قاسم وأرضية مشتركة لحركة الجاذبية الحضارية والحوار بين مختلف الثقافات والشعوب والأمم والحضارات!

وقد نوه الله ـ عز وجل ـ بأن وسيلة الوصول إلى تحقيق خيري الدنيا والآخرة هي : الفطرة السليمة، التي لم تتغير ولم تتبدل بالبيئة الفاسدة وسوء التربية، ولم تنطمس بجموح الأهواء وهوس المراء والمجاملات. كما قرر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أشد الناس عجزًا عن فهم الحق واستيعاب مقاصده، وأكثرهم تعثرًا عن إدراك حقائق الخليقة، واستكناه أسرارها؛ هم الحمقى والغلاة والمتعصبون الذين يفهمون الدين وفقًا لمعطياتهم الفئوية وأفقهم الضيق ورؤاهم القاصرة، التي كلت عن إدراك الخير الذي

6ـ سعدي أبو حبيب. القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا. مرجع سابق. ص288. وانظر كذلك: بن حجر. فتح الباري صحيح البخاري. 3/ 303.
7ـ العهد الجديد. متّى. 5/ 17.
8ـ العهد الجديد. متّى. 5/ 25.

تتنزل من قبل الله - سبحانه وتعالى - ليلتمس الناس سبيل الفطرة في التعرف إلى حقائق الكون الأخرى.

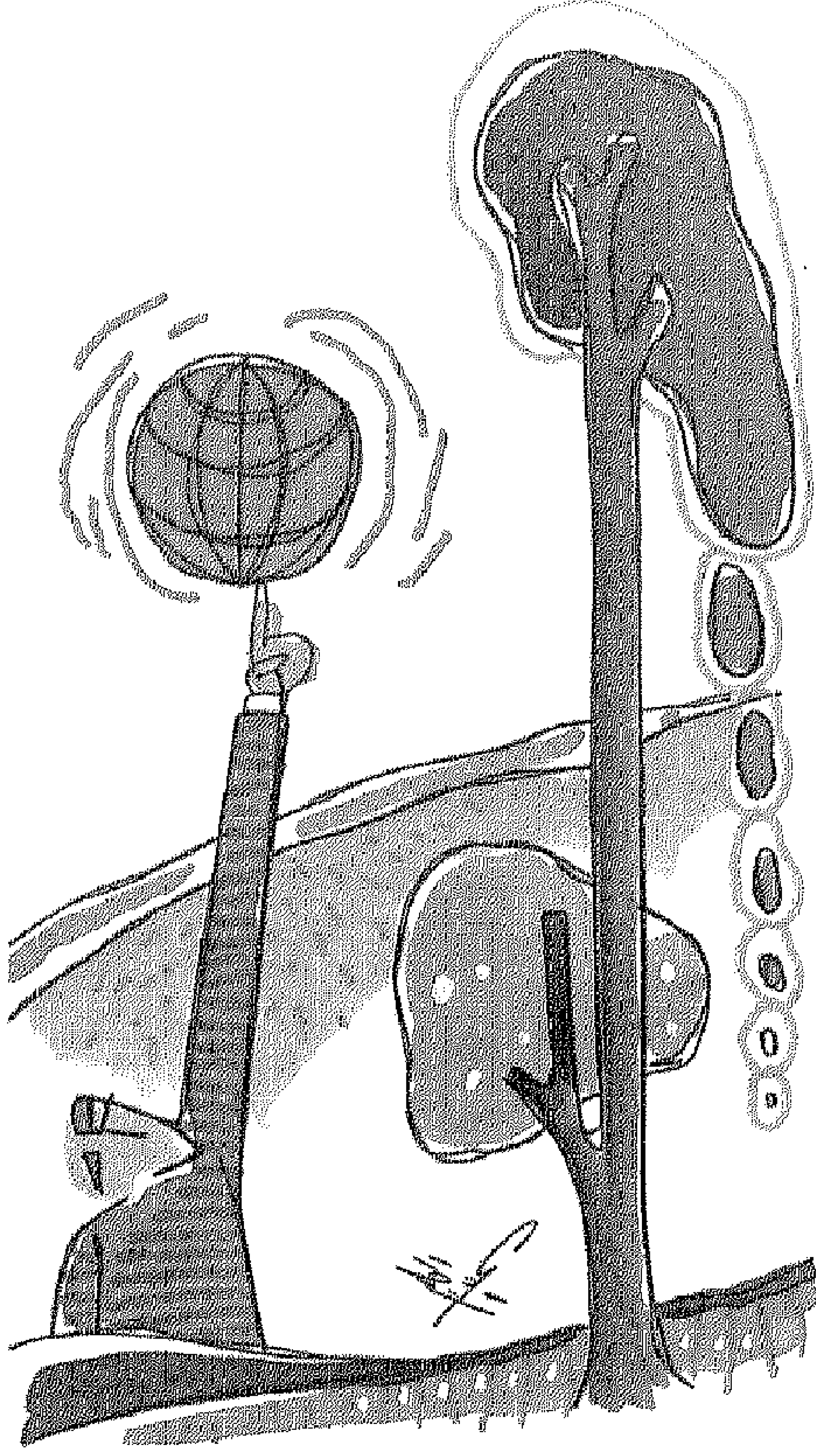
وإذا كنا نتفق على أن الدين - ابتداءً وانتهاءً - هو وسيلة الإنسان إلى بلوغ حالة الاكتمال الإنساني في الفكر والعقيدة، في العبادات والأخلاق وسائر المعاملات؛ فلنا أن نقرر بغير تكلفٍ ولا تعسف أن الدين في معناه الواسع ومفهومه الشامل الكامل هو الفطرة سواءً بسواء. بل كانت توجهات القرآن الكريم متسقة مع منهج الفطرة، انطلاقًا من تأكيد المولى - جل جلاله - على وجوب إيجاد صيغة للتعايش الإنساني، بعيدًا عن نزق الأهواء وعصبية الثقافات والعادات البيئية المكتسبة، التي قد تكون مجافية لعرف الناس وعاداتهم وتقاليدهم، فقال سبحانه وتعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية:199]

ثم إنه في سياق التماس الوسائل الدعوية لإصلاح وجوه الحياة وصيانتها من التشوه والفساد ؛ اعتمد القرآن ما تعارف عليه أهل الخير عبر تطور الأزمنة والأمكنة وهو منهج الفطرة. يقول تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية:110]

وسنن الفطرة - من حيث كونها منهجًا للاستقراء أو الاستدلال أو القياس - هي: حزمة من المعايير المنصوبة على موازن الضمير الإنساني. فتمتثل في آفاقه الوجدانية نجومًا هادية إلى البر والمعروف والإحسان الجالب للسعادة في الحياة! ومن حيث كونها طريقة فهي إضاءاتٌ ومعالم على طريق الحياة الإنسانية المتوعّرة بالأشواك والعوائق والمطبّات...!



وفي الحالتين كلتيهما رؤية نموذجية للحياة الإنسانية السعيدة بعيدًا عن التكلف والتعسف في استجلاب حظوظ الحياة!

وسنن الفطرة آلية لتحسين صورة الإنسان من خلال تفعيل خصال الخير فيه وتحبيبه إلى تنظيف بدنه ومظهره إلى درجة التأنق. يقول:ﷺ (عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البَراجِمِ(*) ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء) (**). قال الراوي: ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة)[9]! هذا ويأتي تطهير المظهر في سياق ما يسمى بـ (الفطرة العملية) التي «تشتمل على كل ما كان متعلقًا بجمال المظهر عند الإنسان المسلم وحسن سمته»[10]. كذلك تأتي «التوجيهات الإسلامية

(*) عُقَدُ الأصابع.

(**) الاستنجاء.

9 - رواه مسلم في باب/122. حديث 261. (النوويُّ. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج. دار الكتب العلمية. بيروت. 1418هـ. 122/2).

10 - صالح أبو عرّاد الشهري. سنن الفطرة وآثارها التربوية..

في الطهارة والوضوء والغسل، والنظافة في المسكن والملبس وأماكن التجمعات، والتوجيهات في المأكل والمشرب، والسلوك الخلقي العام والخاص؛ لتشير كلها - بطريق أو بآخر - إلى هذه العوالم الخفية، وإلى مسببات الأمراض الأخرى، التي تضعف البدن وتوهن الصحة، وتصيب الجسم بالعلل والأمراض التي قد تودي به إلى الهلاك»(11).

وهكذا كانت عناية الإسلام بتدشين علاقة حب ذات انعطاف جارف نحو الزينة والنظافة والجمال، مؤسسة على ثقافة الفطرة ومأثوراتها النبوية من لدن آدم - عليه السلام - حتى محمد ﷺ. ولنتأمل كيف أن في خصال الفطرة مراعاة للذوق العام، واحتراما لمشاعر الآخرين وتقديرهم، وفيه أيضًا تحقيق «مصالح دينية ودنيوية تدرك بالتتبع... منها تحسين الهيئة، وتنظيف البدن جملة وتفصيلاً، والاحتياط للطهارتين، والإحسان إلى المخالط والمقارن بكف ما يتأذى به من رائحة كريهة»(12). بل إن مجرد الأمر النبوي بمخالفة المجوس والمشركين، إنما جاء ابتداء من أجل الترفع عن إهمال كمالات الجوهر والمظهر، والتي من شأنها أن تكون من عوامل الجاذبية والالتقاء والتفاهم والحوار والتآلف، بل إن كثيرًا من السلف الصالح كانوا يعتبرون مجرد تعاطي خصال الفطرة، ذلك أن «الإنسان إذا بدا في الهيئة الجميلة، كان أدعى لانبساط النفس إليه، فيقبل قوله، ويحمد رأيه، والعكس بالعكس»(13).

كما أن سنن الفطرة آلية لتحسين وتطهير جوهر الإنسان وتنوير جنانه، وتعويده على المعروف، وتنمية وجوده الأخلاقي إلى درجة التألق والتأنق. فطهارة الجوهر تتعلق بالتوبة والرجوع إلى قواعد الفطرة الأولى، وإلى براءة المواليد في طفولتهم يقول ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة)(14). وذلك بتخليص القلب من الشرك، وسد مداخله ومنافذه بالتوحيد الخالص..

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾

[سورة الحجرات، الآية:7]

حفظًا له من العادات السلبية.! وهكذا، كلما كان الإنسان مشدودًا إلى فطرة الله - جل جلاله - كلما كان ممسكًا بأسباب الحياة الكريمة.

وطالما أن هناك منهجًا للفطرة ؛ فإن فرصًا عديدة يمكن أن تتوالى بين يدي واقعنا العالمي المعاصر، الذي تتشابه أزماته ومشكلاته إلى حد كبير. ولعل منطق الرجوع إلى منهج الفطرة قد يجعلنا نلتقي العديد من التيارات البشرية عند غير نقطة على طول خط هذه الحياة، التي أحوج ما تكون إلى روح الحوار والتدافع بالتي هي أحسن، حتى نتوافر على صيغ ربانية للتعاون والتعايش على بيّنات من هدي الفطرة التي فطر الله جميع الخلق عليها. وإن مجرد دعوة الناس إلى الفطرة يمكن أن يحقق للإنسانية أسباب وجودها الحر المحترم الكريم.

الفطرة قاسم وأرضية مشتركة لحركة الجاذبية الحضارية والحوار بين مختلف الثقافات والشعوب والأمم والحضارات!

إن سنن الفطرة هي سبيل الوسطية التي تتعب الإنسانية كثيرًا في تحريها، بعيدًا عن مقاصد الشرع وأسرار الوحي دون جدوى.! إذ إن تلك الوسطية، هي نقطة الجاذبية الحضارية، التي يتاح للإنسان من خلالها رؤية الأشياء، وتقدير الحقائق على طبيعتها، فضلاً عما تتيحه للإنسان من فرص اتزان الشخصية واستوائها على مراد الخالق، وهو ما يجعلها أكثر قدرة على الإبداع والانطلاق في مسيرة الاستخلاف بثقة واقتدار.

---

11 - مجهول - من إعجاز القرآن الكريم والسنة المطهرة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة www.aleijaz.net.

12 - ابن حجر العسقلاني - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - مرجع سابق - 409/10.

13 - ابن حجر العسقلاني - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - مرجع سابق - 409/10.

14- رواه البخاري عن أبي هريرة - في كتاب الجنائز - حديث / 1385.



أفكار حول احترام كرامة الإنسان*

إيان ليندل**

تترسّخ جذور فهم المسيحيّة لكرامة الإنسان في عقيدة الخلق الواردة في كتاب: التكوين. يصف هذا الكتاب كيف أنّ الإنسان أو «آدم»، بالرّغم من أنّه خَلْق الله هو «على صورة الله ومثاله». ولأن فهم فكر (الإيديولوجيّة) الشرق أوسطيّة المعاصرة للملوكيّة، يعتبر أنّ الملوك وحدهم يكونون على صورة الله ومثاله، شكّلت هذه الفكرة اتّجاهاً ثوريّاً غير مسبوق. ويتعجّب كاتب المزامير قائلاً: «دون الإله حَطّته قليلاً، بالمجد والكرامة كلّلته» (مزمور 8 الآية 6).

غير أنّ فهم «صورة الله» لا يزال عسيراً لأيّ (أنثروبولوجيا) مسيحيّة. فلطالما شغل اللاهوتيين المسيحيين طيلة قرون، وولّد مجموعة غنيّة من التفسيرات. وتشكّل هذه المسألة أساساً حيويّا للاّهوت الأخلاقي في كتاب القدّيس (توما الأكويني) «الخلاصة اللاهوتيّة» وهو اتّجاه الفكر الكاثوليكي الذي سنعتمده ههنا.

يرى القديس توما الأكويني، أنّ العقل والإرادة الحرّة والأفعال الفاضلة والقوّة الأخلاقيّة الإنسانيّة، هي الخصائص الجوهريّة التي تصف الإنسان كخلق الله وتميّزه عن باقي الأحياء، وتقيمه سيّداً على باقي المخلوقات. [1] يترافق موقع الإنسان هذا و«حقّه» بالسيادة، مع واجب الوصاية على الخليقة والاهتمام بها، على صورة اهتمام الله المحب. ففي التراث السرياني، اعتبر (تيودوريطوس المبسوسطي)، أحد الآباء الأنطاكيين، أنّ البشريّة، كونها نائب الله الوصي - بمعنى أنّها تشكّل الرابط وعهد الصداقة بين الله وعالم الأحياء بأسره، تقع عليها مسؤوليّة كبيرة وتضامن مع الخلق. [2]

ويوضح (توما الأكويني) أنّ الإنسان ليس صورة

---

* ورقة قدّمت في ندوة (حوار الأديان في خدمة التنمية) طرابلس، 2006/3/8 مسيحي.

** قسم الشؤون الدّوليّة - مؤتمر أساقفة إنكلترا وويلز.

1. De Iustitia et Jure 4.1.107b 47; Summa Theologiae 2a 2ae, Q.66, art. See Fergus Kerr After Aquinas: Versions of Thomism, Oxford Blackwell, 2002, 124

2. Robert Murray "The Image of God: delegated and responsible authority" in Priests and People February 2000, 51. Likewise St. John Chrysostom wrote of the "gentleness and mildness" of God as being the key qualities understood in the imago. Homilies on Genesis 8:6-8 translated R.C. Hill in Fathers of the Church Catholic University of America Press, 1990, 109

الله، بل مخلوقاً «على صورة الله». ليست المسألة بالطّبع مسألة شَبَه في الجسد، قد يجوز اللجوء إلى استعارة العملة الحجريّة التي تحمل صورة الحاكم، لكن التشبيه الأفضل يكون في التحفة الفنيّة التي تبرز طابَع الفنّان الفريد. يظهر هذا التشبيه جليّاً في العبارة المسيحيّة «صانعو البشريّة الجديدة» المستعملة على نحوٍ متزايد منذ ستينات القرن الماضي، لوصف المسيحيين كمعاوني الله في عمله الخلاصي المحرّر. إن المسيحيين إذ يشاركون في هذا العمل، يستمدّون من الله شيئاً من قوّته المحبّة على الخلق والخلاص.

لكنّ المفهوم المسيحي لـ«صورة الله» لا يقلل من درجة إساءة الخطيئة للإنسان كونه تحفة الله، وإساءتها لعمله كصانع الخليقة الجديدة. وقد يصعب ذلك بعد ما اختبره الفاشيّون، والشيوعيّون العلمانيّون، في القرن العشرين. فالإنسانيّة التي يصفها الفيلسوف (جاك ماريتين) بالقداسة القادرة على «ملامسة هدب الله» هي أقرب إلى الوقوع في هاوية الشرّ.

يصرّ المجمع الفاتيكاني الثاني، على أنه لا يمكن فهم «صورة الله» خارج تجلّيها الكامل في علاقتها بألوهية يسوع المسيح، أي تماماً كما يصفها التشبيه: صورة الله الكاملة، صانع البشريّة الجديدة المُخلّصة ومثالها. (3)

لذلك، لا يمكن للمسيحيين أن يفصلوا مشروع الخلق عن مشروع الخلاص. (4) فالكرامة الإنسانيّة هي الثمرة التي ينالها الإنسان لكونه خُلِقَ وخُلّص على حد سواء - وفي الحالتين يسكب الله محبّته ويمنح الإنسان قدرة على السّعي إليه ومعاينته والتعرّف إليه في النهاية. وعليه، نفهم لماذا قد تحمل دراسة (أنثروبولوجيّة) مسيحيّة، محض معاني الإمتنان وخوف الله. نذكر في هذا السياق ما كتبه قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني «وفي الواقع أن هذا الإعجاب الكبير بقدر الإنسان وكرامته يسمّى الإنجيل: البشرى السّارّة ويُدعى أيضاً المسيحيّة». (5)

إلاّ أن القدّيس توما الأكويني، كان بالطّبع لا يزال متأثّراً بروح القرون الوسطى والهرميّة التي كانت سائدة آنذاك في فهمه «للكرامة» التي كانت تُنسب فقط «للأشخاص» أصحاب «المقامات الرفيعة». كانت هذه الصفة تشير بشكل خاص إلى الحكمة الفائقة التي يمنحها الله هؤلاء من أجل العمل في ما يُسَمّى اليوم إدارة الكنيسة والمجتمع.

طاعة الله تقتضي احترام الكرامة الإنسانية وبالتالي «تبجيل» واجبات الشرائع الدينيّة أي «تبجيل» الله

فالكرامة بحسب روح القرون الوسطى تشكّل جزءاً من هبات العناية الإلهيّة وتجعل الحاصلين عليها «ملائمين للمهمّة». لذلك، كانت «الكرامة» صفة محترمة من قبل الجميع. أمّا اللقب المستعمل آنذاك فكان Observantia أي «المبجّل». وهو في الواقع لا يزال مستعملاً في اللغة الإنكليزيّة في اللقب المشرّف Worshipfuz أو «المُبَجَّل» المنسوب لأصحاب المناصب والمواقع الموروثة من القرون الوسطى. (6)

---

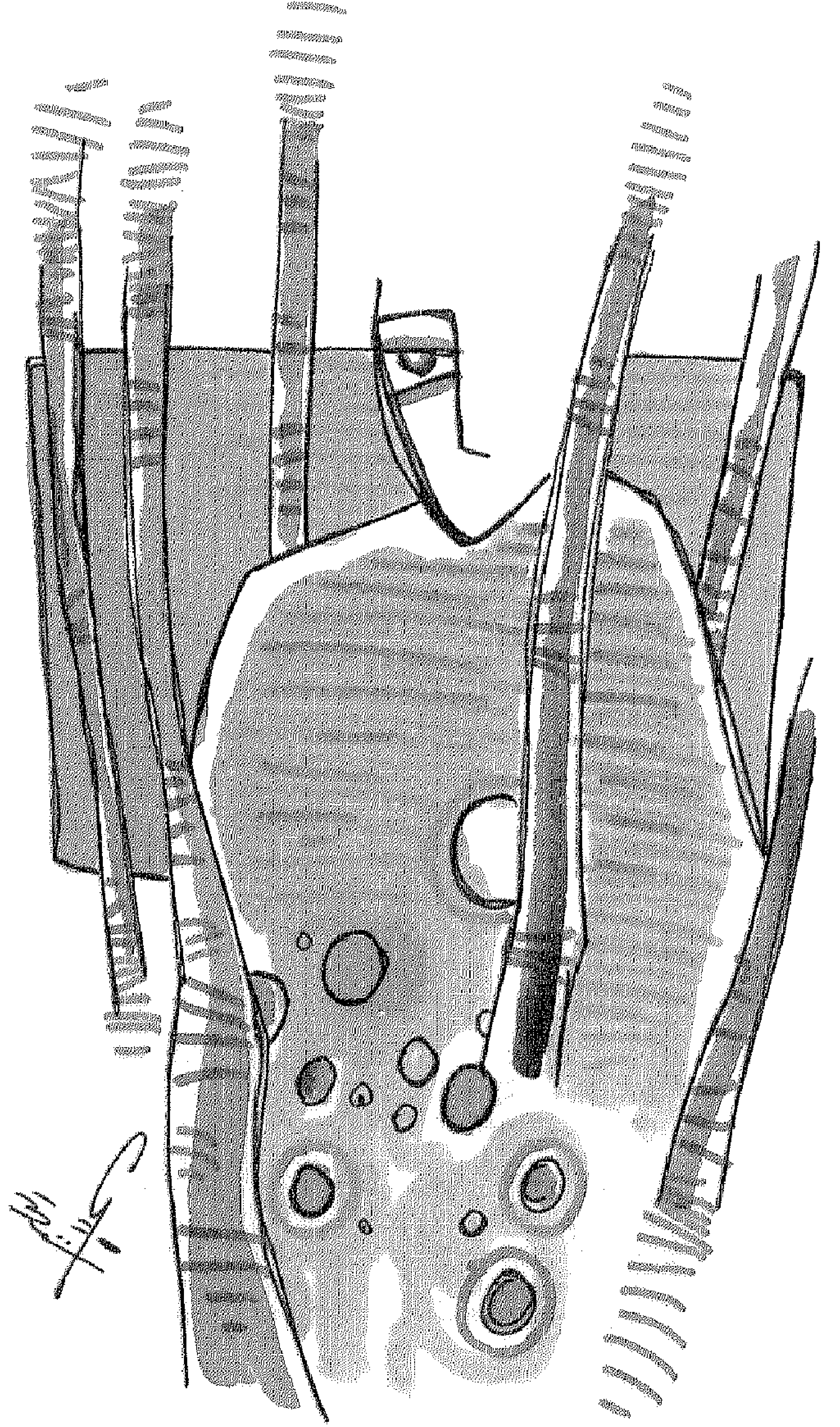
3. Roger Ruston Human Rights and the Image of God Canterbury SCM Press, 2004, 55; Rowan Williams in Grace and Necessity: Reflections on Art and Love Morehouse, USA, 2005 takes up the theme from the position of the artist's openness to transcendence.

4. Evangelii Nuntandi لا يمكن فصل مشروع الخلق عن مشروع الخلاص. فالأخير يشمل إدانة حالات الظلم الصارخة وإحقاق الحق - البابا بولس السادس، عام 1974.

5. فادي الإنسان 10، البابا يوحنّا بولس الثاني، 1979.

6. Rushton Human Rights, 113 n.8

على أثر اكتشاف العالم الجديد، في القرن السادس عشر، وما نتج عنه من تطوّر في مفاهيم المساواة بين البشر و«العالميّة»، اتّسع الحق الموضوعي بالكرامة ليشمل كل الناس والأمم، أصبح احترام هذا الحق واجباً عليهم، فطاعة الله القائمة على الطبيعة البشريّة الفريدة كخلقٍ من صنع الله، أصبحت تقتضي احترام الكرامة الإنسانيّة عالميّاً وبالتالي «تبجيل» واجبات الشرائع الدينيّة أي «تبجيل» الله.



حقوق الإنسان

حتّى القرن السادس عشر، وقبل أن يبرز مفهوم «الكرامة الإنسانيّة» العالميّة، ساد مفهومان أساسيّان آخران متطابقان جزئيّاً، هما «الحقوق الطبيعيّة» و«العدل». قام الأخوة: أنطون مونتيسينو وفرانسيسكو دو فيتوريو وبارتولوم دي لاس كاس، وهم من الرهبان الدومينيكان، الذين استنكروا الفتح الإسباني العنيف على أميركا اللاتينيّة، بالمطالبة بحق السكّان الهنود الخاضعين، بالحريّة والملكيّة الخاصة. لا شك أن أفكار هؤلاء الرّهبان كانت مرسّخة في اللاهوت الذي اكتسبوه. ويظهر ذلك في قول (لاس كاساس): «إذا أردنا أن نكون أولاداً للمسيح وشاهدين لحقيقة الإنجيل، يجدر بنا الإيمان بأن هذه الشعوب ولو كانت همجيّة بالكامل، تبقى خليقةً صنعها الله على صورته.(7) نتيجة لهذه المطالبة اكتسبت الشعوب المماثلة حق تقرير مصيرها، إلى جانب حق ضمني بمواصلة ممارسة دينها الوثني من دون أي إكراه ـ إذ يرفض لاس كاساس إنتقادات الإكليروس (رجال الدين) الواضحة ـ فقد بيّن البابا بولس الثالث في رسالته Sublimis Deus الصادرة عام 1537

.7 Bartolome de las Casas In Defence of the Indians (1552) quoted in Rushton Human Rights 146

وتوجيهاته الرعويّة، لأسقف توليدو خوان دي تافيرا أنّ تعاليم الكنيسة قد اعترفت رسمياً بحقوق الحريّة والملكيّة وتقرير المصير. في العام نفسه برزت عبارة Jura Hominium في نص معاصر وفي دلالة أكثر ذاتيّة لـ «حقوق الإنسان»، وهي الدلالة التي تدور في إطارها مواضيع حقوق الإنسان في ايّامنا هذه. (8)

كان من المتوقّع ربّما من شهادة مدرسة دومينيكان سالامانكا ـ المسمّاة تيمّناً بالجامعة التي كان فرانسيسكو دو فيتوريا أستاذاً فيها ـ أن يتطوّر تعزيز الكنيسة للحقوق الطبيعية الموضوعيّة بطريقة واضحة وصريحة نحو المفهوم الحديث والذاتي لحقوق الإنسان «غير القابلة للتصرّف». إلاّ أنّ ذلك لم يتم لأسباب شتّى. أوّلاً: لم يلقَ الدّفاع عن الهنود، من خلال اللاهوت، ترحيباً كاملاً في الكنيسة. لا بل واجه العديد من التحدّيات. ثانياً: إنّ طروحات «حقوق الإنسان» قد انبثقت عن طريق حركة التنوير الفلسفيّة الأوروبيّة المعادية للإكليروس والاضطراب السياسي العنيف الذي ولّدته الثورة الفرنسيّة. أدّت الأولى إلى سحب اعتراف الدول الليبيراليّة بالكنيسة، في معظم الدّول الأوروبيّة، أمّا الثانية فأثارت عنفاً جماهيريّاً وموجات قتل الأساقفة والكهنة والراهبات. فكان قول دوني ديدورو المشهور: «لا تتحقّق الحريّة إلاّ بخنق آخر ملك بأمعاء آخر كاهن».

تنيجة لهذه الأسباب، جاءت مواقف الكنيسة، لجهة حقوق الإنسان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر متّسمةً «بالتردّد والمعارضات والتحفّظات، بالإضافة إلى ردود فعل عنيفة لدى الطرف الكاثوليكي في بعض الأحيان عند أي تصريح ليبيرالي أو علماني الطابع حول حقوق الإنسان».(9) وحده الفيلسوف البروتستانتي جون لوك المقيم في أميركا بعيداً عن أوروبا تمكّن من فهم هذا التحوّل ضمن التقليد المسيحي بشكل سهل نسبيّاً. لم تر الكنيسة الكاثوليكيّة في طروحات حقوق الإنسان إلاّ لغة أعدائها التي تنوي تدمير الكنيسة عبر تمسّكها بالفرديّة المفرطة و«الحداثة». غير أن بعض أنصار هذه الحركة الذين اطلق عليهم اسم «المحدثين الإجتماعيين» رفضوا الفرديّة في الدولة الليبيراليّة، فأرادوا التركيز على الواجبات بدل الحقوق.(10)

لا يجوز لأحد أن ينتهك كرامة الإنسان، ويفلت من العقاب. المسألة لا تتعلق بحقوق يتمتع بها الإنسان بل بواجبات تجاه الله

وهكذا، حين بدأ تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة الاجتماعي يشكّل مرجعاً أساسيّاً يحدّد العقيدة ويتطوّر عبر الزّمن، أي بعد صدور رسالة قداسة البابا ليون الثالث عشر Rerum Novarum، أو «الشؤون الحديثة» في العام 1891، تجنّبت الكنيسة وأدانت، من وقت إلى آخر، الحديث الليبيرالي حول «حقوق الإنسان» وركّزت في مواقفها على حقوق وواجبات شرائح معيّنة من المجتمع لا سيّما العمّال، أو تحدّثت بشكل عام عن «كرامة الإنسان». فكتب قداسة البابا ليون، واصفاً أوضاع الطبقة العاملة الأوروبيّة: «لا يجوز لأحد أن ينتهك كرامة الإنسان، ويفلت من العقاب، فالله نفسه يعامل هذه الكرامة باحترامٍ فائق». لكنّه عاد وأصرّ على أن المسألة لا

.8 In column 4759 of Volmenus's Historia diplomatica regum Bataviarum 1537 quoted by M. Villey Le Droit et les Droits de l'homme PUF, Paris 1983, 174

.9 The Church and Human Rights Pontifical Commission "Justitia et Pax", Vatican City, 1975, 18

.10 Rushton Human Rights 236-266: Peter Bernardi "Social modernism: the case of the Semaines Sociales" in Catholicism Contending with Modernity (ed.) Darrell Jodock Cambridge 2000, 295. According to Henri Lorin, indivi dualism "falsifies the idea of right by detaching it from the idea of duty, its source and raison d'etre" (1909)

تتعلّق بحقوق يتمتع بها الإنسان بل بواجبات تجاه الله». كان يكتب عن «الحق» بالراحة يوم الأحد لأداء الواجبات الدينيّة، ويهتمّ بإثبات طبيعة الإنسان الإجتماعيّة المتناقضة مع الفرديّة الليبيراليّة في الأخويّات التقويّة في القرون الوسطى، مثلاً أكثر من اهتمامه بدعم الاتّحادات العمّاليّة الحديثة والجمعيّات المهنيّة التي كانت في أوج نشأتها. [11]

لذلك، كان على الكنيسة أن تصقل هذا التركيز على الجماعات في ظل التوتاليتاريّة السائدة، لتمييزها عن الشيوعيّة والفاشيّة، فأعلن قداسة البابا بيّوس الحادي عشر، في رسالته «الفادي الإلهي» Divini Redemptoris الصادرة عام 1937 والتي تدين الشيوعيّة، لائحةً أساسيّة للحقوق التي يمنحها الله للبشر. أمّا خليفته البابا بيّوس الثاني عشر فدعا في رسالة عيد الميلاد الإذاعيّة للعام 1942 والعام 1944 إلى استعادة كرامة الإنسان، في وجه الفاشيّة، كما سلّط الضوء على الحقوق المدنيّة للمشاركة في الحياة العامّة والحكم. فكانت الغاية من الحياة الاجتماعيّة «تطوير القيم الشخصيّة لدى الإنسان، كونه يحمل صورة الله». هذا، ودعا الشباب إلى النضال في سبيل «كرامة الإنسان وتحقيقه لمصيره» [12].

إلاّ أن التأثير الإيجابي لميثاق الأمم المتّحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، عام 1948، على الفكر الكاثوليكي، كان العامل الوحيد الذي سمح باستكمال التحوّل والتوصّل أخيراً في أوائل الستّينات إلى تفكير عميق وموسّع، حول أهميّة حقوق الإنسان. لم يكن الفرق ما بين رسالة البابا يوحنّا الثالث والعشرين Mater et Magistra أو «أم ومعلّمة» في العام 1961 ورسالة «سلام بين الأمم كلّها» Pacem in Terris في العام 1963، فرقاً في المحتوى بل في الجمهور المعني. فالأولى كانت موجّهة إلى الكنيسة، أمّا الثانية فكانت موجّهة إلى «ذوي النيّة الصّالحة» وكانت تحمل روح المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي كان قد باشر أعماله بروح «التحديث» أو aggiornamento في الفترة ما بين صدور الرسالتين.

كشفت رسالة «سلام بين الأمم كلّها» عن موقف الكنيسة الكاثوليكية الكامل، لجهة حقوق الإنسان حتّى يومنا هذا، ولم يكن هذا الموقف محصوراً بها، إذ اعتمده العديد من غير المسيحيين ايضاً. فكما كتب القدّيس بولس في رسالته إلى أهل روما (15:2) أن الطبيعة الإنسانيّة «تثبت أن ما تأمر به الشريعة مكتوباً في قلوبهم»، ويكافح الضمير ليستجيب للقيم، أي «للشريعة الطبيعيّة». باختصار، يمكن القول: إن الشريعة الإلهيّة مطبوعة في عمق كيان الإنسان وتظهر جليّة من خلال ضميره. وأعطت التعاليم الرسميّة اللاحقة أهميّة بالغة للضمير إذ تصفه «بالجوهر والصميم الأكثر سرّيّة في الإنسان، حيث يكون (الإنسان) وحده مع الله ويكون لصوت الله صداه في أعماق الإنسان». [13] شكّل هذا التقييم لأهميّة الضمير اللاهوتيّة والعميقة، العامل الأساسي لإعلان الكنيسة الذي جاء متأخّراً عام 1965 للحريّة الدينيّة، في رسالة «الكرامة البشريّة» Dignitatis Humans .

لم تر الكنيسة الكاثوليكيّة في طروحات حقوق الإنسان إلاّ لغة أعدائها التي تنوي تدمير الكنيسة عبر تمسّكها بالفرديّة المفرطة و«الحداثة»

توضح رسالة Pacem in Terris أن لكلّ إنسان

---

11. الشؤون الحديثة 57-58 البابا ليو الثالث عشر، عام 1891، ومعالجة الموضوع نفسه في رسالة «أم ومعلّمة» عام 1961 (284-253)
12. سلام بين الأمم كلّها، 9، 10، 11-27
13. فرح ورجاء 1966 CTS، 16

«حقوقاً وواجبات، تنبع كنتيجة مباشرة من طبيعته، وهي الميزة الإنسانيّة الأبرز في البشريّة. وتكون هذه الحقوق والواجبات عالميّة، غير قابلة للانتهاك وغير قابلة للتصرّف». لكن أن نفهم الكرامة الإنسانيّة من منطلق تجلّي الله، وليس التحلّي بالذكاء والإرادة الحرّة، أي من منظور خارق للطبيعة وليس طبيعياً، «لا شكّ يزداد تقديرنا لها بشكل لا يضاهى». هذا وتشرح الرسالة أصناف حقوق الإنسان بما في ذلك الحقوق الإقتصاديّة، وبذلك تكشف عن نيتها اعتبار الحقوق قبل اعتبار الواجبات المقابلة لها.[14]

إن تأمّلاً في الأحداث الماضية قد يظهر أن نشر رسالة Pacem in Terris كان بمثابة نقطة تحوّل. فخلال المجمع الفاتيكاني الثاني، عبّرت الكنيسة صراحة عن موقفها تجاه مجمل حقوق الإنسان، ومعظم الحقوق المنصوص عليها في إعلان الأمم المتّحدة، غير أن الدّافع لذلك لم يتغيّر، إذ كانت الكنيسة لا تزال تحاول التعبير عن متطلّبات الكرامة الإنسانيّة كما جاء في الإعلان عن الحرية الدينيّة Dignitatis Humanae أو (كرامة الإنسان): إن هذه المتطلّبات قد فهمها المنطق الإنساني عبر قرون من الخبرة» [15]. في الواقع، من المهم الإشارة إلى أن هذه المتطلبات لم تكن محصورة بالكنيسة الكاثوليكيّة فقط، بل كانت متاحة للجميع: أي أن الكنيسة كانت تدعو لتحقيق هذه المتطلبات معتبرة نفسها شعب الله، وليس جماعة منغلقة تتمتّع حصريّاً بمعرفة خاصّة ولا ديناً خاصّاً لبعض المختارين، بل «كسرٌ للإنسانيّة كلّها» التي تتشارك ميراث البشريّة.

غالباً ما ركّز البابا يوحنّا الثالث والعشرون، على أنه لا يمكن فصل التفاؤل عن تقديره للمطالب المنتشرة لحقوق الإنسان وادراك كرامة الإنسان، خارج الكنيسة، والتي شهد على تناميها وتعاظمها خلال السنوات الأخيرة من خدمته.

تطوّر الشعوب نفسها بنفسها ولا يمكن لأي طرف غيرها أن يطوّرها

التنمية الكاملة

تشكّل الوثيقة المجمعيّة تحت عنوان «الدستور الراعوي في «الكنيسة في عالم اليوم» (فرح ورجاء) (Gaudium et Spes) الّتي انتهت بها أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني، عام 1965، نظرة شاملة للعالم اعتبرها البابا يوحنّا قراءة «لعلامات الأزمنة». فجاء النص على شكل حوار مع العالم الحديث، ويمكن اعتباره مقالة في سياق (أنتروبولوجيّ) مسيحيّ معيّن.[16]

وتشرح الوثيقة «سيكون محور طرحنا هذا الإنسان بحدّ ذاته، جسداً وروحاً، قلباً وضميراً، عقلاً وإرادة». ولأن الإنسانيّة تعيش ضمن الزمان والتاريخ، ولا يمكن أن تكون ثابتة كمفهوم مجرّد أو نظري، سرعان ما تثير فكرة الإنسانيّة الكاملة مسألة التنمية المتكاملة، لكن بما أن نظريّة «الشريعة الطبيعيّة» كانت ولا تزال موضوع التباس، إذ اعتبرها البعض صفة ثابتة و(بيولوجيّة) لدى الإنسان، ممّا أدّى بالكثيرين إلى رفضها منذ ذلك الحين، لا يسعى الدستور الرّاعوي إلى إقامة روابط بين المؤمنين وغير المؤمنين، عبر الوسائل التقليديّة التي لجأ إليها البابا يوحنّا، انطلاقاً من «الشريعة الطبيعيّة». فنقطة الإنطلاق تكون في إيمان الكنيسة بأن ربّها وسيّدها الكريم، هو الجواب لكل سؤال، وهو ارتكاز التاريخ البشري كلّه وهدفه».[17]

14. Joseph Gremillion " The Gospel of Peace and Justice" Orbis Books 1975, 10-13
15. كرامة الإنسان 1965، 9
16. Cardinal Walter Kaspar "The Pastoral Constitution 'Gaudium et Spes', paper presented at Worth Abbey, Conference on Gaudium et Spes 40 Years On, 4-7 July 2005
17. المرجع ذاته

تقدّم وثيقة فرح ورجاء Gaudium et Spes فكراً (أنتروبولوجيّاً) مسيحيّاً رفيعاً، وواقعياً يتعامل مع مسألة الثقافة بكل جديّة. فهي ترفض الإزدواجيّة الرّوحيّة في الدّفاع عن كرامة الجسد الذي يبرز فرادة الإنسان من جهة، والتشديد على أن روح الإنسان مترفّعة عن العالم المادّي، من جهة أخرى، ولا شكّ في أنّ هذه الوثيقة قد سبقت عصرها في تسليطها الضوء على «الترابط الإنساني»، ما تصفه التحليلات على نحو متزايد اليوم بالعولمة. فبالنسبة لتعليم الكنيسة الكاثوليكيّة الإجتماعي، تكمن ميزة الإنسان الجوهريّة في كون كرامته أساساً وطيداً، يقوم عليه المجتمع، والإنسان كائن اجتماعي لا محال. ويتّخذ هذا الطابع الاجتماعي بُعداً عالميّاً جديداً تتمنّى الكنيسة مواكبته. وقد قال البابا بولس السادس: «إن الحقيقة الرئيسيّة التي على جميعنا الاعتراف بها، هي: أن المسألة الاجتماعيّة قد أصبحت عالميّة».[18] هذا وتوضح الكنيسة شيئاً فشيئاً أن هذه الروابط الاجتماعيّة العالميّة بين الأسرة البشريّة بطبيعتها (الأنتولوجيّة) والأخلاقيّة، تتجلّى كاملة بفضل التضامن.



لم يبقَ هذا الأمر مجرّد إرشاد أخلاقي، ففي أواخر الستينات بدأت الدّول الحديثة الاستقلال المنضمّة إلى الأمم المتحدة بإطلاق مطالب قويّة في وجه البلدان الغنيّة لإحقاق العدالة الدّوليّة. هكذا بدأت تتجلي الرؤية وتبرز الحاجة إلى نظام إقتصادي دولي جديد. وفي العام 1964 عقد مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية اجتماعه الأوّل، في جنيف حيث أعرب ممثلو الأمم الحاضرة، عن ترحيب حماسي لما قدّمه رجلان فقط، هما: شي غيفارا ولويس جوزف لوبري، وهو كاهن دومينيكاني من مقاطعة بريتاني الفرنسيّة، مُرسل من قبل قداسة البابا بولس. كان لوبري من مناصري حركة التطوّر، وقد كان نشيطاً جداً في شبابه في نضال صيادي السمك في بريتاني، ضد جهات الضغط المعادية في مجال الصيد، نذكر من أقواله: «في مجتمع إنساني يعي أهمية التضامن يجب الإعتراف بحق الشعوب بالتنمية واحترامه»[19]. طلب قداسة البابا من لوبري صياغة رسالة بابوية تتناول العدالة الإجتماعيّة الدّوليّة والعلاقة بين الأمم الغنيّة والفقيرة. فجاءت رسالة «ترقّي الشعوب» Populorum Progressio

18. ترقّي الشّعوب، البابا بولس السادس، 1967، 3

19. Paroles de l'Eglise catholique sur le developpement French Justice and Peace Commission, 1990, 75

خطوة جديدة منطقيّة في تفكير الكنيسة حول متطلبات الكرامة البشريّة، في إطار التنمية الدّوليّة المعاصرة المتّجهة نحو الغرب، كما برزت كموجة جديدة وأوّليّة للعولمة وهيمنة نظريّة التحديث.

أقرّ المجمع الفاتيكاني الثاني أن «للمخلوقات وللمجتمعات قوانينها وقيمها التي يجب أن تُكتَشف وتُطبّق وتُنظّم من قبل الإنسان تدريجيّاً، بتعابير أخرى يجب الإعتراف بالإستقلاليّة الصحيحة للعلوم والإقتصاد والثقافة والسياسة.[20] تقدّم وثيقة «ترقّي الشعوب» طرحاً أوّليّاً انتقاديّاً يحاول تحليل الأسباب قبل اقتراح الحلول. من أهم الأسباب المذكورة، تلك التي تتعلّق بالهيكليّات. فدعا قداسة البابا بولس السادس إلى إحداث تغيرات هيكليّة و«تحوّلات جريئة تجدد الأطر التنظيميّة وتعيد بناءها بالكامل»[21]. لا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن السبب وراء المطالبة بتغييرات مماثلة يكمن في أن «الإقتصاد يجب أن يكون بخدمة الإنسان» وأن الروابط الإجتماعيّة العالميّة بين الأسرة البشريّة تتطلب من الجميع الإلتزام بتعزيز التنمية.[22]

لا شك أن ما يجعل وثيقة «ترقّي الشعوب» وثيقة واعدة بالتطوّر في المستقبل، هو توضيحها الجلي لمسؤوليّة الجماعة المسيحيّة، في العمل لتحقيق التنمية ورفضها التام للمقاربات المعاصرة الخاطئة للتنمية كمقاربة «الإكونوميّة» Economism. كان الرّد سريعاً على هذا الضوء الأخضر لانتشار الهيئات الكاثوليكيّة لشؤون التنمية ولجان العدل والسلام، الذي توسّع فيما بعد، وأصبح تحرّكاً علمانيّاً عالميّاً. وأثّرت هذه الهيئات بشكل متزايد على حياة الكنيسة عبر تعزيز وتفعيل العقيدة الإجتماعيّة بدل الإكتفاء بتلقينها.

تشير الرسالة البابويّة أيضاً إلى: رفض صريح للحلول الإستعماريّة والإستعماريّة الجديدة لمشاكل الفقر والظلم. فيسلّط البابا بولس السادس، الضوء على حق الشعوب والأمم كلّها بـ«صنع مصيرها». وينقل عن لوبري قوله: «لا نؤمن بفصل الإقتصاد عن الإنسان ولا التنمية عن الحضارات»[23] إذ يمكن وصف الحياة «بدعوة» للتطوّر وتحقيق الإنجازات ـ لكن في مجتمعات معيّنة فقط. بتعابير أخرى، تطوّر الشعوب نفسها بنفسها ولا يمكن لأي طرف غيرها أن يطوّرها، لذلك تحتاج إلى تعلّم الكتابة والقراءة وتحصيل العلم. في الرسالة البابويّة المذكورة، تشرح الفقرات 14-23 تحت عنوان: «الإنسانيّة السّامية» تصوّر الكنيسة الكاثوليكيّة للتنمية الكاملة. ويتوضّح هذا التصوّر أكثر من خلال الأمثلة الملموسة التي تصف «الأوضاع الأقل إنسانيّة» و«الأوضاع الأكثر إنسانيّة» للإشارة إلى أن التطوّر هو مسار تحوّل للاشخاص والشعوب والأمم. أمّا نهاية المسار وهدفه فواضحان: «نظراً لاتّحاده مع المسيح، ينبوع الحياة، يتوصّل الإنسان إلى ملء كيان جديد له، إلى إنسانيّة سامية تمنحه أفضل كمال ممكن، هذه هي الغاية الأرفع من تطوّر الإنسان».[24]

الإنسانية تعيش ضمن الزمان والتاريخ، ولا يمكن أن تكون ثابتة كمفهوم مجرّد أو نظري، سرعان ما تثير فكرة الإنسانيّة الكاملة مسألة التنمية المتكاملة

20. فرح ورجاء 36
21. Donal Dorr, Option for the Poor, Gill & Macmillan 1983, 139-143
22. Giorgio Filibeck, The Right to Development, Vatican City 1991, 7
23. Louis-Joseph Lebret-Dynamique concrete de developpement - Economie et Humanisme, Paris, 1961, 28
24. ترقّي الشعوب 21

عددٌ كبيرٌ من المسائل المذكورة في رسالة «ترقّي الشعوب» كالتركيز على العلاقات التجاريّة غير المتساوية والتجارة العادلة، مثلاً، يبدو اليوم غير مثير للنزاع. في الواقع، تتناول الحملة الأخيرة لوكالات التنمية للتجارة العادلة إجعل من الفقر تاريخاً، هذه المسائل بالذات. لكن يجدر بنا أن نعي دائماً أن ثلاثين سنة قد مضت على صدور أحكام الدستور الرّاعوي وهي لا تزال دقيقة ومواكبة للواقع. أمّا الناحية التي تبقى حتى اليوم «نبويّة» فهي تكمن في فهم هذه الوثيقة المرسّخ في التقليد الكاثوليكي لفكرة «الكفاية» في الإقتصاد، ممّا يطرح مشكلة «الكثير الفائض» و«القليل غير الكافي». أمّا الأوضاع الأقل إنسانيّة فيمكن أن تكون: الفقر المادّي للذين لا يملكون ضروريات الحياة، والفقر الأخلاقي للذين تشوبهم الأنانيّة»[25]. لكن حالة صعبة واحدة قد تُظهر ما يعني هذا التحدّي عمليًّا: «فهل نحن حاضرون لدفع ضرائب أعلى، هل نحن حاضرون لدفع المزيد، لقاء السلع المستوردة الخاضعة للتجارة العادلة؟»[26]

إلى ذلك، من الواضح أن فهم الأكويني للفائض أو الثراء المفرط على حساب الفقراء وحقّهم يدعو إلى تشريع نداء «إعادة التوزيع» (هذا لأن خيرات الخلق هي ملك للجميع). وتبرز هذه الفكرة في إشارة الكنيسة المتكررة إلى «ميراث البشريّة كلّها» وإلى أن «خيرات الأرض، في الأصل معدّة للجميع» مما يضع حدّاً جذريّاً لحق الملكيّة الخاصّة المعترف به في التقليد الكاثوليكي. [27] تظهر أصداء مماثلة، في مفهوم أطلقه قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، وهو «النمو المتطرّف» القائم على «توافر جميع أنواع الخيور الماديّة لبعض طبقات المجتمع بطريقة مفرطة يجعل بسهولة من الناس عبيداً لغريزة «التملّك» والمتعة الفوريّة لا هدف لهم سوى تكديس الأشياء، أو السعي المستمر للاستعاضة عمّا يملكون بأشياء أخرى أكثر تطوّرا»[28].

ربّ أهمّ تفسير للتصوّر الكاثوليكي للتنمية، جاء في المفاوضات التي جرت بين أساقفة أميركا اللاتينيّة في ميديلين عام 1968 وبويبلا عام 1979. فقد سلّطوا الضوء على أولويّتهم الرعويّة التي تقضي بمساندة الفقراء بالمحبّة والتضامن، ورفض الظلم والطغيان، وعبّروا عن ذلك في مؤتمر بويبلا في مقولتهم الشهيرة التي كان لها صدى قويّاً في أنحاء العالم كافّة: «نؤكّد الحاجة لتحوّل الكنيسة كلّها نحو الإيثار أو الحب المفضّل للفقراء، ويهدف هذا الخيار إلى تحريرهم الكامل».[29] إن هذا الحب المفضّل المترسّخ في الإقتداء بحياة يسوع الناصري، وخدمته وتعاليمه بين المُهمّشين في المجتمع، يتطلّب مقاومة ما يسمّيه، البابا يوحنّا بولس الثاني «بنيات الخطيئة» إلى جانب القضاء على الفقر من خلال تدابير وبرامج ملائمة [30]. ونظراً

يمكن اعتبار المهاجرين واللاجئين الذين فقدوا حقوقهم المدنية كلها، حالات اختبار للإيمان والإلتزام بحقوق الإنسان إذ أنهم يتمتعون بحق عام وعالمي وذاتي فقط لكونهم إنسان

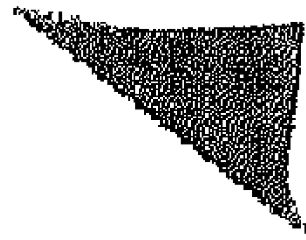
25. المرجع ذاته
26. المرجع ذاته 47
27. Ian Linden A New Map of the World DLT, London, 2004, 151-152
28. الإهتمام بالشّأن الإجتماعي 38
29. Puebla Conclusions. Evangelisation at Present and in the Future No.1134, Catholic Institute for International Relations, CIIR, London, 1980
30. الإهتمام بالشّأن الإجتماعي 36

للظروف القاهرة التي تعاني منها أعداد هائلة من الشعوب، تعتمد محاولات تحقيق الخير العام والتنمية البشريّة،بشكل أساسي، على ديناميكيّة أوّليّة هي مسار «التحرير الكامل».

شكّلت رسائل البابا يوحنّا بولس الثاني، مساهمة قيّمة في هذا المجال، إذ توسّعت في شرح المترتّبات الأخلاقيّة لمبدأ الترابط. ففي موضوع تدنّي أسعار السلع المستوردة في العالم الصناعي، يرى يوحنّا بولس الثاني مسئوليّة المستهلك الأخلاقيّة من خلال الإستعارة التالية: «رب العمل غير المباشر» الّذي يحمل جزءاً من المسؤوليّة دفع أجور منخفضة للعمّال الموظّفين ـ من قبل «رب العمل المباشر» ـ في البلد المنشأ للمنتج.[31] بهذه الطريقة، طوّر قداسته مبدأ التضامن. «عندما يتم الإعتراف بهذا الترابط فالجواب المناسب، كموقف خلقي واجتماعي «وكفضيلة»، هو التضامن. هذا التضامن ليس إذاً شعوراً بتعاطف مبهم، أو بتحنّن سطحي إزاء الشرور التي يعاني منها أشخاص عديدون، قريبون أو بعيدون. بل إنّه العزم الثابت والمثابر على العمل، من أجل الصالح العام، أي من أجل صالح الكل وكل فرد، لأننا جميعنا مسؤولون حقّاً عن الجميع»[32]. لذلك يرى القدّيس (توما الأكويني) أن التضامن هي «عادة» ككلّ العادات تقضي بمقاومة بنيات الخطيئة.

غير أن التضامن يستلزم الحوار، إذ أنّه لا يقوم في بشريّة عالميّة غير منظورة، بل بين أفراد المجتمع وبين الثقافات والديانات المختلفة. وبالرّغم من أن الحجّة التي نسمعها مراراً وتكراراً، أنه على الكنيسة أن تكون «صوتاً لمن لا صوت له»، هي صحيحة إلى حدّ ما، لكنّها في بعض الأحيان تتخطّى الحدود. فللفقراء صوتهم المدوّي إن يُسمح لهم بالتعبير عنه، وأن يتم اعتماد برنامج قويّ يلبّي نداءهم وينتبه لحاجاتهم. لكن عندما يُسأل الفقراء عن حاجاتهم بدل أن تُقرر عنهم، غالباً ما يكون جوابهم مختلفاً عمّا يتمنّى خبراء التنمية سماعه. في الواقع، إن مشروع المصرف «البنك» الدّولي «أصوات الفقراء» الذي يحاول الإصغاء إلى حاجات الجماعات الفقيرة على اختلافها، قد جمع بعض الإجابات التي أدهشت الكثيرين في المصرف الدّولي. على سبيل المثال، كانت أولى مطالب النساء المسلمات الفقيرات «الصحّة» و«تعلّم الصّلاة». لا شكّ في أن الكثيرين سيفاجأوا من اعتبار هذه المطالب بحد ذاتها مدهشة[33].

تكمن ميزة الإنسان الجوهريّة في كون كرامته أساساً وطيداً، يقوم عليه المجتمع، والإنسان كائن اجتماعي لا محال، ويتّخذ هذا الطابع الاجتماعي بُعداً عالمياً جديداً

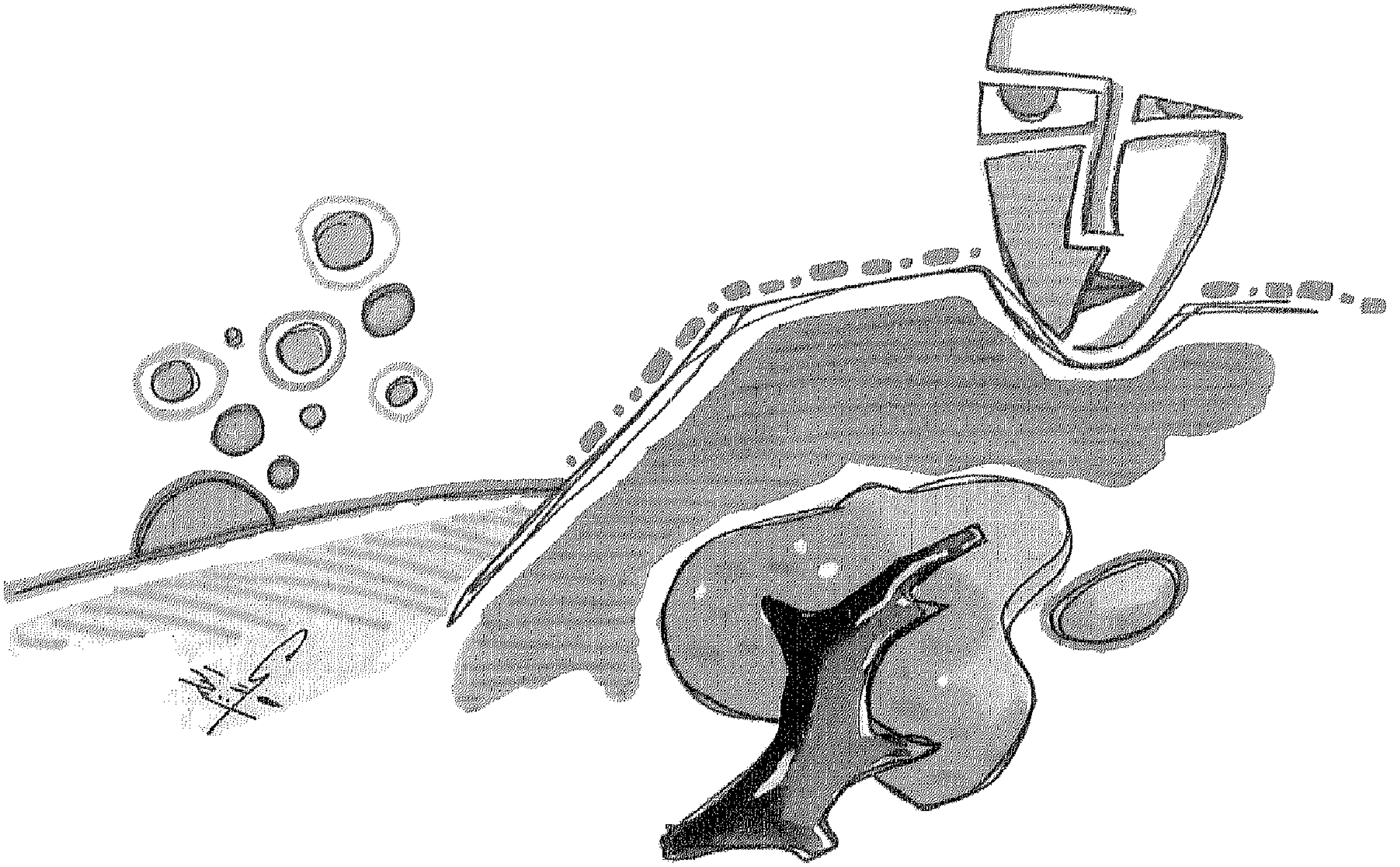


باختصار، يشمل مفهوم الكنيسة الكاثوليكيّة للتطور الكامل، الطرح القائم على حقوق الإنسان واللاهوت عبر الإيمان والمنطق. أي يمكن وصفه بالسّعي لتحقيق الصالح العام في أخلاقيّة إنسانيّة واجتماعيّة (كنظريّة السلوك الأخلاقي، لموريس بلونديل، الذي تأثّر به (ماريتان) واللاهوتيون الفرنسيون في المجمع الفاتيكاني الثاني) وبروحانيّة العدالة التي اشتهر (غوستافو غوتييريز) بشرحها. بالفعل كان هذا التوجّه مصدر غنى في إيمان الكنيسة الكاثوليكية المعاصرة وحياتها.

إلى ذلك، يستوجب مفهوم الكنيسة الكاثوليكيّة للتطور الكامل وصفات أو توصيات «مستقلّة» تشرح كيفية تحقيق النمو بأفضل الوسائل وفي مختلف المجتمعات. يمكن أن تكون هذه الوسائل على سبيل

---

31. مزاولة العمل البابا يوحنّا بولس الثاني، 1981، 17
32. الإهتمام بالشأن الإجتماعي 38
33. Sabina Alkire "Culture, Poverty and External Interevention"en V. Rao & M. Walton (eds.) Culture and Public Action Stanford University Press 2004, 190



المثال، القضاء على عبء الدَّين الوطني المتأزّم، أو إطلاق مشروع لإصلاح المؤسسات الماليّة، أو تعزيز دور المرأة كونها عنصر تغيير ونمو. تشكّل توصيات التحرّك هذه أساساً للتطوّر النظري والعملي، وتعتمدها أيضاً هيئات التنمية العلمانيّة. لا شكّ في أن الكنيسة قد اضطلعت بدور إيجابي رائد وناجح نسبيّاً في سعيها لتخفيض الديون، إلاّ أنّها في أوضاع استثنائيّة تأخّرت عن بعض الوكالات العلمانيّة في مجال تعزيز دور المرأة كقائدة في التنمية. بالرّغم من ذلك لا يمكن إنكار الدور الاساسي الذي اضطلعت به وكالات التنمية التابعة للكنيسة الكاثوليكيّة، في تنمية ثقافات البلدان المتواجدة فيها ولا سيّما شهادتها القيّمة لإيثار الكنيسة أو حبّها المفضّل للفقراء. لكن بالطّبع لم تشارك الكنيسة كلّها الرّؤية نفسها.

التطور والهجرة

نظراً لموجات هجرة العمّال، من جنوب الأرجنتين والبلدان الصناعيّة، في شمال إيطاليا ـ التي تسارعت وتيرتها بعد الحرب العالميّة الثانية ـ لم تكن الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة بمنأى عن تحرّكات الشعوب. فقد حصل ذلك تحديداً على عتبة الفاتيكان، فكان الجواب العملي المباشر قيام اللجنة الكاثوليكيّة الدوليّة للمهاجرين أو ICMC بالفعل، لطالما كان الحق بالهجرة لتأمين الحاجات الأساسيّة للعائلة من الثوابت الأساسيّة في تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة الإجتماعي.

وفي إشارة إلى رسالة «الشؤون الحديثة» حول حقوق العمّال، تصف رسالة «أم ومعلّمة» الحق بالهجرة كحق أساسي. في هذا السياق، تشدد الكنيسة على أهميّة الدّول التي تستضيف المهاجرين، واحترامها لحقوق العمّال وعدم التمييز ضد العمّال «الأجانب». يكون هذا الإحترام مثلاً، عبر السماح لعائلات المهاجرين بالإنضمام إليهم ودمجهم في الحياة الإجتماعيّة من خلال تأمين المسكن وظروف العمل اللائقة بهم، لكن شرطاً يفرض نفسه دائماً: «أن تكون فرص العمل متوافرة لهم بالأماكن الأقرب

إلى مناطق سكنهم بالقدر المستطاع».[34]

وعليه، ارتأت الكنيسة أن تعترف في موقفها أنّ الفشل في التنمية يجعل الهجرة «شرّاً ضروريّاً» ومحاولة لضمان خير المهاجرين وكرامتهم الإنسانيّة وحريّة تحرّك العمّال. بالطبع لا يمكن الإستخفاف بفقدانهم عملهم في بلدهم الأمّ، إذ قد يفسح ذلك المجال للاستخفاف بالأهميّة الثقافيّة الأوسع للجماعات المهاجرة في البلدان المستضيفة وأهميّة مساهمتهم الكبيرة عن طريق التحويلات المالية للأصدقاء الاحرار في البلد الأم. لا شك أنّ للهجرة نواحٍ إيجابيّة يمكن اكتشافها من خلال تاريخ الولايات المتحدة الأميركيّة في القرن التاسع عشر وما لحقه من نمو إقتصادي وثقافي.

وتنطبق هذه المخاوف والمشاكل على ظروف اللاجئين، فالفقر والظلم والعنف في بلدهم الأم يجبرهم على الهروب. لكن غالباً ما يكون هربهم مدعاةً للمزيد من الضيق الشديد وأحياناً «معاناة لا تصدّق». ركّزت الكنيسة في هذا الإطار على واجب البلد المستضيف، الإعتراف بالمهجّرين كأشخاص ذوي حقوق ولو فقدوا جنسيّتهم، والترحيب بهم «بقدر ما يتّفق ذلك وخير شعوبها الحقيقي».[35] أي أن الترحيب لا يدوم عملياً لوقت طويل. فأزمة اللاجئين الخطيرة والواسعة التي عرفها العالم في الثمانينات أدّت (بالأب بيدرو أروب) وجمعيّة «مجتمع يسوع» إلى تأسيس المركز اليسوعي لخدمة اللاجئين بهدف تلبية حاجاتهم. إلى ذلك، قام عدد ملحوظ من الكاثوليكيين بمبادرات هادئة وحثيثة لا سيّما على مستوى مؤتمرات الأساقفة أو ضمن جماعات علمانيّة محليّة صغيرة بهدف دعم ملتمسي اللجوء والعمّال المهاجرين الواصلين لتوّهم إلى البلد المستضيف. ولطالما عبّرت مؤتمرات الأساقفة عن دعمها للاجئين والمهاجرين وحمايتها لهم في المواقف العنيفة المعادية للأجانب، لكن الوضع لا يزال يتفاقم حتّى يومنا هذا لا سيّما في أفريقيا.

تظهر مسألة الهجرة وهروب اللاجئين اليوم كجزء من الوجه المظلم للتنمية الفاشلة. بتعابير أخرى، إنّها ثمرة الإنتهاك الصّارخ لحق الإنسان بالتنمية. بالرّغم من ذلك، لا يمكن أن تنحصر بالدّولة وحدها، المطالبة بحق التقدّم الذي تؤكّده الكنيسة، في حين يبقى غير مقبول به على الصعيد العام، وبالكاد صالح لتنظر به المحاكم[36]. ذلك لأن جهات عديدة غير الدولة تحدد وتحكم التنمية الوطنيّة في العالم «المترابط» الذي نشهده اليوم. فالشركات والأسواق العالميّة، تلعب دوراً مهمّاً إلى جانب الحكومات في هذا المجال. نظريّاً، يمكن للدول أن تتحكّم بالجهات المؤثّرة المذكورة، لكن الواقع قد أثبت أن الدّول الضعيفة لا تستطيع أن تسيطر بشكل حازم على مصيرها الإقتصادي.

ماذا تعني الحقوق غير القابلة للتصرّف إلا تأكيداً على أنتروبولوجيا دينيّة، على فعل إيمان في بشريّة خلقها الله، أي الإيمان بطيبة الله ومحبّته التي تمكننا من بناء عالم أكثر إنسانية

من المهم أن نسلّط الضوء على هذا الموضوع، حيث إن ميثاق الأمم المتّحدة وإعلانها بالإضافة إلى الأحكام الأخرى المؤيّدة لحقوق الإنسان، كلّها تُطَبّق لأنّها تُوجَّه كمطالب إلى الحكومات. بذلك، تصبح الحقوق مؤمّنة أوّلاً لمواطني بعض الدّول المعيّنة. لا شك أن «القانون» الإنساني هو دوليّ بيد أن إقراره يعتمد على اعتراف الدّول به كقانون. تجدر الإشارة إلى أن عدداً قليلاً من الدول الغنيّة قد وقّع على الإتفاقيّة الدّوليّة حول المهاجرين وعائلاتهم. لكن حتّى عندما توقّع هذه الدّول على اتّفاقيات دوليّة كاتفاقيّة جنيف لأوضاع اللاجئين وما تبعها من «بروتوكولات» عام 1967، يبقى السؤال حول مدى

34. أم ومعلّمة 45، فرح ورجاء 1, 66
35. سلام بين الأمم كلّها 106
36. Giorgio Filibeck The Right to Development Pontifical Justice and Peace Commission, Vatican City 1991

سعيها للمراوغة في تطبيق الأحكام المتعلّقة بحقوق الإنسان. نتيجة لذلك، تغدو حقوق الإنسان عملياً وإلى حدّ بعيد، في «العالم المتقدّم» أقّله، شبه موازية للحقوق المدنيّة في كونها مشروعاً أخلاقيّاً. فالإتفاقيّة الأوروبيّة لحقوق الإنسان مثلاً تصبح «نافذة» (أي أن الحقوق المذكورة فيها قابلة للتنفيذ) بقدر ما يسمح بذلك القانون الوطني للدول الأعضاء، أو بتعابير أخرى، بقدر ما يتوصّل المواطنون، عند الضرورة، إلى المطالبة بحقوقهم عبر القانون. لا يغيب عنّا أن المملكة المتّحدة في حمايتها لملتمسي اللجوء الّذين لم يسددوا موجباتهم الماليّة، اعتمدت على تطبيق القانون الأوروبي لحقوق الإنسان لأن التشريعات الحكوميّة التي تحرم هؤلاء من ضروريات البقاء على قيد الحياة قد اعتُبِرَت خرقاً لأحكام الإتفاقيّة الأوروبيّة لكونها «معاملة وحشيّة ومهينة وغير إنسانيّة».

لهذه الأسباب يمكن اعتبار المهاجرين واللاجئين الّذين فقدوا حقوقهم المدنيّة كلّها، حالات اختبار للإيمان والإلتزام بحقوق الإنسان إذ أنّهم يتمتعون بحق عام وعالمي وذاتي فقط لكونهم إنسان. فكما أظهر في الماضي النضال ضد الإستعباد وكما تظهر اليوم عودة الجدال حول مسألة بداية الحياة وانتهائها، أيّ طرحٍ في موضوع حقوق الإنسان يشترط إجماعاً مسبقاً حول ماهيّة الإنسان والإنسانيّة.

باختصار، إن نتائج فشل التنمية وسقوط الدّول والحروب الداخليّة وسلطة أسياد الحرب والجوع، كلّها عوامل تؤدّي إلى الهجرة والهروب وطلب اللجوء. صحيحٌ قول «حنّا أريندت» إن الإنسان عندما يفقد حقوقه المدنيّة يفقد حتماً حقوقه الإنسانية. ذلك لأن «الّذين يُجرّدون من كل الصفات الأخرى ويفقدوا علاقات معيّنة، لا يبقى لهم سوى كونهم إنساناً» (37) فتضحي حالتهم «حالة الطبيعة» التي يصفها الفيلسوف الإنكليزي (توماس هوبز)، وهي بعيدة كل البعد عن الرؤية المسيحيّة لما هو «طبيعي» في البشريّة. فحالة كهذه قد تضع الإنسان في مخالب مصير غير إنساني.

يُبرز طرح (أريندت) المنطقي مفارقة غريبة: «فأنا أُجَرّد من حقوقي كإنسان كل مرّة أفقد فيها كل شيء ما عدى إنسانيتي - بشكل عام - وبذلك أصبح الشخص الأكثر استحقاقاً «لحقوق الإنسان العالميّة» التي أمتلكها بمعزل عن مهنتي وجنسي وجنسيّتي وديانتي وهويّتي الإثنيّة...»(38) قد يلقى هذا الطرح الوجودي ترحيباً شديداً وموافقة أكيدة من قِبَل مُلتمسي اللجوء والمهجّرين البسطاء، إذ يدعم سعيهم للكرامة البشريّة المُصانة في البلد المستضيف.

إن الأوضاع التي يعيشها اللاجئ والمهجَّر والقروي الأفريقي المُعدَم كلّها تثير حتماً مسائل عميقة حول المفاهيم العلمانيّة للحقوق. ماذا تعني الحقوق غير القابلة للتصرّف التي يتمتّع بها هؤلاء إلا تأكيداً على أنثروبولوجيا دينيّة، على فعل إيمان في بشريّة خلقها الله، أي الإيمان بطيبة الله ومحبّته التي تمكّننا من بناء عالم أكثر إنسانيّة؟ انطلاقاً من هذه الروحيّة العميقة، يكون للكنيسة رؤية وتصوّراً تأمل أن تشرك فيهما المجتمع الدّولي والأمم المتّحدة الّذين يستمرّان بمواجهة هذه الحقائق بمواقف فيها من القلق والسخرية في آن واحد.

يشكل تطلّعنا هذا، لأفق يتخطّى الأمّة والدولة، ولنداءات الأسرة البشريّة العالميّة وكرامتها التي هي «على صورة الله» (ضمن عبادة الكنيسة وحياتها)، ضرورة ملحّة في ظل العولمة السريعة التي نشهدها. على هذا التطلّع أن يكمّل ويدعم طروحات الكرامة الإنسانيّة وحقوق الإنسان المستنبطة من المفاهيم العلمانيّة للتنمية.

....

37. Hannah Arendt The Origins of Totalitarianism New York, 1958, 297

38. 38. Slavoj Zizek "Against Human Rights" in New Left Review July-August 2005, 127

كيف نحاكم قوانين الإبادة البشرية؟

د. حسن الباش *



هـل مـا تـزال بـعض الشـعـوب والأفـراد، يعيشون رهائن لنصوص عنصرية دموية دينية؟

مـاذا يـفـعـل هـذا الانـفـتـاح الـكـونـي، لـمـواجـهـة الإسـتـرهـاب الـمـقـنـن، الأسـيـر لـلأهـواء الـمـنـحـرفـة، المنغلق في التصنيف العرقي البغيض؟

يـفـتـرض بشـعـوب الـعـالـم الـيـوم، أن تـسـتـبـصـر الـعـلاقـات الإنـسـانـيـة المتساوية، على ضوء التعامل المتشابك واليومي، بين الشعوب كافة.

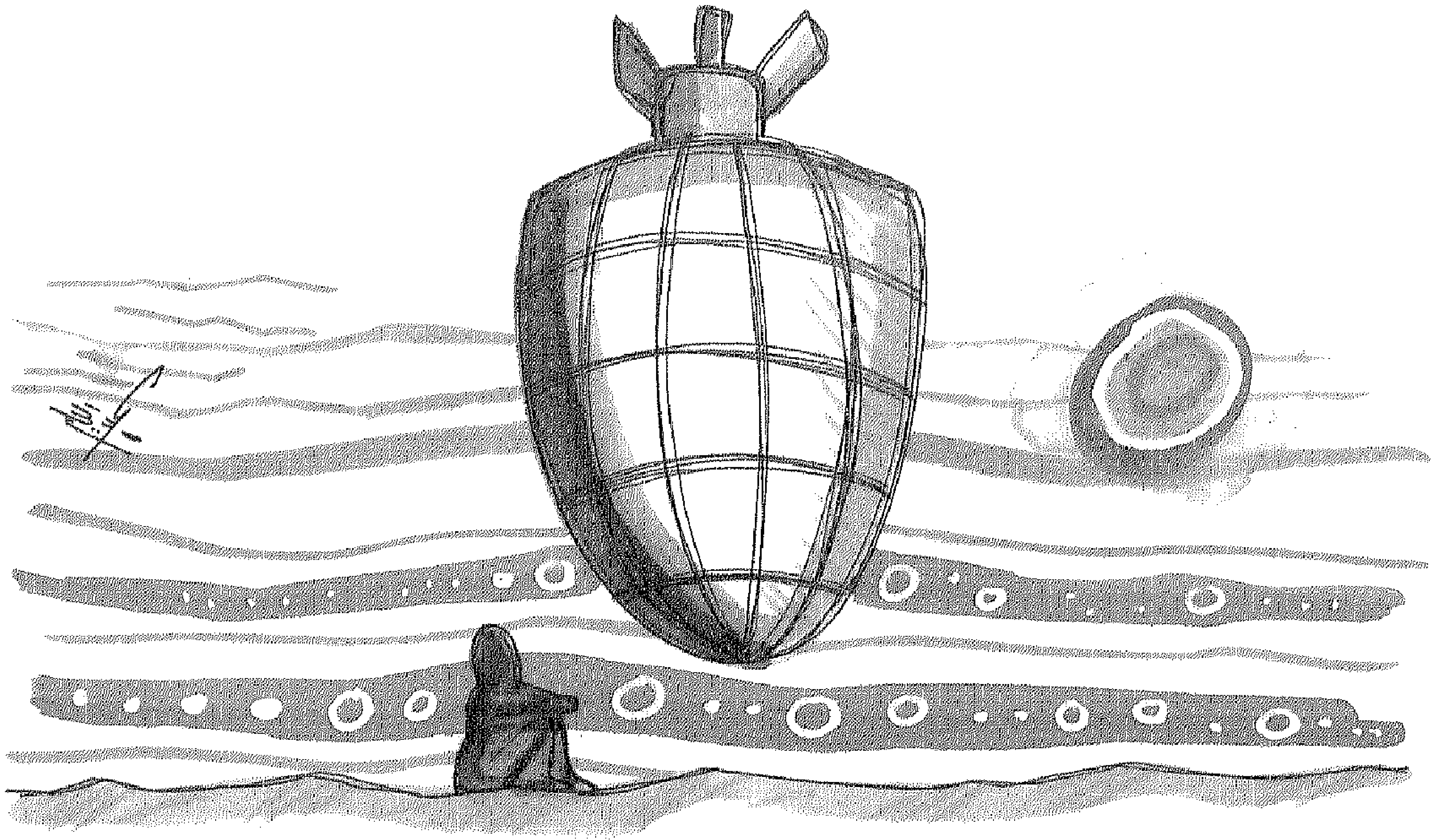
فـهـذا الـعـصـر الـذي نـراه، هـو عـصـر تـرسـيـخ التفاهم والتعارف، وليس عصر الإبادة والعنصرية ونـفـي الآخـر، وإذا كـان بـعض الشـعـوب والأفـراد مـا يزالون يفكرون بعقلية الانحراف، فإن المجتمعات الإنسـانيـة الـواعيـة تـتـحـمـل عبء تخليص الكون من ذلك الشذوذ، وإعادة أصحابه إلى عقلية الاستقامة، أو حصـارهـم فـكـريًـا أو إنسـانـيًـا أو نـبـذهـم، بـل ومقـاطـعـتـهـم حـتـى لا يظلوا عقبة في وجه التفاهم الإنساني، المتوقع والمنشود، فـالـعـصـر الـجـديـد لا يحتمل أن يرى أناسًا يقننون للحرب، وإبادة الإنسان، وإهراق دمه، ومحو هويته وتراثه وثقافته، وأهدافه الوطنية والإنسانية.

من هنا كان لزامًا علينا ـ ونحن ندعو إلى الحوار الإنساني ـ أن نشير بشكل واضح، إلى أهم عقبة من عـقـبـات الـوصـول، إلـى حـالـة كـونـيـة مـن الـتـفـاهـم والـتـعـارف الإنسـانـي، وليس غريبًا أن نقول: إن تلك الـعـقـبـة، هـي: تطبيق القوانين الدينية العنصرية، لإبادة البشرية، صحيح أن بعض هذه القوانين تطبق هـنـا أو هـنـاك، ولـكـن هـذه الـقـوانـيـن تـأخـذ طـابـع الـقـداسـة، حـتـى لـيـبـدو لـنـا أن بـعـض الـمـجـمـوعـات البشرية، تتماهى تمامًا معها ولا تحيا دونها، فهي في اعتبارها أوامر إلهية، يجب أن تنفذ، وإن لم تنفذ فإن ذلك يعني معصية الرب ورفض أوامره.

وهـنـا لا بـد مـن الإشـارة إلـى أن بـعض الـقـوانـيـن الداعية للقتل، والإبادة البشرية، تصدر عن قائد أو زعيم، أو منظر لفلسفة وطنية، أو قومية، كهتلر مثلاً، زعيم النازية الألمانية (1889-1945 مسيحي).

ومـع مـرور الـزمـن، وانـقـلاب الـوضـع الـوطـنـي أو الـقـومـي، تـنـفـذ أفكاره، وتنفصل العرى بين أوامره وأفكاره الـدمـويـة، وجـمـاهـيـر وطـنـه وقـومـه، وبمعنى آخر، لا تأخذ أقوال البشر مكان القدسية، التي لا تمس ولا تـنـاقـش، فكل فلسفة وضعية قابلة للتغيير والـتـغـيـر، فـمـا كـان بـالأمـس جـيّـدًا، قـد يـصـبـح الـيـوم

(*) كاتب وباحث فلسطيني / سوريا.



سيئًا، وما كان بالأمس صحيحًا، قد يصبح اليوم خطأ.

لكن الأوامر ذاتها، حين يتخيل منفذوها، أنها صادرة عن الله الخالق، فلا مجال لرفضها ولو تقادم الزمن، فهي وحيٌ من الله، دونت أو ظلت دون تدوين، وحفظت في الأذهان والنفوس، إلى أن سنحت الفرصة وكتبت، وأصبحت كتابًا مقدسًا، يجب التقيد به.

النموذج الصهيوني

قد نكون في مرمى النقد، أو الإتهام من قبل الآخرين حين نختار النموذج الصهيوني، كمثال كبير على القوانين الدينية، الداعية للإبادة البشرية، فتحت شعار اللاسامية المضلل، قد نتهم بالعداء لليهود، إن نحن أظهرنا مساوئ هذا النموذج، الفريد من نوعه.

لكن هذا الشعار يسقط ويتهاوى، إن نحن استطعنا مقاربة النصوص التوراتية والتلمودية، بأساليب القتل، والإبادة الجماعية، المستخدمة في فلسطين وغيرها، والتي كانت وما تزال عرضة لتنفيذ أبشع الجرائم على مر التاريخ.

وحين نخاطب العقل الآخر، ليس بالإمكان أن نظل نجتر شعارات عاطفية غير مجدية، فلدينا وثائق العنصرية الصهيونية شاهدة حية، ولدينا أدوات المقارنة بينها وبين السلوك الصهيوني العملي، الجاري على الأرض.

ولعلنا ونحن نشهد أوروبا وشعوبها، تعيدان النظر في الحركة الصهيونية، لابد لنا أن نتعامل مع هذا التطور، بجدية وعقلانية، حتى نستطيع أن نحقق عودة الأمور إلى نصابها، وتخليص البشرية من خطأ ارتكب، وقد آن الأوان لتصحيحه.

قوانين الإبادة المقدسة:

دُونت التوراة حسب كافة المصادر التاريخية، في القرن التاسع ق.م، وكذلك في القرن السابع ق.م، ويشير الحبر، السموأل بن يحيى المغربي، إلى ذلك بقوله: «فهذه التوراة التي بأيديهم، على الحقيقة كتاب عزرا، وليست كتاب الله، وهذا يدل على أنه رجل فارغ، جاهل بالصفات الإلهية»[1].

فـ(عزرا)، هو مدّون التوراة أيام السبي البابلي،

1 ـ السموأل بن يحيى المغربي: غاية المقصود في الرد على اليهود: مخطوط ص:49.

كما تشير التوراة في سفر عزرا، وكما تشير غالبية المصادر التاريخية، وتدخل قوانين الإبادة التوراتية، ضمن هذا التدوين والتأليف، وإذا نظرنا إلى الوضع النفسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي الذي كان حال المسبيّين من اليهود عليه، أدركنا الأسباب التي دعت عزرا الكاتب، أن يسن تلك القوانين الدموية العنصرية، وهذا ما يسمى في علم النفس، الارتداد العكسي للنفس، فالمسبيون كانوا مستعبدين مقهورين أذلاّء، فبدافع الحقد والانتقام الشديدين، كتب عزرا هذه القوانين لينفس عن حالة القهر الشديدة التي عاشها أتباعه.

وليست هي قوانين إلهية، ولا أنزلت على موسى (عليه السلام)، لكن عزرا ومن أتى من بعده، كرسوا مقولة: إن ما دونه عزرا، هو التوراة الموصى بها من الله لنبيه موسى (عليه السلام)، وهكذا ومنذ القرن السادس ق.م، وحتى الآن يُعمل بهذا الكتاب، على أنه مقدس مُنزل من الله، ويجب احترامه والتقيد بأوامره.

القتل يطال الرجال والنساء والأطفال، دون استثناء، وهذا من تعاليم الرب التوراتي، الذي اخترعه عزرا وبقية كهنة اليهود

يأتي القانون الأول، في التوراة المكتوبة، ليوحي بأن أتباعه أقوياء، لا يقف أمامهم مخلوق، بينما كتابة هذا القانون على يد عزرا أيام السبي تمت وهم في أقصى وأسوأ حال من الاستعباد والضعف.

تقول التوراة: «حين تقترب من مدينة، لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك فكل الشعب فيها يكون للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا، فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك، إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب، التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا، فلا تستبق منها نسمة مّا، بل تحرمها تحريمًا، الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، كما أمرك الرب إلهك» سفر التثنية 20 : 10-18.

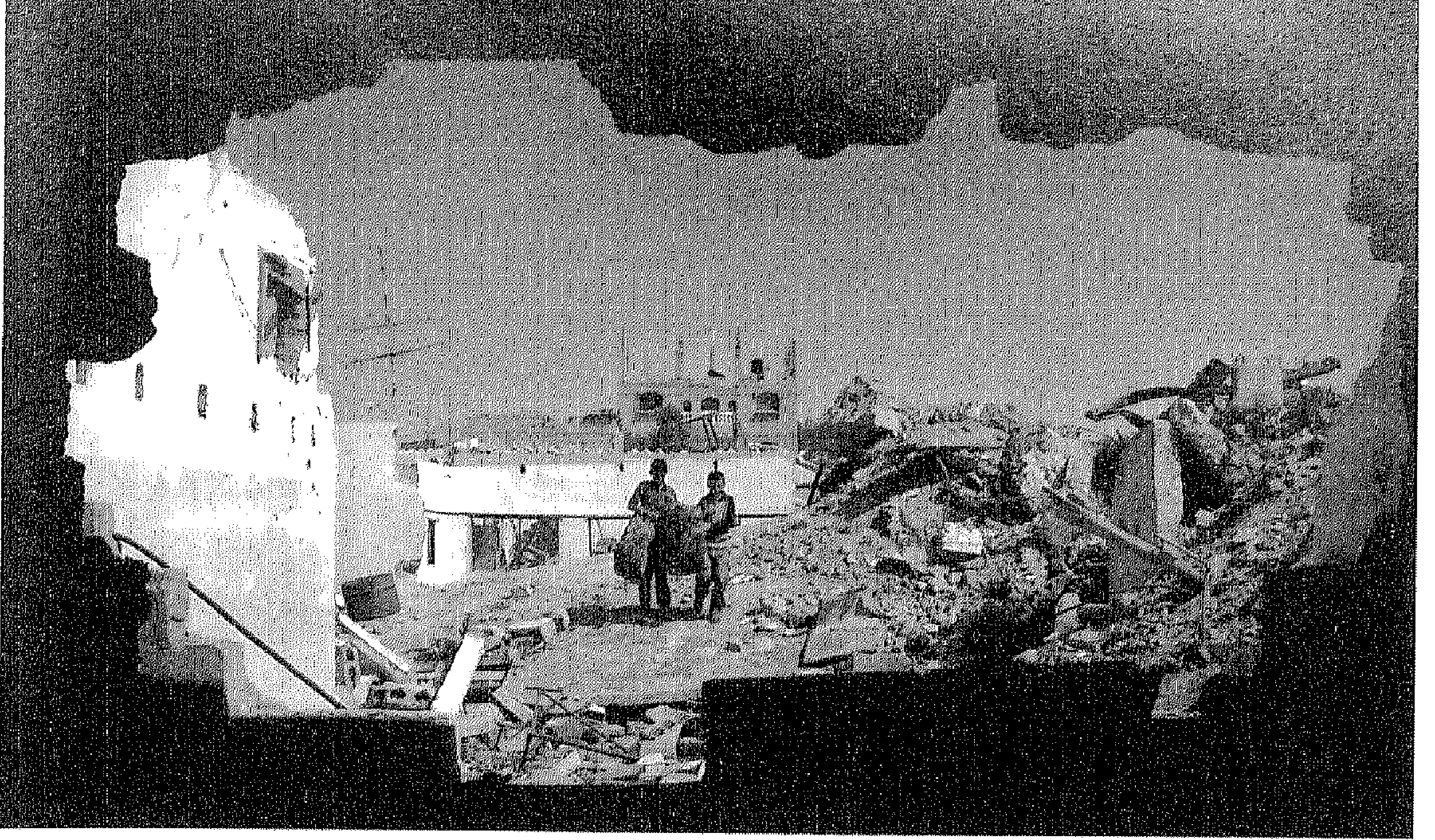
فهذه القوانين، لا تخرج عن دائرة الأمنيات الحاقدة، في ذلك العصر الذي أُلفت فيه، وحسب النص، فإن الهدف الأساسي لاتباع التوراة المكتوبة، إما إبادة الشعوب، أو استعبادها، والمدينة التي تصالحهم يستعبد سكانها، ويُسخرون بشرط أن تكون من المدن البعيدة عن تخوم هؤلاء الأتباع والمدينة التي تحاربهم يجب أن يُباد رجالها، وأما نساؤها وأطفالها فهم غنيمة أعطاها الرب لهم، وأما مدن القبائل العربية، من كنعانيين و فرزيين ويبوسيين ومن شابههم فيجب أن يُبادوا رجالاً ونساءً وأطفالاً.

وليس في هذه القوانين، ما يخص الأسرى فلا أسرى في القانون الحربي اليهودي، لأن الإبادة هي الأساس.

كيف يُطبق هذا القانون اليوم؟

عندما بدأ تنفيذ المرحلة الحاسمة في احتلال فلسطين، طبق قانون الإبادة البشرية، في عشرات القرى والمناطق الفلسطينية، وإذا اقتصرنا على رواية المؤرخين اليهود الجدد، فإننا نرى اعترافات إسرائيلية، بعشرات المذابح التي ارتكبت، في فترة لا تتجاوز الستة أشهر، ومنها مذبحة «الطنطورة»، التي راح ضحيتها، حوالي 260 شخصًا ومذبحة «قِبية»، وفيما بعد مذبحة «السموعي»، وبعدها مذبحة «الدوايمة»، وقس على ذلك فيما بعد مذبحة «كفر قاسم»، والمجازر التي ارتكبت في المسجد الأقصى، والمسجد الإبراهيمي في الخليل.

طبق قانون التوراة المكتوبة بحذافيره، حيث اعتبر الفلسطينيون أحفاد الشعوب الستة، التي ورد



مشهد من النموذج الصهيوني للإبادة

ذكرها في النص التوراتي السابق ((وأما مدن هؤلاء الشعوب، التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما)).

كان القتل يطال الرجال والنساء والأطفال، دون استثناء، وهذا من تعاليم الرب التوراتي، الذي اخترعه عزرا وبقية كهنة اليهود.

وفي الحروب التي خاضها الصهاينة ضد العرب، عام 1956-1967 مسيحي، طبق الجزء الآخر من القانون، فقد أباد الجيش الصهيوني الآلاف من الأسرى المصريين والسوريين والفلسطينيين ((وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف)).

وعندما يرتكب شارون، مجازره فإن كثيراً من القادة الصهاينة، وخاصة زعماء الأحزاب اليهودية المتعصبة، يرون فيه يشوعاً جديداً، وقد يظن المرء أن ذلك يأتي للتماهي بين شخص وشخص، ولكن المدقق بهذا الوصف، يجد له أبعاداً عنصرية دموية كثيرة.

فيشوع هو شخصية السفر السادس، من التوراة المكتوبة، وحسب هذا السفر، فإن يشوع طبق قانون الإبادة البشرية في أكثر من ثلاثين قرية ومدينة فلسطينية، وهذه بعض الشواهد التي وردت في التوراة.

تقول: ((وحرموا كل ما في المدينة من رجل وإمرأة من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم، والحمير، بحد السيف)) يشوع 21: 6.

((وكان لما انتهى إسرائيل من جميع سكان عاي)) يشوع 8:24 .

((وأخذ يشوع «مقيدة» وحرم ملكها وكل نفس بها لم يُبق شارداً)) يشوع.

((ثم حارب لبنة وضربها بحد السيف، وكل نفس بها لم يُبق شاردا، ثم اجتاز إلى لخيش وضربها بحد السيف، وكل نفس بها ومن عجلون إلى حبرون، حاربوها وضربوها بحد السيف، وحرم يشوع كل نفس بها، ولم يُبق شارداً ثم رجع يشوع إلى دبير، وحاربها وحرموا كل نفس بها ولم يُبق شارداً)) يشوع 11: 7-9.

وهكذا كانت عبارة مثل حرم كل نفس، ولم يُبق شاردا، بمثابة القرار أو اللازمة، في كل نشيد يمجد عملية فتك أو إبادة(2).

قوانين الإبادة في شريعة التلمود:

ما هو التلمود؟ هو: مجموعة التعاليم التي ألفها أحبار اليهود وربانيوهم، وفقهاؤهم المنتمون إلى فرقة الفريسيين، وهو عبارة عن ثلاثة وستين سفراً؛ ألفت في القرنين الأول والثاني، بعد ميلاد المسيح (عليه السلام)، وأطلقوا عليها «المشنا» بمعنى المثنى أو المكرر، انها تكرار وتسجيل للشريعة، ثم شُرحت هذه المشنا فيما بعد، وأطلق على هذا الشروح إسم الجمارا، أي الشرح أو التعليق، وامتد تأليفها حوالي خمسة قرون، بدءاً من الثاني وحتى السادس بعد الميلاد(3)، ومن أهم الأسفار في هذا التلمود، ما يُطلق عليه رسالة الوثنيين، وفيه جميع القوانين التي وضعها حاخامات يهود عن العلاقة بين اليهودي وغيره.

في سنة 214 بعد ميلاد المسيح قتل اليهود مائتي ألف مسيحي في روما وكل نصارى قبرص

يعتقد الربانيون اليهود، أن أصل التلمود، قد أنزل على موسى (عليه السلام)، وتعتبر القوانين المبثوثة في التلمود، أكثر قداسة من نصوص التوراة.

يُنقل عن الحاخام روسكي قوله: التفتْ يا بني إلى أقوال الحاخامات، أكثر من التفاتك إلى شريعة موسى(4).

وجاء في أحد كتب الأحبار الربانيين، المسمّى (همار): الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، والخبز هو التوراة بل يلزمه شيء آخر هو قواعد وحكايات التلمود(5).

والقوانين الإرهابية الدموية، التي يبثها التلمود أكثر تشدداً وأكثر وضوحاً، من نصوص التوراة فيما يتعلق بالقتل الفردي أو الجماعي.

جاء في التلمود: مباح قتل غير اليهودي -القتل أمر واجب، عند التمكن من إجرائه.

اقتل للصالح غير الإسرائيليين، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً، من باقي الأمم، من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين.

وجاء في التلمود: من العدل أن يقتل اليهودي بيده، كل كافر، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً لله.

وجاء أيضاً: إن الكفار، كما قال الحاخام أليعازر، هم يسوع للمسيح ومن تبعه.

لكن الرابي (يهوذكيا) قال: إن هذه اللفظة تشمل الوثنيين على العموم.

ويفسر التلمود أول وصية من وصايا موسى (عليه السلام)، (لا تقتل) بأن الله نهى عن قتل شخص من بني إسرائيل.

ومن المفروض عندهم قتل كل من خرج عن دينهم وخصوصاً النصارى، لأن قتلهم في هلاكهم، في أي وقت، وعلى أي وجه كان، ويعدون ذلك من العدالة، لأن التسلط على بني إسرائيل سيدوم، ما دام واحد من هؤلاء الكفار، ولذلك جاء في التلمود: إن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في

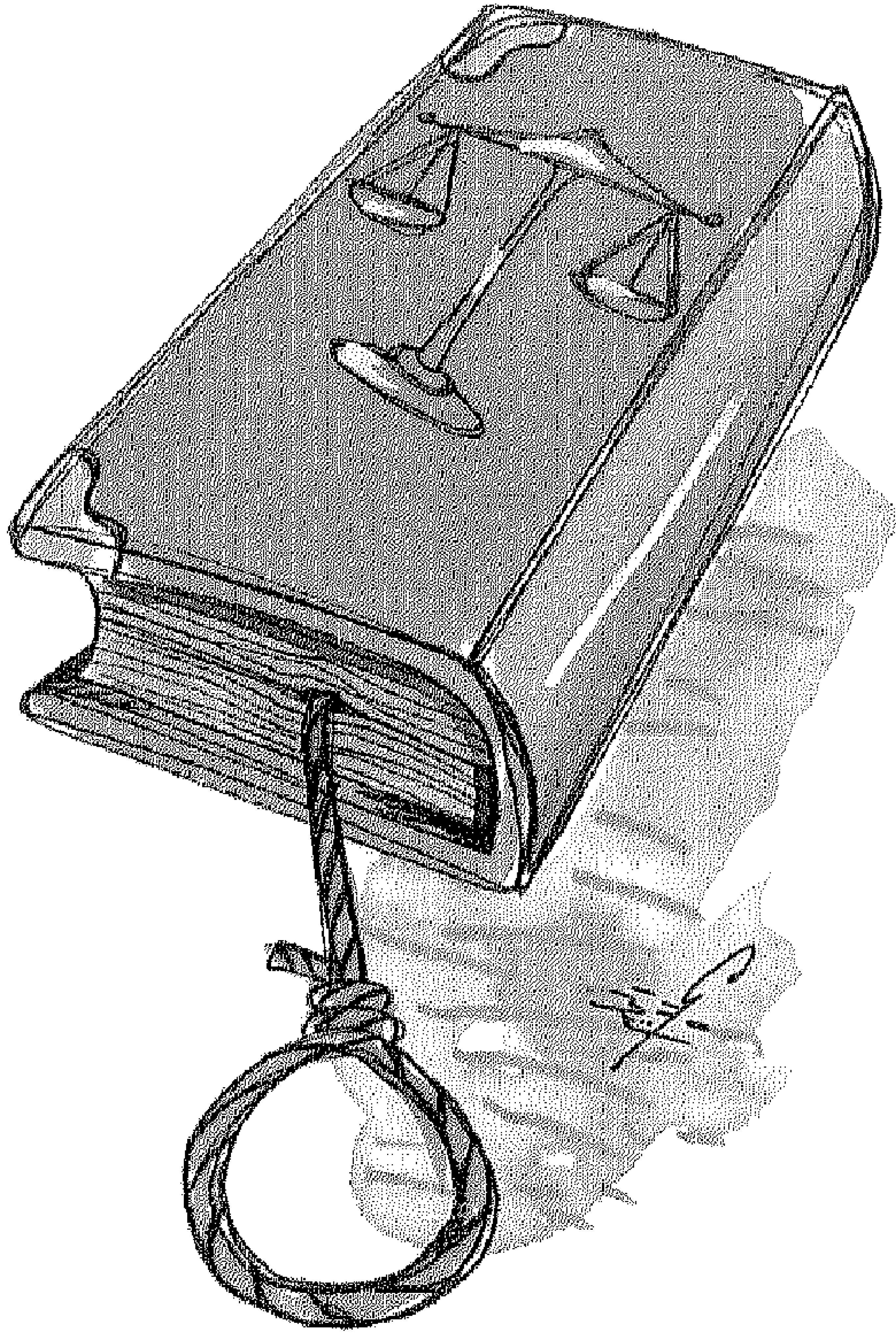
2. جرجي كنعان: سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية ص:65.
3. د. علي عبدالواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص:24.
4. الكنز المرصود الفصل الثاني.
5. طبع هذا الكتاب سنة 1544 مسيحي، وهو يحتوي على تعليقات تاريخية وإشارية على التلمود.

الفردوس، والجلوس هناك في السراي الرابعة، أما من قتل يهوديًا فكأنه قتل العالم أجمع، ومن تسبب في خلاص يهودي فكأنه خلص الدنيا بأسرها، ولذلك قال موسى بن ميمون: يصفح عن الأمي، إذا جدف على الله تعالى، أو قتل أو زنا بامرأة يهودية، ثم صار يهوديًا(6).

وقد ذكر الكاهن الروسي «برانايتس» في كتابه (فضح التلمود)، أن حب سفك الدماء لدى الحاخامات، ثابت في التاريخ العام، لأنه جاء فيه: إن (شارل) بولس خرج لمحاربة المسيحيين وهو لا يقصد إلا القتل، أو الفتك بهم فتكًا ذريعًا، ومذكور في رسائل الرسل: أن اليهود كانوا يهيّجون سكان المدن التي يسكنونها ضد المسيحيين، وقالت اليهود في كتابهم المسمى (سدرحادوروت) إن الحاخامات تسببوا في روما، في قتل جملة من النصارى.

وقد اثبتت شواهد التاريخ القديم والجديد، أن اليهود تسببوا في قتل مئات الآلاف من النصارى، الذين آمنوا برسالة المسيح -عليه السلام- في بدايتها.

وقد جاء في كتاب (سترحادوروت) في الصفحة 127: أن الحاخام الرباني يهوذا كان محبوبًا من الإمبراطور الروماني، عام 155 بعد الميلاد، وقد أطلع هذا الحاخام صديقه الإمبراطور، على حيل الناصريين (النصارى) قائلاً له: إنهم سبب وجود الأمراض المعدية، وبناء على ذلك حصل على أمر بقتل كل هؤلاء الناصريين الذين يسكنون روما سنة 155 بعد الميلاد، وجاء في الكتاب نفسه بعد هذه العبارة: أن الإمبراطور مارك أوريل قتل جميع الناصريين، بناء على إيعاز من اليهود، وقال في الصفحة 125: إنه في سنة 214 بعد ميلاد المسيح قتل اليهود (200,000) مائتي ألف مسيحي في روما،



وكل نصارى قبرص، وذكر في كتاب سفر يوكاسين المطبوع في مدينة امستردام 1717 مسيحي، أنه في زمن البابا كليمان، قتل اليهود في روما وخارجها جملة على النصارى كرمال البحر، وإنه بناء على رغبة اليهود، قتل الإمبراطور ديوكليسين جملة من المسيحيين، ومن ضمنهم الباباوين (كاييس ومرسليلون)(7).

ويظل هاجس هذه القوانين يسيطر على العقلية اليهودية، حتى جاءت تنظيرات زعماء الحركة الصهيونية، لتضيف قوانين جديدة أشد مغالاة وأكثر دموية.

فحتى قبل «هرتزل» نظر زعماء صهاينة للإبادة الفلسطينية، إذا ما تم استعمار فلسطين، فمنذ عام 1845 مسيحي، ظهر عدد من الحاخامات اليهود في

6 ـ التلمود: سنهدرين ص:17، نقلاً عن الكنز المرصود في فضائح التلمود.

7 ـ الكنز المرصود في فضائح التلمود ص: 224-225.

أوروبا الشرقية، الذين يدعون إلى احتلال فلسطين وإبادة أهلها، وكان على رأسهم الحاخام يهودا القالي والحاخام موشي لايب وعندما ألف «ثيودور هرتزل» زعيم الحركة الصهيونية السياسية كتابه: يوميات هرتزل وكتابه: الدولة اليهودية، سئل عن كيفية التعامل مع سكان فلسطين من العرب فقال: يجب أن نقوم بحملة صيد كبيرة، ونجمع فيها الحيوانات ونلقي في وسطهم القنابل القاتلة.

فبنظره، يرى أن العرب في فلسطين حيوانات، يجب إبادتهم حتى يتم قيام الدولة اليهودية الصهيونية(8).

ويستخدم منظرو الحركة الصهيونية وقادة إسرائيل، التاريخ التوراتي كدليل على شرعية القوانين الخاصة بإبادة العرب، لا سيما هؤلاء الذين يقودون حملات الإستيطان، في أراضي الضفة الغربية.

فحسب النص التوراتي، ولا ندري مدى صحته، أن الله أمر بني إسرائيل، أن يحاربوا قبيلة العماليق، وقد وعدهم الرب أن يمحو أي أثر لهم، من على وجه الأرض، ويأتي المنظرون الصهاينة ليقولوا: إن العرب اليوم هم من العماليق، ويجب إبادتهم، فالحاخام إسرائيل هس، مفتي جامعة بار إيلان سابقًا كتب مقالاً عام 1980 مسيحي، في نشرة طلاب الجامعة بعنوان: فريضة الجينوسايد في التوراة يقول: قريب اليوم الذي سنطالب فيه جميعًا بأداء فريضة إبادة عماليق، ويفسر الحاخام هس الأمر الذي يطالب بمحو ذكر عماليق بقوله: إن الأمر لا يترك مجالاً للرحمة فهو - النص - يأمر بإبادة الأطفال والرضع؛ وعماليق هو: كل من يقدس الحرب على شعب الله.

وجاء في المقال المذكور: «فما دامت ذرية عماليق موجودة في العالم، فلا الرب راض ولا العرش وإذا أبيدت ذرية عماليق، فالرب راض، والعرش راض، أما الحاخام إبراهام أفدان مفتي جيش إسرائيل، في المنطقة الوسطى، فقد قال في مقال نشر له عام 1980 مسيحي، إن الشريعة اليهودية تتيح لنا قتل المدنيين من غير اليهود، وقت الحرب بما فيهم النساء والأطفال لأن أطيب الأغيار هم الأموات منهم(9).

وقد نظّر لفكرة إبادة العماليق الجدد أي الفلسطينيين، الحاخام «يسرائيل أرئيل» الذي نشر عام 1980 مسيحي، مقالاً في مجلة نيكودا: (النقطة) لسان حال المستوطنين في الضفة الغربية يقول فيه: «عملقة عصرنا تتمحور في كراهية العرب العميقة لبعثها القومي، في بلاد أجدادنا»، وقد برر هذا الحاخام جرائم عصابات الإرهاب الصهيونية ضد العرب، أوضح فيه أن إهلاك نفس من غير اليهود، لا يعتبر جريمة قتل، وقال:

الاستفتاء الذي جرى في عدد من الدول الأوروبية أثبت أن نسبة 60٪ من الأوروبيين يعتبرون دولة اسرائيل تمثل الخطر الأول على الإنسانية



الواقع أن خلاصة تعاليم «موسى بن ميمون» تؤكد أن اليهودي الذي يقتل أجنبيًا لا تسري عليه شرائع النفوس، ولا تنطبق عليه وصية (لا تقتل)، حيث جاء في نصوص إبن ميمون المتعلقة بالقاتل (اليهودي الذي قتل أجنبيًا مواطنًا لا يعاقب بالموت) لقد استند منظرو العقيدة اليهودية المعاصرون على نصوص توراتية تلمودية، وردت في سفر يشوع، وكذلك في سفر التثنية، ونصوص التلمود التي فسرها الربانيون اليهود. وقد أدى هذا إلى تراجع الأصوات الحاخامية الإصلاحية، أمام المتطرفين، كون الأخيرين يتمسكون بنصوص توراتية تلمودية مقدسة، حسب

8- يوميات هرتزل.

9. درويش ناصر: الفاشية الإسرائيلية ص:47.

رأيهم ولا يحق لأحد أن ينتقدها. وقد علق على ظاهرة التطرف الدموي لدى منظري اليهودية المعاصرين، القاضي حاييم كوهين، قاضي المحكمة العليا، وذلك في محاضرة ألقاها في المؤتمر اليهودي الأميركي عام 1963 مسيحي، بقوله: (في تصوري أن إحدى مهازل القدر المّرة أن النزعة (البيولوجية) أو العنصرية التي روجت لها النازية واتسمت بها قوانين (نيرنبيرغ) البغيضة قد تنقلب بسبب تقاليد يهودية يدّعى أنها مقدسة، وتصبح أساسًا لتشويه يهودية الإنسان في إسرائيل، أعتقد أن في هذا أحد الإسقاطات المذهلة للدولة).

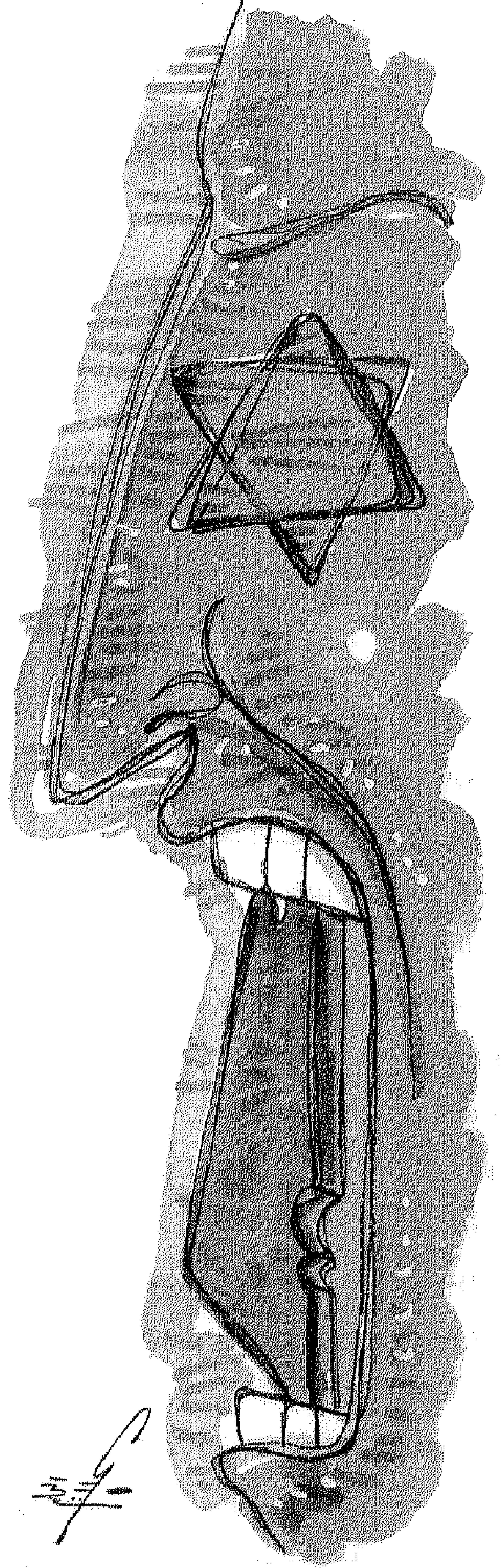
كيف تجابه الإنسانية قوانين الإبادة الإسرائيلية مثلما واجهت قوانين الإبادة النازية؟

حينما انتهت الحرب العالمية الثانية، أجمع العالم على محاكمة النازية كنظرية؛ ومحاكمة النازيين كمجرمي حرب، ولسنا هنا بصدد الحديث عن محاكمة (نورنبرغ) التي حكمت عددًا كبيرًا من النازيين بالموت أو النفي أو السجن الأبدي، فهذه المحاكم يعرفها الجميع ولا تخفى ملابساتها عن أحد.

لكن محاكمة النظرية النازية، القائمة على العنصرية والتفوق العرقي، بدأت من المفكرين والفلاسفة الأحرار، توقفت عند السياسيين والعسكريين المنتصرين في الحرب، ولم يمض وقت طويل حتى انتعشت في ألمانيا والنمسا وغيرها من البلدان، وبتنا نسمع عن النازيين الجدد هنا وهناك، وما يقومون به من أعمال إرهابية، ضد بعض الأقليات والجاليات المسلمة في أوروبا.

وبالمحصلة فإن انبعاث النظرية النازية من جديد، بات واضحًا مؤكدًا، والعالم يشهد ذلك بعيونه.

والنظرية الصهيونية التي أججت عدة حروب في الحوض العربي، وسفكت دماء الآلاف من العرب والمسلمين، لم تلق من يحاسبها، حتى هذه اللحظة، بل إننا نجد من يتبناها أو يباركها في العالم الغربي وغيره.



لكننا حين نطرح الحوار الإنساني، كسبيل لتخفيف التوتر في العالم، لابد لنا أن نشير إلى أن الإنسانية كلها بحاجة إلى إزالة القوانين العنصرية المشبوهة، فهي بالدرجة الأولى العقبة الأكبر في طريق التفاهم الإنساني أو التعارف الإنساني.

لقد أعلنت أوروبا، أن إسرائيل تشكل الخطر الأول على الإنسانية، وكان الاستفتاء الذي جرى في عدد من الدول الأوروبية أثبت أن نسبة 60» من الأوروبيين يعتبرون دولة إسرائيل تمثل الخطر الأول على الإنسانية.

لكن الشعوب الأوروبية التي لا تملك القرار، بحاجة إلى مزيد من تعميق البحث في أسباب هذا الخطر، من الطبيعي أن امتلاك إسرائيل الأسلحة النووية، يشكل أحد هذه الأسباب، لكن البحث في مكونات هذا الخطر، سيوصل العقل الأوروبي والعالمي بشكل محايد، إلى تلك النصوص الدينية التي تقدس القتل والإبادة الجماعية، وعندها سيدرك العقل الغربي، أن خطر إسرائيل والحركة الصهيونية، يكمن في تلك النصوص التي تحكم العقلية الصهيونية، وتتحكم بنوازع النفس الإرهابية المتطرفة، بل إن الممارسات الدموية وحروب الإبادة، التي تشنها إسرائيل ليست إلا تطبيقًا لتلك النصوص الدينية المقدسة، المبثوثة في التوراة المكتوبة والتلمود.

كيف تتم محاكمة النصوص الدينية العنصرية الدموية التي تقر الإبادة البشرية؟

من الطبيعي أن مواجهة هذه النصوص ورفضها، يتطلب في الأبعاد الدينية، رفض كل ما هو مناقض لمفهوم السلام عند المسيح -عليه السلام-، وعند أتباعه الصادقين، صحيح أن المسيحيين بشكل عام يطلقون اسم الكتاب المقدس على التوراة والإنجيل، باعتبار الأول هو العهد القديم، والثاني العهد الجديد، ولكن هذا الدمج يحتاج إلى مراجعة أخلاقية إنسانية

أولاً، فما جاء في الإنجيل يتناقض مع كثير مما جاء في التوراة، فلم نجد نصًا إنجيليًا يدعو إلى الإبادة البشرية، ولا إلى القتل لمجرد القتل، أو لأن الضحية عدو مفترض، افترضه مدونو التوراة في عصر بائس، بالنسبة لليهود، ولعل تطور العقل الإنساني وما وصل إليه من انفتاح بلا حدود، يرفض أو هو يستهجن وجود جماعات من البشر، ما تزال تتمسك بالحس العنصري ضد الآخرين، وتعتبر أن قتل الآخر، هو تنفيذ لرغبة الإله، ورغبة رجال الدين، الذين يتحكمون بتوجيه النفوس والعقول، من اليهود توجيهًا عنصريًا.

ليس هناك نص انجيلي يدعو الى الإبادة البشرية، ولا إلى القتل لمجرد القتل، أو لأن الضحية عدو مفترض

فمحاكمة هذه النصوص، تقتضي محاربتها وتعريتها، ومحاكمة من يدعو لها، محاكمة أخلاقية إنسانية قانونية، حتى يتخلص العالم، بل حتى تتلخص الإنسانية، من عقبة كأداء، تقف في وجه التفاهم الإنساني والتعاون بين الشعوب لأجل مستقبل إنساني محترم.

مصادر ومراجع استفيد منها:

1- السموأل بن يحيى المغربي: غاية المقصود في الرد على اليهود، مخطوط ص:49.

2 - التوراة العهد القديم، طبعة دار الكتاب المقدس، بيروت. دمشق 1980 مسيحي.

3- الكنز المرصود في فضائح التلمود، د. محمد عبدالله الشرقاوي، مكتبة الوعي الإسلامي دون تاريخ.

4- يوميات هرتزل، مركز الأبحاث، بيروت 1978 مسيحي.

5- د.علي عبدالواحد وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام، دار نهضة مصر 1956 مسيحي.

6- جرجي كنعان، سقوط الامبراطورية الإسرائيلية، بيروت دار النهار 1982.

7- درويش ناصر، الفاشية الإسرائيلية، دمشق دار الفكر 1998 مسيحي.

علاقة الهوسا باللّغة العربية

مالم لولي بطر★

الهوسا، كلمة تطلق على الشعوب والقبائل، الواقعة في منطقة واسعة، تمتد من مملكة «برنو» شرقًا، إلى حدود نهر النيجر غربًا، ومن حدود نهر البتوي جنوبًا إلى حدود مملكة «آير» شمالاً؛ وكذلك تطلق كلمة «الهوسا»، على اللّغة التي تتحدث بها تلك الشعوب والقبائل[1].

وتعد لغة الهوسا، إحدى أقدم اللغات الإفريقية السودانية، - ماندنغ؛ سنغاي - وأكثرها انتشارًا على نطاق واسع، في غرب إفريقيا؛ فكانت لغة الاتصال، والتخاطب، والتجارة، والمعاملات، والعلاقات الدبلوماسية؛ حيث استخدمها حكام الدويلات السودانية، في مراسلاتهم وعلاقاتهم[2]؛ وهي الآن لغة تخاطب واتصال، في أكثر من دولة إفريقية، نذكر منها: نيجيريا، النيجر، غانا، الكاميرون، السودان.

وكانت الهوسا، تدرس في أكثر من عشر مؤسسات جامعية، أوروبية منها بريطانيا؛ وألمانيا، وهولندا، وبولونيا، ورومانيا، وسويسرا[3]، كما كانت الهوسا، إحدى اللغات الأفريقية المستعملة، في الإعلام العالمي، في بريطانيا (BBC LONDON) والصين الشعبية، وروسيا، وألمانيا، وأمريكا، وإيران، ومصر، وغيرها.

نبذة تاريخية
عن أصل شعب الهوسا وإماراته الحضارية

لا يزال الحديث عن أصل الشعب الهوسوي، يتسم بالغموض والضبابية، والأساطير، كما هو حال تاريخ أصول القبائل الإفريقية الكثيرة، وذلك نظرًا لعدم وجود الآثار والوثائق التاريخية، المكتوبة حول هذه القبائل.

فعلى هذا الأساس، لم تتفق كلمة الباحثين والمؤرخين، حول أصل شعب الهوسا، حيث اختلفوا على أقوال وآراء متعددة، ولعل أهمها ما يلي:

1 - يرى بعض الباحثين، أن أصل «الهوسا» من سكان

(★) باحث / نيجيريا.

1ـ حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا ـ د. شيحو أحمد سعيد غلادنث ـ دار المعارف.

2ـ تاريخ العلاقات العربية الأفريقية ـ د. إمحمد مصباح الأحمد.

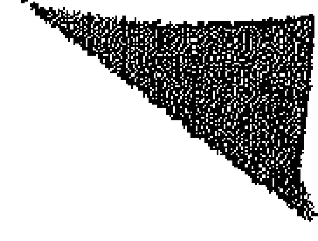
3ـ أفريقيا المسلمة ـ د. الخليل النحوي، نقلاً عن العربية في اللغات الأفريقية ـ أحمد الهايد.

الصحراء، شرقي نهر النيجر، أخرجتهم قبائل الطوارق من مواطنهم، فأخذوا يهاجرون نحو الجنوب، إلى أن استقروا في المنطقة، الواقعة حاليًا في شمال نيجيريا، وجزء كبير من جمهورية النيجر الحاليّ، حيث أقاموا سبع دويلات أساسية، وسبع أخريات فرعية(4).

2. يرى أصحاب هذا الرأي، أنه ليس هناك جنس، أو عرق، أو قبيلة تسمى الهوسا؛ وهي ليست جنسًا، أو عرقًا قائمًا بذاته(5)، بل هي شعب يضم أصول جنسيات، تتحدث بلغة مشتركة، ظهرت ونشأت، نتيجة اختلاطها مع بعضها البعض، خلال قرون عديدة(6)، ويرجع هذا الرأي، أصل الهوسا، إلى اندماج شعب إفريقي، من أصول زنجية، مع البربر، استنادًا إلى بعض أوجه التشابه اللغوية، بين اللغة البربرية، واللغة الهوسوية، لأن نظام الخلافة، في الحكم عند البربر، يقوم على أساس الصلة من جانب الأم(7)، إلا أن العادة في المجتمع الهوسوي، يخالفه، حيث إن جانب الأب، أقوى في نظام الحكم والخلافة، ويحتمل أن يكون هذا الرأي، مستوحى من الأسطورة القائلة، بانحدار أصل الهوسا من ملكة دورا (DOURA) التي تزوجت بأبي يزيد، ذلك الفارس الأسطوري، كما سنرى فيما بعد.

3. إن الأساطير الشائعة، في مجتمعات الهوسا، ترجع أصول شعب الهوسا، إلى شعوب ذات جذور آسيوية، وعليها استند كثير من الباحثين في حديثهم عن أصول الشعب الهوسوي، فمنهم من يرى أن شعب الهوسا، ينحدر من الشعوب الأفروآسيوية، في حين يرى بعض آخر، أن الهوسا، من العرب، وهذا اعتقاد شائع، في مجتمع الهوسا، ويرجع أصل أسطورة الفارس أبي يزيد أو القائد العربي الذي قدم من الشرق (بغداد) واسمة بياجد (Bayajida) أو أبا يزيد، نزل بدورا (Doura) فتزوج بملكتها، التي أنجبت له سبعة أبناء الذين أسسوا بدورهم، سبع دويلات أساسية للهوسا.

المدن والإمارات الحضارية، المتميزة عن غيرها، بخصائص هوسوية متعددة أصبحت أهم المراكز التجارية في السودان الأوسط وعماد الدولة الإسلامية التي أسسها عثمان بن دان فوديو، في القرن التاسع عشر



ولعل الرأي الراجح، في هذه المسألة، هو القائل: بأن شعب الهوسا من سكان الصحراء الكبرى، نزحوا نحو الجنوب، تحت ضغط وقسوة الطوارق، فأقاموا في منطقة «آير» إلى أن جاءت قبائل (لمتا) من شمال أفريقيا، وطردتهم إلى الجنوب، حيث أقاموا في المستوطنات التي أسسوها فيما بعد، كما يضعف احتمال ظهور الهوسا، نتيجة اختلاط الجنسيات المختلفة، كما أشار إلى ذلك (كارلتون إس وكون إدوارد) في السلالات البشرية، من أن البربر حيثما سكنوا أو عاشوا، يرفضون الزواج من الطبقة الزنجية، التي يرونها أدنى منهم، وإن وجدت بعض ملامح الإتصال، بين الشعبين، إلا أنها غير كافية لايجاد شعب له لغة ذات قواعد نحوية وصرفية محكمة كالهوسا.

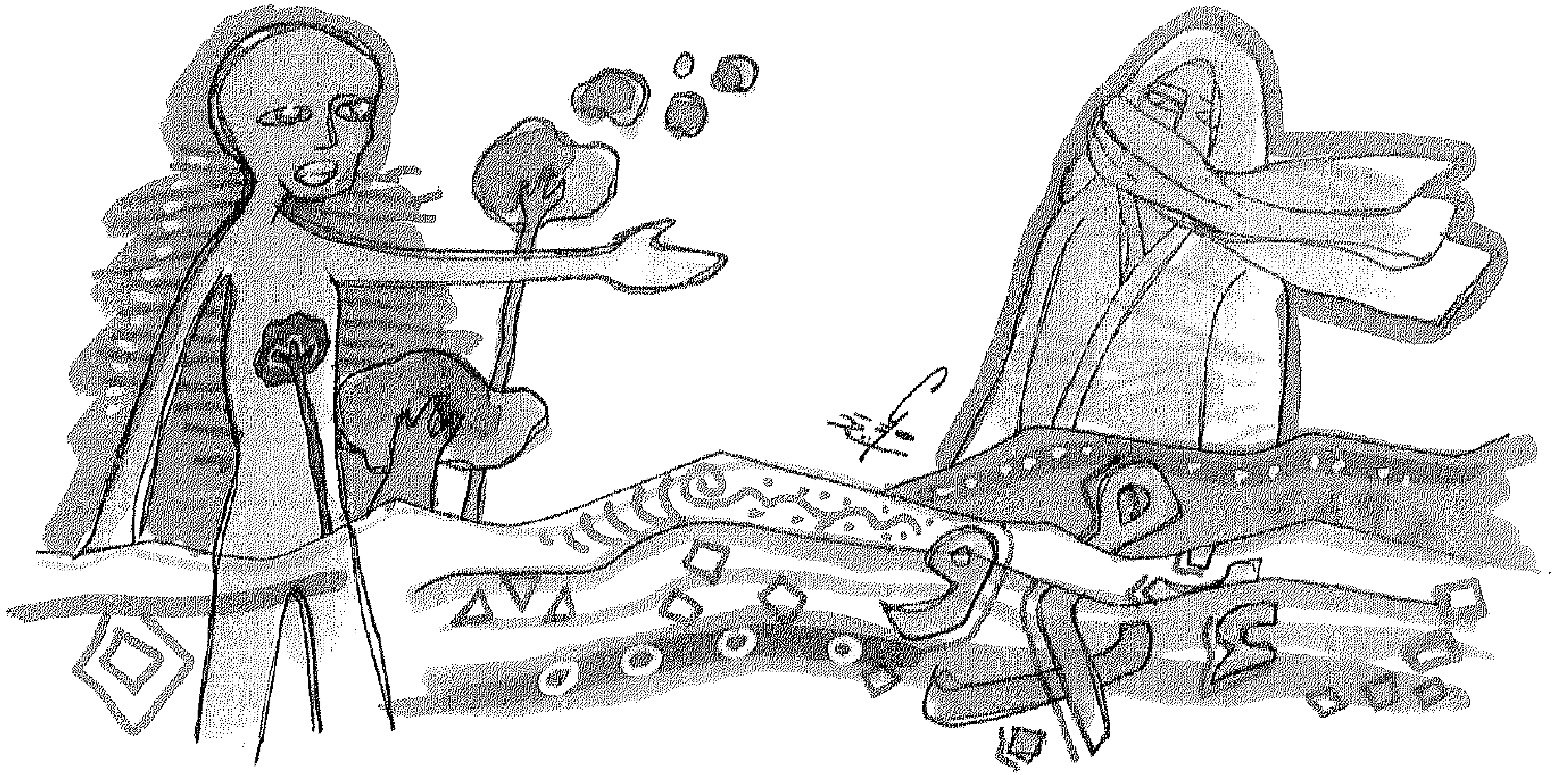
وتجدر الإشارة هنا إلى المدن والإمارات الحضارية، المتميزة عن غيرها، بخصائص هوسوية متعددة والتي أصبحت أهم المراكز التجارية في

4. تاريخ العلاقات العربية الإفريقية ـ د. إمحمد مصباح الأحمد.

5. الشعر العربي في النيجر ـ رسالة ماجستير ـ يوسف منكيلا.

6. موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي ج (6) ص:128، ط(4) 1983 مسيحي.

7. المرجع السابق.



السودان الأوسط وعماد الدولة الإسلامية التي أسسها، عثمان بن دان فوديو، في القرن التاسع عشر. 1754: 1817 مسيحي، صاحب امبراطورية سوكوتو الفلاّنية، ومن الطبيعي جداً، أن يختلف الباحثون والمؤرخون، في تاريخ تأسيس هذه المدن، وذلك لاختلافهم، في تحديد أصول شعب الهوسا، فالذين يرون أن الهوسا ليست جنسًا، أو عرقًا قائمًا بذاته، بل هي لغة، تولدت نتيجة اختلاط البربر، بالقبائل الأصلية في شمال أفريقيا، ويذهبون إلى أن تدفق الهجرات العربية، من شبه الجزيرة العربية، إلى شمال أفريقيا في القرن الأول الهجري، إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، حيث جاءت موجة عربية، من قبائل بني سُليم، وبني هلال، التي دخلت في حروب مع البربر، الذين اضطروا تحت وطأة هذه الظروف القاسية، إلى الهجرة نحو جنوب الصحراء، حيث حدث التزاوج والإندماج مع سكان هذه المنطقة، ونتج من هذا التزاوج شعب الهوسا، الذي نزح نحو الجنوب حتى وصلت به الهجرة، إلى شمال نيجيريا، وأنشأ مستوطناته هناك، ولعل هذا الإتجاه هو الأصلُ الذي لم تذكره بعض المصادر التاريخية، وأن ولايات الهوسا تأسست على يد قوم من المهاجرين البربر، الذين توغلوا نحو الجنوب (آير) فعاشوا وتناسلوا، حتى ضاقت بهم المنطقة أو الواحدة، فنزلوا منها إلى مهجر جديد (شمال نيجيريا وجنوب النيجر) وكونوا لأنفسهم مدنًا وإمارات، بلغ عددها سبعًا.

ويرى بعض آخر، أن جماعات الهوسا، كانت تسكن في هذه المنطقة منذ زمن سحيق، فهي عبارة عن مجموعات زراعية، تسكن في أراض خصبة، كل واحدة منها مستقلة عن أخرى، تجمعها لغة واحدة، وبعد مرور فترة طويلة من الزمن، تكاثرت وتجمعت ثم تطورت إلى ولايات.

والأسطورة الشائعة، ترجع تأسيس هذه الولايات على يد القائد العربي سالف الذكر الذي تزوج بملكة «دورا» كما أشرنا إليه آنفًا، فأنجبت له سبعة أبناء، تولوا الولايات السبع الأصلية، وهي: كانوا، زكزك،

دورا، غوبر، كاتثة، غارن غيس؛ وسبع ولايات فرعية هي: كيب، نفي، يريا، باويه، كوفا، يرغو، زنفرا. أما الصناعات فكانت قبائل الهوسا، تختلف منذ القدم عن بقية الشعوب، والقبائل السودانية، وذلك بتفوقهم في مختلف أنواع الصناعات، خاصة صناعة المنسوجات، وقامت كذلك بنشاط تجاري، مزدهر، بمواطنهم، ومع الشعوب الأخرى.

صلة الهوسا بالعربية: قبل الإسلام وبعده

صلتها بالعربية قبل الإسلام.

لم تكن الصحراء الكبرى، المترامية الأطراف، حجابًا عازلاً، عن تواصل شعبي شمال أفريقيا وجنوبها، حيث يذكر لنا البحاث والمؤرخون بأن هناك علاقة تجارية قديمة، تربط بين البلاد، التي كان العرب يطلقون عليها اسم المغرب، وبين البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

لم تكن الصحراء الكبرى، المترامية الأطراف، حجاباً عازلاً، عن تواصل شعبي شمال أفريقيا وجنوبها

ويرجع تاريخ هذه العلاقة إلى ماض سحيق، قبل القرن السابع الميلادي أي قبل دخول الإسلام في القارة الأفريقية، ويقال: إن هذه العلاقة التجارية بدأت منذ عدة قرون، بأيدي الإغريق والفنيقيين والرومان، قبل دخول العرب والمسلمين إلى أفريقيا، ثم تولاها العرب، بعد الفتح ودخول الإسلام(8).

ولقد اشتهرت عدة طرق للقوافل التجارية، تربط بين أهم المدن في هذه المناطق، جنوبًا وشمالاً، فتبدأ من مراكش، وتلمسان، وتونس، وطرابلس، ومصر، متجهة إلى الجنوب، فتجاوز الصحراء الكبرى، وتصل إلى المراكز التجارية في غرب إفريقيا، مثل: غانا، وتمبكتو، وولايات الهوسا، وكانم برنو، وغيرها(9)، وقد ذكر (غلادنث) نقلاً عن المؤرخ فيج (Faje)، الصلة التجارية القائمة بين المغرب وغربى أفريقيا فيما بين القرن الخامس، والثامن عشر الميلادي، كما ذكر بعض الباحثين(10)، أربعة طرق رئيسة، كانت تربط بين الشمال والجنوب، وهي:

1 ـ طريق يمتد من سجلماسة، إلى ولات، ثم تتجه إلى بلاد السنغال وأعالي نهر النيجر، حيث الذهب.

2 ـ من غدامس إلى بلاد الهوسا، الغنية عن طريق غات و«آير».

3 ـ من طرابلس إلى «برنو» ونهر تشاد، مارّة بفزان، وكوار.

4 ـ من قورين بالجبل الأخضر إلى واداي عن طريق الكفرة.

وقد استغل المسلمون العرب والبربر، هذه الطرق التجارية القديمة، في نشر العقيدة الحنفية الصحيحة.

صلة الهوسا بالعربية بعد الإسلام:

لقد أشرنا آنفًا، إلى أهم الطرق التجارية، التي تربط بين جانبي الصحراء الكبرى، رغم وعورة مسالكها وقسوة طقسها؛ وتشمل تلك التجارة، استيراد العاج، والذهب وغيرهما، مقابل المنسوجات والعطور والأسلحة.. الخ(11).

---

8. حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا د. شيحو أحمد سعيد غلادنث.
9. المرجع السابق.
10. المرجع السابق والعرب وأفريقيا. مركز دراسات الوحدة العربية باحث / يوسف فضل حسن.
11. العرب وأفريقيا. يوسف فضل حسن مركز دراسات الوحدة العربية.

ونتيجة لهذه المصالح الطبيعية المتبادلة، بين الطرفين، ازدهر الإتصال الثقافي، والتجاري، والاجتماعي، والسياسي بينهما، وارتفعت معدلات الهجرة، من الشمال إلى الغرب، وقويت هذه العلاقة، حين دخل الإسلام في المنطقة، وأخذ ينتشر.

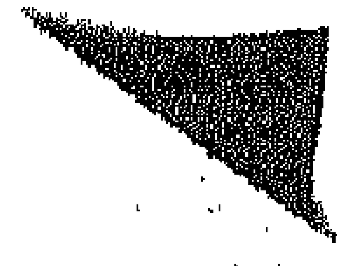
هذا ويجدر بنا، قبل الخوض في هذه العلاقة، التي بدلت الطابع التجاري بالطابع ثقافي، الذي ترك بصماته في لغة شعوب المنطقة، وعاداتهم، وتاريخهم، وحضاراتهم، أن نعرض عرضًا موجزًا، لكيفية دخول الإسلام، وانتشاره في المنطقة بصفة عامة، وفي بلاد الهوسا خاصة.

تكاد تكون كلمة الباحثين والمؤرخين واحدة عن كيفية دخول الإسلام في المنطقة وانتشاره، والتي أساسها، أن الصحابي الجليل عقبة بن نافع - رضي الله عنه - الذي قاد حملة الفتح على عدة مدن، من شمال افريقيا، فلم يزل يفتح مدنا تلو أخرى، إلى أن وصل إلى «موار» ففتحها، حتى انتهى إلى أقصاها[12]، وذلك سنة 46 هـ الموافق 666 مسيحي، وتقع «كوار» في حدود الصحراء الكبرى، شمال غربي بِلْمَا - الواقعة في النيجر الحالي - حيث تتفرع إحدى طرق القوافل، التي كانت تأتي من طرابلس، فتتجه، إما جنوبًا نحو مملكة «كانم برنو»، أو إلى الجنوب الغربي نحو بلاد الهوسا، على هذا الأساس، فإن السودان الغربي، اتصل بالإسلام، منذ القرن الأول الهجري، وهذا يبعد الرأي القائل، بأن الإسلام دخل إلى المنطقة في القرن السابع، أو الثامن الهجري، كما ذهب إليه كثير من الباحثين[13]، وذلك إذا فرقنا بين اعتناق الشعوب الإسلام، واعتناق الملوك، الذي حدث متأخرًا، كاعتناق ملك «برنو» في القرن الحادي عشر، المسمى (بمي جلمي) وسمى نفسه بعد إسلامه محمدًا، وملك «كانو Kano على يد الونغار، خلافًا للشعوب التي اختلطت بالعرب المسلمين، وتعاملت معهم في الأسواق والمصاهرة، ولا شك أن هذا الإندماج، له أثر كبير في لغات المنطقة الأصلية.

تأثير اللغة العربية في الهوسا:

لم ينتشر الإسلام في بلاد الهوسا، عن طريق الفتح، والضغط والقوة، بل انتشر عن طريق سلمي عبر التجارة والمصاهرة، واندماج الشعوب مع بعضها البعض، حتى أصبح دينًا رسميًا، في بعض ولايات الهوسا «ككتو»، فور اعتناق ملكها الإسلام، وفي بعضها بعد قيام الدولة الإسلامية الإصلاحية، على يد عثمان بن دان فوديو، في القرن التاسع عشر.

الحرف العربي ما يزال يستعمل في المدارس الإسلامية والمراسلات بين علماء الدين والمثقفين



إن هذا التحول الديني، (من الوثنية إلى دين الإسلام الحنيف) ترك آثارًا وبصمات واضحة، في لغة شعوب المنطقة، وآدابها، وحضاراتها، فضلاً عن اتصالها، وارتباطها القديم بالعرب، قبل دخول الإسلام، ولما كان الإسلام لا ينفصل عن اللغة العربية، التي هي لغة العقيدة، وآداة نشره وفهمه فهمًا صحيحًا، ألهم الشعوب المهتدية إلى تعلمها واستعمالها، إلى جانب لغاتهم الأصلية، في جميع مجالات الحياة، حتى جعلوها، لغة مقدسة، ولغة العلم والتعليم، وافتخروا باستعمال ألفاظها البحتة، في لغاتهم، بعد إخضاعها لقواعدهم اللغوية، الصوتية

12ـ حركة اللغة العربية وآدابها ف نيجيريا د. أحمد فلادنث نقلاً عن البكري ص:13.

13ـ تاريخ العلاقات العربية الأفريقية ـ د. امحمد مصباح، وحركة الله العربية - غلادنث.

والنحوية، واقترضوا من ألفاظها، ألفاظًا عديدة، واضحة الجذور والأصل في لغاتهم، فلا يكاد الهوسوي اليوم، يتحدث باللغة الهوسوية، أكثر من خمس دقائق، إلا استعمل لفظًا مقترضًا من العربية، على الأقل.

وتنحصر أهم عوامل تأثير العربية، على الهوسا في:

1 ـ الخط العربي، وهو من أهم الآثار الثقافية، التي تركها العرب في بلاد الهوسا، حيث كانت لغتهم تكتب بالخط العربي المغربي، وظلّت تكتب به حتى وصل الإستعمار، وبدله بحرف لاتيني، وأنشأ دارًا للنشر، في مدينة «زاريا» شمال نيجيريا، وظهرت عشرات الكتب بالحرف اللاتيني، وازدحمت الترجمة، إلا أن هذا لم يقض على الحرف العربي، الذي لا زال يستعمل في المدارس الإسلامية، والمراسلات بين علماء الدين، والمثقفين منهم[14].

2 ـ إبدال العربية بالهوسا، إذا عزّ التفاهم بين القبائل المختلفة المسلمة، في المنطقة، وفي المراسلات مع من لا يفهم الهوسا، وفي كتابة المعاهدات والمواثيق، عند بعض الأمراء والملوك، وفي العلاقة الدبلوماسية، كما حدث مع المستعمر البريطاني، كما كانت العربية وسيلة اتصال وحيدة، بين القادة العسكريين في الحرب العالمية الأولى، مع الجنود الأفارقة.

3 ـ هجرات القبائل العربية، إلى تلك البلاد واستقرارها فيها، مثل مجموعة القبائل المعروفة في إمبراطورية (برنو) باسم (شُوَا).

4 ـ حاجة المسلمين إليها في أداء فرائض الدين وفهمها.

5 ـ احترام المسلم الأفريقي هذه اللغة، احترامًا يقرب إلى التقديس، لأنها لغة القرآن الكريم.

6 ـ العلاقات التجارية بين مدن الجنوب والشمال في القارة.

لقد اقترضت الهوسا من اللغة العربية، عدة ألفاظ، منها: الدينية، والسياسية، والتجارية، وأخضعتها لنظامها اللغوي، الصوتي والصرفي، الأمر الذي أدى إلى حدوث كثير من التغيرات في بنية الكلمة المقترضة، حتى تتلاءم مع النظام البنيوي الهوسي، ومنها ظاهرة الحذف الصوتي، وإبدال أصوات الحلق والإطباق، والأصوات التي تخرج من بين الأسنان الأمامية، فيبدلون صوت الهمزة بالعين، نحو: Saaa ساعة، والهاء بالحاء، نحو: ALHALI (الحال)، وفي الإطباق، يبدلون صوت السين بالهاء، نحو: snaa الصناعة، والزاي بالظاء نحو: azzalumi الظالم، والتاء بالثاء نحو: tabbaia بمعنى ثبت؛ ويرجع سبب هذه التغيرات البنوية، إلى عدم وجود أصوات في هذه الحروف، أو صعوبة نطقها، لذا نرى الهوسوي، يستبدل بعض الأصوات الصعبة، أصواتًا خاصة لنظامه اللغوي، فيقول في ث، ــ سا، أو ت، وفي د، ــ ز، وفي ظ ــ ز، وح ــ هـ، وخ ــ أو ك، ويقول في ع ــ أ، وغ ــ ك، وفي ض ــ د، وفي ص ــ س، وفي ط ــ ت[15].

هذا التحول الديني، (من الوثنية إلى دين الإسلام الحنيف) ترك آثارًا وبصمات واضحة في لغة شعوب المنطقة وآدابها وحضاراتها، فضلاً عن اتصالها وارتباطها القديم بالعرب قبل دخول الإسلام

14. مجلة اللغة العربية الجزء 52 ص:85، الأثر العربي في لغة الهوسا د. مصطفى حجازي.

15. الدراسات الدلالية للكلمات المقترضة في لغة الهوسا د. مصطفى حجازي ـ مجلة مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ الجزء 50.

وتجدر الإشارة، إلى أن لغة الهوسا تعتمد كثيراً على الإلصاق الصوتي، في تراكيبها اللغوية، ولما كان الإلصاق هو: إضافة شيء إلى شيء آخر، أو إلصاق شيء إلى الكلمة، سواء كان في بداية الكلمة (السابقة)، أو في وسطها، (داخلية antixe) أو في نهاية الكلمة (اللاحقة suthixe)، تجلت الكلمات المقترضة من اللغة العربية، وإنْ حدث تغيير في بنتها اللغوية، وعلى هذا الأساس، يعثر المتتبع للأثر العربي، في لغة الهوسا بكل سهولة، على مئات بل الآلاف من الكلمات العربية، منها على سبيل المثال:

Hasada حسد، salla صلى، sutra ستر، حكم hukumci، محكمة mahukumta، الظلم Zalumci، الظالم mazaluma، أمانه amana، آمن maminci، آمنة maamamiuya، درجة davaja؛ درجات darajoji، كلمات kalmomi، أسرار assiray؛ النبي annabi، الأنبياء annabawa، خبر labari، أخبار labaru، صحفيون (جريدة) yanjarida، سياسي dansiyassa، تلك هي بعض الكلمات القليلة جداً، على سبيل الإستشهاد، من ضمن آلاف الكلمات التي لا تعد ولا تحصى، ولم يقف التأثير العربي في الهوسا، على الكلمات، بل تعداها إلى الأمثال، aili zato zanubine (العمل بالظن ذنب)، وهو مأخوذ من قوله تعالى:

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحُجرَات الآية: 12)

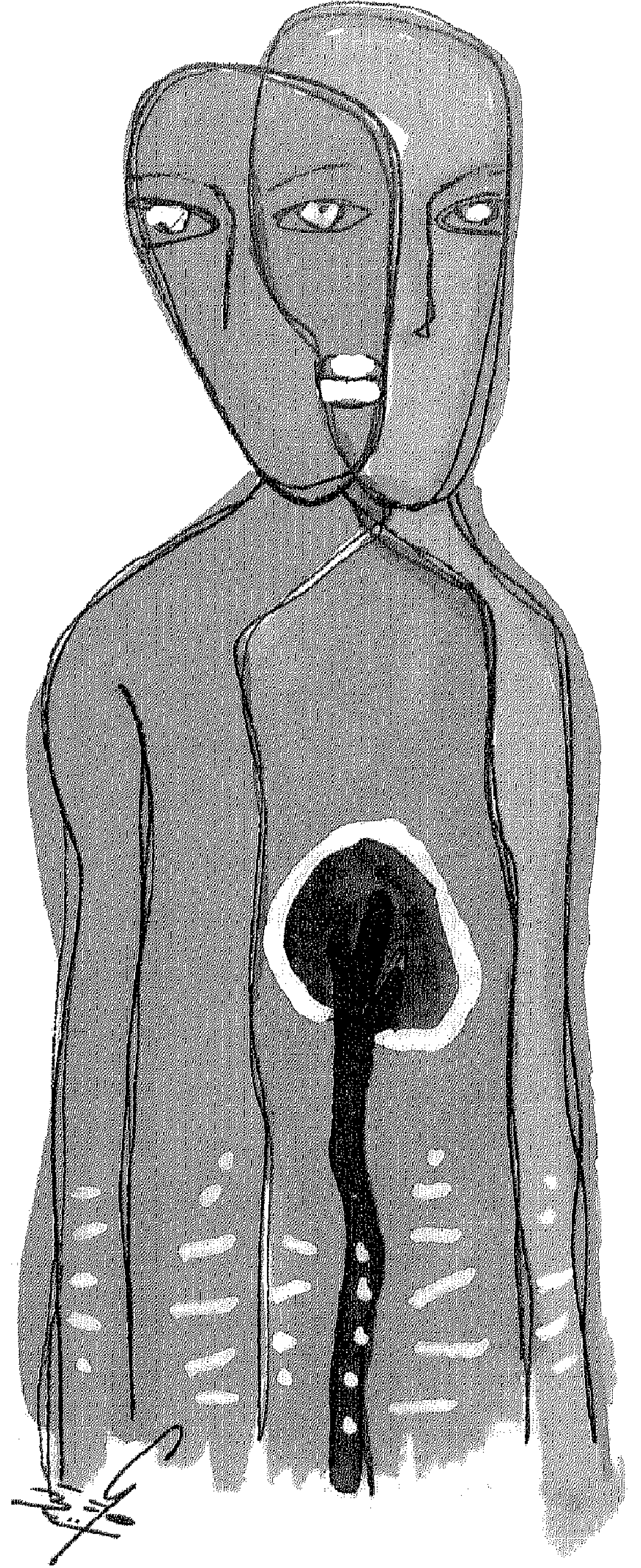
masoyinka baganin aibinka (حبيبك لا يرى عيبك) وهو مأخوذ من الحديث: (حبك للشيء يعمى ويصم) وغيره.

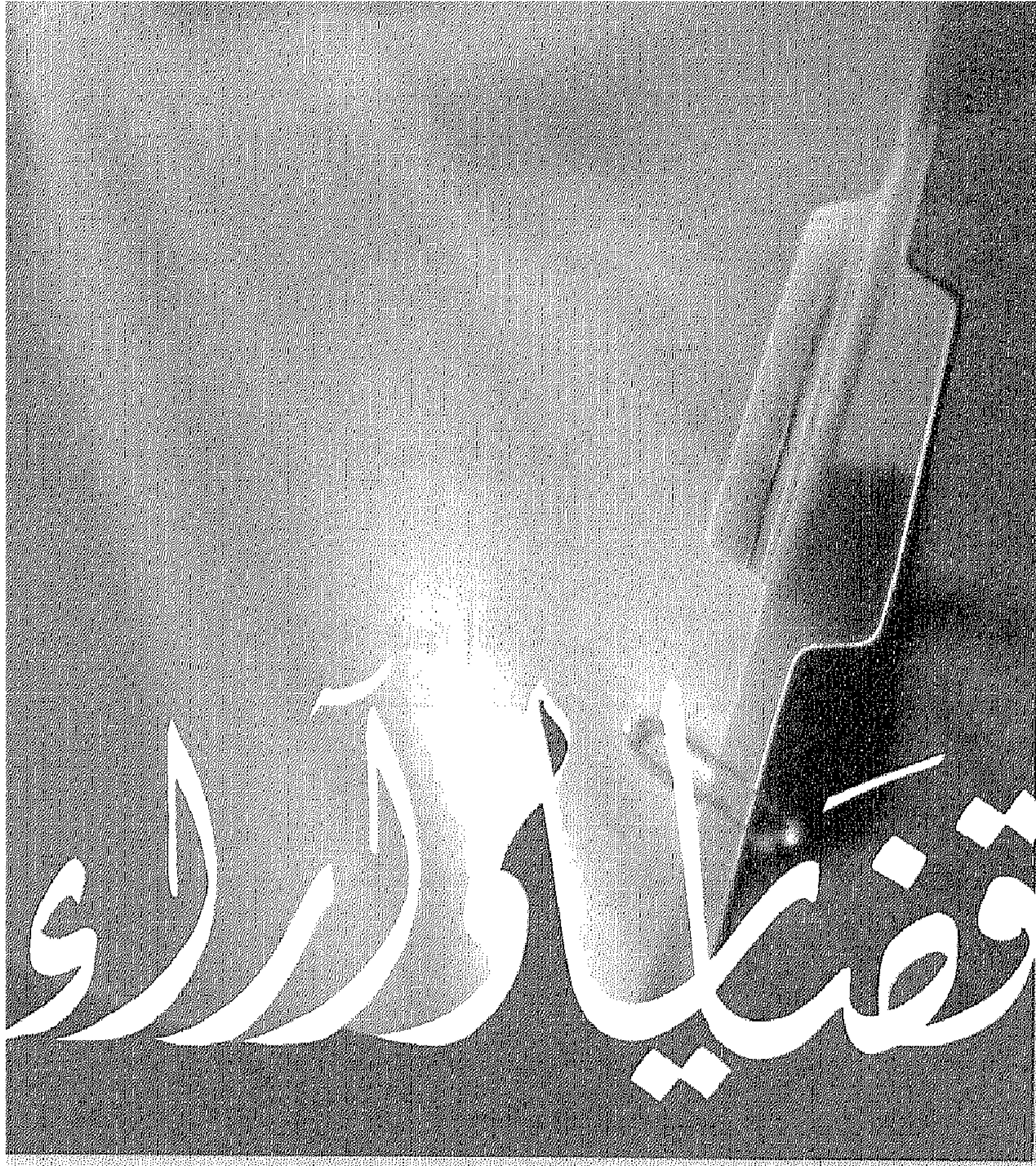
الخاتمة:

وبعد..

لا يسعني في ختام هذه الدراسة المتواضعة إلا أن أشير إلى أن هذا الموضوع واسع الأرجاء، وكثير الآراء، وقد بذلت ما بوسعي أن أفعله ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها، ولا أعتقد ولا أدعي، بأنني أحطتُ بجميع أطراف الموضوع.

وأرجو أن تكون هذه المحاولة المتواضعة، بداية لي ولغيري للخوض في هذا الموضوع نحو دراسة مستفيضة.

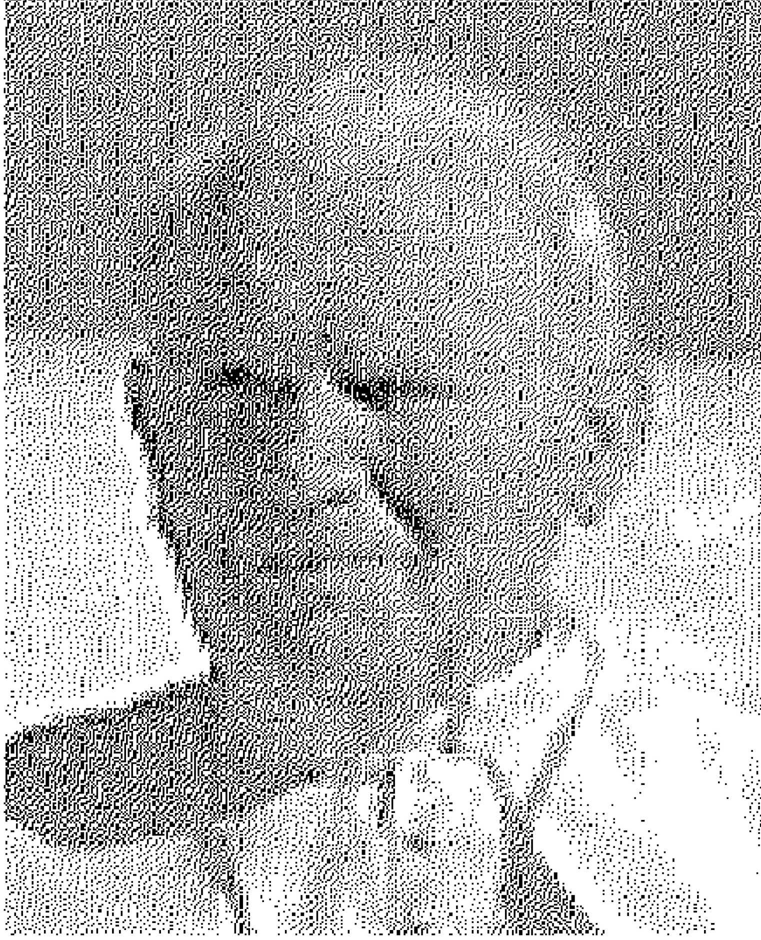




أكبر وأجدى من الإعتذار

* في الرد على البابا
* ملاحظات على محاضرة البابا وتعديلاتها
* الجذور الفكرية العقدية لموقف البابا من الإسلام
* الإيمان والعقل والجامعة.. ذكريات وتأملات
* البابا وجحيم دانتي.. وحوار الحضارات
* بنديكت السادس عشر وإمانويل الثاني
* حقيقة الدين اللاعقلاني
* بيان القيادة الشعبية الإسلامية العالمية
* بيان منظمة المؤتمر الإسلامي
* خيال أم حقيقة؟
* رجال دين مسيحيون...

أكبر وأجدى من الاعتذار


البابا يوحنا بولس الثاني

ا (التواصل).. وهي تعرض في صفحاتها التالية جوانب من ردود فعل عالمية، حول تصريحات بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، تود التنويه إلى أمرين:

❖ عدم نشر الكثير من بيانات الفاعليات والهيئات والتنظيمات الإسلامية من مختلف بقاع العالم، ومن بينها رموز تستقطب مئات الملايين من المسلمين ، وذلك نظراً لضخامة وتنوع تلك البيانات والتصريحات ، وبالتالي يصعب إدراجها جميعا في هذا الحيز.

❖ إبراز مواقف أتباع المسيحية على مختلف مذاهبها وتعليقات الصحف الغربية والتي لم يكن تنديدها بتلك التصريحات نابعاً من «انفعال ديني» بقدر ما كان صادراً عن تحليل عقلاني، كالقول أن البابا بنديكت يزرع الخلافات بين المسلمين والمسيحيين.. و .. إن البابا الجديد يقدم نفسه دائما كمبشر في أوروبا التي يهيمن عليها عدم الإيمان !

ولعل هذه الإشارات الصريحة من وسائل الإعلام الأوروبية وغيرها تدعو إلى استرجاع مواقف البابا بنديكت السادس عشر، منذ كان كاردينالاً يُنادى باسمه الحقيقي «ريتسينغر» وكان منعزلاً بالتأكيد عن أنشطة سلفه البابا يوحنا بولس الثاني، وربما معارضاً في صمت لجهوده ورحلاته الكثيرة حول العالم، لدعم الحوار البنّاء بين الشعوب والحضارات.

في تلك المرحلة كان الحوار الإسلامي المسيحي يقطع أشواطاً مشهودة، في مسيرة بدأت قبل ثلاثة عقود من الزمن برعاية المسلمين والكاثوليك بداية من المؤتمر العالمي الكبير في مطلع الشهر الثاني من عام 1976 بمدينة طرابلس/ ليبيا وكانت تلك العقود هي حقاً عقود الازدهار والتعاون والعيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين، وكان سلفه البابا يوحنا بولس الثاني يبارك بإخلاص ويدفع بإصرار تلك الأشواط من مسيرة الحوار عن قناعة ورؤية مستقبلية صائبة.

من هنا ترى (التواصل) أن هذا التجاوز من البابا بنديكت السادس عشر لن يستطيع - إزاء هذا الانجاز التاريخي لمسيرة الحوار - سوى تقديم ما هو أكبر وأجدى من مجرد الاعتذار عما صدر عنه من تجاوزات تمس الإسلام وتسيئ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وذلك بالعودة إلى إرث سلفه يوحنا بولس الثاني والانخراط في حوار المؤمنين من مختلف العقائد، سعياً إلى التقارب والتعارف ومعالجة سلبيات راكمتها عصور الاستعمار بين الشعوب عبر القرون..!

التواصل

في الرد على البابا

د. محمد السماك *

من الطبيعي جداً أن يبادر علماء ومفكرون مسلمون للرد على ما ورد عن الإسلام في المحاضرة التي ألقاها البابا بنديكت السادس عشر في ألمانيا .

فالبابا ليس مجرد أكاديمي متخصص في اللاهوت، كان رئيس مجلس العقيدة في الفاتيكان في عهد البابا الراحل يوحنا بولس الثاني ولكنه المرجع الاول للمسيحية الكاثوليكية، وهو رمزها والناطق باسمها، ولذلك لا بد من الاهتمام بما يقول أو يقرر، وكذلك لا بد في الرد على ما تضمنته محاضرته من الالتزام بأداب الرد وأصوله.

فإذا كان الرد موجها إليه بصفته العلمية الأكاديمية، فلا بد أن يكون رداً علمياً أكاديمياً، أي أنه لا بد أن يكون مجرداً من الانفعالات ومن ردود الفعل الجياشة التي تعبر عن نفسها بكلمات قد تفتقر إلى اللياقة أو قد تخلو من الاحترام للرأي المخالف.

أما إذا كان الرد موجهاً إلى البابا بصفته الدينية فلا بد من اعتماد الأسس والقواعد التي قال بها الإسلام في محاورة أهل الكتاب، فالإسلام لم يقل بالمجادلة بطريقة حسنة فقط، بل بالتي هي أحسن، كذلك فإن الإسلام قدم من خلال سيرة النبي ﷺ نموذجا يجب أن يحتذي به المسلمون في أي حوار.

وقد ورد هذا النموذج في الآيتين 24 و 25 من سورة سبأ في الآية الأولى يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿...وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة سَبَإ:الآية24]

بمعنى أن الرسول عليه الصلاة والسلام في حواره مع أهل الكتاب، وضع نفسه ووضع محاوريه في المستوى ذاته هدى أو ضلالا، كمنطلق للحوار، أي أنه لم ينطلق من الحكم على الآخرين بالضلال، وعلى نفسه بأنه على هدى وهو يعرف أنه على هدى .

أما الآية الثانية فيقول فيها الله سبحانه وتعالى:

﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة سَبَإ:الآية25]

وفي هذا النص القرآني سمو في الحوار يبلغ الذروة في احترام الآخر المختلف معه، حتى نكران الذات، ويبدو ذلك من خلال وصف ما يقول به غير المؤمنين بالعمل، ووصف ما يقوم به المؤمنون بالإجرام على أن يكون الحكم في ذلك إلى الله وحده .

وفي الحالتين أي في حالة الرد العلمي الأكاديمي وفي حالة الرد الديني الفقهي: فإن الرد على ما ورد في محاضرة البابا يجب أن يراعي أمورا أساسية ثلاثة:

الأمر الأول: هو عدم تقويل البابا ما لم يقله، صحيح أن المضمون سيئ، وأن التوقيت سيئ، وأن العرض سيئ، وأن الإيحاء سيئ، ولكن الصحيح أيضاً أن البابا لم يشأ أن يعطي كل هذا السوء أي غطاء

---

* كاتب / رئيس لجنة الحوار الإسلامي ـ المسيحي / لبنان

بابوي، سواء من حيث الاجتهاد اللاهوتي أو من حيث التحليل الفكري، إن كل ما في الأمر هو أنه قد قدم مطالعة ضد الإسلام منسوبة إلى عدو للإسلام منذ القرن الرابع عشر، ويأخذ هذا السوء بعداً أسوأ لاستشهاد البابا به، وفي هذا الوقت بالذات الذي يتعرض فيه الإسلام إلى حملات افتراء وتجن خاصة بعد جريمة العصر التي ارتكبت في 2001/9/11 في نيويورك وواشنطن بالولايات المتحدة.

الأمر الثاني: هو وجوب عدم توفير الفرصة أمام المصطادين في المياه العكرة لتوسيع رقعة الحملة على الإسلام بزج الفاتيكان فيها واستعدائه، وعدم منحهم مجانا ومن خلال ردات الفعل المتشنجة، مادة إضافية لتبرير حملات الافتراء والتجني.

فليس أسوأ من الخطأ سوى الرد عليه بخطأ مماثل.

أما الأمر الثالث: فهو أن الرد يجب أن يأخذ بالاعتبار ضرورة المحافظة على العلاقات الإسلامية المسيحية، أولاً العلاقات مع المسيحيين العرب، وثانياً مع مسيحيي العالم، ويجب أن يحرص على عدم توجيه أي إساءة إليهم، إن تعميم التهمة وتعميم الإدانة خطأ عانى ويعاني منه المسلمون، وليس من المعقول أن يمارس المسلمون هذا الخطأ بحق غيرهم، فكيف إذا كان هذا الغير إخواناً لهم في الوطن وفي المصير الواحد، إن من غير الجائز ومن غير المفيد على الإطلاق في معرض الدفاع المشروع والمبرر عن الإسلام، التعرض إلى المسيحية وإلى رموزها بسوء، ومن غير المعقول منطقياً ومصلحياً تعميم تهمة الإساءة إلى الإسلام على المسيحية وعلى المسيحيين بحجة المعاملة بالمثل.

ولكن لأن مضمون ما نُسب إلى البابا يعكس فهماً غير سليم وغير صحيح للإسلام، ولأن من المهم ومن المفيد تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة، فإن الرد هو أكثر من ضروري، إنه واجب، هو واجب علمي أكاديمي من جهة، وهو واجب ديني من جهة أولى، هو واجب على علماء المسلمين، وحق للعلماء غير المسلمين الذين يجهلون الإسلام شرعة ومنهاجاً.

فعلى قاعدة العلمية الأكاديمية فإن الإسلام والعقل صنوان، وليس صحيحاً ما نُسب إلى البابا من قول أن المشيئة الإلهية ليست مرتبطة حتى بالعقل.

ولو تسنى للبابا بنديكت السادس عشر أن يقرأ القرآن الكريم لوجد أنه يوجه خطابه إلى

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية24]

و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية42]

وأن أول سورة وأول آية من القرآن الكريم أوحى بها إلى النبي محمد ﷺ كانت:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

[سورة العلق: الآية 1-5]

فالإيمان في الإسلام ليس وراثياً أو طقوسياً، ولكنه إيمان عقلاني لا إكراه فيه، لذلك فإن ما نُقل على لسان بنديكت يحتم الرد شكلاً وأساساً.

الإيمان في الإسلام ليس وراثياً أو طقوسياً .. إنه إيمان عقلاني لا إكراه فيه.

فمن حيث الشكل كان التوقيت خاطئا، وكان الاستشهاد بأحد أعداء الإسلام خاطئاً أيضاً، ونقول ذلك أولاً لاعتقادنا بأن الفاتيكان نأى بنفسه عن الحملة الظالمة على الإسلام وأنه وبمبادرة من البابا الراحل يوحنا بولس الثاني عمل على ذلك الارتباط بين الدين والإرهاب خاصة بعد جريمة 2001/9/11 مسيحي ولا يوجد لدينا ما يبرر الاعتقاد أو مجرد الظن بان البابا الحالي تخلى عن هذا الموقف المبدئي الأخلاقي والروحي.

ونقول ذلك ثانياً لاعتقادنا أيضاً بأن التوقيت جزء من المضمون فالكلام المنسوب إلى البابا حول الإرهاب والعنف ونشر الإسلام بالسيف واللاعقلانية.. وإن كان بعضها كان نقلاً عن أقوال ومزاعم وافتراءات رددها آخرون، فإن العودة البابوية إليها ليست عملاً حميداً في الوقت الذي تنهال الافتراءات على الإسلام من كل حدب وصوب.

في الأساس نعرف أن البابا عندما كان الكاردينال ريتسينغر وعندما كان يشغل منصب رئيس مجلس العقيدة في الفاتيكان، أبدى آراء واجتهادات لاهوتية سلبية عن الإسلام وعن المسيحية الارثوذكسية، حتى إنه نفى عن الكنائس الانجيلية الصفة الكنسية وقال إنها مجرد حركات لا كنائس .

وقد أثارت آراؤه تلك في حينها ردود فعل سلبية حتى من داخل الدوائر الفاتيكانية نفسها، ولا نعرف أن البابا الراحل كان مرتاحا لها، ولذلك حجبت عنها الأضواء حتى أصبحت ـ أو كادت نسياً ـ منسياً.

الآن تنكأ أقواله ـ في المحاضرة غير الموفقة التي ألقاها في ألمانيا ـ الجراح مرة ثانية. وتضع العالم الإسلامي في حيرة من أمره بالنسبة لنظرته إلى الفاتيكان، وإلى مستقبل علاقاته معه، هل تقوم هذه العلاقات على أساس ما ورد في تلك المحاضرة المتعثرة وعلى ما سبقها؟.. أم أنها تقوم على أساس ما ورد في وثائق مجمع الفاتيكان الثاني 1965 وكذلك على ما ورد في وثيقة الإرشاد الرسولي 1995 حول العلاقات الإسلامية المسيحية ؟

فالمجمع الفاتيكاني الثاني «21 تشرين الثاني، نوفمبر 1964 ـ 28 تشرين الأول اكتوبر1965» المحطة الأبرز في مسيرة الحوار الإسلامي ـ المسيحي ـ ذلك إن



بنديكت السادس عشر

المجمع تحدث في القسم الثالث من الوثيقة التي صدرت عنه عن الإسلام بايجابية وانفتاح مناقضا بذلك ما ورد في رسالة البابا الأسبق بيوس الثاني عشر في عام 1957 مسيحي والتي وصفت انتشار الإسلام في افريقيا بأنه خطر على الكنيسة كما وصفت الحضور الإسلامي العالمي بأنه حضور كارثي لا يقل عن الشيوعية .



وقد جاء في دراسة أعدها الأب جوزف كوك ولويس غارديه وقدم لها الكاردينال ماريللا المسؤول عن أمانة شوؤن غير المسيحيين في الفاتيكان.

«يجب أن نعترف وبكل شجاعة وصدق أن المسلمين لم يلاقوا من العالم المسيحي إلا القليل من التعاطف

ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس ، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة، ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن، وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لله الحق أن تسميه أخوياً، ولم أكن شاهدت مثل ذلك.

ترى في المسجد نوبياً من بلاد ممباسا يصافح عظيماً من رجال الأعمال في مصر، أو سياسياً من بلاد العرب، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع، فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً، وإنك لا تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد، لأنه ليس هناك أي مكان ممتاز، فالكل عند الله سواء.

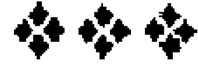
لا فضل لأحد عن سواه، وعندما صرّح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون برسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل إليهم... كدت لا أصدق أذني، وكان هذا جديداً استفدته عن الإسلام.

لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عالمياً .

ليفا

والود.. وقليلون هم الذين أولوهم العناية الكافية، بالرغم من أن الرهبان والراهبات اظهروا اهتماماً أكبر في مجالات التعليم والمساعدة والرعاية، ولكن جهودهم بقيت جزئية أمام اتساع الاحتياجات، كما أن الغربيين المستشرقين منهم والعلماء المتخصصين بالإسلاميات أظهروا تعاطفاً وتفهماً لكل ما يتعلق بأهداف دراستهم، ولكن تفهمهم للإنسان وتعاطفهم معه كان أقل وهذا ما يأخذه المسلمون عليهم في أيامنا هذه، مع شيء من اللوم والعتاب، وحتى اليوم وفي أكثر الأحيان عرف المسلمون العالم الغربي من خلال الأنظمة الاستعمارية، وباختصار يجب أن نعي بكل موضوعية أن المسيحيين لم يحققوا بعد كمجموعة الشرط الأول الذي يؤهلهم لأن يكونوا موجودين وحاضرين في عالم المسلمين كما هو، وعلى حقيقته.

عكس هذه الروح لأول مرة البابا بولس السادس في رسالة وجهها تحية أخوية إلى المسلمين، وذلك أثناء زيارته للقدس وعمان (مروراً ببيروت) في كانون الثاني - يناير - 1964 مسيحي، حيث أكد على «احترام أولئك الذين يعتنقون الأديان التوحيدية والذين يعبدون معنا إلهاً حقيقياً وواحداً» أما الترجمة العملية الأولى لبيان المجمع الفاتيكاني الثاني فتمثلت في إنشاء الأمانة العامة لشؤون الديانات غير المسيحية والتي حدد البابا بولس السادس مهمتها في رسالة كنسية جامعة وهي «إجراء الحوار مع كل المؤمنين لإرساء علاقات جديدة بين الكنيسة والديانات الأخرى، وعلى ضرورة التقارب بصفة خاصة مع المسلمين» دلت تلك الرسالة - لأول مرة - على أن ثمة مؤمنين بالله غير مسيحيين، وأن ثمة أدياناً غير المسيحية، كما دلّت على توجه من رأس الكنيسة (البابا) حتى قاعدتها (المجمع) على ضرورة الحوار والتقارب مع المسلمين، مع ذلك لم يصدر الموقف الأكثر جرأة والأكثر وضوحاً إلا في عهد البابا يوحنا بولس الثاني الذي اعترف بأن الخلاص ليس وقفاً على المسيحية وحدها، وأن الخلاص يمكن أن يتحقق من خلال أديان أخرى مستنداً في ذلك على دراسة أعدتها مجموعة من علماء اللاهوت أمثال «رانير» و «فون بالتزار» و «دي لوباك» و «دانيال».



في ضوء ذلك يقلقنا كثيراً الردة أو مجرد الإيحاء بأن ثمة ردة عن هذه المواقف التأسيسية للعلاقات الإسلامية-المسيحية، مع ذلك فلست هنا في معرض الرد على ما نُسب إلى البابا، فالرد حتى يكون مرجعياً وموثقاً وشاملاً يفترض أن يصدر عن هيئة علمية إسلامية متخصصة، ويفترض بهذه الهيئة أن تطلع على النص الرسمي والكامل لمحاضرة البابا وليس على نتف مما نقلته وكالات الأنباء ونشرته الصحف، وبعد ذلك توضح ما يجب توضحيه بأسلوب علمي أكاديمي إيماني راق، ويمكن أن يقوم بهذه المهمة إما مجلس الفقه الإسلامي، أو جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، أو جامعة الأزهر، أو منظمة المؤتمر الإسلامي، أو .. أو .. فالمراجع والمؤسسات العلمية الإسلامية المختصة كثيرة وغنية بالعلماء.

في النص القرآني سمو في الحوار يبلغ الذروة في احترام الآخر.

أما أن يُترك الرد لذوي النوايا الحسنة والألسن اللاذعة، فذلك أمر قد يزيد الطين بلة، إذ أنه يعالج الإساءة بإساءة مثلها، وهو ما يتناقض مع القيم الإسلامية في الحوار مع الآخر، كما يتناقض مع المصالح الإسلامية العامة.

إن العالم الإسلامي اليوم يتمنى أن يحترم البابا بنديكت السادس عشر إرث البابا الراحل يوحنا بولس الثاني.. وهو لا يتمنى أبداً أن يعمل على إعادة بعث إرث البابا أوربان الثاني.

إن العالم الإسلامي يتطلع إلى دير أسيزي 1986 من حيث أطلق يوحنا بولس الثاني حركة الحوار الأخوي بين المؤمنين من الأديان المختلفة، وليس إلى دير كليرمون 1095 من حيث أطلق أوربان الثاني حملات الفرنجة «الحملات الصليبية» المشؤومة.

ملاحظات على محاضرة البابا وتعديلاتها

د. عبد الحميد عبد الله الهرامة *

ألقى البابا بنديكت السادس عشر محاضرته الشهيرة بجامعة ريجنزبرج يوم 2006/9/12 مسيحي، فلقيت شجبًا كبيرًا من العالم الإسلامي لما فيها من حملة ظالمة على الإسلام ونبيه، وقد تمّ الرد عليها لتصحيح بعض المعلومات في قنوات ثقافية متعددة، ثم كتب البابا تعديلات في موقع الفاتيكان على الإنترنت استهلها بعبارة تستحق التقدير هي أنه يتفهم موقف المسلمين الغاضب من المحاضرة، وهي عبارة جديرة بالتنويه والثناء، لأن بعض أبناء جلدتنا حمل على موقف المسلمين واعتبره غير حضاري بالرغم من أنه في مجموعه خالٍ من العنف والتطرف، وطلب بعضهم من هذه الجماهير أن تحلل المحاضرة علميًا ليكون ردها لائقًا، وفاتته أهمية الرد العفوي السريع في التعبير عن حساسية الموضوع وشعور الجموع بالانتماء، وأهمية انتشار الرد الشعبي للتعبير عن الوحدة الدينية للعالم الإسلامي، على أن يتولى خاصة المسلمين مهمة الرد العلمي والحوار الفكري، ولعل هذه المقالة تعطي للقارئ فكرة عن المحاضرة وتعديلاتها.

1 ـ يقول البابا في أثناء تعليقه على محاورة بين إمبراطور بيزنطي ومسلم فارسي: «إن سورة البقرة التي جاءت فيها الآية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ هي إحدى السور القرآنية المبكرة عندما كان النبي ما يزال دون قوة ونفوذ وواقعًا تحت التهديد، لكن من الطبيعي أن يكون الإمبراطور عارفًا بالتعاليم الإسلامية التي تطورت فيما بعد وسجلها القرآن بشأن الحرب».

وهذه معلومة خاطئة، لأن سورة البقرة كلها ـ بما فيها هذه الآية ـ سورةٌ مدنية، ورقم نزولها هو 87، أي أنها نزلت في أخريات حياة الرسول ﷺ، وهو عزيزٌ مهاب، وليست من بواكير القرآن الكريم، ولا يحمل الإمبراطور وزر هذه المعلومة الخاطئة، ولكن البابا الذي كنا نحسن الظن به فنقول إنه نظر إلى ترتيبها في المصحف فقطع أولاً أنها من السور المبكرة، وسيتراجع عند وضوح الحقيقة، لكنه قال بعد تنبيهه إلى خطئه أن سورة البقرة مكية على الأرجح، فأساء إلى مصداقيته بهذا التعديل، لأن كون هذه السورة كلها مدنية ثابت بأدلة قاطعة، ولا أحد يقول إن هذه السورة مكية، ليس فقط من قِبل مصادر علوم القرآن، ولكن باستقراء الإشارات التاريخية والأحكام التي نزلت فيها كفرضية الصوم بعد الهجرة، وتفصيل أحكام الحج، وكتبديل القبلة من

* كاتب وباحث وأستاذ جامعي / ليبيا ـ خبير في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإسيسكو).

بيت المقدس إلى البيت الحرام وغير ذلك مما يؤكد أن هذه السورة مدنية، ولا احتمال آخر يناقض هذا الاحتمال حتى يمكن الترجيح بينهما كما يُفهم من تعديل الفاتيكان.

ولما كان الداعي للقول بأن سورة البقرة مكية ومبكرة في حياة الرسول ﷺ هو وجود آية:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ التي تنفي نظرية انتشار الإسلام بالسيف فإننا نسوق أدلة أخرى مشابهة لها وردت في سور مدنية أخرى تؤكد حقيقة عدم الإكراه في الإسلام، أو تدعو إلى السلم، أو تؤكد أن مهمة النبيﷺ هي الإبلاغ والإنذار والتبشير وليس الجبر على اعتناق الدين، فهل نشكك في مدنيتها جميعًا وهي تُفَصِّلُ جوانب من تاريخ الإسلام بعد الهجرة؟ ومن هذه السور المدنية سورة آل عمران التي ورد فيها قوله تعالى:

﴿...وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: الآية 20]

وفي سورة الأحزاب المدنية جاء قوله تعالى:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الأحزاب: الآية 48]

أي لا تُطعهم ولا تؤذهم. وورد في سورة الأنفال المدنية قوله تعالى:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [سورة الأنفال: الآية 61]

والحجة القاطعة في هذا السياق أن أكثر الآيات دعمًا لفكرة عدم الإكراه في الدين نزلت في أواخر سنوات حياة الرسول ﷺ ضمن سورة الممتحنة، وفيها يقول الله تعالى:

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾
[سورة المُمتحنة: الآية 8]

إذ من أبرز معاني البر في المعاجم العربية هو المودة والعدل والإحسان، وهذه أقوى الأدلة على عدم جواز حرب المسالمين، فلا عدوان في الإسلام إلا على الظالمين، وأين إذن هي التغييرات التي حدثت في أحكام الحرب في آخر حياة الرسول ﷺ؟ ولو شئنا أن نأتي بالآيات التي تقصر مهمة الرسول ﷺ، على التبليغ لا ستغرق ذلك حيزًا كبيرًا، وهو موزع بين السور المكية والمدنية[1].

2 ـ ينقل البابا عن الإمبراطور قوله في حواره مع الفارسي المسلم «ومن أجل إقناع روح عاقلة لا يحتاج المرء إلى ذراع قوية ولا إلى سلاح من أي نوع كما لا يحتاج إلى تهديد أي شخص بالموت» وهذا هو رأي الإسلام وليس حجة ضده، قال تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [سورة النّحل: الآية 125]

وقال تعالى:

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾
[سورة يُونس: الآية 99]

ولهذا المنهج أساس في الديانات الإلهية السابقة بلا ريب، ولكنه أوضح ما يكون في القرآن الكريم، وآياته في هذا المعنى كثيرة تنفي عن الإسلام صفة الإكراه.

«أرى أن الدين الإسلامي متين، مؤسس على قواعد راسخة، تدعوا إلى كل ما يؤدي إلى منفعة الناس. الإسلام دعوة شريفة قوامها معرفة الله الخالق، والحض على الخير، والردع عن المنكر، بل كان من جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، أنشودة المؤمن وهذا هو الدين الذي أدعو إليه جميع البشر».

لوبون

---

1 ـ انظر ذلك في سورة الرعد الآية: 7، وسورة القصص الآية: 56، وسورة المائدة الآية: 99، وسورة الأعراف الآية: 184، وسورة النحل الآية: 82، وسورة الإسراء الآية: 105، وسورة النمل الآية: 92، وسورة الأحزاب الآية: 45 و46، وسورة سبأ الآية: 46، وسورة ص الآية: 65، وسورة الأحقاف الآية: 9.

3 ـ ينقل البابا عن البروفسور عادل خوري قوله: «أما في تعاليم الإسلام فإن الله متعال علوًا مطلقًا، كما أن إرادته ليست مقيدة أو متعلقة بأي مبدأ بما في ذلك مقاييس العقل نفسه «وجاء في استشهاد آخر أن ابن حزم ذهب إلى أن الله» ليس مقيداً بكلمته (أي بوعده ووعيده) وينهي اقتباسه بالقول: «وبمقتضى هذا الفهم فقد تكون عبادة الأوثان داخلة ضمن المشيئة الإلهية».

وبقدر استغرابنا من محاولة التخفّي وراء نصوص الآخرين لا يمكن أن يُخفي تبني البابا لهذه النصوص، وذلك أنه لم يسق النصوص للرد عليها ولكن لتدعم أفكاره حول ما قدمه عن التعاليم اللاحقة بشأن الحرب في الإسلام. والقول بعلو الله المطلق هو ضد الضعة والانحدار إلى منطق المشركين من تصوير الله في أصنام وأوثان، وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿...فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[سورة الأعراف: الآية 190]

ولكن هذا السمو لا ينفي أن

محاولة التخفي وراء نصوص الآخرين لا يمكن أن يُخفي تبني البابا لهذه النصوص

قريب من عباده مجيب لدعائهم، وأن من صفاته تعالى أنه «ودودٌ، ولطيف، وحليم، وكريم، وغفور، ورحمن، ورحيم، ورؤوف، ووهاب، وشكور» فهل تتناسب هذه الصفات مع التعالي بمعنى الغرور الذي فهمه المتحدث:

﴿...سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية 91]

ثم إن المحاضرة تنقل عن ابن حزم المسلم أنه يضع الله في صورة «تجيز على الله سبحانه أن يفعل ما لا يتفق مع الخير والحقيقة». وإنك لتعجب أن يقال هذا عن مسلم موحد، فهل يقول الله تعالى:

﴿...وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[سورة الحج: الآية 77]

ثم يجيز لنفسه أن يفعل ما لا يتفق مع الخير؟!. ولسنا بصدد الدفاع عن كلام ابن حزم، ولكننا أمام نصوص قرآنية كثيرة تناقض هذه الصورة التي وضعتها المحاضرة لله، فهي تنزههُ عن الظلم ومخالفة الحقيقة في مثل قوله:

﴿...وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية 49]

وقوله في بيان مهمة الرسل

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية 73]

فهل يوحي لهم فعل الخيرات ثم يجيز لنفسه ما لا يتفق معها؟ وهل يقول الله:

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

[سورة الأنفال: الآية 8]

ثم يجيز لنفسه مناقضة الحقيقة؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا....

أما قوله «وليس هناك ما يوجب عليه حتى إنزال الوحي وإرسال النبيين» فجوابه قوله تعالى:

﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

[سورة الإسراء: الآية 15]

فالله قد ألزم نفسه بذلك إلزامًا ذاتيًا بإرسال الرسل وإنزال الوحي عليهم بما لا يقبل الجدل، وعبر عنه في آيات أخرى بألفاظ مثل

﴿... كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية 12]

وبعث الرسول ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يوجب عليه أحدٌ شيئًا مثل هذا الأمر، وفرق في الفضيلة بين الإلزام والالتزام.

4 ـ ومن الغرائب أن يقول المحاضر: «قد تكون عبادة الأوثان داخلة ضمن المشيئة الإلهية». إذ ليس على الأرض ديانة إلهية توافق على ذلك، ومحاربة الأوثان في الإسلام أوضح وأظهر، لأنه جاء في بيئة تعتمد عبادة الأوثان، فركز على تحطيمها في العقول وفي الواقع، ولا تشابه صورة الرسول ﷺ في تحطيم الأصنام إلا صورة النبي إبراهيم (عليه السلام) الذي حطم الأوثان وأشاد بفعله القرآن الكريم في قوله تعالى

﴿...فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾

[سورة الحج: الآية 30]

5ـ والزعم بأن إرادة الله ليست مقيدة حتى بوعده ينقضه القرآن الكريم في آيات كثيرة وصريحة، منها قوله تعالى:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾

[سورة إبراهيم:الآية47]

وقوله تعالى:

﴿...وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[سورة الحج:الآية47]

وقوله تعالى:

﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [سورة الرعد:الآية31]

وقوله عز وجل:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الرُّوم:الآية6]

والأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن أقواها قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[سورة التوبة:الآية111]

فهل بقي لذلك الزعم بقية مصداقية؟ وهكذا فإن الحجج الدامغة التي ترد ما ورد في المحاضرة كثيرة ولا سبيل إلى نفضها، ولكن رد الجماهير على عفويته وشعبيته أسرع وأقوى في تنبيه العالم إلى هذه الأخطاء التي تحتاج إلى التصحيح إذا أردنا للعلاقات الإنسانية بين شعوب الأرض أن تتواصل في تفاهم وسلام.



بيان صحفي

بشأن العبارات المسيئة للإسلام التي أوردها قداسة بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر في محاضرة في جامعة ريجنسبرغ الألمانية يوم 12 الفاتح (سبتمبر) 2006م

أعرب وزراء خارجية الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ـ أثناء اجتماعهم التنسيقي المنعقد على هامش اجتماع الدورة الحادية والستين للجمعية العامة للأمم المتحدة ـ عن شديد دهشتهم وأسفهم لما ورد في محاضرة قداسة بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر يوم 12 الفاتح (سبتمبر) 2006م من عبارات تمس بالنبي محمد ﷺ، والتي ألقاها في جامعة ريجنسبرغ الألمانية.

واعتبر الوزراء أن تلك العبارات تنم عن الافتقار للمعلومات الصحيحة عن القرآن الكريم والنبي محمد ﷺ في العقيدة الإسلامية، في وقت كان يتوقع فيه العالم الإسلامي من قداسة البابا الجديد أن يواصل عملية تعزيز العلاقات الودية التي سادت خلال فترات أسلافه ومع الفاتيكان منذ عقود عديدة.

وقد أعرب الوزراء عن قلقهم وخشيتهم من أن تؤدي تلك العبارات التي استخدمها قداسة بابا الفاتيكان بينيدكت السادس عشر إلى خلق حالة من التوتر بين الفاتيكان والعالم الإسلامي، بما لا يخدم المصالح الحقيقية للطرفين.

وإيماناً من الوزراء بأن الإسلام هو دين الوسطية والتسامح وقبول الآخر واحترام جميع المعتقدات السماوية؛ فإنهم يعتقدون بأنه يجدر بالفاتيكان سحب أو تصويب تلك العبارات بشكل ينم عن الروح الصحيحة للديانة المسيحية في التعامل مع القضايا الإسلامية.

وأعرب الوزراء عن تقديرهم للأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي لما يبذله من جهود لإبلاغ الفاتيكان بالقلق الذي يساور الدول الإسلامية وطلبوا منه متابعة هذا الموضوع.

الجذور الفكرية العقدية لموقف البابا من الإسلام

نبيل شبيب *

تقول الكنيسة الكاثوليكية في روما منذ بضعة قرون بعصمة البابا على رأسها، ولهذا لا تصدر عنه وثيقة مكتوبة، أو كلمة مرتجلة، أو تصريح بموقف، دون جمع معلومات ودراسة ومناقشة وصياغة ومراجعة، فلا يُعلن شيء إلاّ بعد ضمان - بحدود قدرة البشر وإن قيل ما قيل عن عصمتهم - ألاّ تضطر الكنيسة لاحقاً إلى الرجوع عنه، ناهيك عن الاعتذار بسببه، وليس مجهولاً أنّ بعض أخطاء الكنيسة التاريخية الكبرى لم تجد طريقها إلى اعتذار رسمي، إلاّ بعد مرور مئات السنين عليه. ولهذا لا ينبغي أن يتّجه الحديث عن الإساءة البابوية إلى الإسلام نحو محاولة تفسيرها وتأويلها بأنّها غير مقصودة، كلمة كلمة، وفي هذا التوقيت بالذات، كما لا تصحّ المبالغة في تحميلها أكثر ممّا تقول به في نطاق سياق المحاضرة التي تضمّنتها، وفي الحالتين لا يفيد الجدل حول اعتذار شكلي، فعلى افتراض صدوره لن يعني تبدّل أسس موقف بابا الفاتيكان.

من هو بنديكت السادس عشر؟

اسمه الأصلي يوزيف آلويس راتسينغر، ولد يوم 16 - 4 - 1927م في عائلة كاثوليكية متديّنة، في منطقة باڤاريا، الأشهر من سواها في ألمانيا من حيث انتشار الكاثوليكية والتمسّك بها قديماً وحديثاً، ولا يزال يفخر بأنّ تعميده جرى سريعاً في يوم ميلاده ليكون من «ماء عيد الفصح».


بنديكت السادس عشر

كان في السادسة عشرة من عمره عندما أعرب عن رغبته في أن يصبح قسيساً، ومَن يذكر أنّ له «ماضياً نازياً» يستشهدُ على ذلك بعمله في خدمة الجيش النازي لإنشاء حواجز ضدّ الدبابات في النمسا المجاورة لباڤاريا، وذلك حتى الأيّام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، وكان منذ عام 1941م من «شبيبة هتلر»، والواقع أنّ الانتماء إلى هذه المنظمة كان واجباً قسريّاً على الناشئة من التلاميذ في معاهد معيّنة، مثل «سانت ميشائيل» الذي درس فيه.

والتحق راتسينغر فيما بعد بالجامعة لدراسة «علم الأديان» الكاثوليكي والفلسفة، وأظهر مبكّرا اهتمامه بالكتابات الفلسفية - الدينية، لا سيّما ما خلّفه الفيلسوف الديني (آوجوستينوس)، الذي كان في

---

* كاتب / مصر.

القرن الرابع الميلادي الركنَ الأساسي لتنظير تعاليم التثليث الكنسية وتثبيتها لدى الكاثوليك والأرثوذكس، قبل انفصال الفريقين نتيجة خلافات على تفاصيل تلك التعاليم لاحقاً.

حصل راتسينغر على الدكتوراه عام 1953م في العلوم الدينية، وعلى درجة الأستاذية عام 1957م في فرع «أسس علم الأديان»، وبدأ بالتدريس في العام التالي، لما يُسمّى الإملاءات العقدية الكنسية/ الدوجما وتاريخها، وفي عام 1959م بدأ التدريس في جامعة بون بمحاضرة عنوانها «إله الإيمان وإله الفلسفة»، ثم عام 1969م في جامعة ريجينسبورج (وهي الجامعة التي ألقى فيها محاضرته يوم 2006/9/12م، التي تضمّنت الإساءة إلى الإسلام) وفي عام 1977م أصبح كبيرَ الأساقفة في المدينة نفسها، وبعد شهر واحد تمّ تعيينه برتبة «كاردينال»، وفي تلك الفترة كان لقاؤه الأول مع سلفه يوحنا بولس الثاني، قبل أن يصل الأخير إلى كرسي البابوية في روما بفترة وجيزة.

في الفترة التي جمعت بين دراسته الجامعية ومناصبه الكنسية، بدأت اتجاهاته الكنسية بالظهور، ومن بينها التأكيد أنّ على البابا الكاثوليكي أن يأخذ في قراراته الحاسمة مجموع الكنيسة في الاعتبار، منتقداً الانفراد والمركزية في اتخاذ القرار الكنسي. ولكنّ (إصلاح الكنيسة) باتجاهٍ (ديمقراطي) لم يستمرّ طويلاً، بل اضمحلّ نسبياً في مواقفه وكتاباته لاحقاً، ويعلّل هو ذلك بتأثره بمصادماته سابقاً مع أنصار ما يسمّى «ثورة الطلبة»، وأصبح في هذه الأثناء يُصنّف بين «المحافظين» في نطاق الكنيسة، والمقصود بهذا التصنيف في الدرجة الأولى مواقفه على الصعيد الاجتماعي، أي رفضه المطلق لتمييع موقف الكنيسة في قضايا العلاقات الجنسية، لا سيّما ما انتشر من تقنين الشذوذ في كثير من البلدان الغربية في هذه الأثناء، بالإضافة إلى رفضه انخراط النساء في المراتب الكنسية الكاثوليكية العليا.

في فترة وجود (الكاردينال راتسينغر) في الفاتيكان بات يوصف باليد اليمنى للبابا يوحنا بولس الثاني، ومن أسباب ذلك مسئوليته عمّا يسمّى (مجمع شئون الإيمان)، وهو الاسم الذي اختير لمجمّع كان يحمل سابقا المسئولية عن تثبيت تهمة الهرطقة على مَن تقرّر الكنيسة محاكمتهم . وعزّزت تلك الفترة الجانب (العقلاني) في قناعات راتسينغر الذاتية، وارتبط باسمه إصدار الكنيسة عام 1998م قراراً بفتح الملفّات الوثائقية القديمة عن تاريخ المحاكمات التي أودت في القرون الوسطى بحياة العديد من العلماء والمعارضين.

> ❖ **لا يفيد الجدال الذي يثيره الناقدون لردود الفعل الإسلامية بدعوى أنّ بنديكت السادس عشر لم يستخدم كلماته الذاتية عن الإسلام**

اعتلى كرسي البابوية يوم 2005/4/19م، ليواجه عدداً من المهامّ المقترنة بالتساؤلات عمّا ستكون عليه سياسة الكنيسة في عهده، بعد أن اكتسبت صبغةً جديدة وحركةً دائبة في عهد سلفه يوحنا بولس الثاني، الذي بقي في كرسي البابوية أكثر من ربع قرن. وأهمّها ثلاثة:

1 ـ إنعاش القيم الكنسية في السياسات الرسمية على حساب العلمانية بعد انتشار ظاهرة «التديّن» الشعبي عالمياً.

> «زاد الإسلام في أفكاري وتصوراتي كثيراً مما يرجع إلى الشؤون البشرية والوداد الإنساني مما لم أجدها في مجالات أخرى، إن التوحيد الإسلامي عقيدة قدسية منزهة عن الخرافات التي لا تتلاءم والعلوم الحديثة، ولذلك لا مضادة بين العقيدة والعلم في الدين الإسلامي، فهو امتياز عظيم في الإسلام يهتدي به رجل صرف مقدرته واستعداداته في سبيل العلوم».
>
> **ماركوس**

2 ـ التعامل مع تبعات حملة الهيمنة الأمريكية وعسكرتها عالميا، والمقترنة بتصوّرات «الصهيونية المسيحية»، والعداء للإسلام تخصيصا.

3 ـ مركزية موقع الكنيسة الكاثوليكية في روما (وكان من أوائل قراراته إلغاء كلمة (الرومي) من لقب البابا الكاثوليكي الرومي)، وبالتالي مركزية دورها على خارطة الطوائف والمذاهب المسيحية وخارطة الحوار مع «الآخر» عقدياً وثقافياً.

بنديكت السادس عشر والإسلام

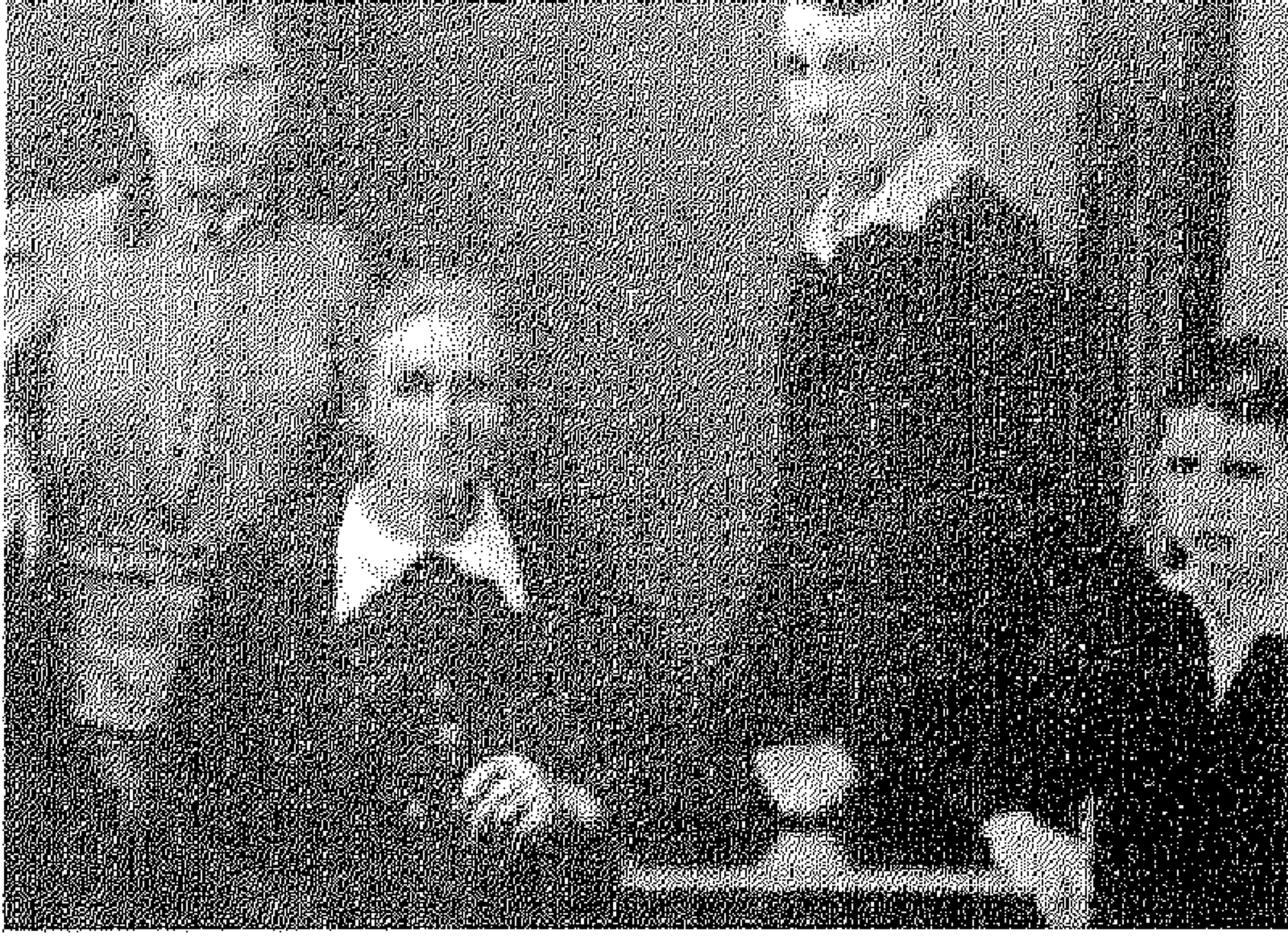
صدرت عن البابا الكاثوليكي كلمةُ مجاملةٍ عابرة في أثناء لقاء مع قيادات دينية عالمية، عقب تنصيبه على رأس الفاتيكان بأيام، فأعرب فيها عن امتنانه لوجود مَن يمثّل الإسلام بينهم، وتقديره للحوار بين المسلمين والمسيحيين.

باستثناء ذلك مرّت الشهور التسعة الأولى على وجود يوزيف كاتسينغر في منصب البابا الكاثوليكي باسم بنديكت السادس عشر دون أن يصدر عنه ما يوضّح مواقفه من القضايا الأساسية التي يواجهها مع كنيسته ودولة الفاتيكان، بما في ذلك مسألة الحوار عموما، ومع الإسلام تخصيصاً.

ومعظم ما يُنشر عن توجّهاته يأتي نتيجة دراسات قامت بها جهات أخرى، تستقرئ سياساته البابوية في الفاتيكان من أفكاره ومواقفه قبل حمل هذه المسئولية، وهنا ينبغي التمييز بين:

1 ـ **موقف رسمي** يصدر عن مسئول في الكنيسة الكاثوليكية، فلا يخرج به عادة عن الموقف المقرّر من جانبها، بغضّ النظر عن موقفه الشخصي واحتمال تناقضه مع الموقف الرسمي أو تمايزه عنه قليلاً أو كثيراً.

2 ـ **موقف ذاتي شخصي**، يظهر عادة في أثناء المناقشات أو في مناسبات معينة، فيعبّر عن توجّه قائم بذاته عند صاحبه، يمكن أن يؤثّر على صناعة القرار الكنسي على حسب موقع المسئولية لصاحبه، وهو ما يعني ازدياد تأثيره على صناعة القرار عبر الوصول إلى كرسي البابوية.


جوزيف كاتسبنغر في صغره

من أبرز الأمثلة على الموقف الرسمي على صعيد التعامل مع الإسلام، صدر عن راتسينغر وهو يشغل المرتبة الثانية في الفاتيكان؛ إذ صرّح بأنّ الإسلام كان لفترة زمنية طويلة متفوّقا على المسيحية في الميادين العلمية والفنية، وقد أعرب بذلك عن ردّ دولة الفاتيكان وكنيستها على مقولة رئيس الوزراء الإيطالي السابق (سيلفيو بيرلوسكوني) بشأن تفوّق الحضارة الغربية، والتي أثارت ضجّة في حينه، وصدرت في حمئة الحملة التي أطلقها الرئيس الأمريكي جورج بوش ضدّ الإسلام والمسلمين، عقب تفجيرات نيويورك وواشنطن، إلى درجة قوله في وصفها إنّها «حرب صليبية».

ومن الأمثلة الأخرى قول راتسينغر في مقابلة صحفية: «إنّ الإسلام كثير التنوّع، ولا يمكن حصره فيما بين الإرهاب أو الاعتدال».

بغضّ النظر عن الاقتناع الذاتي كانت مواقف راتسينغر العلنية آنذاك تمثّل الاتجاه الذي قرّرته الكنيسة الكاثوليكية لنفسها في عهد يوحنا بولس الثاني، وهو ما تضمّن معارضة الحملات العسكرية الأمريكية ونشر الهيمنة الأمريكية من خلالها عالمياً، بحجّة «الحرب ضدّ الإرهاب»، وفي تلك الفترة بالذات، أي في السنوات الثلاث الأولى عقب تفجيرات نيويورك وواشنطن، تبنّت الكنيسة في روما الدعوة إلى حوار

الأديان، الإبراهيمية على وجه التخصيص، بعد أن بقي التعامل مع «الإسلام» ضمن إطار حوار الأديان عموماً.

أمّا الموقف الشخصي الذاتي، المعبّر بالتالي عن رؤية ذاتية واقتناع، فليس سهلاً العثور عليه في متابعة حياة مسئول كنسي، وقد نجد الكثير لراتسينغر/ بنديكت السادس عشر بصدد قضايا كنسية كانت مطروحة للبحث، ولكن ما يتعلّق بالإسلام وكيفية التعامل معه، أو استيعاب الإسلام والموقف منه، لا نجد إلا القليل النادر، ومن أهمّه ما يتحدّث عنه دانييل بايبس في «نيويورك صن» يوم 17 ـ 1 ـ 2006م، نقلاً عن القسيس يوزيف ديسيو، الذي شارك مع البابا ـ الجديد آنذاك نسبياً ـ في ندوة كنسية حول الإسلام في شهر الفاتح (سبتمبر) 2005م ويقول إنّه لم يشهده في ندوات مشابهة (تعقد بإدارته منذ 1977م)، يدخل في النقاش ولكن بصورة هادئة وبعد الاستماع إلى الآخرين، أمّا في تلك الندوة فقد اعترض اعتراضاً سريعاً ومباشراً على فكرة «قابلية الإسلام للتطوّر» التي طُرحت في الندوة نقلا عن وجهة نظر أحد علماء باكستان المسلمين؛ إذ قال بنديكت السادس عشر معترضا من بداية النقاش، ما مؤدّاه « إنّ كلمة الله عند المسلمين كلمة أبدية كما هي، غير قابلة للتلاؤم مع المستجدّات أو التأويل، وهذا فارق أساسي مع المسيحية واليهودية، فكلمة الله عندهما أوكلت إلى البشر، وأوكل إليهم أن تتعدّل لتتلاءم مع المستجدّات».

الإساءة إلى الإسلام

أما الموقف الشخصي الذاتي المنسوب إلى البابا فقد صدر قبل أشهر في إطار (ندوة كنسية داخلية)، أي محرّرا من وضع ردود الفعل الإعلامية والشعبية والسياسية في الحسبان، هو الموقف الأقرب إلى معرفة نظرته إلى الإسلام، فعندما يقول فيه إنّه «غير قابل للتطوّر»، يمكن أن نجد ذلك الفهم المبتسر والخاطئ

القيادة الشعبية الإسلامية العالمية:

هل يأخذ بنديكت السادس عشر الفاتيكان بعيدا عن الحوار مع المسلمين؟!

بعد ساعات من إدلاء بابا الفاتيكان بتصريحاته المسيئة للإسلام ونبيه الكريم في ألمانيا يوم الثاني عشر من شهر الفاتح الجاري، والتي تطاول فيها على الإسلام ونبيه، بدأت القيادة الشعبية الإسلامية العالمية تتلقى اتصالات من مئات الشخصيات والقيادات والفعاليات والهيئات والتنظيمات الإسلامية، من مختلف أنحاء العالم.

كما تلقت القيادة أيضاً اتصالات من شخصيات وهيئات مسيحية تربطها بالقيادة علاقات تعاون مشترك خاصة في مجال الحوار الإسلامي المسيحي، وقد دان كل المتصلين واستنكروا بشدة هذه التصريحات التي تعرقل مسيرة الحوار بين العقائد والحضارات والشعوب، وتعمق روح العداء، وتعمل على تقويض ما تم تشييده عبر سنين طويلة من الحوار والتقارب.

وفيما يلي نص البيان :

إن القيادة الشعبية الإسلامية العالمية التي عقدت اجتماعها الاستثنائي بمدينة تمبكتو التاريخية في صلاة جامعة في ذكرى مولد رسول الله ﷺ حضرها مئات الآلاف من المسلمين، واستحضرت في هذا اللقاء التهجمات على نبي الإسلام وعلى المسلمين.

تعود من جديد لتستغرب بكل الأسف تصريحات البابا بنديكت السادس عشر التي وردت في محاضرته بإحدى

للإسلام منسجماً تماماً مع الخطّ العام لمحور ما قال به «أستاذاً محاضراً» في جامعة ريجنسبورج، التي عرفته متخصّصاً بدرجة الأستاذية ؛ أي إنّ المفترض به أنّه لا يلقي الكلام على عواهنه أو جزافاً.

من هنا لا يصحّ التساؤل : ماذا تقصد الكلمات من حيث معناها، فهي واضحة، تعبّر عن رؤية مرفوضة إسلامياً.

ولا يعني ذلك أن تقترن بالرفض المطلق لما حاول المتحدث باسم الكنيسة الكاثوليكية أن يعتذر به اعتذاراً غير مباشر.. عندما قال مثلاً: إنّ البابا الكاثوليكي لم يقصد الإساءة، فالواقع أنّ المشكلة في البداية لا تتمثّل في «قصده» بل في مضمون كلماته .

ـ أو قال أيضا إنّ فهم الكلمات يجب أن يكون باعتبارها وردت في «محاضرة» على مستوى علمي، وهذا صحيح، ولهذا لا يمكن اعتبارها غير «مدروسة».

إنّ موضوع المحاضرة هو الموضوع المفضّل قديماً وحديثاً لدى بنديكت السادس عشر، أي التوفيق بين «العلم والدين» أو «العقل والعقيدة»، وتلك «مشكلة كنسية» قديمة جديدة، ومن هنا كان حديثه عن الإسلام في المحاضرة ـ على أفضل التفسيرات ـ من باب «المثال»، الذي أراد ذكره للقول إنّ التناقض (في زعم القائل) بين الدين والعقل يمنع الحوار مع الآخرين.

واستشهاده بمقولة قيصر بيزنطي من حقبة القرون الوسطى ومقدّمات فتح القسطنطينية آنذاك له مغزاه، ولا يعني عدمَ تبنّيه هو لمضمون الاستشهاد، فلا يفيد الجدال الذي يثيره الناقدون لردود الفعل الإسلامية بهذا الصدد، بدعوى أنّ بنديكت السادس عشر لم يستخدم كلماته الذاتية عن الإسلام، فاختيار الاستشهاد هو المهم، وكان باستطاعة البابا الكاثوليكي ذي الأصل الألماني، المتحدّث بالألمانية، لجمهور ألماني، على الأرض الألمانية.. كان باستطاعته لو أراد شيئاً

الجامعات الألمانية، والتي تعتبر تطاولاً غريباً على الإسلام ونبيه محمد ﷺ ينم عن جهل بالإسلام ونبيه الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

إن القيادة الشعبية الإسلامية العالمية التي تضم في عضويتها الفاعليات والهيئات والتنظيمات الإسلامية من مختلف بقاع العالم، تستنكر بشدة ما ورد على لسان بابا الفاتيكان من إساءة للإسلام ونبيه.

وتعبر عن انزعاجها من هذه التصريحات التي صدرت من أعلى سلطة دينية كاثوليكية مسيحية كان يجب أن تدعم مسيرة الحوار بين الأديان والتقارب والتعارف بين أتباعها بدلاً من إشاعة روح العداوة المثيرة للتعصب والتطرف.

إن الحوار الذي رعاه المسلمون والكاثوليك على مدى ثلاثة عقود في إطار الفاتيكان، والذي كان مؤتمره الكبير في مطلع الشهر الثاني من عام 1976 مسيحي، مهد لعقود من الازدهار والتعاون والعيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين.

وقد ساهم في تعميق روح هذا الحوار على مدى ربع قرن من الزمان البابا «يوحنا بولس الثاني» الذي وصفه القائد معمر القذافي قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية في صلاة الجمعة الجامعة بمدينة (كانو) بنيجيريا وهو يؤم أكثر من ستة ملايين من المسلمين، بأنه رجل سلام.

والسؤال هنا ما الذي تغير في موقف الفاتيكان؟ هل أن البابا بنديكت السادس عشر يأخذ الفاتيكان بعيداً عن الحوار مع المسلمين ؟

ولا نريد هنا أن ندخل في جدل حول دور العقل في العقيدة الإسلامية التي أعلت من شأن العقل والإيمان، ونقل المسلمين احترام العقل لعلماء أوروبا، ودور العقل في الفاتيكان التي شهدت ساحاتها تشريد العلماء وقتلهم، ولا عن

آخر سوى «مضمون» الاستشهاد، أن يأتي مثلاً ببعض ما قال عن الإسلام القيصر الألماني غليوم الثاني قبل أقلّ من قرن واحد، بدلاً من القيصر البيزنطي إيمانويل الثاني قبل ستة قرون، أو مثل آخر ما قال به غوته، أشهر شاعر وأديب ألماني، أو سواهما ـ وسواهما كثير ـ من مشاهير الفلاسفة الألمان وغير الألمان في حقبة «التنوير» الأوروبية.

لا ينبغي أن يأخذ الحديث عن الإساءة البابوية إلى الإسلام منحى التساؤل: هل وقعت أم لم تقع«؟. وهل كانت مقصودة أم غير مقصودة؟.. بل ينبغي:

1 ـ الاستيعاب الهادئ والموضوعي لما قال به البابا الكاثوليكي الرومي بنديكت السادس عشر، كما هو، بنصه ومعناه الظاهر للعيان، وبموازين مجمل خلفيّاته الفكرية والعقدية والسياسية.

2 ـ تثبيت الموقف الإسلامي المطلوب على المدى البعيد، وفق موازين المصلحة الإسلامية، والتعبير عنه وفق ما تقتضيه المصلحة الإسلامية، بما يتجاوز حدود الردود الآنية المتفاعلة مباشرة مع الحدث، هذا ما يحتاج إلى حديث آخر.

❖ المصلح العظيم:



«إن محمداً رسول الله لأعظم مصلح ثوري عرفه التاريخ، مؤيد بوحي من عند الله. ونحن مأمورون أن نفهم تعاليمه ونطبقها على شؤون حياتنا الدنيوية مع الإيمان بن ما أوحى به إليه ، إنما هو أساس لا يهتز ولا يتعثر لكونه إلهياً».

جرمانوس

استشهاده بكلام الإمبراطور إمانويل الثاني ليثبت أن الذي جاء به نبي الإسلام ليس فيه إلا الشر والعنف، ولا عن دور الكنيسة الكاثوليكية تاريخيا في محاكم التفتيش والحروب الصليبية، ولكننا نريد أن نؤكد على أن هذه التصريحات قد استخفت بكل الجهود المخلصة التي ساهمت في تفعيل مسيرة الحوار الإسلامي المسيحي طوال العقود الماضية والتي كانت محل تقدير من الجميع.

إننا نذكر بما نبه إليه الأخ القائد معمر القذافي قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية في صلاة مدينة تمبكتو بأن الإساءة إلى الإسلام ونبيه التي ترد من العالم الغربي إنما هي نتاج جهل بالإسلام ونبيه وما قدمه الإسلام للبشرية من قيم سامية.

والقيادة الشعبية الإسلامية العالمية تؤكد أن تصريحات البابا (بنديكت السادس عشر) ترتب وضعاً خطيراً يعصف بجهود المسلمين والمسيحيين من أجل عالم يسوده السلام والتعاون والاستقرار الذي هو مطلب جميع محبي الخير من الناس جميعاً.

وهي تنتظر من الفاتيكان توضيحًا وتصحيحاً لهذه المواقف التي تشير كل القرائن أن فيها مجاراة للتوجهات التي تستهدف الإسلام والمسلمين.

إن القيادة الشعبية الإسلامية العالمية ستتابع بحرص كامل كافة التطورات حتى تعود الجهود الخيرة إلى مسارها الصحيح، ويبتعد إلى الأبد شبح الكراهية والجهل والتعصب.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [سورة يونس:الآية108-109]

صدق الله العظيم

الإيمان والعقل والجامعة .. ذكريات وتأملات

د. عارف علي النايض *
نقلها عن الإنجليزية: **د. نجيب الحصادي** **

في الثاني عشر من سبتمبر، عام 2006، ألقى بابا الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، بنديكت السادس عشر، محاضرة في جامعة ريجنزبرج، عنوانها «الإيمان والعقل والجامعة: ذكريات وتأملات».[1] وقد سببت محاضرة البابا صدعا عميقا ومؤلما في علاقة الكاثوليكيين بالمسلمين على الصعد الدبلوماسية، والسياسية، والشعبية بنحو خاص. التغطية الإعلامية المسطحة للمحاضرة، وردود الأفعال الشعبية الإنفعالية لهذه التغطية، حالت إلى حد كبير دون اعتبار محتوى المحاضرة ونقدها بالشكل اللازم. الغاية من هذه الورقة إجراء دراسة معمقة لهذه المحاضرة.

يحدوني أمل في أن يمهد الاعتبار المتوازن والمنصف للمحاضرة لحوار لاهوتي فلسفي بين العلماء المسلمين والعلماء الكاثوليك، بمن فيهم البابا الكاثوليكي نفسه. الراهن أن الحاجة إلى مثل هذا الحوار ماسة لإصلاح الاختلالات التي طرأت على علاقة الكاثوليك بالمسلمين، ولإشفاء جراحات جديدة عمقت آلام عالم ممزق وموجع أصلاً.

محاضرة بنديكت عمل مركب يتوجب التعامل معه على عدة مستويات ومن زوايا مختلفة: لاهوتية، وفلسفية، وسياسية؛ وبودي أن تدشن هذه الورقة المزيد من التأملات والنقاشات الإسلامية لها.

وخشية تشويه دلالة محاضرة بنديكت السادس عشر، عبر إعادة صياغة نصوصها، سوف أسرف في الاقتباس من الترجمة الفاتيكانية الرسمية التي نشرت في موقع الفاتيكان على شبكة المعلومات والتي تحفظ مكتبة Editrice Vaticana حقوق طبعها.

من اللازم أن نقدر أن بنديكت السادس عشر، إلى حد ما على أقل تقدير، أستاذ سابق يعود إلى جامعته

---

* كاتب وباحث وأستاذ جامعي / ليبيا.
** باحث وأستاذ جامعي / ليبيا.

1 ـ كل الاقتباسات من هذه المحاضرة، ما لم يشر إلى خلاف ذلك، التي نشرت تحت عنوان:
Published under the title: "Faith, Reason and the University Memories and Reflections", Libreria Editrice Vaticana, Vatican, 2006. http://www.vatican.va/holy_father / benedict_xvi/speeches/2006/september / documents/hf_ben-xvi_spe_20060912_university-regensburg_en.html.

الأثيرة كي يتحدث، مرة أخرى، بوصفه أستاذا. وبطبيعة الحال، فإن خطاب المرء، والطريقة التي يستقبل بها، إنما يرتهنان إلى حد كبير بالسياق الذي يلقى فيه هذا الخطاب. الخطابات المختلفة إنما ترتبط بمعايير قيمية مختلفة، ما يلزم الحكم عليها وفق المعايير التي تناسبها.

اعتبار المحاضرة محاضرة لجوزيف راتزينغر بوصفه بنديكت السادس عشر، بابا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وقائد الكاثوليكيين في العالم بأسره، شيء، واعتبارها محاضرة لجوزيف راتزينغر بوصفه أستاذ لاهوت ألماني، شيء آخر. النغمة النوستالجية التي استبينت في فقرات المحاضرة الاستهلالية والإشارة إلى محاضرات كانت ألقيت في خمسينيات القرن الفائت، إنما تبين أن راتزينغر يتحدث إلى حد بوصفه أستاذ لاهوت ألماني. على ذلك، بحسبان أن راتزينغر قد «تخلق من جديد» في صورة البابا بنديكت السادس عشر، فإنه من الطبيعي تماماً، رغم النوستالجيا الآسرة، أن يستحيل على متلقيي المحاضرة تعليق الدور الكنسي الذي يقوم به راتزينغر.

> **محتم أن تستقبل المحاضرة على أنها تلقى من قبل البابا الكاثوليكي الروماني، ولا تلقى فحسب على يد أستاذ في الجامعة.**

محتم إذن أن تستقبل المحاضرة على أنها تلقى من قبل البابا الكاثوليكي الروماني، ولا تلقى فحسب على يد أستاذ في الجامعة. الراهن أن الفاتيكان افترض هذا حين أعلن أنها محاضرة يلقيها «الأب المقدس» جزءا من «رحلة بابوية».

وكما أشار الفيلسوف الروماني شيشرون والفيلسوف البريطاني برادلي، فإن واجبات المرء ترتهن إلى حد كبير بدوره في الحياة. من المهم إذن أن نلحظ أنه تماما كما أن الأستاذ راتزينغر كان يتحدث في جامعته السابقة، فإن البابا بنديكت السادس عاشر كان ماثلا أمام متلقي محاضرته(2).

في عالم متوحش يعج بحروب وصراعات، تدور رحى كثير منها بين المسيحيين والمسلمين (أياً كانت الرايات والتسميات التي تنضوون تحتها)، يلزم أن يتحدث ويتصرف القادة الدينيون في كل الأديان على نحو مسؤول. عمق المسؤولية إنما يطرد مع أهمية المنصب الديني الذي يتولاه المتحدث. ثمة العديد من أساتذة الجامعات الذين يصدرون مختلف الأحكام المسيئة للإسلام ومعتنقيه. غير أنه غالبا ما يتم تجاهلهم، وعلى نحو محق. لقد كانت محاضرة الاستاذ راتزينغر إلى حد كبير محاضرة يلقيها البابا بنديكت السادس عشر، وهذا ما يبرر عدم تجاهلها ويوجب التعامل معها على مختلف المستويات الممكنة.

من المهم أيضا للمسلمين، التزاماً بروح الإنصاف التي يؤثرها الإسلام، أن يقدروا ويعززوا كل ملمح إيجابي اشتملت عليه المحاضرة. من ضمن هذه الملامح الخطاب المهم، الذي ورد لسوء الحظ في نهاية المحاضرة، والذي يؤكد أهمية تعميق وبسط مفهوم العقل الغربي بحيث يشمل ويستوعب الإسهام الذي يمكن للدين الموحى به أن يشارك به. كثير من المسلمين يقدرون النقد ضد الوضعي لتصور الجامعات الغربية للعقل ويعتبرونه وجيها. وبطبيعة الحال، فإن هذا النقد ليس أصيلاً، فأصوله ترجع إلى تطورات ضد ـ وضعية طرأت على فلسفة العلم منذ أن أنجز كارل بوبر وأشياعه أعمالهم المهمة. على ذلك، فإن توظيف مثل هذا الخطاب

(2) Cicero, Marcus Tullius: De Officiis. Translated by Walter Miller. Loeb Editions. Harvard University Press, Cambridge, 1913. See also: Bradley, Francis Herbert. ‹My Station and Its Duties› in Ethical Studies. Oxford University Press, Oxford,1988.

[نيويورك تايمز] الأمريكية
في افتتاحية لها:
تصريحات البابا تعتبر «مفجعة وخطيرة».. «العالم يصغي دائماً بانتباه إلى كلمات كل بابا .. وعندما يزرع أحدهم الألم عمداً أو بسبب الإهمال فإن الأمر يصبح مفجعاً وخطيراً.. إن على الحبر الأعظم تقديم اعتذارات عميقة ومقنعة ، وأن يبرهن على أن الكلمات يمكن أن تهدئ الأوضاع أيضاً.. بعد أن وصف الإسلام بأنه «شر وغير إنساني».

المناوئ للوضعية في تمهيد الطريق للخطاب الموحى به يظل مفيدا للجميع.(3)

لو أن بنديكت السادس عشر بدأ بآخر فقرات محاضرته وقام بتطويرها، ولو أنه قدر تماما التزام الإسلام التاريخي عبر العصور بالعقلانية والحوار المجدي، لكان خطابه يبعث على الأمل ويسهم في تعايش إسلامي ـ مسيحي ومقاومة مشتركة لدعاوى العقل العلموي المتبجحة. الراهن أنه بمقدور الإسلام أن يكون أفضل حليف للمسيحية ضد مزاعم الوضعية العلموية الصلفة، كونه يدافع عن عقل أكثر عمقاً وروحية. المؤسف أن بنديكت السادس عشر لم يقم بذلك. فدعونا إذن نتقصى كيف بدأ بالفعل، ثم نعاين أجزاء محاضرته، الجزء تلو الجزء، مقتبسين بعض الأجزاء المهمة.

يستهل بنديكت السادس عشر محاضرته، بطريق أنيقة بما يكفي، بتذكر عهده في جامعة بون عام 1959، حيث «كنا نتقابل قبل وبعد تلقي الدروس في حجرات الأساتذة. كانت هناك نقاشات حية تدور مع مؤرخين، وفلاسفة، وعلماء في فقه اللغة التاريخي، وبطبيعة الحال مع أساتذة علم اللاهوت.»

يستبان أن بنديكت السادس عشر ينزع إلى حد كبير، بل ويبجل النقاشات الفلسفية، واللغوية، واللاهوتية. إنه يخوض في كل هذه المستويات، وكما يتضح من محتوى محاضرته، فإنه يستطيع أن يفيد من نقاش أكثر وجاهة مع علماء إسلام جادين.

الحال أنه لا تساورنا أدنى شكوك في أنه معني بالإسلام وأنه يحمله محمل الجد. على ذلك، فإن المواد والحلقات الدراسية التي يشارك فيها تبدو خاصة ومن النوع الضيق. ولأنه عالم كاثوليكي يحترم التخصص الدقيق، يبدو أنه يركز بشكل مكثف إلى أعمال مستشرقين كاثوليك، بعض منهم لا يتعاطف بوجه خاص مع الإسلام.

في نهاية العام الفائت، كرّس بنديكت السادس عشر الملتقى السنوي، الذي اعتاد عقده مع طلابه السابقين الذين كانوا يحضرون رسائل الدكتوراه على يديه، لدراسة مفهوم الله في الإسلام. نحن لا نعلم سوى القليل عما دار في هذا الملتقى، غير أننا نستطيع أن نتعرف على شذرات مما حدث من تقريرين، متعارضين أحياناً، أعدهما في وقت لاحق اثنان من

« يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة ... وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له ما للإسلام من ماضٍ كلله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة ، على بساط المساواة في الحقوق».

ماسينيون

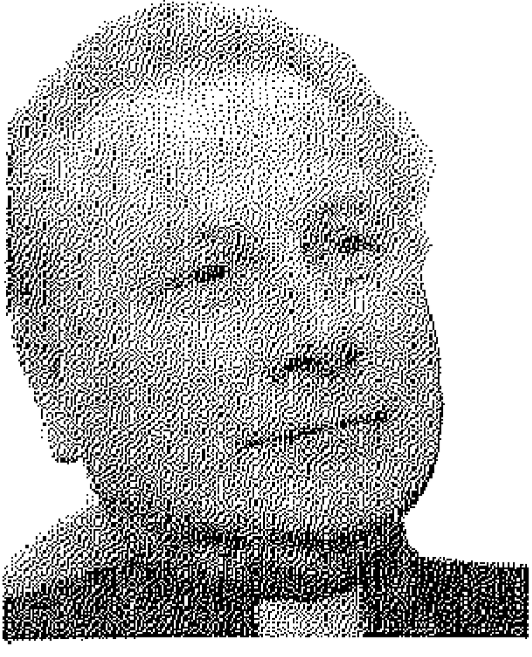
---

3 ـ أشير هنا إلى فلسفة العلم بعد الوضعية التي قال بها كارل بوبر، تومس كون، إمر لاكتوش، وآخرون. بخصوص دلالات العقل والعقلانية المتعددة وإمكان الفهم المتعمق لها، أنظر أيضاً:

Whose Justice? Which Rationality? by Alasdair Macintyre. University of Notre Dame Press, Notre Dame, 1988.

المساهمين الأساسيين. موضوع الملتقى ومحتواه متعلقان بشكل مباشر بمحاضرة بنديكت السادس عشر التي ألقاها في روزنبرج، ولو نشرت أعمال حلقة النقاش «الخاصة» تلك، لتعمق فهمنا لموقف بنديكت السادس عشر الحقيقي من الإسلام.(4)

لقد كان أجدر لبنديكت السادس عشر أن يستمع إلى علماء الكلام الإسلامي أنفسهم فيما يتعلق بمعتقداتهم بخصوص الله. غير أنه آثر أن يستضيف تلاميذه، كي يستمعوا ويناقشوا عالمي لاهوت كاثوليك متخصصين في علاقات المسيحيين بالمسلمين: اليسوعي المسيحي الألماني كريستيان ترول، واليسوعي المصري سمير خليل سمير. صحيح أن كليهما مسيحي يحظى بشهرة في مجال الدراسات الإسلامية؛ غير أنهما ينزعان إلى إثارة الشكوك فيما يسمى بـ«الإسلام التقليدي». ترول مقتنع أساساً أنه يتوجب الإصلاح من شأن الإسلام، وهو خبير ومناصر نشط «للإصلاح الحداثي». سمير أقل احتفاء بالإسلام، أكان تقليديا أم «إصلاحياً»، وغالبا ما يتخذ مواقف عدائية منه. كلاهما، صحبة مستشارين آخرين مقربين لبنديكت، يعاني بشكل واضح من حالة «رهاب - إسلامي» قد تعين على تفسير توجه محاضرة بنديكت.


ميشيل فتزجيرالد

من المهم أن نشير إلى أن بعض مستشاري بنديكت المقربين في المسائل الإسلامية يتخذون مواقف عدائية من الإسلام ويخشون من انتشاره لأنهم يرون أن هذا الدين - على الأقل في وضعه الراهن - عنيف بطبعه . ثمة العديد من الخبراء الكاثوليك أو العلمانيين الأكثر حرصاً من أن يروعوا قلب البابا من رهاب - إسلامي ، غير أنه تم بوجه عام تهميشهم ، أو تجاهلهم كلية ، فيما تقاعد بعض آخر منهم. من هؤلاء الأسقف الموقر ميشيل فتزجيرالد، الذي أحيل إلى مناصب أقل أهمية، وإن ظلت محترمة. ضم «المستشارية البابوية للحوار بين الأديان» إلى «المستشارية البابوية للثقافة»، وحالة التفاقم المستمرة التي يعاني منها «المعهد البابوي للدراسة العربية والإسلامية»، إنما يجعلان البابا يحصل دوما على استشارته بخصوص الإسلام من أقل علماء الكاثوليك تعاطفا مع هذا الدين(5).

من المهم للمسلمين، التزاماً بروح الإنصاف التي يؤثرها الإسلام، أن يقدروا ويعززوا كل ملمح إيجابي اشتملت عليه المحاضرة.

من المهم إذن أن يبذل علماء الإسلام جهودهم لإجراء حوارات فكرية ولاهوتية مع بنديكت السادس عشر، بحيث لا يستقي رؤاه عن الإسلام عبر مصفاة مستشرقين كاثوليك مصابين برهاب - إسلامي. أيضا

---

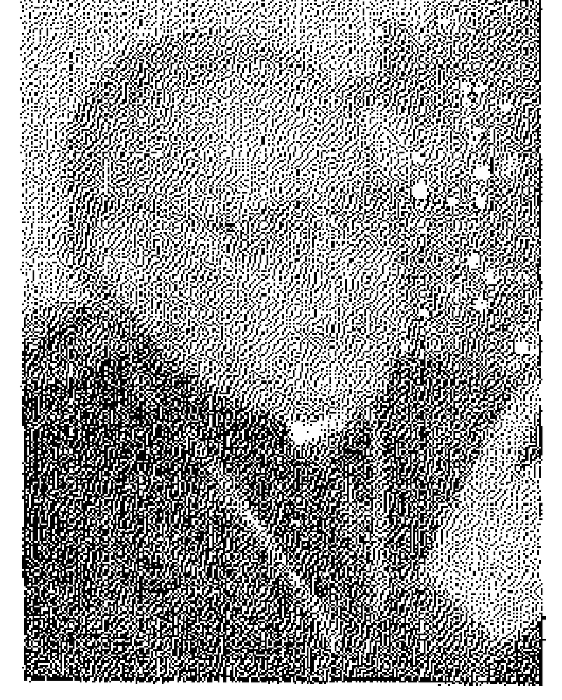
4 - بخصوص حلقة النقاش المهمة هذه، انظر:

«When Civilizations Meet: How Joseph Ratzinger Sees Islam» by Samir Khalil Samir, S.J. www.chiesa, Roma, September 25, 2006. Originally published by Asia News.http://www.chiesa.espressonline.it/dettaglio.jsp?id=53826&eng=y

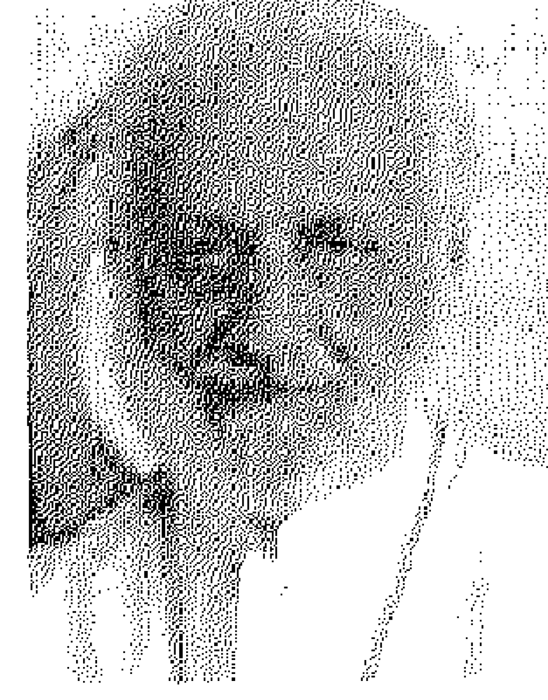
«Islam and Democracy, a Secret Meeting at Castel Gandolfo: The synopsis of a weekend of study on Islam with the pope and his former theology students» by Sandro Magister. www.chiesa, Roma, September 25, 2006.http://www.chiesa.espressonline.it/dettaglio.jsp?id=45084&eng=y

5 - للتأكد من هذا التصور، انظر الدراسة الممتازة التالية:

For confirmation of this account, see the excellent «Benedict XVI and Islam: the first year» by Abdul Hakim Murad. First appeared in Q News. http://www.masud.co.uk/ISLAM/ahm/AHM-Benedict.htm



ميشيل صباح



جورج خضر



توماس ميشيل

من المهم لبابا الكاثوليك أن يوسع الحلقة التي يختار منها مستشاريه، وأن يحذر من الرؤى الضيقة والمغرضة، حتى إن تصادف أن كان أصحابها يوصفون بـ«الخبراء» في الدراسات الإسلامية. يتوجب عليه أيضاً أن يحذر من الثقة في المزاعم الإثنية الصرفة التي يقول بها بعض العلماء الكاثوليك العرب. في أحيان كثيرة، بعض أعضاء الأقليات التي تعيش في ثقافة أوسع هم الأقل دراية بثراء هذه الثقافة، وغالبا ما يعانون من مشاعر الانزعاج والخوف من القضاء عليهم. ثمة متخصصون عرب في الدراسات الكاثوليكية ـ الإسلامية يذهبون مذاهب مشكوك في أمرها في الإسلام والمسلمين، فيما تحمل آراؤهم الرهاب ـ إسلامية محمل الجد لمجرد أنهم عرب.

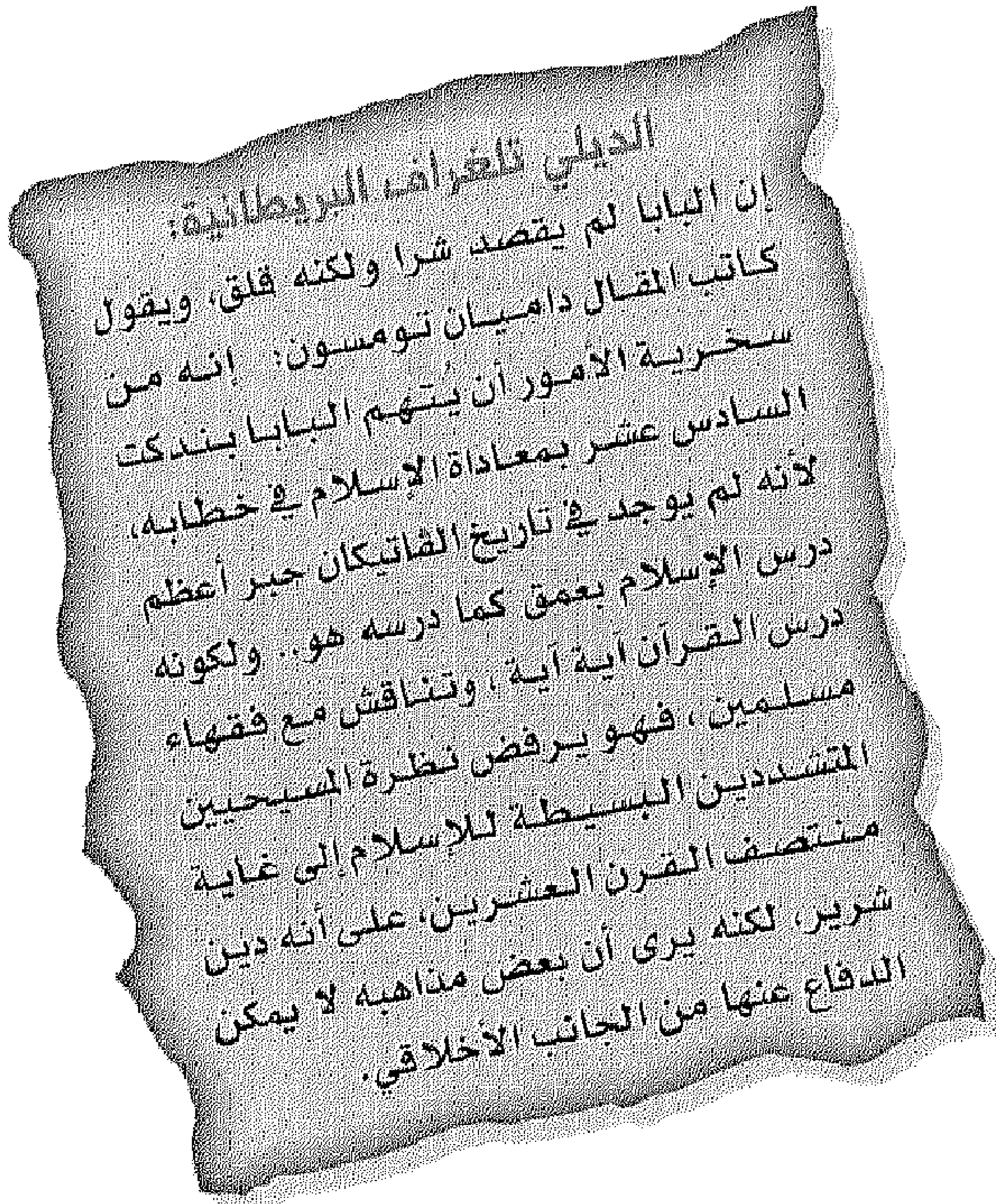
من منحى آخر، لدى بعض المسيحيين العرب، كاثوليك وغير كاثوليك، فهم معمق وتقدير كبير للإسلام والمسلمين، وبمقدورهم أن يسدوا للبابا نصائح مجزية. في وسع شخصيات موقرة ومنصفة مثل الأسقف ميشيل صباح والمطران جورج خضر أن يمنحوا بنديكت السادس عشر فهما معمقا للإسلام والمسلمين. هناك أيضاً مستشرقون كاثوليك من غير العرب يستطيعون أن يؤمّنوا له عوناً مفيداً في المسائل الإسلامية. من ضمن هؤلاء، أذكر موريس بورمانس، ميشيل لاجارد، إتيان رينو، وتومس ميشيل.

في أزمنة الحروب والصراعات، ينزع البشر إلى الثقة في آراء من يدفعهم إلى خشية أعدائهم ويعينهم على حشد طاقاتهم ضد هؤلاء الأعداء. غير أنه لا يعين بنديكت السادس عشر، كما لا يعين عالماً موجعاً، أن يقول واحد ممن يثق فيهم في مسائل الإسلام أشياء من قبيل:

«يريد بنديكت أموراً أكثر أساسية: ليس المهم هو اللاهوت، أقله ليس في هذه المرحلة من مراحل التاريخ؛ المهم هو حقيقة أن الإسلام الدين الأكثر نمواً، وأنه يغدو تدريجياً خطراً يهدد الغرب والعالم. مكمن الخطر ليس في الإسلام بوجه عام، بل في رؤية بعينها في الإسلام لا تصرح إطلاقاً بمناوءة العنف بل تولد العنف والتعصب.»(6)

أو، يقول، وهذا أسوأ:

«يتعرض الغرب ثانية للحصار. إنه يتعرض له بشكل مزدوج. ذلك أنه فضلاً عن الهجمات الإرهابية، هناك شكل جديد من أشكال الغزو: هجرة مصاحبة



(6) When Civilizations Meet: How Joseph Ratzinger Sees Islam It was written for and published by .Asia News.. by Samir Khalil Samir, S.J. www.chiesa, Roma, September 25, 2006.
http://www.chiesa.espressonline.it/dettaglio.jsp?id=53826&eng=y

بخصوبة عالية. دعونا نأمل، تأسياً بمثال الأب المقدس الشجاع في هذه الأزمنة الصعبة، أن يكون هناك حوار موضوعه مذاهب المسيحية والإسلام الحقيقية.»(7)

هذه رؤى غاية في الخطورة، وهي لا تورث سوى المزيد من الحروب والصراعات. إنها الطرف المقابل والصورة المنعكسة لآراء الإرهابيين الزاعمي الإسلام.

يتوجب على المسيحين والمسلمين على السواء الحذر من مثل هذه الرؤى المانوية المستقطبة، وعليهم العيش وفق رؤية واضحة معمقة وعادلة بحيث يسهمون في تحسين الموقف المؤسي الذي يعاني منه كلاهما.

لكل هذا، من المهم أن يقوم علماء المسلمين والعلماء غير المسلمين الجادون والمنصفون بالخوض مع البابا في نقاش أكاديمي وفكري من الضرب الذي يشيد به في مستهل محاضرته:

«في كل فصل دراسي، كان هناك يوم جامعي، يمثل فيه أساتذة من كل كليات الجامعة أمام طلابها، يمارسون خبرة جامعة حقيقية - شيء ذكرته لتوك أنت أيضاً، أيها المهيب ريكتور. إنها خبرة لحقيقة أنه رغم تخصصاتنا التي تصعّب أحيانا من عملية التواصل المتبادل، فإننا نؤلف كلاً واحداً، يجعلنا نعمل كل شيء تأسيساً على عقلانية مفردة ذات جوانب متعددة ونتحمل مسؤولية التوظيف الصحيح للعقل. لقد أضحى هذا الواقع خبرة معاشة.»

يستبان أن بنديكت السادس عشر يثمن الخبرة «الجامعة» عبر مواجهة الآخرين بشكل دوري. إنه يرى بوضوح كيف أن التخصص قد يفضي إلى تضييق خطر يغلق آفاق التواصل الحقيقي. وتماماً كما أن هناك «جامعات» مؤسسة على بشرية وعقلانية مشتركة، ثمة أيضاً جامعات موحدة مؤسسة على اعتقاد مشترك في الله الواحد الحق. من المهم أن يبدي المسيحيون والمسلمون، رغم (بل بسبب) تفانيهم المكرس لدينهم، احتراماً متبادلاً ويسهمون في حوار من أجل الله الواحد الحق. يتعين أن يصبح هذا الحوار خبرة معاشة تقرّب من السلام العالمي.

كان أجدر لبنديكت السادس عشر أن يستمع الى علماء الكلام الإسلامي أنفسهم فيما يتعلق بمعتقداتهم بخصوص الله.

بعد ذلك ينوه بنديكت السادس عشر بأهمية البحث والنقاش حول عقلانية الإيمان، وأهمية أنه حتى في مثل هذا البحث والنقاش، يتعين أن نذهب إلى حد اعتبار الارتيابية المتطرفة والخوض فيها. «حتى في مواجهة مثل هذه الارتيابية المتطرفة، يظل من الضروري والعقلاني أن تثار مسألة الله عبر استخدام العقل، والقيام بذلك في سياق موروث الإيمان المسيحي: لقد كان هذا، ضمن الجامعة ككل، أمرا مسلما به دون جدل.»

التسليم بأهمية مثل هذا البحث والنقاش إنما يشكل ذات أساس مجال الدراسات الإسلامية المكثف والمعمق الذي يسمى «علم الكلام»، أو اللاهوت الإسلامي المنتظم. الحال أن الكثير من أعمال علماء الكلام تبدأ باعتبار مكثف لموقف المرتابين عبر تكريس صحة البحث عن مبررات تعزز الإيمان الديني. لقد لاحظ كل علماء الكلام العظام حقيقة أن النقاش والحجاج والخلاف مع الآخرين أمور لا تستقيم إلا

(7) Is Dialogue with Islam Possible? Some Reflections on Pope Benedict XVI's Address at the University of Regensburg. by Joseph Fessio, S.J.. Ignatius Insight. September 18, 2006
http://www.ignatiusinsight.com/features2006/jfessio_reflections_sept06.asp

تأسيساً على عقلانية بشرية مشتركة تشكل كينونة «جامعة علمياً».

تعج كتب علم الكلام بالنقاشات المكثفة والمبررة مع المرتابين، والملاحدة، وأشياع النزعة الطبائعية، والمسيحيين، واليهود، والزرادشتيين، والبوذيين، والهندوس، والأرسطيين، الأفلاطونيين، وجمع آخر من الأديان والمذاهب الفلسفية. المؤسف أن تثمين بنديكت للنقاش المؤسس على «جامعة علمياً» لا يسري فيما يبدو على الإسلام والمسلمين. فرغم حقيقة أن الكثير من العلماء المسلمين والمؤسسات الإسلامية استجابوا بشكل إيجابي لانفتاحية الكنيسة الكاثوليكية التي تكرست حديثا للحوار معهم (كما عبّر عن ذلك في وثائق الفاتيكان II)، وبذلوا جهداً متميزاً في الكثير من الحوارات، يبدو أن بنديكت السادس عشر يعتقد (وفق ما يستبان في أجزاء لاحقة من محاضرته) أن مثل هذا الحوار العقلاني ليس ممكنا إلا ضمن تدابير أوربية/مسيحية/هلينستية.

بعد استهلاله المنصف إلى حد، يركن بنديكت فجأة إلى تركة جد مقلقة:

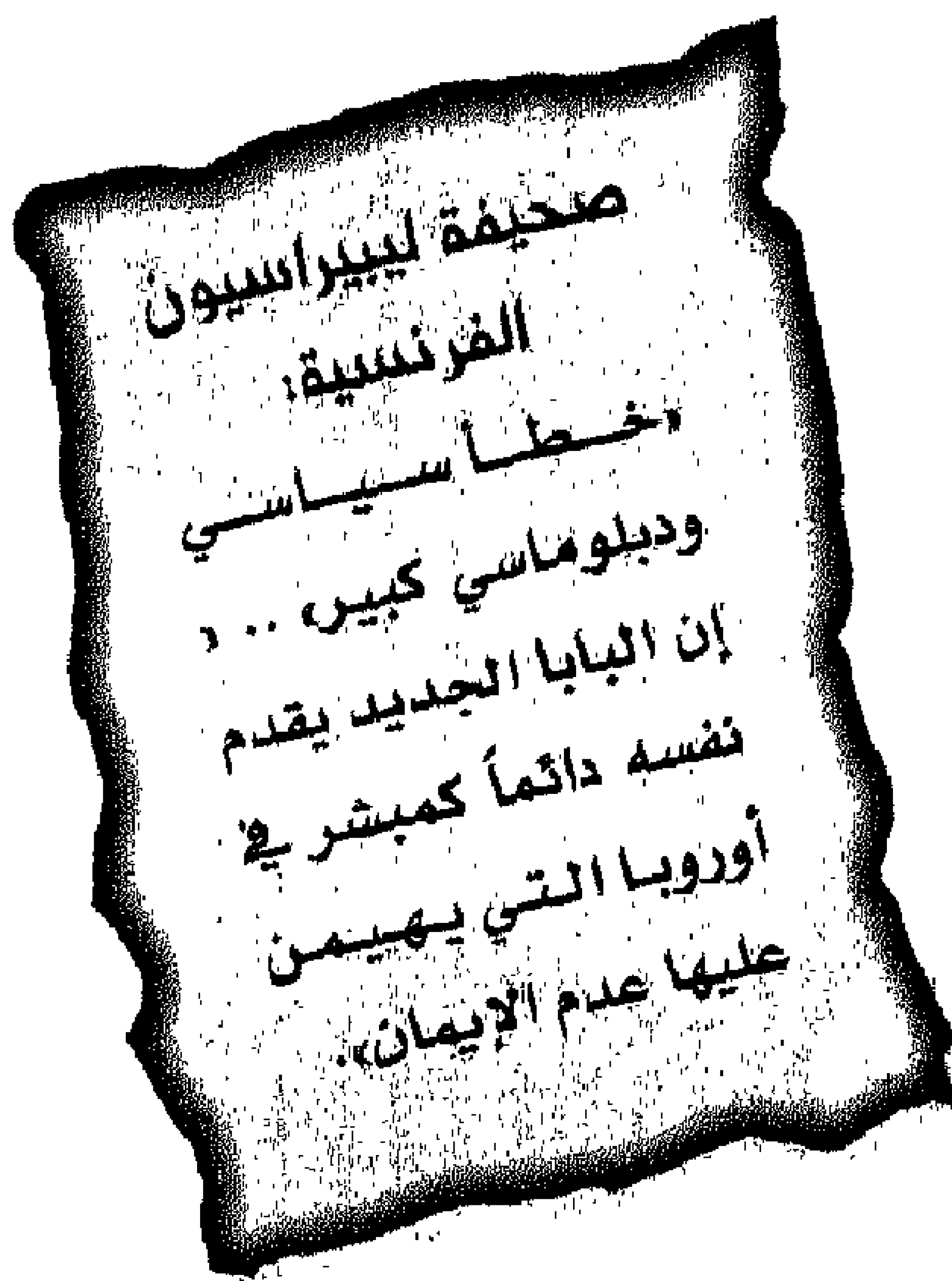
«لقد ذكرت بكل ذلك في فترة متأخرة حين اطلعت على منشور البروفيسور ثيودور خوري (من جامعة مونستر) لجزء من حوار - ربما جرى عام 1391 في الثكنات العسكرية الشتوية على مقربة من أنقرة - بين الإمبراطور (البيزنطي) العالم مانويل الثاني باليولوغوس، ومثقف فارسي حول موضوع المسيحية والإسلام، والحقيقة المتضمنة في كل منهما.»

لا يتضح كيف «ذكّر» حوار باليولوغوس البابا «بكل ذلك». لقد كان بودي أن أعتقد أنه ذكّره بقيمة النقاش العقلاني، المؤسس على بشرية مشتركة، وبحقيقة أن مسيحياً ومسلماً كانا يجريان حواراً عقلانياً حتى أثناء الحصار. غير أن المؤسف أن التأويل الأرجح هو أن بنديكت السادس عشر قد ذكّر بالعلاقة الحميمية المفترضة بين الإيمان المسيحي والعقل عبر فرضية أن مسيحياً، واجه مسلماً عنيفاً، يظل يركز على مماهاة إيمانه بالعقل.

استهلال بنديكت السادس عشر بحالة «حصار» إنما يبعث مشهد حصار القسطنطينية، بكل تداعياته الرمزية:

«لعل الإمبراطور نفسه هو الذي سجل ذلك الحوار خلال حصار القسطنطينية بين عامي 1394 و1402؛ ولعل هذا يفسر علة التركيز على تفاصيل حججه، دون اهتمام لافت بحجج محاوره الفارسي. يتسع الحوار بحيث يتطرق إلى البنى العقائدية في الإنجيل والقرآن، غير أنه يتمحور خصوصاً حول صورة الله والإنسان، ناكصاً حال الضرورة إلى العلائق القائمة بين ما كان يسمى بـ«الشرائع الثلاث»: العهد القديم والعهد الجديد والقرآن. ليس بودي في هذه المحاضرة سوى مناقشة أمر واحد - كان هامشياً نسبة إلى مجمل الحوار؛ إنه سياق «الإيمان والعقل»، الذي أجده مثيراً ويمكن توظيفه نقطة بدء لتأملاتي في هذه المسألة.»

الغريب أن بنديكت السادس عشر ينتقي أمراً يسلّم «بهامشيته» من حوار وسيط يكتنفه الغموض، دوّن في لحظة تاريخية استثنائية وموتورة، كي يعثر على «نقطة بدء» لتأملاته في «العقل والإيمان». غير أنه



بمقدور المرء أن يتخيل عدداً لا يحصى من نقاط البدء الأكثر مباشرة ووجاهة.

لقد كان في وسع بنديكت السادس عشر أن يفيد من العديد من نقاط البدء البديلة لتبليغ رسائله الأساسية عن الإيمان والعقل، دون الحديث عن إسلام مشوه أشبه ما يكون برجل القش. الرابط بين الحوار الوسيط ومفاد المحاضرة الأساسي واه وقصي؛ الحال أن إثارة هذا الحوار إنما تفسد بالضرورة علاقة المسيحيين بالمسلمين. يحدث ذلك في وقت نحن في أمس الحاجة إلى توثيق عرى هذه العلاقة.

بعد ذلك، ومن بين كل أجزاء كتاب الإمبراطور، يؤثر البابا التركيز على الجزء المتعلق بالحرب المقدسة أو الجهاد:

«في المحادثة السابعة (من الجدل) التي حررها البروفسور خوري، يتطرق الإمبراطور إلى موضوع الحرب المقدسة. من المؤكد أن الإمبراطور كان يعرف الآية القرآنية التي تقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [سورة البقرة: الآية 256]

وفق رأي الخبراء، هذه إحدى السور القرآنية المبكرة، حين لم يكن لمحمد حول ولا قوة وكان واقعا تحت طائلة التهديد. وبطبيعة الحال، فقد كان الإمبراطور يعرف التعاليم التي تطورت لاحقا ورصدها القرآن فيما يتعلق بالحرب المقدسة.»

من المثير أيضا أن بنديكت، بالركون إلى سلطة «خبراء» مجهولي الهوية، ينكر الحكم القرآني البين والقيمي، والذي يقر «لا إكراه في الدين»، عبر الزعم بأن محمداً ﷺ لم يتبن هذا الحكم إلا في عهد الهوان.

وعوضا عن الاحتفاء بهذا الحكم، وتحدي المسلمين بأن يسموا إليه، ينكر البابا مصدراً إسلامياً مهما للعقلانية والسلام بأن يعتبره موقفاً إسلامياً متكلفاً لم يتم تبنيه إلا بسبب حالات ضعف مؤقتة. هذا أمر جد مؤسف. ذلك أنه لم يتم التخلي إطلاقاً عن الآية التي تقول إنه لا إكراه في الدين، بل ظلت دائماً ملزمة.

لدى بعض المسيحيين العرب، كاثوليك وغير كاثوليك، فهم معمق وتقدير كبير للإسلام والمسلمين، وبمقدورهم أن يسدوا للبابا نصائح مجزية.

الحال أنه لم يحدث إطلاقاً عبر تاريخ التشريع الإسلامي إجازة إرغام الناس على دين لم يكونوا يدينون به. لقد كانت هذه الآية الحاسمة أساسا للتسامح الذي جسده المسلمون عياناً إزاء المسيحيين واليهود الذين عاشوا بين ظهرانيهم. خطر جداً إذن أن ينكر البابا آية قرآنية شكلت في واقع الأمر، وتظل تشكل، ضماناً تشريعياً وتاريخياً.

فضلاً عن ذلك، فإن الزعم المثبط الذي يقره بنديكت السادس عشر، أن محمداً ﷺ كان يغير بطريقة نزوية مبادئ وتعاليم تشريعية، وفقاً على حال ضعفه وقوته، ليس سوى صدى لرؤى متغرضة ظلت تظهر المرة تلو الأخرى على السطح في الخطابة المسيحية والغربية ضد الإسلام. لقد كان بمقدور نصيحة أكثر حكمة وإنصافاً أن تربأ ببنديكت عن تبني مثل هذه المواقف المغرضة.

صحيفة (الموندو) الإسبانية:

«في الحادث نكسة للتسامح بين الديانات، وقد تطلب الأمر وقتاً قبل أن يتوصل البابا السابق (يوحنا بولس الثاني) إلى التخفيف من حدة التناقضات بين الديانات الرئيسية، وفي ما يتعلق بالإسلام، فإن البابا الحالي أفسد في كلمة واحدة كل عمل سلفه».

ولا ريب أن صورة النبي الانتهازي، التي يثيرها بنديكت السادس عشر على نحو عابر، موجعة ومسيئة للمسلمين. ماذا كان له أن يشعر لو أن المسلمين قالوا إن الكنيسة المسيحية لم تبد تسامحا إزاء المسلمين واليهود إلا بعد أن فقدت سلطتها في أوربا، وأن هذا التسامح أقرته دول علمانية ولم تضمنه الكنيسة، وإن زعمت الكنيسة بشكل انتهازي خلاف ذلك. من المرجح أن يثير هذا القول مواجع وإساءات أحسسنا بها نحن المسلمين حين زعم أن نبينا انتهازي لا يدعو إلى شيء حال هوانه، إلا كي يدعو إلى خلافه حال سطوته.

بعد ذلك، يضيف بنديكت السادس عشر قوله: «ودون خوض في التفاصيل، هذا ما يشكل الفرق في التعامل مع «أهل الكتاب» و«الكفار»...»

مرة أخرى، ينكر بنديكت السادس عشر بطريقة غريبة، وعلى نحو عابر، مصدراً إسلامياً آخر للتسامح مع المسيحيين واليهود. لقد ميز الإسلام دوما بين «أهل الكتاب» (المسيحيين واليهود)، والوثنيين، حيث ضمن دوماً لأهل الكتاب الذين يعيشون في مجتمعات إسلامية حق العبادة في سلام تأسيساً على هذا التمييز الحاسم. من المهم أن نلحظ أن بعض خطابات الكره التي تبناها إرهابيون يزعمون الإسلام قد بذلت جهدا مضنيا في تقويض التمييز بين المسيحية والوثنية (بوصف المسيحيين «عبدة الصليب») بغية إزالة الحصانة التشريعية التي تحظى بها المسيحية واليهودية في ظل التشريع الإسلامي. يبدو أن بنديكت السادس عشر يضمّن أن مثل هذه التمييزات ليست أساسية، وأنها لا تسهم إلا في التعتيم على روح الإسلام المعادية للتسامح.

بعد ذلك، يقتبس بنديكت السادس عشر أحد أكثر

«الإسلام في تصوري وكما يراه أحد الأوروبيين المسلمين كمثل نموذج هندسي بديع كامل يكمل كل جزء من أجزائه بقية الأجزاء الأخرى، ويكمن سر جماله في انسجام هذه الأجزاء وتلاؤمها. وهذه الخاصية الإسلامية هي التي تمارس تأثيرها العميق في النفس الإنسانية. فإذا تأملنا تصور الإسلام العميق لعموم الأشياء والأهداف والدوافع والأفعال وتفسيراته للحكمة الإسلامية فإن ذلك يثير دهشتنا، وإذا نظرت إلى أحكام الإسلام وتفصيلاته وجدت فيها خير هاد لحياة اجتماعية نظيفة تنبثق من قيم خلقية صحيحة. فالمسلم مثلاً يذكر اسم الله في مبدأ كل عمل، ومن هنا يتم الترابط بين حياته اليومية ودينه فتتزن الحياة وتنسجم».

«يعيش العالم الغربي اليوم في ظلام، وليس هناك أي بصيص من الأمل في قيام الحضارة الغربية بتوفير سبيل لتخليص الروح والنفس، فكل من يراقب الوضع الحقيقي للمجتمعات يلمس هذا القلق والحيرة العالمية التي تختفي خلف بريق التقدم والإبداع المادي الزائف. فالناس في الغرب (والشرق) يبحثون عن مخلص من العقبات التي تحيط بهم. ولكنهم لا يرون منها مخرجاً، وليس أمامهم إلا أن يواصلوا سيرهم نحو جحيم الفناء والكارثة. والانسجام اللطيف في الإسلام بين مستلزمات الجسد ومتطلبات الروح يمكن أن يمارس تأثيراً قوياً في أيامنا هذه. وبوسعه أن يبين للحضارة الغربية السبيل المؤدي إلى الفلاح والخلاص الحقيقيين، وأن يقدم للرجل الغربي التصور الحقيقي للحياة، وأن يقنعه بالجهاد في سبيل مرضاة الله، مما من شأنه أن يضمن له الفوز في الآخرة .. نسأل الله أن يقدر لنا النجاح في الحياة الدنيا والآخرة».

اللورد هولي

فقرات خطاب الإمبراطور مدعاة للقلق:

«... يوجه الإمبراطور إلى محاوره بأسلوب فظ مروع، وعلى نحو أدهشنا جميعاً، السؤال الأساسي حول العلاقة بين الدين والعنف بوجه عام؛ قائلاً: «أرني ما جديد محمد؛ إنك لن تجد سوى الشرير وغير الإنساني، من قبيل أمره بنشر الإيمان الذي يبشر به بحد السيف.»

التراجيدي أن بنديكت، بإيقاظه نص الكره هذا من سباته التاريخي، إنما يفشل في النأي بنفسه عن رأي المؤلف الأصلي. إنه يستخدم هو نفسه ألفاظاً من قبيل «فظ»، «أدهشنا»، و«عبر عن نفسه بقوة». غير أنه لا واحد من هذه التعبيرات يشكل حكماً سلبياً أو رفضاً لرأي المؤلف الأصلي. الحال أنها قد تفهم على أنها تشي بدعم خفي لشجاعة مفترضة قد تكون متهورة بعض الشيء.

التايمز:

«العالم يسمع بحرص الكلمات التي يقولها البابا، وأنه لأمر مأساوي وخطير عندما يبذر أحدهم الألم سواء كان بقصد أو بلامبالاة.. إنه في حاجة أيضا لتقديم اعتذار قوي ومقنع يظهر أن الكلمات يمكن أيضا أن تعالج الجروح.. إن هذه لم تكن هي المرة الأولى التي يزرع فيها البابا بنديكت الخلافات بين المسلمين والمسيحيين. فهو عندما كان كبير علماء اللاهوت في الفاتيكان صرح عام 2004 م ضد انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي لأنها دولة مسلمة.. ويبدو أن أكثر ما يخيف (البابا) كعقائدي محافظ هو ضياع الهوية الكاثوليكية الموحدة، وهو بالتحديد ليس أفضل نقطة تساعد على التسامح أو الحوار بين الأديان».

لدى بعض المسيحيين العرب، كاثوليك وغير كاثوليك، فهم معمق وتقدير كبير للاسلام والمسلمين، وبمقدورهم أن يسدوا للبابا نصائح مجزية.

حين يقوم شخص بإشارة غير مبررة لنص يكتنفه الغموض يعبر عن أشياء بغيضة، يلزمه أخلاقياً أن يفسر لماذا استطرد فأشار إليه، قدر ما يلزمه الرد عليه، وإنكار البغض المعبر عنه فيه. خلافا لذلك، لنا أن نفترض أن الشخص الذي يشير إلى النص المسيء يعنيه تماما، بل ويشارك في تبني رؤيته.

الزعم بأنه لم يكن هناك قصد للإساءة، وأن المسلمين لم يفهموا النص، إنما يجعل الأمور أكثر سوءاً. هذا هو السبب الذي جعل الكثير من المسلمين يعتبرون «شبه الاعتذار» الذي قدمه بنديكت السادس عشر غير مناسب. كل التصريحات التي صدرت، حتى عن الفاتيكان، بما فيها خطاب بنديكت السادس عشر نفسه، إنما تأسف لحقيقة أن المسلمين أساءوا فهم محاضرة البابا واستجابوا بشكل سيئ لها.

إن هذا الأسلوب إنما يتهم المسلمين بعوز الفهم والغلو في الاستجابة؛ وعوضاً عن أن يعترف بالإساءة التي سببها، فإنه يلقي باللائمة على المساء إليهم لكونهم أخطأوا في فهم الإساءة! ولسوء الحظ، اعتبر الكثير من المسيحيين الخلص رفض المسلمين «لشبه الاعتذار» وردود أفعال المسلمين العاطفية لما قيل في حق نبيهم ﷺ دليلا على صحة رأي البابا وموقفه الشجاع.

يضيف بنديكت:

«وبعد أن عبَّر الإمبراطور عن نفسه بقوة، يشرح

بالتفصيل الأسباب التي تجعل من نشر الإيمان بحد السيف مسلكاً تعوزه العقلانية. إن العنف لا يتسق بحال مع طبيعة الله، ولا مع طبيعة الروح؛ «فالله لا يحب سفك الدماء»، يقول الإمبراطور، «والتصرف غير العقلاني مُناقض لطبيعة الله». إن الإيمان ينبع من الروح لا الجسد. بيد أن الذين يرغبون في نشر الإيمان، «يحتاجون إلى قدرة على الفصاحة، والتأمل العقلي، دون عنف أو تهديد فمن أجل إقناع روح عاقلة، لا يحتاج المرء إلى ذراع قوية، أو سلاح من أي نوع، كما لا يحتاج إلى تهديد حياة أي إنسان».

المثير أنه لو أننا رجعنا إلى أي تفسير للقرآن جدير بالثقة كي نبحث عن معنى الآية «لا إكراه في الدين»، سوف نجد تفاسير تشبه إلى حد كبير ما يقره الإمبراطور بخصوص كون القلب أو الروح منزل الإيمان. في كل رسائل علماء الكلام المسلمين جزء يخصص للحديث عن الإيمان، وثمة إجماع على أنه يكمن في القلب أو الروح، وأنه لا إكراه جسدي يمكن أن يؤثر فيه.

من المثير أيضاً أن نلحظ أن بنديكت السادس عشر كان لعدة سنين «ولي الإيمان» في الكنسية الكاثولوكية. غير أن «ولي الإيمان» ليس سوى صيغة حديثة لمحاكم التفتيش، التي يندر احترامها لقداسة القلب البشري في مسائل الإيمان. المؤسي أن الكنيسة، خصوصاً في أسبانيا، استخدمت ضد المسلمين واليهود أساليب تعذيب واعتداءات جسدية لتنصير المسلمين واليهود، وإكراههم على دين غير دينهم. الراهن أنه لم يحدث إطلاقاً أن قامت محاكم التفتيش بالعمل بنصيحة الإمبراطور التي تقول إنه «من أجل إقناع روح عاقلة، لا يحتاج المرء إلى ذراع قوية، أو سلاح من أي نوع، كما لا يحتاج إلى تهديد حياة أي إنسان.» يبدو أنه بمقدورنا جميعاً أن نفيد من هذه النصيحة.

إن القرآن يلزم المسلمين بأن يدعوا إلى طريق ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلوا بالتي



ايزابيلا وفرديناند يدخلان غرناطة (رسم تاريخي)

هي أحسن. ليس هناك في الإسلام ما يبرر تعذيب البشر كي يدينوا بغير دينهم. في أندونيسيا وماليزيا من المسلمين ما يفوق عددهم في البلدان العربية مجتمعة. غير أنه لم يدخل إلى أي منهما جيش عسكري واحد. فكيف انتشر الإسلام فيهما؟

على ذلك، لن نكون صادقين بل سذجاً لو قلنا إنه لم يقم جيش إسلامي بغزو أي أرض. بيد أن فتح أرض يمكن أن يعبد فيها الله بحرية لا يعني إرغام أهلها على الإيمان «بحد السيف». آية ذلك أنه نادراً ما ترجمت غزوات المسلمين إلى إكراه في الدين. البينة على هذا بينة: فلقد هيمن المسلمون على أراض تعيش فيها أقليات مسيحية. فكم مسلم أو يهودي بقي في أسبانيا

« ليس الإسلام مجرد شكل ، ولا هو مجرد شعائر دينية تتفاوت درجات أصحابها في العمل بها ، ولكن الوصف المميز للإسلام هو أنه دين عالمي معمول به أكثر من أي دين غيره».

المسيو جورج رو

بعد أن استعادها الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا؟

المثير أن المسلمين، بوصفهم مهاجرين، لم يتمكنوا من دخول أوروبا إلا بعد قيام دول علمانية متعددة الثقافة في بلدانها. أكان لهذا أن يحدث لو كان الأمر بيد الكنيسة الكاثوليكية؟ الحال أن بنديكت السادس عشر اشتهر هو نفسه برفض طلب تركيا أن تصبح جزءاً من أوروبا لمجرد كونها تفتقد المؤهلات الدينية والثقافية المناسبة.

في تصريحات فاتيكانية سابقة، كان يطلب من المسلمين أحياناً أن يتغاضوا عن الماضي (حين يتعلق الأمر بمحاكم التفتيش أو الحملات الصليبية). في الإسلام، الاعتراف والندم شرطان مسبقان للتوبة والغفران. غير أن بنديكت السادس عشر، بإشارته، على نحو يفترض تفوقا أخلاقياً، تهماً مفتراة وجهها إمبراطور غبر عهده، لا يأبه إطلاقا لاستخدام التعذيب، والسلوكيات الوحشية، والعنف عبر تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، ليس فقط ضد المسلمين، بل ضد اليهود، وحتى إخوانهم المسيحيين.

يبدو أن بنديكت السادس عشر يعتقد أن مثل هذا الحوار العقلاني ليس ممكنا إلا ضمن تدابير أوروبية / مسيحية / هلينستية.

الواقع أن العنف الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكية، أو قامت بدعمه، يتواصل حتى الأزمنة الحديثة عبر دعم الغزو الاستعماري الأوربي لبقية العالم. الحملات التبشيرية، خصوصاً اليسوعية، ترافقت يداً بيد مع المستعمرين في الأمريكتين، وأفريقيا، وآسيا. في موطني ليبيا، كانت الجيوش وفرق الموت الفاشية الإيطالية تحظى بمباركة السلطات الكاثوليكية المحلية في المربع الكاتدرائي قبل أن تقوم بالبحث عن رجال المقاومة الليبية للقضاء عليهم. حدث هذا في عهد قريب، قرب ثلاثينات القرن الفائت. الجنود الإثيوبيون الذين جندهم الفاشست على جبهة الجيوش الإيطالية كانوا يحملون صلباناً حمراء كبيرة على صدورهم، تماماً كما فعل فرسان القديس يوحنا حين هاجموا سكان طرابلس في القرن السادس عشر.

صورة المسيحية الهلينستية «العقلانية»، التي لا تمارس العنف والتي تقابل بالإسلام العنيف غير العقلاني، مركزية في محاضرة بنديكت السادس عشر. إن هذه الصورة عن الذات إنما تفترض بشكل مدهش تفوقاً أخلاقياً، وتتغاضى عن حقائق تاريخية موجعة كثيرة. من المهم جدا لعالمنا أن نشرع في رؤية القذى الذي تعاني منه أعيننا، عوضاً عن التركيز على شوائب أعين الآخرين.

يضيف بنديكت السادس عشر:

«القضية الحاسمة في هذه الحجة ضد الإرغام على الإيمان باستخدام العنف هي التالية: عدم التصرف وفق مفليات العقل مسلك يناقض طبيعة الله. وكما يلاحظ المحرر، البروفيسور خوري: عند الإمبراطور، كونه بيزنطيا تربى في كنف الفلسفة الإغريقية، هذا قضية بينة بذاتها. أما في تعاليم الإسلام فإن الله سبحانه متعال علواً مطلقاً. إرادته ليست مقيدة بأي شيء آخر بما فيها قيود العقل نفسه. هنا يقتبس خوري من عمل العالم الإسلامي الفرنسي الشهير ر. أرنالديز، الذي ذكر أن ابن حزم (الأندلسي) ذهب إلى حد القول بأن الله ليس مقيداً حتى بكلامه، وأنه لا يلزمه شيء بتبليغ الحقيقة لنا. لو كانت مشيئة الله أن نعبد الأوثان، للزمتنا عبادتها.»

قضية بنديكت السادس عشر الحاسمة: «عدم التصرف وفق مفليات العقل مسلك يناقض طبيعة الله». هذه قضية غاية في التركيب، وهي حمالة أوجه وقابلة للعديد من التأويلات والنقاشات. المدهش هو يسر استخدامها في عقد تقابل باطل، ومقلق إلى حد

كبير، بين مسيحية عقلانية محبة للسلام وإسلام لاعقلاني محب للعنف!

مبرر هذا اليسر أن مثل هذا التقابل شهير ومقتبس مما يمكن تسميته «بجداول التقابل» التي يركن إليها غالباً وعلى نحو يسرف في التبسيط في بعض السياقات التبشيرية والخطابية. مفاد فكرة هذه الجداول وضع المسيحية على رأس قائمة ووضع الإسلام على رأس أخرى. بعد ذلك يملأ الجدول بمثنويات من قبيل: الحب/القانون، السلام/العنف، التحرير/الاستعباد، تحرير المرأة/اضطهاد المرأة، وهكذا.

تذكرنا مثل هذه الجداول كما تتعلق بجداول الإثينيين، والرومان، وحتى المثاليين الألمان (الذين أثروا في البابا البافاري) التي غالبا ما تطور بحيث تعقد مقابلة بين «المتحضرين» و«الهمج»، بين «الأوروبيين» و«غير الأوروبيين».

لسوء الحظ، لم تسعف هذه الجداول أشياعها. إنها تمعن في التبسيط وتستحدث تقابلات على حساب الحقيقة والإنصاف. في الإسلام، تماماً كما في المسيحية، المخلّص الحقيقي ليس العقل البشري الحكيم، بل رحمة الله التي قدرها بمشيئته. ذلك أن هبة العقل واحدة من رحائم الله التي منحها للبشر.

بيد أنه يستحيل على العقل الذي وهبه الله أن يتعالى على الله. هذا مفاد مذهب ابن حزم، وهو مذهب أعيدت صياغته على نحو مشوه على أيدي المصادر التي تعلم منها بنديكت السادس عشر. إن ابن حزم، شأنه في هذا شأن علماء الكلام الأشاعرة الذين تجادل غالبا معهم، يصر على حرية الله المطلقة في فعل ما يريد. غير أن ابن حزم يلحظ، مثل معظم علماء الكلام المسلمين، أن الله يختار بحرية، رحمة بخلقه، أن يسلك بشكل عقلاني متسق، الأمر الذي يمكننا من توظيف عقولنا في الامتثال لترشيده وهديه.

إن ابن حزم، مثله مثل معظم علماء الكلام المسلمين، يقر أن الله لا يحده شيء، بما في ذلك العقل. غير أنه لم يزعم إطلاقاً أن الله لم يلزم نفسه، بمشيئته، بهذه الإلزامات. إن القرآن يعبّر صراحة عن هذا الإلزام الإلهي الذاتي حين يقول:

﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾
(سورة الأنعام، آية 54)

لا مدعاة لأن يتعالى العقل على الله، ولا لأن يكون العقل ملزماً له بشكل خارجي. قد يكون من رحمة الله أن يكون العقل ملزماً، بسبب مشيئة الله الحرة بالالتزام به.

لا مدعاة إذن لأن يكون المعتقد في هذه القضية الأخيرة كائنا تعوزه العقلانية أو الوجاهة، يؤمن بإله

الخطاب الذي نحن بحاجة إلى سماعه

« حتى منتقدو البابا يرون أنه لم يقصد الإساءة إلى المسلمين، لكن الخطأ الذي وقع فيه أنه لم يبد أي تحفظ تجاه نص الامبراطور الذي استشهد به .. كما أن البابا قال إن الآية التي أوردها تعود إلى الحقب الإسلامية الأولى، والأصح أنها تعود للسنة الرابعة والعشرين من النبوة، عام 624 أو 625، حيث كان الإسلام في المدينة وذا قوة وسلطة، وليس في موقف ضعف ».

ويقول البروفيسور كلاوس كونج الذي كان أحد زملاء البابا في جامعة توبينغن: إن راتسينغر (بنديكت) لم يقصد إيذاء المسلمين، فهو مهتم جدا بالحوار مع كل الديانات، ومن حقه الاستشهاد بمن يشاء، لكنه فعل ذلك دون القول إن كلام الامبراطور خطأ، وهذا يبين قدراته المحدودة في علم الدين.

كما يرى القس جوزيف فيزيو من جامعة أفي ماريا في نابولي أن (بنديكت السادس عشر) يؤمن بأن الإسلام لا يقبل التغيير، وبالتالي لا يتلاءم مع الديمقراطية ».

روث جليدهيل / التايمز

لاعقلاني أو نزوي! إن مقابلة المسيحية مع الإسلام على هذا الأساس ليست جائرة فحسب، بل مشكوك في أمرها كلية.

لنسلم بأن البابا يحاول جاهدا إقناع جامعة علمانية بأن لعلم اللاهوت موضعاً في مشهد مؤسس على العقل. لكن هذا لا يبرر بحال جعل الله عرضة لعقل ملزم بشكل خارجي. لقد حرص أغلب علماء اللاهوت المسيحيين المبرزين، بمن فيهم توما الأكويني المغرم بالعقل، على أن ينأوا بأنفسهم عن وضع العقل منزلة تعلو المنزلة التي يتنزلها الله.

وفق ذلك، حين يقوم علماء الكلام المسلمون بنقلة مشابهة، يتوجب ألا يتهموا باللاعقلانية أو عوز الوجاهة. إن سوء الفهم نتيجة مباشرة لجداول التقابل المعنة في التبسيط التي يبدو أن علماء من أمثال ثيودور خوري مغرمون بها.

يتعين على بنديكت إذن ألا يثق بخصوص آرائه في علم الكلام الإسلامي بأمثال خوري وسمير خليل سمير. ذلك أن رؤاهم في الإسلام والمسلمين غالبا ما تحيد عن جادة الإنصاف. قد لا يحبذ البابا استشارة مسلمين، وقد لا يثق حتى فيهم، كي يتعرف على تعاليم دينهم؛ بيد أنه يتوجب عليه على أقل تقدير أن يستشير علماء جادين ليسوا ضرورة من الأقلية المسيحية العربية أو من طائفة ضيقة من المستشرقين الكاثوليك.

بنديكت السادس عشر ينتقي أمرا يسلّم (بهامشيته) من حوار وسيط يكتنفه الغموض، دون في لحظة تاريخية استثنائية وموتورة

يواصل بنديكت قائلا:

«في هذه المرحلة، فيما يتعلق بفهم الله ومن ثم فهم الممارسة الفعلية للدين، نواجه مأزقا لا مناص منه. هل الاعتقاد بأن السلوك غير العقلاني يناقض طبيعة الله مجرد فكرة إغريقية، أم أنها فكرة صحيحة دائماً وبشكل أساسي؟»

مرة أخرى نجد أن أسلوب بنديكت السادس عشر في صياغة المسألة حمال أوجه وقابل لعدد كثير من أساليب التناول. المقام لا يتسع لتفكيك سؤال مشحون من هكذا قبيل، غير أنه يكفي أن نقول إن الحديث عن «طبيعة» الله حديث إشكالي في ذاته.

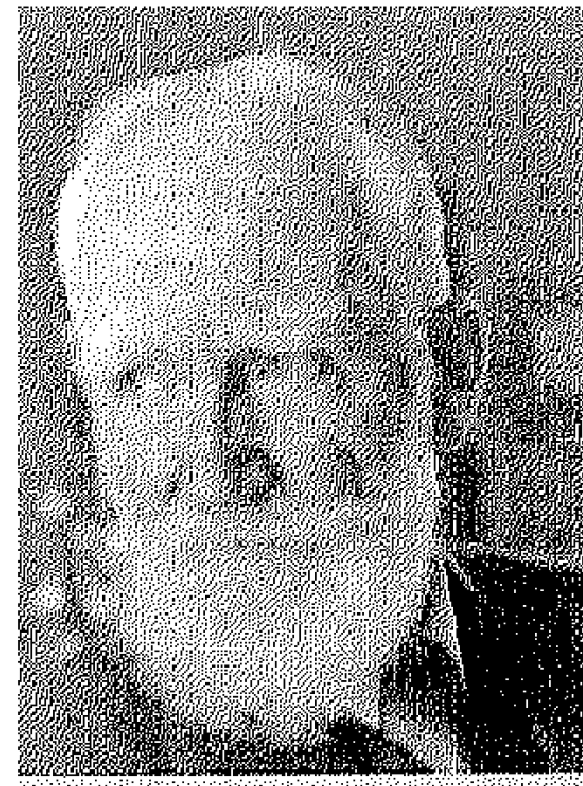
يسري هذا أيضاً على الحديث عن العقلانية واللاعقلانية. أي عقل هذا الذي نتحدث عنه؟ هل هو ملكة بشرية وظيفتها الفهم؟ إذا كان ذلك كذلك، فأي نوع من الفهم نقصد؟ من منحى آخر، هل العقل إدراك معرفي؟ هل هو عاطفي أو روحي؟ أم تراه نوعاً من الفاعلية أو الفيض يحظى بأسبقية أنطولوجية، كما حسب الأفلاطونيون المحدثون؟ أي نوع من العقل والعقلانية نتحدث عنه؟

تحتاج مثل هذه الأسئلة إلى المزيد من التأملات الأكثر عمقا. على ذلك، فإن غموض وإبهام كلمة «العقل» يمكنان بشكل مثير من القفزة المدهشة التي توحد بين اليوناني والمسيحي عبر الركون إلى الاستهلال الهلينستي في إنجيل يوحنا. وعلى حد تعبير بنديكت السادس عشر:

«أعتقد أننا نستطيع أن نستشعر هنا تناغما معمقا بين ما يشكل في اليونانية أفضل معاني الكلمة والفهم الإنجيلي للإيمان بالله. معدلا أول جمل سفر التكوين،

❖ أوروبا ومحمد ﷺ :

«إن أوروبا بدأت تحس بحكمة محمد ﷺ وبدأت تعشق دينه ..... وسيكون دين محمد ﷺ هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة .....».



برنارد شو

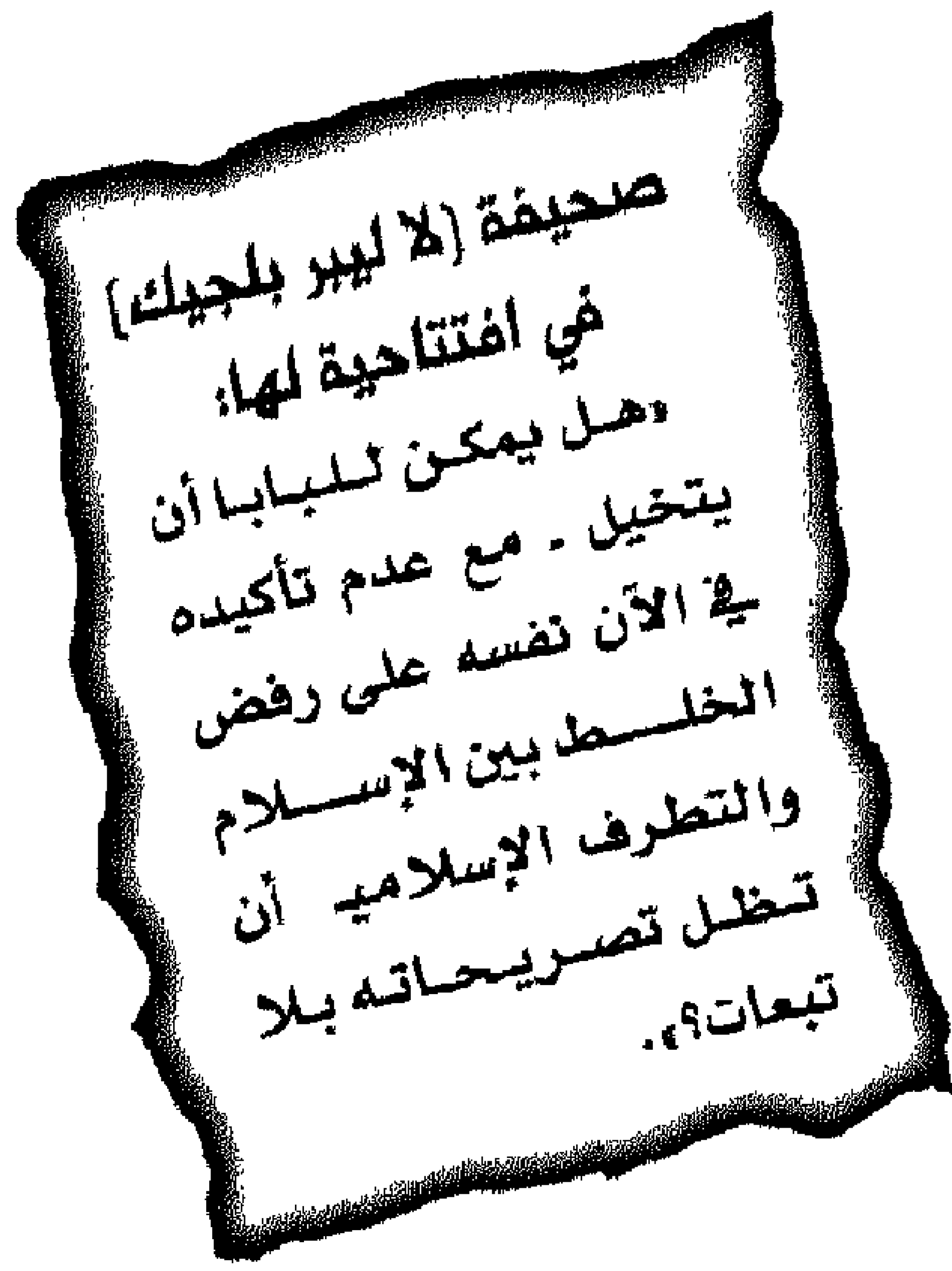
يستهل يوحنا إنجيله بقوله: «في البدء كانت الكلمة (اللوغوس)». هذه هي اللفظة نفسها التي استخدمها الأمبراطور. الله يعمل باللوغوس. اللوغوس يعني في آن واحد العقل والكلمة ـ العقل القادر، بوصفه عقلاً، على الخلق والتواصل مع الذات.»

نقترب هنا من الحصول على تعريف لما يعنيه بنديكت السادس عشر من العقل: «العقل القادر على الخلق والتواصل مع الذات». الراهن أن هذا قريب لما يتحدث عنه يوحنا. ولكن، هل هذا هو العقل الذي يتحدث عنه فلاسفة اليونان؟ في تقديري أنه ليس كذلك. لقد كان العقل عند معظمهم أكثر ارتباطا بالتأمل الخالص (theoria) منه بنشاط الخلق (poesis). فضلاً عن ذلك، عند معظم فلاسفة اليونان، فإن كونه كذلك هو ما يجعله حقيقة «تواصلاً مع الذات». العقل عند معظمهم قدرة بشرية لتلقي هذا الكائن المتواصل مع ذاته.

لذا، فإن رؤية بنديكت الموحدة الكلية، التي تؤلف بين اليوناني والمسيحي، لم تكن سوى نقلة مكنت منها كلمات ثرية ومشحونة من قبيل «اللوغوس» و«العقل». وبطبيعة الحال، فإن القيام بمثل هذه النقلات دأب غبر عليه الأقدمون ضمن مواريث اليهودية والمسيحية والإسلام، اللاهوتية، والتفسيرية والروحية على حد سواء.

لا ريب أن قدراً عظيماً من الخطاب الوسيط يرتهن على وجه الضبط بهذا النوع من القفزات التي تستثمر الألفاظ المشتركة. المفارق أن هذا التكتيك الوسيط يستخدم لتجسير هوة تفصل بين عقل الجامعة الألمانية العقلاني غير المشبوب بأية عاطفة، ولوغوس الكنيسة الكاثولوكية!

بعد ذلك يقر بنديكت السادس عشر حكماً هيجليا على نحو مدهش: «هكذا يقول يوحنا كلمة الإنجيل الفصل في مفهوم الله، وفي هذه المقولة تتلاحم على نحو مجهد وممض كل خيوط الإيمان الإنجيلي في مركب يتوجها.»



هكذا يزعم بنديكت السادس عشر أن يوحنا قد قال «الكلمة الفصل» في المفهوم الإنجيلي لله. أيضاً فإنه يقر زعماً هيجلياً مؤداه أن الإيمان الإنجيلي اتخذ سبيلاً «مجهداً» و«ممضياً» كي يتوج في مركب يوحني.

سوف أترك أمر التعليق على هذا الزعم لعلماء اللاهوت المسيحيين من مختلف الطوائف والمشارب. في ضوء القرائن المتراكمة للأبحاث التاريخ ـ نقدية في الأناجيل، من الغريب أن يظل في الإمكان إقرار مثل هذه الأحكام الخلافية بخصوص الإيمان المسيحي، الذي يفترض أنه قطع شوطاً طويلاً كي يتوج في مركب يونان ـ مسيحي.

إنني على يقين من أن علماء اليهود سوف يجدون بدورهم صعوبة في فهم الزعم الضمني بأن خيوط الإيمان التوراتية «مجهدة» و«ممضية»، وأنه لولا يوحنا ما كان لها أن تتوج في إيمان حقيقي نهائي. وفي حين يبدو التركيب والتتويج الهيجليان مثيرين عند أرباب النتائج التي تقوم بفعل التتويج، فلا ريب أنها تقلق من يمارس عليهم هذا الفعل.

بعد ذلك، مرة أخرى، ينتقل الحجاج إلى تأمل هيجلي، غير أنه هذه المرة يعرض دعاوى «أوروبية» على نحو خطر تطالب بمصادرة المسيحية:

«في البدء كان اللوغوس، واللوغوس هو الله، يقول القديس بولس. التقارب بين الرسالة الإنجيلية والفكر اليوناني لم يحدث مصادفة. بالمقدور تأويل رؤية القديس بولس، الذي وجد أن الطريق إلى آسيا قد سدت، ورأى فيما يرى الرائي في المنام أن رجلاً مقدونياً توسل إليه «أن يأتي إلى مقدونيا كي يساعدنا» (cf. Acts 16: 6-10)، على أنها «تجسيد» للضرورة الحتمية للتقارب بين الإيمان الإنجيلي والبحث اليوناني.»

يستخدم التقابل بين آسيا ومقدونيا هنا لتبرير الزعم الغريب بوجود «ضرورة حتمية» للتقارب بين الإيمان الإنجيلي والبحث اليوناني.

هكذا، فمع العقل الأوروبي وليس العقل الآسيوي توحدت المسيحية مع «البحث اليوناني». إن هذه اللغة الهيجلية إنما تعاني من نزعة المركزية الأوروبية التي تميز كثيراً من الفلسفات المثالية الألمانية، وهذه نزعة جد خطرة تقلل من شأن صيغ مسيحية غير يونانية وغير أوروبية (كما في لاهوت أمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا).

أيضا فإنها تعرض دعوى بامتلاك العقل بوجه عام، والعقل اليوناني بوجه خاص، بحيث تجعله مسيحياً خالصاً. وهكذا تنكر الحقائق التاريخية في الأنساق اليهودية ـ الهلينستية الخالصة، ناهيك عن غير الخالصة، (كما عند فيلون الإسكندرية)، والأنساق الإسلامية ـ الهلينستية (كما عند الفارابي، أخوان الصفاء، وابن سينا) بوصفها مستحيلة. وحدها المسيحية تتوحد مع اليوناني في تتويج أوروبي هيجلي يوحني.

لقد شيد المسلمون، مثل المسيحيين واليهود، من قبلهم ومن بعدهم، العديد من الأنساق الفلسفية واللاهوتية العميقة التي استهدفت التوفيق بين مزاعم العقل البشري وحقائق الوحي الإلهي. لم يكن ذكر الفلاسفة الذين أشرنا إليهم لتونا إلا على سبيل التمثيل. هكذا حاول علماء كلام المدارس المعتزلية، الأشعرية، الماتريدية، الإثنى عشرية، الإسماعيلية، الإباضية، وحتى الحنبلية التعبير عن إيمانها بأسلوب عقلاني قدر الإمكان. حتى كتب التدريس التمهيدية في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الإسلامي تبين هذا. الأعمال الجدلية والمنطقية التي أنجزها عبد الجبار، والأشعري، والباقلاني، والجويني، والغزالي، والرازي، الماتريدي، والنسفي، وابن رشد، وابن سبعين، فضلاً عن آخرين، إنما تشهد على انشغال المسلمين المعمق بالعقل والعقلانية حين يتطرق الأمر إلى التفصيل في المسائل الإيمانية. حتى أكثر الحنابلة تشدداً، ابن تيميه، أنجز أعمالاً مهمة في الأنساق المنطقية غير الأرسطية وقال بحجج ضد ـ أرسطية قريبة بتلك التي قال بها سكتوس إمبيركوس(8).

خطر جدا أن ينكر البابا آية قرآنية شكلت في واقع الأمر، وتظل تشكل، ضمانا تشريعيا وتاريخياً.

وفي ختام فقرة طويلة، تصلح ، تكون تقديماً لكتاب هيجل في «فلسفة الأديان» أو «فلسفة التاريخ»، يزعم بنديكت السادس عشر أنه:

«قد حدث تقارب معمق هنا بين الإيمان والعقل، تقارب بين التنوير الحقيقي والدين. لقد تسنى لمانويل الثاني، من صميم الإيمان المسيحي، وفي الوقت نفسه من قلب الفكر اليوناني، أن يقول: «ألا تسلك وفق ممليات «اللوغوس» هو أن تسلك ضد طبيعة الله.»

هكذا تضفى على الترجمة السبعينية اليونانية

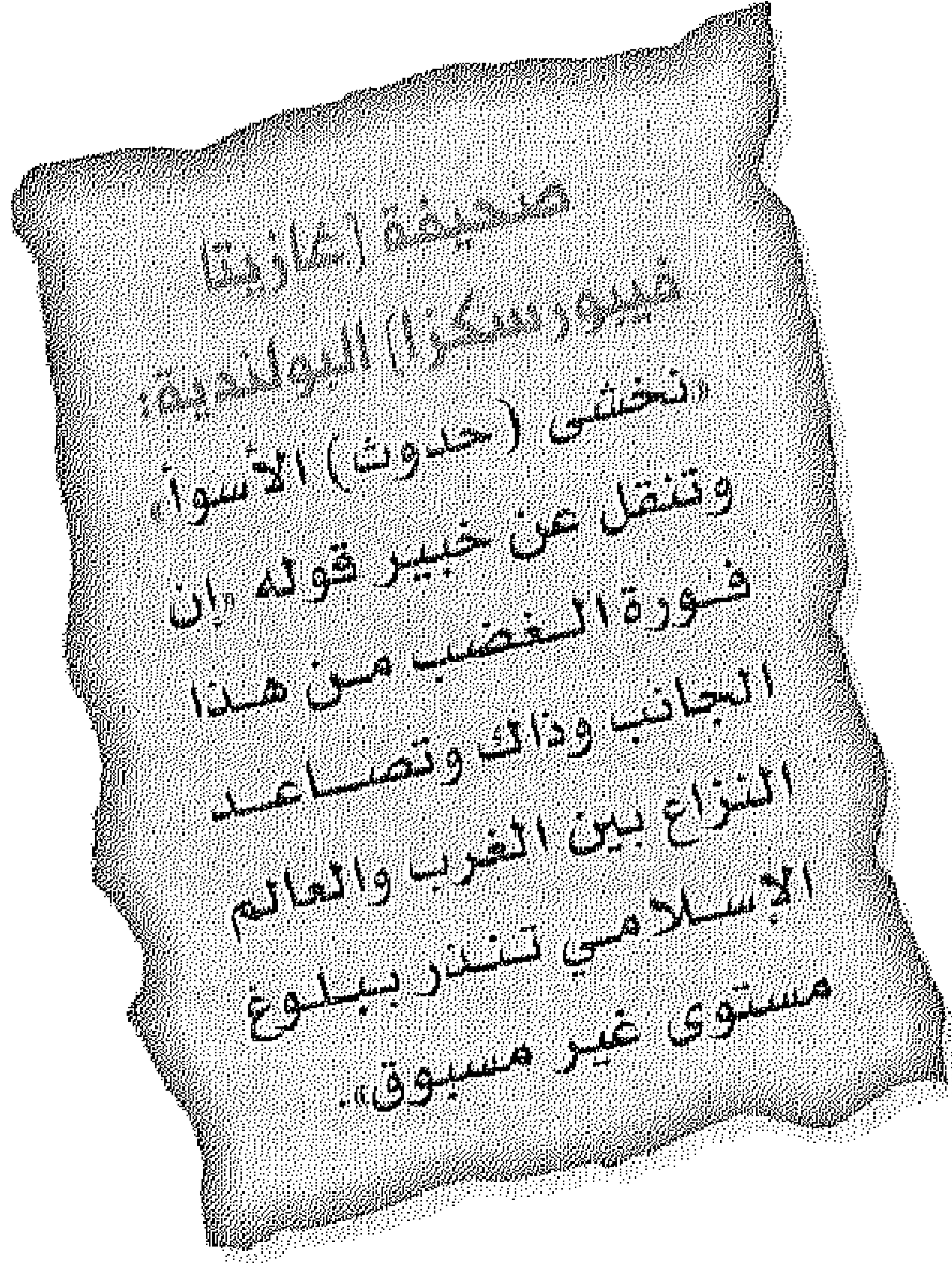
8 ـ التالي كتاب تدريسي قياسي في الفلسفة الإسلامية وعلم اللاهوت الإسلامي:

Fakhry, Majid. History of Islamic Philosophy. Columbia University Press, 2004.

للعهد القديم أسبقية أوقن من أنها غريبة على أسماع الكثير من المسيحيين. إن مركّب الإيمان الإنجيلي مع العقل اليوناني توهب ببساطة قيمة نهائية بوصفها تتويج عملية تنضوي تحت لوائها كل سبل التدين الأخرى عبر إخضاعها وتجاوزها.

على ذلك، فإن بنديكت السادس عشر، كونه عالم لاهوت وسيط، يعرف أنه ليس بمقدوره أن ينكر بعض الحقائق:

«وبكل أمانة، يتوجب على المرء أن يلحظ أنه في نهاية العصور الوسطى كانت هناك توجهات في اللاهوت تتنكر لهذا التلاقي بين الروح الإغريقية والروح المسيحية. فبخلاف ما يسمى بعقلانية أوغسطين وتوما الأكويني، نشأت مع دنس سكوتس نزعة إرادوية أفضت، عقب تطورات لاحقة طرأت عليها، إلى زعم مفاده أننا لا نستطيع معرفة إلا مشيئة الله المرادة. خلف هذا النطاق، يكمن مجال حرية الله، التي يستطيع بفضلها أن يقوم بخلاف كل ما قام به. إن من شأن هذا أن يفضي إلى مواقف تقترب بوضوح من مواقف ابن حزم وقد تقود إلى صورة إله نزوي، لا يقيده حق ولا خير. هكذا يعد تعالي الله وآخريته من السمو بحيث لا يعود عقلنا، فهمنا للحق والخير، مرآة حقيقية لله، الذي تظل أعظم إمكاناته غير متحققة إلى الأبد ومتخفية وراء قراراته الفعلية.»



إن هذه الفقرة، وإن كانت تخدم غاية مؤلفها في تقويض الأنساق اللاهوتية التي يأتي على ذكرها، إنما تبرهن على أقل تقدير أن بنديكت السادس عشر يعي بطريقة ما أن ثمة أنساقاً لاهوتية أخرى ممكنة، وأن علماء الكلام المسلمين لم يكونوا منشغلين وحدهم بإثبات سيادة الخالق إزاء دعاوى البشر بتقييده وفق معايير بشرية.

غير أنه لسوء الحظ يقتصر على إنكار هذه الأنساق لمجرد كونها لا تعبّر عن «إيمان الكنيسة» الحقيقي. المثير أنه في فقرة لاحقة، يؤكد للحظة عاطفة المحبة التي تتجاوز المعرفة، لكنه يعيد تأويل

❖ من عظام الرجال :

«مما لا ريب فيه، أن النبي محمد ﷺ من عظام الرجال المصلحين، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية، خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وتفضل عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية ... والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال».



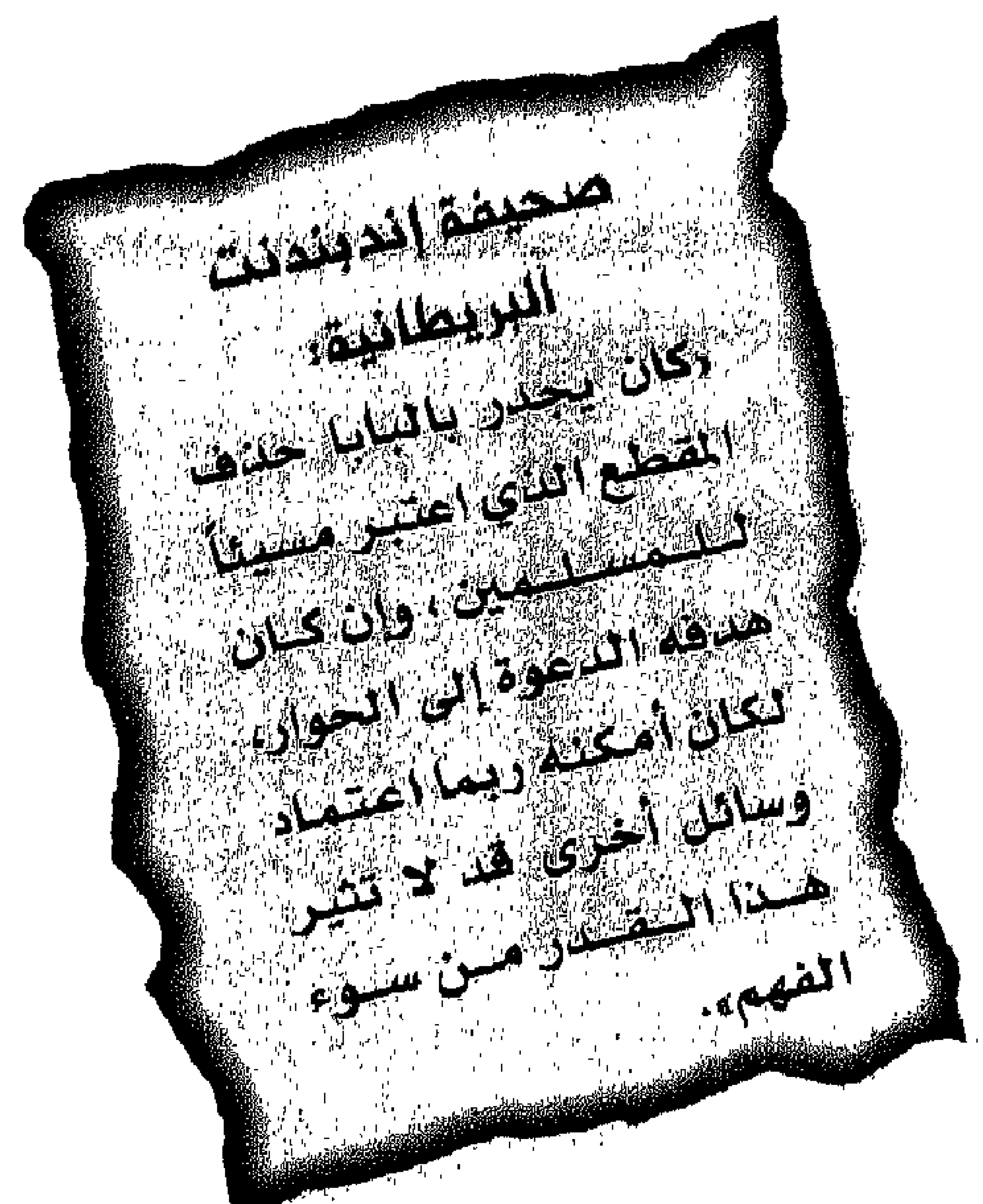
تولستوي

هذا التأكيد عبر إقرار أن اللوغوس هو الذي يمارس هذه العاطفة. على هذا النحو يتم التوليف بين اللوغوس والعقل، وهكذا يستبان أن العقل هو الذي تنتابه عاطفة المحبة.

بعد ذلك، وبألفاظ واضحة لا إبهام فيها، نعثر على الزعم الأساسي الذي يقول به بنديكت السادس عشر، والمبرر النهائي لاعتراضاته على الإسلام.

«إن التقارب الداخلي بين الإيمان الإنجيلي والبحث الفلسفي اليوناني، كان على قدر كبير من الأهمية ليس فقط من منظور تاريخ الأديان، بل وأيضاً من منظور تاريخ العالم. إنه حدث مهم حتى يوم الناس هذا. وبالنظر لهذا التقارب، لا غرو أن المسيحية، رغم أصولها ورغم التطورات الحاسمة التي طرأت عليها في الشرق، اتخذت صبغتها الحاسمة تاريخياً في أوروبا. بمقدورنا أن نعبّر عن هذا بطريقة عكسية : لقد قدر لها التقارب، بعد إضافة الموروث الروماني في عهد لاحق، أن يخلق أوروبا، كما يظل أساس ما نستطيع أن نسميه أوروبا حقيقة.»

هكذا يزعم بنديكت السادس عشر بوضوح أن أوربا هي المكان الوحيد الذي تتوجت فيه المسيحية والعقل في مركب عظيم هو الحضارة الأوربية.



وفق هذا، فإن أوروبا يونانية ـ مسيحية وعقلانية، والمسيحية أوروبية ـ يونانية وعقلانية. إذا أردنا أن تكون المسيحية ـ الأوروبية خالصة، يتوجب علينا استبعاد كل العناصر غير الأوربية وغير المسيحية منها. هذا ما يحول دون أن يكون للإسلام والمسلمين موضع في هذا المركب الهيجيلي العظيم! إن هذا المشهد الخطر لأفكار كولونية محدثة إنما يعزز مقولة الطبيعة الوحشية (غير اليونانية) وغير الأوروبية التي يوصم بها الإسلام. الإسلام، وفق هذا الضرب من التفكير، «آسيوي»، «لاعقلاني» «عنيف»، ولا مكان له في أوروبا «اليونانية»، «العقلانية» و«الوجيهة».

وبعد أن يبلغ بنديكت السادس عشر مبدأ المركب اليوناني والمسيحي في لوغوس مفرد، يشرع في تقويض كل محاولة لإنكار هذا المركب. هكذا يوجه نقداً إلى المراحل الثلاثة لما يسميه «استلاب الهلينية».

«إن هذه المقولة التي تذهب إلى أن الميراث الإغريقي المنقى نقدياً يشكل جزءاً جوهرياً من الإيمان المسيحي قد واجهت دعاوى «استلاب الهلينية» من المسيحية، وهي الدعاوى التي هيمنت تدريجياً على النقاشات اللاهوتية منذ بدء الأزمنة الحديثة. وحين نمعن النظر في هذه المسألة، يمكن ملاحظة ثلاث مراحل في عملية الاستلاب هذه. ورغم ترابطها، فإنها تتمايز بوضوح من حيث دوافعها وأهدافها.»

أجدر بالمسلمين أن يتركوا التعليق على مدى إنصاف ودقة تقويم بنديكت للموروث المسيحي لعلماء اللاهوت المسيحيين. على ذلك، فإنه يبدو لي، أنا المسلم، أنه من المدهش أن بنديكت يدرج مجمل جهود الإصلاحيين المسيحيين تحت عملية نزع الهلينية التي تقوض المركب الحقيقي الذي سبق له أن احتفى به. سوف أترك أيضاً لعلماء اللاهوت البروتستنت الرد على هذه مزاعم الجارفة.

بعد ذلك ينحو بنديكت السادس عشر باللائمة على عالم اللاهوت فون هارناك لكونه المسؤول عن

عملية استلاب هلينية ثانية. مرة أخرى أترك أمر الرد على مزاعمه لأشياع هارناك. غير أنه يدهشني أيضاً أن أجد هارناك يتهم باستلاب الهلينية. إنني، متأسياً بكارل بارث، أذهب إلى أن فون هارناك يمارس في واقع الأمر عملية تكريس للهلينية، عوضا عن القيام باستلابها، بل أن مذهبه قد يعد محاولة لاختزال علم اللاهوت إلى «حكمة عملية» أرسطية.


فون هارناك

بيد أن نمط استلاب الهلينية الثالث الذي يتحدث عنه بنديكت السادس عشر جدير بأن يحظى بقدر أكبر من الانتباه.

«وقبل أن أستنبط النتائج التي يفضي إليها كل ذلك، يتعين عليَّ أن أشير باختصار إلى المرحلة الثالثة من مراحل «استلاب الهلينية» التي تظل في طور التشكل. في ضوء التعددية الثقافية، غالباً ما يقال في الوقت الراهن إن الاندماج مع الهلينة الذي أنجز في عهود الكنيسة المبكرة كان مبدئياً منحازاً ثقافياً، ويتعين من ثم ألا يكون ملزماً لكل الثقافات. من حق هذه الثقافات العودة إلى رسالة العهد الجديد في صيغتها البسيطة قبل أن تنحاز ثقافياً، كي تتبيأ ثقافيا من جديد في عصره الخاص بها. هذه مقولة ليست باطلة فحسب، بل فجة وتعوزها الدقة. لقد كتب العهد القديم باليونانية وهو يحمل بصمة روحها، التي نضجت بتطور العهد الجديد. صحيح أن هناك عناصر في تطور الكنيسة المبكرة لا مدعاة لدمجها في كل الثقافات. غير أن القرارات الحاسمة التي اتخذت بخصوص علاقة الإيمان باستخدام العقل البشري جزء من هذا الإيمان؛ إنها تطورات تتجاوب مع طبيعة الإيمان نفسه.»

مرة أخرى، نواجه مصادرة للمسيحية ذات نزعة مركز ـ أوروبية ومركز ـ يونانية. غير أنني هذه المرة سوف أترك أمر تناول هذه المصادرة الغربية لعلماء اللاهوت المسيحيين الأمريكيين الجنوبيين، والأفارقة، والآسيويين.

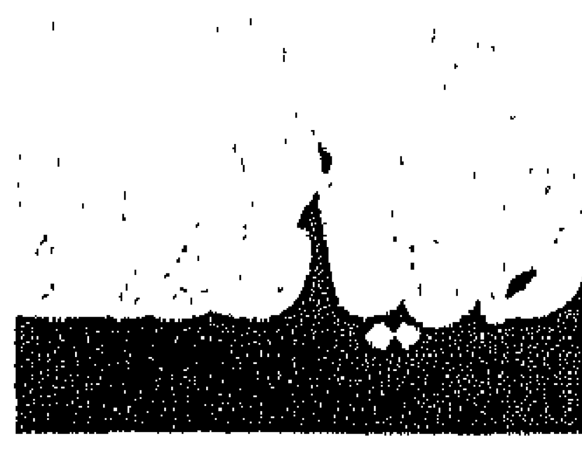
نسبة إلى كنيسة أضحت اليوم دولية، يتجاوز البابا حده حين يقوم بتغريب كل ثقافة ليست يونانية ـ أوروبية. إنه يزعم أساساً أن مثل هذه العناصر اليونانية والأوروبية أساسية للإيمان المسيحي نفسه. غير أنني أجد هذا الزعم برمته متبجحاً على نحو خطر. إن تهديده لا يطال الإسلام والمسلمين وحدهم، بل ينذر بالخطر المسلمين والمسيحيين واليهود على حد السواء.

يتعين أن يصبح الحوار خبرة معاشة تقرِّب من السلام العالمي

يصبح هذا النذير أشد خطراً بسبب حقيقة أن الموقف المعني لا يتبناه مجرد أستاذ أو عالم لاهوت، بل بابا كاثوليكي روماني يقود الملايين من البشر. لذا فإنه من الملح والضروري أن يخوض علماء الإسلام والمسيحية واليهودية وحتى البحاث غير الملتزمين بأي دين في جدل مع البابا وأن يتحدّوا رؤاه ليس فقط في الإسلام، بل أيضاً فيما يعنيه من الكائن البشري العقلاني، وما يعنيه من أن يكون المرء أوروبياً.

أما بخصوص الإسلام ونبيه ﷺ، فإن قروناً من الحملات الشريرة الموجهة ضدهما، اللفظية والعسكرية على حد سواء، لم تنجح إلا في جعلهما أصلب عوداً. وفي نهاية المطاف، سوف تشرق الشمس، مهما حاولت السحب السوداء حجبها.

فلندع الله ختامًا من أجل عالم أفضل، عالم يسوده السلام، عالم جدير بالاحترام. ودعونا نخض في حوار مؤسس على الاحترام المتبادل، ويسمو عن الخطابة. إن الله الواحد بارئنا جميعاً، وقد شاء أن نختلف، كي نتعارف، فدعونا نشيد معاً عالماً أفضل من أجله.



البابا وجحيم دانتي.. وحوار الحضارات

إبراهيم الحلبي *

حين أرادت دولة الفاتيكان التخفيف من آثار إساءة البابا للإسلام في «محاضرته الأكاديمية» قدّم رجالها صياغات تزيد (الطين بلة) فهم ذهبوا إلى توصيف ردات الفعل على موقف البابا بنديكت بأنها (إساءة فهم) وقع فيها المسلمون في تفسيرهم للنص الذي جاءت به العبارات المسيئة، والبابا لم يُضف جديداً حين أبدى أسفه، لأنه لم يتراجع عن أقواله، بل قام بتثبيت العبارة مكتفياً بأنها «نص قديم لا يُعبر عن رأيه الشخصي». أما شفاعة الإعلام الفاتيكاني لأقوال البابا بنديكت السادس عشر بالإعلان عن خلفية ما تضمنه نص محاضرته على أنها «تهدف إلى نبذ العنف، والحوار بين الأديان»، فهو الأمر الذي يحتاج إلى إثبات المصداقية ، وذلك حتى يحوز البابا على الأهلية المطلوبة لقيادة العالم المسيحي الكاثوليكي في عملية الحوار هذه.

سنفترض أن نية البابا التصدي للعنف المتفشي في عالم اليوم، ومن أجل محاصرته وتخليص كوكبنا من شروره، كان الأجدى أن يرى عنف أمريكا، ليس في سلوك المحافظين الجدد فحسب، إنما أيضاً في أطروحات المبشرين الإنجليكانيين الأوائل بعد اكتشاف أمريكا، تلك الأطروحات التي حضّت على إبادة السكان الأصليين في القارة، باعتبارها تنفيذاً لوصية الرب، وخطوة على الطريق إلى (أورشليم)، وهي أطروحات سبقت الفكر الصهيوني الذي استمد مبرراته من التوراة في تسويغ عملية الاقتلاع والإبادة الفلسطينية، ومن أجل «أورشليم» أيضاً حسب الإدعاء الصهيوني.

في الإسلام وبين صفوف المسلمين يوجد من يرفع رايات العنف والقوة طريقاً إلى «تجسيد» الإيمان و(نشر الإسلام) لكن هؤلاء ليسوا سوى قلة قليلة، لم يكن لها أن تبرز بهذا التضخيم لولا الجور والظلم والعنف الذي لحق بالشعوب المستضعفة على يد المستبدين الكبار، وهؤلاء ينالون النقد والإدانة يومياً في خطابات القوى الإسلامية الواسعة التي تتصف بالوسطية والاعتدال ونبذ العنف بين الأديان وباسمها.

وطالما أن البابا حاضر في التاريخ، وهذه ليست مهمته اليوم، إلا إذا أراد أن يحفظ دوره كأستاذ كرسي في علم اللاهوت، فهو لم يكن موفقاً في قراءة التاريخ، إذا افترضنا حُسن النوايا، ذلك أن العصر الذي استعار منه عبارة على لسان الإمبراطور البيزنطي كان أقرب إلى مرحلة «الحروب الصليبية»

* كاتب / سوريا.

وهو على مسافة قصيرة من الحروب الدينية في أوروبا المسيحية.

وإذا كان البابا في استخدامه سجالاً لإمبراطور بيزنطي في مواجهة عالم إسلامي في ذلك العصر، فما أورده من عبارة ألصقها بنبي المسلمين تضعه في قائمة الشريرين وتتهمه بنشر الدين «بحد السيف» هي من صنع الإمبراطور وليس من حقائق السيرة النبوية ولا من نصوص القرآن والحديث، لكنه بما ذهب إليه أراد حسم الموقف «بأي إله نؤمن» وهو يسعى لإظهار الفرق بين «الإسلام والمسيحية».

بهذا العقل عاد البابا بالبشرية، ليس إلى ثقافة الإمبراطور البيزنطي الذي اعتمده مرجعاً له إنما أيضا إلى (جحيم دانتي) حين قام الأخير بوضع نبي الإسلام محمدﷺ وابن عمه الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في الخندق التاسع من الحلقة الثامنة في الجحيم الدانتي الذي يضم مثيري الصراعات والانشقاقات الدينية والسياسية «الذين يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار».

لا أحد يصدق أن ما ورد على لسان البابا في محاضرته يخدم ما يُدعى بحوار الحضارات أو الأديان، لا سيما الحوار الإسلامي المسيحي، فطالما أن البابا قال: «إن المشيئة الإلهية في الإسلام منقطعة عن العقل» فالحوار لا يصلح طريقاً للعلاقة مع الشعوب الإسلامية إذن..!

المؤسف هو العودة إلى روح (المركزية المسيحية) بوجه الأديان الأخرى، وأن نكون بحاجة ـ من أجل حوار الحضارات ـ لإثبات مصداقية البابا أولاً بعد ما أورده في محاضرته من إساءة لرمز حضارة تلخص علاقة الشرق بالغرب، وعلاقة الحضارتين ببعضهما، وعلى دولة الفاتيكان وعلى رأسها البابا أن يأسفوا لما قِيل ويعتذروا عنه لا أن يأسفوا لحجم ردود الفعل، وإن كنا نشجب ونُدين كل رد فعل أهوج ومنفلت لأنه لا يخدم معالجة الإشكالية.

نظرية الدكتور روزيه

يتذكر الدكتور روزيه رئيس جامعة لوزان في سويسرا سابقاً ويقول: إنني طفت بلاد الأندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب، فأعجبت بها كل الإعجاب، ومما شاهدته السدود القائمة إلى اليوم في ولاية بلنسية، فإن أهل هذه الولاية من الإسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسي العرب لهذه السدود، ولم يتيسر لمدينة القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه المسلمون في القرون الوسطى. ولحسن الحظ لم يقو التعصب الديني الذي دك كثيراً من المعالم في أرض أندلس على نسف هذه السدود على وادي الأحمر وغيرها، وإلا لهلك أهل ذاك الإقليم عطشاً. ومن الأسف أن مدنية هذه بعض آثارها تذهب ولا يبكيها غير المسلمين، فقبح من قضوا عليها..

فهذا العالم السويسري رئيس جامعة لوزان يأسف على ذهاب حضارة العرب ويقول بكل صراحة: ولم يتيسر لمدنية القرن العشرين أن تقيم أرقى منها. ويقول أذناب الإلحاد والتبشير: لو وجد محمد ﷺ في هذا العصر الذي هو عصر العلم والمدنية فماذا كان يصنع ؟ فإذا كان رئيس جامعة لوزان يعجب من صنع بعض المسلمين في القرون الوسطى، فما بالك لو أن محمداًﷺ كان موجوداً في هذا العصر، إذاً لصنع بما أرشد به القرآن الذي أهمله المسلمون، ولأصبح المسلمون غرشاده سادة العالم أجمع كما كانوا في القرن الأول بعد وفاته ﷺ، ولأراح أهل الأرض من وقاحة أمثال هؤلاء الذين ملأوا الجو عواءاً دون جدوى؛ لأن جهلهم وغطرستهم قد علمها حتى بسطاء المسلمين، وأصبحوا منبوذين من الإنسانية وملعونين أينما ثقفوا.

بنديكت السادس عشر وإمانويل الثاني

عبد الرحمن فروجا *
ترجمة: محمد محمد العالم **

شكلت المحاضرة التي ألقاها البابا بنديكت السادس عشر في جامعة ريجزنبورج University of Regensburg الموضوع الأكثر إثارة للجدل في مالطا مؤخراً، لقد وضع الإسلام في دائرة الضوء بسبب تلك المحاضرة حيث أتى البابا على ذكر الإسلام في محاضرته فيما فسّر الكثيرون كلماته كتأكيد على أن الإسلام قد انتشر بحد السيف.

ويثير الكثير من المالطيين المسيحيين العديد من التساؤلات مثل: لماذا بالغ المسلمون في الاحتجاج على كلمات البابا؟ وكيف يفهم المسلمون الديانة المسيحية؟ أما أهم الأسئلة فهي كيف يؤثر كل ذلك على العلاقات الإسلامية المسيحية في وقتنا الحالي؟.

وبناءً على ذلك قام صحافيون بالاتصال بنا عديد المرات يطالبون بإجراء مقابلات لصالح الصحف ومحطات «التلفزة» الذين يعملون معها، وكانوا يركزون بصورة خاصة على ردود فعلنا فيما يتعلق بمحاضرة البابا وكانوا أيضاً يثيرون الأسئلة السالفة الذكر.



بنديكت يلقي محاضرته

المحاضرة ... والاعتذار

دعنا نبدأ من النص الأصلي للمحاضرة، فقد ألقى البابا محاضرته في جامعة ريجزنبورج بالمانيا حيث كان نفسه أستاذا لعلم اللاهوت لسنوات طويلة.

كانت المحاضرة تحمل عنوان: «العقيدة والعقل والجامعة، ذكريات وتأملات» لقد كانت المحاضرة مفعمة بالفلسفة بالرغم من بدئه إياها بذكرياته عن تدريس اللاهوت والتي من المفترض أن تكون نتيجة للحنين إلى الوطن والتوق إلى الماضي، لقد حاول البابا الدفع بفكرة أن العنف لا يتطابق مع طبيعة الله، وهنا

* باحث / مالطا.

** صحفي ومترجم / ليبيا

بالضبط حدث اقتباسه الشائن والذي نسب إلى امبراطور بيزنطي عاش في القرون الوسطى وهو مانويل الثاني باليولوغوسي (Manuel Paleologos) لقد نسب إلى هذا الإمبراطور قوله في إحدى المناسبات محدثا أحد علماء فارس «أرني ماذا أتى محمد بجديد وعندها سوف تجد الشر واللاإنسانية مثل قيامه بنشر الدين الذي يدعو إليه بحد السيف»، إن البابا لم يقم باقتباس مماثل لرد العالم الفارسي والذي كان من الواضح أنه كان مسلماً لرد تلك التهمة، وفي الحقيقة فإن محاضرة البابا لم تأت على ذكر الإسلام أو الرسول ﷺ فيما عدا ذكره للآية القرآنية:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [سورة البقرة:الآية256]

يقول البابا: «إن هذه الآية تعود للأيام الأولى عندما كان محمد ضعيفاً ويخضع للتهديد»، وفي رأيي فإن هذه تمثل إهانة أخرى للإسلام ، وارتكب البابا خطأ بسبب أن الآية المشار إليها قد نزلت في المدينة عندما كان الرسول ﷺ قد تم قبوله كزعيم وكان في وضع قوي يمكنه من فرض الإسلام على أي أحد إذا ما أراد ذلك.

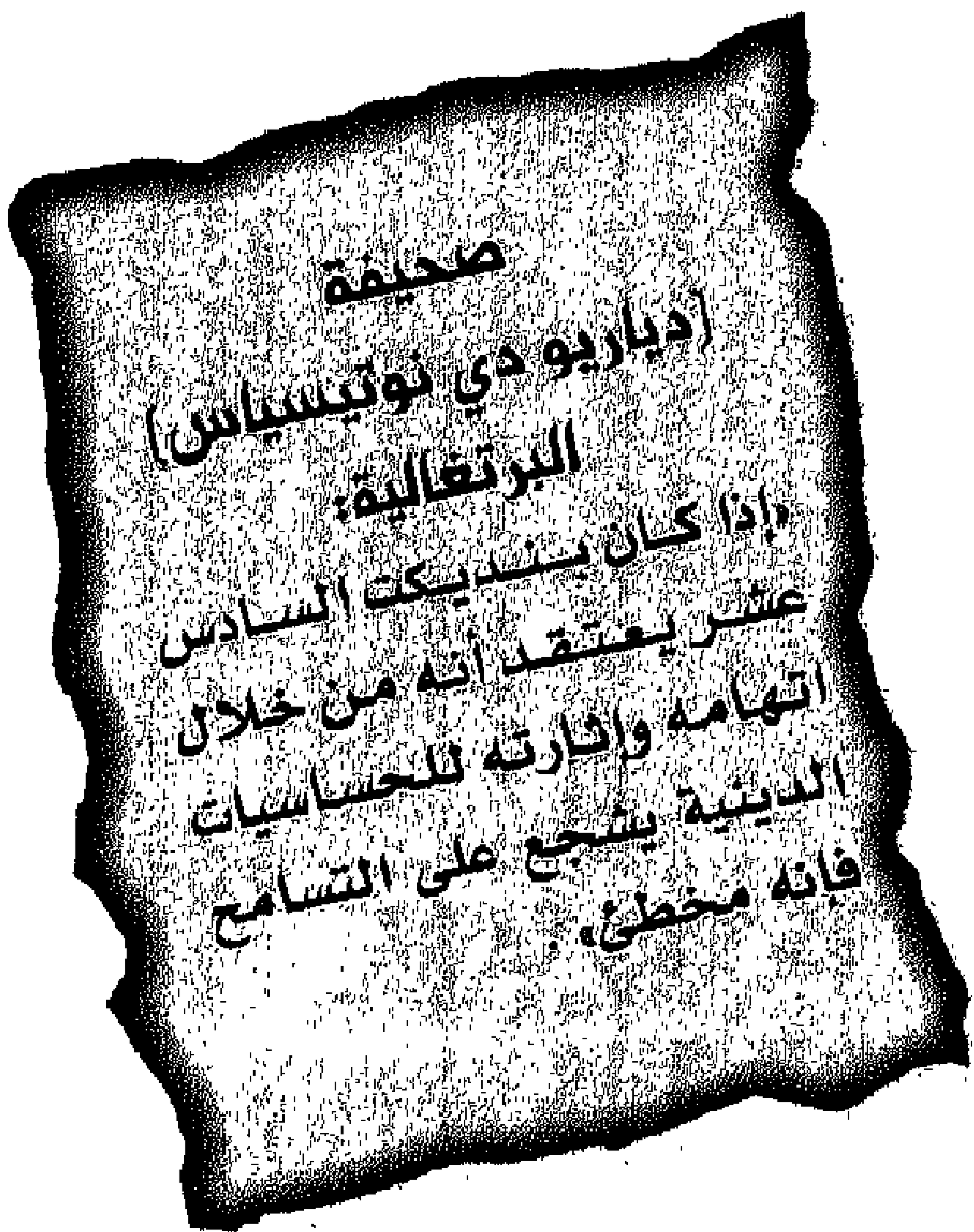
إن الرسول في الواقع لم يكن ضعيفاً، إذ حدثت غزوة بدر بعيد نزول هذه الآية، والجميع يعلم من حقق النصر في تلك الغزوة.

وعلى أية حال، لم يذكر البابا الإسلام كثيراً بعد هذه النقطة وشرع في مناقشات فلسفية عميقة عن طبيعة الله، فهل قصد البابا الهجوم على المسلمين؟ أو أنه لم يدرك أن مثل الإشارات يمكن أن تفسر على أنها كذلك ؟

ينبغي على الإنسان أن يضع في اعتباره أن البابا قد اختار الاقتباس من امبراطور عاش في القرون الوسطى، وكان متبنياً لفكرة أن الإسلام قد انتشر بحد السيف، ونزع بعد ذلك إلى تجاهل حقائق وأحداث تاريخية هامة، وفشل في الإتيان باقتباسات أخرى ترد على ما ذكر.

لقد أوضح البابا لاحقاً أن هذا الاقتباس لا يعكس رأيه الشخصي، ففي كتاب ألفه قبل أن يرتقي سلم البابوية يحمل عنوان «بدون جذور «Without Roots» قال البابا في إشارة إلى أوروبا «يحدث أيضا ضعف كبير في تركيبتها الإثنية» وبفهمنا لكلمة «إثنى» على أنها تخص جماعة عرقية، فإن الكثيرين يعتبرون هذا عنصرية صرفة ويظهر الرغبة التي تعتمل في نفس هذا الرجل لتبقى أوروبا «طاهرة»، ليس فقط فيما يتعلق بالشؤون الدينية وكأن الأمر يتعلق بالشأن العرقي أيضاً، ولقد تبلورت وجهة النظر تلك أكثر عندما تحدث عن تركيا وسعيها الانضمام للاتحاد الأوروبي، قال البابا «ينبغي على تركيا أن تبحث عن مستقبلها في منظومة الدول الإسلامية، وليس في الاتحاد الأوروبي ذي الجذور المسيحية، واستطرد قائلاً: «لقد كانت تركيا دائماً في تباين مستمر مع أوروبا «وأن ارتباط تركيا بأوروبا يمكن أن يكون خطأ».

وفيما يتعلق بالاعتذار، فمن المعروف أن الرجل يجد صعوبة في تقديم اعتذار بالرغم من أن سلفه يوحنا بولس الثاني John Paul II والذي نال حب واحترام ملايين المسلمين في جميع أنحاء العالم قد فعل ذلك، فقد اعتذر البابا الراحل عن الحملات الصليبية السيئة السمعة والتي شنت من خلالها

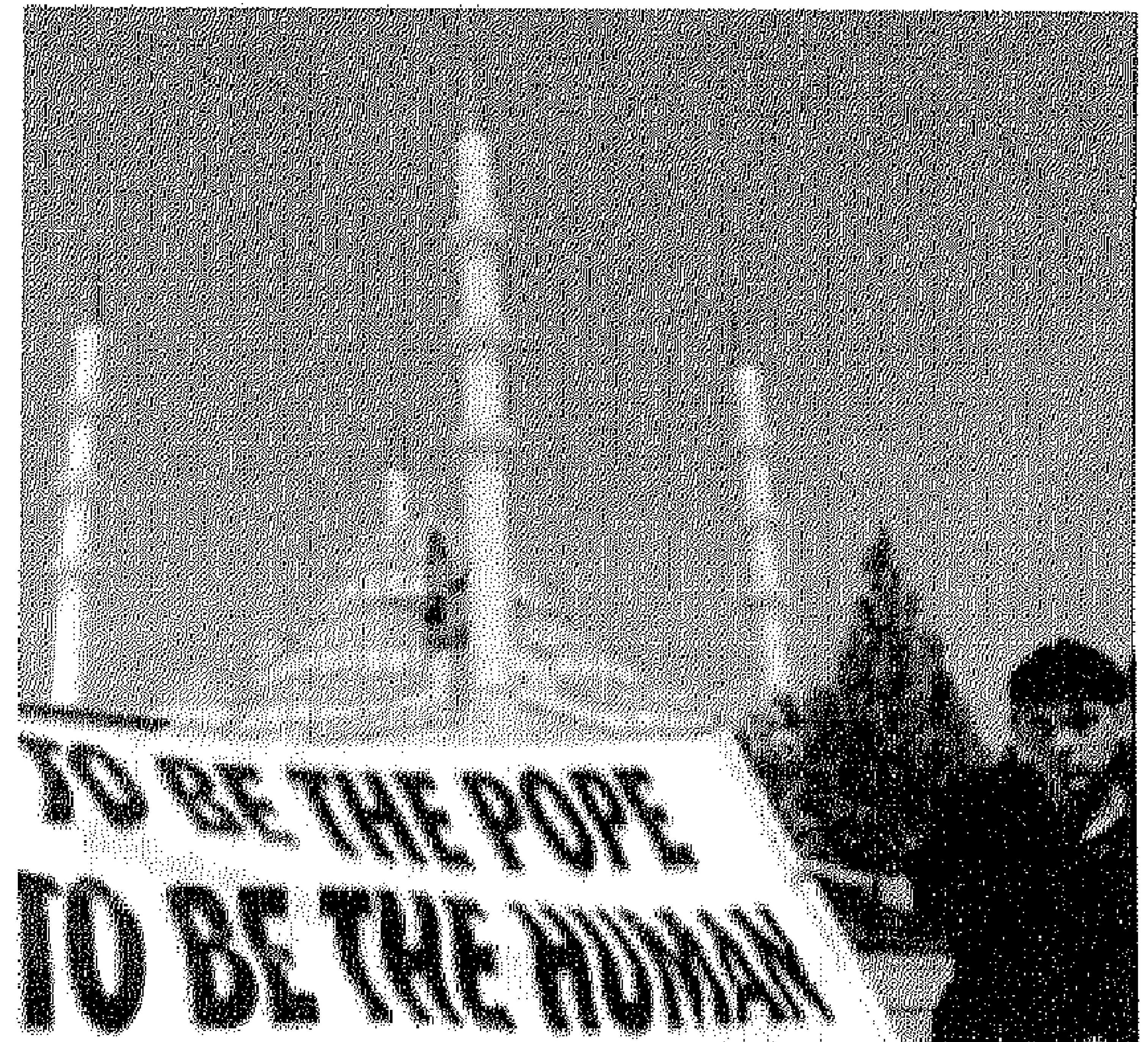


الكنيسة حرباً لاسترداد الأراضي المقدسة، لقد وقف الكاردينال - راتزينغر Cardinal Ratzinger ضد ذلك الاعتذار، وفي وقت لاحق قام بزيارة لبولندا حيث تفقد أوشفتز Auchwitz وهو معسكر اعتقال إبّان الحكم النازي، ومرة اخرى لم يفعلها ويقدم اعتذاراً، واكتفى بالقول أن الشعب الألماني كان ضحية للنازية.

عندما ينظر المرء في تاريخ هذا الرجل، فإنه يكاد يصاب بالدهشة، فلقد حان الوقت أخيرا لشن هجوم على الإسلام من قبله ! إن هذا يتعارض مع ما نهج عليه سلفه يوحنا بولس الثاني، والذي قام بخلع حذائه عندما هم بدخول المسجد بل إنه صلى بالمسجد أثناء زيارته لسوريا عام 2001 مسيحي، وفي الرابع عشر من شهر مايو عام 1999 مسيحي قبّل مصحفاً كان قد أهدي إليه من قبل وفد عراقي زائر.

العالم الإسلامي .. مبالغة في ردود الفعل

يسود رأي عام هنا في أوروبا مفاده أنه لا ينبغي على البابا بنديكت السادس عشر أن يقول ما قاله ،وأن المسلمين غير ملامين لشعورهم بالأذى، ومن ناحية ثانية يرى الكثير من الأوروبيين أيضا أن المسلمين قد ذهبوا بعيداً في ردود الفعل، مستذكرين ما حدث في



أزمة الرسوم المسيئة للرسول ﷺ، وعلى سبيل المثال: لماذا تم تخريب الكنائس الأرثوذكسية في فلسطين؟ إن المسيحيين الأرثوذكس لا يقبلون سلطة البابا، ولا يشكلون جزءاً من المسيحية الكاثوليكية، لماذا تم قتل راهبة مسيحية كاثوليكية في الصومال؟ ألم تكن امرأة بريئة؟ ثم أليس من الإثم أن يتم قتل الأشخاص الأبرياء في الإسلام ؟.

وفي أزمة نشر الصور المسيئة فإن العنف قد قلب الطاولة على رؤوسنا، في الوقت الذي كان يمكن لنا أن نستغل الحدث كفرصة لتوضيح الإسلام، وإثبات أنه لم ينتشر بحد السيف، لقد أغضبنا المجموعة الدولية بالتحول إلى العنف والذي يخدم زيادة سوء الفهم في الغرب من أن الإسلام دين يدعو للعنف.

وفي الحقيقة فإن الكثيرين هنا - في مالطا - لا حظوا انه كان هناك دليل على أن ما قاله البابا عن الإسلام كان صحيحا، إننا لو جادلنا بعقلانية لتمكنا من إظهار حقيقة أن الإسلام دين ينادي بالتفكير المنطقي، وأنه لا بد من احترامه، وأن الإسلام لا يحتاج لحد السيف كي ينتشر.

وعوضاً عن ذلك لقد أخذ العنف بالإسلام أكثر، إن هذا يستلزم طرح بعض الأسئلة، لماذا لم يظهر البابا بنديكت السادس عشر عدم موافقته على الاقتباس عند إلقائه لمحاضرته؟ لماذا كان عليه أن ينتظر نقمة في العالم الإسلامي ليخبرنا أنه لا يتفق مع الإمبراطور البيزنطي؟ وهل كان سيقول أن ذلك الاقتباس لا يعكس وجهه نظره إذا ما أطبق المسلمون أفواههم ولم يحتجوا؟ هل لنا بأن نفترض بأنه يعتقد مثلما نفعل نحن أن الإسلام انتشر عن طريق الإقناع والقدوة الحسنة؟ وإذا كان لا يتفق مع الإمبراطور، لماذا اقتبس منه أصلاً؟

لا بد أن يذكر المرء أيضاً أن البابا قد تجاهل تماما في محاضرته حقيقة أنه خلال حقب التاريخ حدثت مذابح ارتكبها الكاثوليك، والذين حاولوا نشر

النصرانية في مختلف أنحاء العالم، وكانت تلك بمباركة من الكنيسة الكاثوليكية، ولعله من نافلة القول أنه ومن المعروف للجميع أن الحروب الصليبية غنية عن التعريف، ولا تحتاج منا لتفاصيل أكثر، فإذا كان يريد أن يؤكد على حقيقية أن الله لا يدعو للعنف، وأن طبيعته متعارضة مع مبدأ العنف، فلماذا إذن يذكر اقتباساً يدعى أن الإسلام انتشر بحد السيف؟ أليس من الحري أن يذكر أن الكاثوليك أنفسهم قد أخطأوا في هذا الصدد؟ ألم يكن من الأجدى له أيضاً أن يذكر أخطاء الكنيسة؟ أليس من الأجدى أيضاً أن يأتي على أحداث معينة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية عندما كان العنف السمة السائدة؟.

وعود على بدء، لماذا وجد البابا بنديكت السادس عشر أنه من الصعوبة بمكان تقديم اعتذار؟ إن ما فعله لم يكن اعتذاراً حقيقياً حيث قال «إنه يأسف لأن اقتباسه قد فسر بهذا الشكل» ولم يقل إنه يأسف: لأنه آذى المسلمين، والأهم من ذلك هو الأسف لتأجيج سوء الفهم عن الإسلام.

إن ذلك هو الاعتذار الذي يود المسلمون سماعه لكن شيئا من ذلك لم يحدث.

وأخيراً هل هو في الحقيقة لم يدرك أن ذلك الاقتباس يمكن أن يتسبب في إهانتنا؟ للبابا الكثير من المستشارين والبعض منهم يملكون معرفة جيدة بالإسلام، وأن خطب البابا تعد سلفاً وتقرأ من قبل خبراء قبل إعلانها، فهل من الممكن أن أياً من أولئك المستشارين قد أسدى نصيحة له بشأن الاقتباس المضمن في محاضرته؟ أجد صعوبة بالغة في تصديق ذلك .

❖ من هو ذلك الرجل ؟

لقد ذاع صيت اسم البابا بينيدكت السادس عشر في أوروبا قبل أن يعتلي سدة البابوية عام 2005 مسيحي، لقد كان يعرف بالكاردينال جوزف رايتسينغر ويمثل الكرادلة أقوى رجال الكنيسة، ويطلق عليهم «أمراء الكنيسة» Princes of the Church، وعندما ينتخب كاردينال إلى منصب البابا يقوم بتغيير اسمه ويعرف باسمه الجديد بعد ذلك، يعتبر جوزف رايتسينغر من قبل المسيحيين الكاثوليك أنفسهم كأحد أكثر المتشددين بين رجال الكنيسة.

لقد أصيب عدد من القساوسة الكاثوليك وانتابهم قلق من انتخاب الكاردينال رايتزنغر إلى منصب البابوية، حيث ساورتهم مخاوف من الأسلوب الذي سينتهجه في تسيير شؤون الكنيسة الكاثوليكية.

وفيما يتعلق بالهجوم على الأديان والثقافات الأخرى، لم تكن محاضرة جامعة ريجزنبورج الأولى من نوعها ولم يكن الإسلام العقيدة الوحيدة التي يهاجمها البابا في مؤلفاته عندما كان في مرتبة الكرادلة، فلقد أبدى تصريحات مثيرة للجدل فيما يتعلق بالكنائس المسيحية الأخرى على أنها «ليست كنائس بالمعنى الحقيقي».

ولقد أثار ذلك التصريح انتقاداً من قبل الكنائس غير الكاثوليكية مثل جورج كيري George Carey رئيس أساقفة كانتربيري Canterbury، لقد وصف أيضاً

أهم الدروس هو أن أقوى سلاح هو المعرفة وليس العنف.

❖ محمد ﷺ والمعجزة :

«والحق أننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات ، أن محمداً هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية معتمداً فقط على بداهة رسالته ، ووضوحها ، وعلى بلاغة القرآن الإلهية ، وأن استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق».

هيدلي

الديانات غير المسيحية مثل الإسلام والهندوسية والبوذية بأنها «قاصرة» وقال عن البوذية إن هذه العقيدة هي مجرد «شبق ذاتي».

لقد كنت أتصفح بعض المواقع الإسلامية عبر شبكة الانترنت وكنت بصدد نفس الموضوع، وكان مسموحاً لكل واحد بأن يعلق ويقرأ آراء الآخرين، كانت هناك تعليقات صحيحة، ولكن وبالمقابل كانت أخرى غير ذات أهمية بالمرة، مثل ربط البابا بالصهيونية ،وبالرئيس بوش، وبالحرب على العراق وأفغانستان، اعتقد بإخلاص بأن مثل تلك الملاحظات هي نتيجة لعملية غسيل دماغ شديدة، وللجهل.

صدام الثقافات

لقد أصبح المسلمون واعين وأكثر حساسية منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر من أن الإسلام يفهم في الغرب كدين يدعو للعنف، وكنتيجة للحرب في كل من أفغانستان والعراق أصبح المسلمون شديدي التشكيك. ولحد بعيد. من أن الغرب يريد أن يخوض «حرباً صليبية» عليهم وعلى الإسلام .

ومن جانب آخر تعمل الأحداث التي تقع في العالم الإسلامي ـ والتي هي ضد روح الإسلام ـ على تقوية الفكرة الموجودة لدى الغرب من أن المسلمين يريدون خوض «جهاد» ضدهم ويحدث ذلك حتى لدى المثقفين من الغربيين، لأن القليلين منهم يعرفون المعنى الحقيقي «للجهاد ».

ولهذا فنحن خائفون من بعضنا البعض، ولهذا نقوم بردود أفعال شديدة لأحداث على هذه الشاكلة.

الحل

إذن هل يوجد حل، أم أن صدام الثقافات شيء حتمي؟

ـ إن الطريق الوحيد لمكافحة الجهل بيننا هو معرفتنا لبعضنا البعض.

ـ إن عبارة «معرفتنا لبعضنا البعض» ذكرتني بالمؤتمر الذي نظمته جمعية الدعوة الإسلامية العالمية تحت شعار «لتعارفوا» والذي حظيتُ بشرف حضوره، لقد كان الحدث أسلوباً عظيماً لاجتماع المسلمين والمسيحيين بعضهم البعض في جو مفعم بروح التسامح والسلام، لقد فعل ذلك المؤتمر الكثير من الخير لصالح العلاقات الإسلامية المسيحية.

إن هذا هو ما نحتاجه لتجنب تصادم الثقافات وليس التذكير بما قاله امبراطور بيزنطي عاش في القرون الوسطى.

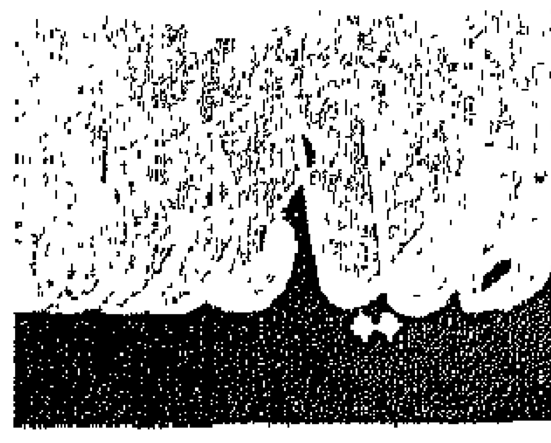
لماذا لم يظهر البابا بينيدكت السادس عشر عدم موافقته على الاقتباس عند إلقائه لمحاضرته؟ ولماذا كان عليه أن ينتظر نقمة في العالم الإسلامي ليخبرنا أنه لا يتفق مع الإمبراطور البيزنطي؟

ـ ينبغي أن نوضح للمسيحيين أننا نحترمهم ولكن ننتظر منهم أن يحترمونا كذلك، ليس هناك من مسلم يجرؤ على التهجم على عيسى عليه السلام لأن ذلك يجعله في خانة الكفار.

وأخيراً ينبغي على المسلمين أن يضعوا هذه الحادثة وراء ظهورهم وان يستشرفوا المستقبل، ولا بد للمسلمين أن يعوا الدروس المستفادة من هذه الحادثة، وأن أهم الدروس هو أن أقوى سلاح هو المعرفة وليس العنف، دعونا نعلم المسيحيين كم هو جميل ديننا، لنعلمهم الإسلام الحقيقي، وآنئذ يمكن ننال احترامهم.

لعل الأهم من ذلك كله أنه وحتى لو لم يرق لنا البابا بنديكت السادس عشر وحتى لو كان من الصعب نسيان مثل هذه الحادثة فلا ينبغي علينا أن ننسى كلمة الله، والذي يقول في القرآن الكريم:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية 82]



حقيقة الدين اللاعقلاني!

عمر لطفي العالم *

أ أحد المُهتمين ـ عقب التصريحات الخشنة لقداسة البابا ـ وجَّه السؤال الآتي: بماذا ستردون على رأس الهرم المسيحي، هل ستذكرونه كمادتكم بعد كل صفعة بمحاسن الإسلام، أم ستقولون فوق ما قالوا؟ قلت: لا هذا ولا ذاك، فشخصيةٌ روحية مثله لن تنعم بالجلوس على قمة الهرم قبل أن تُلم إلمامة كافية بالديانات السماوية وغير السماوية. من هذه الناحية لك أن تطمئن، فهو ليس بالمعمي الجاهل. وأما أن تقول في المسيح عليه السلام ما ليس فيه، فكأني بك لا تعرف شيم المسلم، ولا قرأت التمجيد والتعظيم اللذين أسبغهما القرآن على المسيح وأمه؟ لا أخفي عليك يا صديقي أن الدنيا تسير نحو الهاوية. يتملكني هذا الشعور كلما عدتُ بذاكرتي القهقرى، فما أن تنطفىء ذبالة شر في شمال الكرة حتى تستعر بلهيب الكراهية ذبالة أخرى في جنوبها. ولا أزعمُ أن الفتيل سينطفئ أو كاد أن ينطفئ، وأن الصراع الذي يزكيه حبُّ المسيح والغيرة على تعاليمه بات قاب قوسين أو أدنى من النهاية!!

إن القيصر شاهد زور، وقصة القياصرة مع التعاليم المسيحية قصة مضحكة مبكية، وكان من سوء طالع هذا الدين أن اقترن اسمه بهم واسمهم به، فعلى أيديهم شهد نهايته كدين قويم، وما هذا الذي نسمع ونرى سوى بعض دين.

لمَّا وقعت الجفوة والفرقة بين أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ واليهود، انفصل كتابهم (العهد الجديد) عن كتاب اليهود (العهد القديم) وبانفصالهما انفصلت الشريعتان كذلك. وأصبحت النصرانية بهذا الانفصال بدون شريعة تنظم الحياة وشؤونها كما في شريعة بني إسرائيل. إن الذي حدث هو أن عهداً طويلاً من الاضطهاد أظل أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ سواء جاء ذلك من طرف اليهود المنكرين أو الرومان الوثنيين. اضطر الحواريون ـ تلاميذ المسيح ـ وأتباعهم إلى التخفي والتنقل والدعوة سراً، واضطرهم كذلك إلى تداول نصوص الإنجيل وتاريخ عيسى ـ عليه السلام ـ وأحداث الفترة تداولاً عاجلاً في ظروف لا تسمح بالدقة والتواتر. كان من نتيجة ذلك نصوص إنجيلية بروايات مختلفة فيما

(*) كاتب وباحث/ ليبيا.

أطلق عليه إسم الأناجيل. والأناجيل كلام التلاميذ ورواياتهم، وما أُثر عن حياتهم من حكايات، وقد كتب أقدم إنجيل بعد المسيح - عليه السلام - بجيل كامل. ويختلف مؤرخو النصرانية اختلافاً شديداً في تحديد تاريخه الذي تراوح بين 40 و60 سنة، كما يختلفون في اللغة التي كتب بها، إذ لم يعثر على أصل قط، بل على ترجمة له.

يجدر أن نشير إلى أن الدين الذي قال عنه (نيافته) إنه يجافي العقل كتب قرآنه في حياة قائله ودوّن وروجع: (ضعوا الآية كذا في مكان كذا... والآية كذا في مكان كذا).

ولقد قُدر لبولس الذي لم يرَ المسيح - عليه السلام - أن يتولى نشر النصرانية في أوروبا بإضافات وزيادات وثنية رومانية وفلسفة إغريقية. كتب بولس رسائله بعد القرن الأول الميلادي، لتكون شاهداً على اختلاط الأمثلة الدينية بالفلسفة. كان يقول: إن المسيح جالس عن يمين الرب، يدعو لمن يطلب لهم الخير أن تسكن فيه كلمتهم، ويسأل لهم الغفران منه، ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض، ويُفهم من كلامه أنه كان ينتظر عودته في زمن قريب.

إن النبي الذي جاء بالدين المخالف للعقل - كما يزعم - نهى عن كتابة الحديث كي لا يلتبس بكلام الله، لكن الكارثة العظمى تمثلت في اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين النصرانية، إذ أصبح الحزب النصراني حزباً حاكماً سنة 355م. وقد وصف الكاتب الأمريكي درابر هذه الحادثة النكرة بالقول: (دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا مناصب حساسة وخطيرة في دولة الروم. وعلى هذه الشاكلة كان قسطنطين الذي قضى عمره في الظلم والجور، ولم يكترث بالكنيسة إلا في آخر أيامه سنة 337م)، ولم تتخلص الديانة الجديدة من أدناس الوثنية وأرجاسها إذ بقيت متلبسة بالأساطير والتصورات الوثنية: خرج مجمع خلقيدونية سنة 451م بإعلان يعترف للمسيح بطبيعتين لا اختلاط بينهما ولا تغيُّر،



اغناطيوس الرابع في رسالة إلى البابا :

مقاربة الدين كقضية فكرية تمس المعتقدات

وجه بطريرك إنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس اغناطيوش الرابع رسالة إلى البابا بنديكت السادس عشر، هذا نصها الكامل:

قداسة الحبر الأعظم البابا بنديكت السادس عشر الجزيل الاحترام، بعد التحية والتمنيات بصحتكم ..

تابعنا بقلق بالغ تصريحاتكم وردود الفعل الغاضبة التي رافقتها على مدى الأيام الماضية، وفي هذا الصدد نود أن نوضح لقداستكم بعض النقاط الجوهرية التي يعيشها ويؤمن بها مسيحيو الشرق، وهم الأكثر معرفة ودراية وفهما للمسيحية والإسلام معاً أكثر من أي جهة أخرى في هذا العالم، وهم في حالة تعايش وتعاون وانسجام منذ بداية الدعوة الإسلامية حتى يومنا هذا .

وقد أقمنا أفضل العلاقات القائمة على احترام الأديان، وحرية ممارسة الشعائر، كل كما يشاء، وبحسب تعاليم دينه، وقواعد شريعته، انطلاقاً من أن العلاقة الجوهرية السامية بين المسيحية والإسلام، وثقافة التعايش الفريدة انطلقت من

ولا تجزؤ، ولا انفصال، ولا يمكن أن ينتفي خلافهما بسبب اتحادهما، بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها، وتجتمع في أقنوم واحد وجسد واحد، هو ذلك الابن، والله، والكلمة. وقد رفض اليعاقبة هذا القرار، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة، وقالوا: إنه مركب الأقانيم، له كل الصفات الإلهية والبشرية. لكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعُد ثنائية ،بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم. لقد لاحقهم الإمبراطور تيتوس وصلبهم وحرقهم بالنار. هذه الخلافات وغيرها الكثير عاجلت النصرانية منذ نشأتها، وامتزج التصوري الاعتقادي فيها بعناصر غريبة كل الغرابة على طبيعتها وطبيعة الدين الإلهي في أصوله الأولى. ولم يعُد التصور النصراني بما أدخل من تحريفات متوالية وصياغات من المجامع المقدسة العامة قادراً على تقديم التفسير الإلهي الحق للوجود، وصلة الوجود بخالقه، وحقيقة هذا الخالق وصفاته.

ما بال هذا الإسلام يخرج عن الصف فلا يريد إلا إلهاً واحداً، أولٌ بلا بداية، آخر بلا نهاية، له الأسماء الحسنى التي يشتق هذا الوجود صفاته منها؟ ولما بلغت الدولة الرومية أوجها، ووصلت الحضارة أقصى درجات سُلَّمِها، هبطت الأخلاق وانهارت القيم، وانغمس الناس حتى شحمة الأذن في الملذات، أرادت الكنيسة تدارك الأمر، والوقوف في وجه الشعار الجامح والتردي المكامح، فكانت ردَّة الفعل نحو اليسار.. أقصى اليسار، شمخت الرهبنة، وأصبح الزهد والتقشف والحرمان عنوان الرجوع إلى الفضيلة. لم يكن ذلك في الواقع علاجاً بقدر ما كان خروجاً عن جادة الفطرة وطبائع الأشياء. لقد

❖ لقد نشر العرب معلومات عن مناطق من العالم، كان الأوروبيون يشكون أصلاً في وجودها فضلاً عن عدم وصولهم إليها، مما ترتب عليه تقدم مهم لعلم الجغرافيا بعد أن فاق العرب أساتذتهم اليونان.

لوبون

هذا الشرق ومن هذه الأرض التي هي أرض الديانات المقدسة، وقد أشاد قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ـ كما تعلمون ـ بهذا التعايش وهذه العلاقة التي عرفها، وقرأ عنها، واطلع عليها خلال زيارته التاريخية لسوريا، ووقائع الزيارة وما كتب عنها وما قيل فيها صار جزءا من تاريخ الفاتيكان، ومرحلة من مراحل التطور الذي أراده قداسة البابا الراحل .

ولا نريد الخوض في تفصيلات تتناول علاقة المسيحية بالإسلام، والإسلام بالمسيحية، تلك العلاقة الزاخرة بالمواقف التي تكرس التعايش والاحترام المتبادل، فنحن في غنى عنها في هذه الظروف، كما لا نريد التذكير بأن أطول السور الواردة في القرآن الكريم هي التي تتحدث باحترام وتقدير شديدين عن المسيحية، ولكننا نريد الإشارة إلى أن الحديث عن الدين كموضوع وبحث أكاديمي لا يستقيم مع حقيقة أن الدين عقيدة وإيمان يمارسه المؤمنون، فلكل الحق حق في ممارسة شعائره الدينية كما يشاء، ولا مجال هنا للاجتهاد واعتبار الدين قضية فكرية بمقدار ما هي قضية عقائدية، وأن تناولها بهذا الشكل يمس المفاهيم والمعتقدات .

آملين أن تساهموا في رفع جوهر الأديان من على مائدة الحوارات والاجتهادات والاستشهادات التي عفاها الزمن، وإن تقارب هذه الثوابت العقائدية للأديان من منظور معاصر لا من منظور العصور الوسطى، مؤكدين أن الدين ليس لممارسة الترف الفكري والفلسفي بمقدار ما هو للعيش والتعايش بالمحبة بما ينسجم مع المعتقدات والشرائع والشعائر أيضا، وهذا ما يتسم به الشرق الذي فيه نعيش منذ بداية الرسالات السماوية. نطلب أدعيتكم، وندعو لقداستكم بكل خير.

عجز نظام الرهبنة عن أن يشكل أساساً لنظام أخلاقي بديل. صدّ الناس عن الدين، مهّد لحوافز الانقضاض عليه، وكان سبباً مباشراً في خلق الفصام بين الدين والدنيا.. فصاماً أبدياً غير قابل للتقارب وإصلاح البين.

ثم كانت الطامة الكبرى يوم اكتشف الناس الذين أخذتهم الكنيسة بهذا الحرمان القاسي الذي كان شرطاً لا بد منه لدخول الجنة؛ أن الكنيسة صديق حميم للإقطاع، وأن الحياة الشخصية لرجال الكنيسة تعج بالفواحش والمنكرات وما يحرم على المؤمنين حلالٌ مباحٌ لهم.

يقول الراهب جيروم: (انحطت أخلاق البابوات، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال. كانوا يبيعون المناصب والوظائف بَيْع السِلع، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران. ينقضون القانون ويمنحون شهادات الخلاص كأوراق النقد وطوابع البريد). وقد أورد (درابر) في كتابه «الصراع بين الدين والعلم» النص الكامل لصيغة الصك الذي جاء في بعضه: «ربنا يسوع يرحمك يا فلان، ويملّك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة. وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحُلُّك من جميع القصاصات، والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها ـ مهما تكن عظيمة وفظيعة ـ ومن كل علة ـ وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس الباب والكرسي الرسولي ـ وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة.. أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح...».

لكنَّ الأدهى والأنكى أن الكنيسة احتفظت لنفسها بحق فهم الكتاب المقدس وتفسيره، وحظرت على أي عقل من خارج الكهنوت أن يحاول فهمه وتفسيره، وأدخلت معميات في العقيدة لا سبيل لإدراكها أو تصورها أو تصديقها لحين أصبحت جزءاً من الشعائر التعبدية.

❖ الدين الذي قال عنه نيافته انه يجافي العقل كتب قرآنه في حياة قائله ودوّن وروجع.
❖ النبي الذي جاء بالدين المخالف للعقل ـ كما يزعم ـ نهى عن كتابة الحديث كي لا يلتبس بكلام الله.

يأتي (العشاء الرباني) في مقدمة الأمثلة، وهو الذي ثار عليه مارتن لوثر وكالفن وزنجاتي، العشاء الرباني من المستحدثات التي لم يجيء بها الكتاب المقدس ولا عرف به النصارى الأولون ولا المجامع وخلاصته: «إن النصارى يأكلون في الفصح خبزاً، ويشربون خمراً، ويسمون ذلك «العشاء الرباني». وقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح، والخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحال هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه.

ختاماً إن معلوماتنا هذه ليست مقتبسة ولا منقولة على لسان إمبراطور كان يتلذذ بمشهد الأسود التي تفتك بأجساد المصارعين الأسرى. إنها مأخوذة من كتب وشهادات من القرن العشرين والحادي والعشرين.

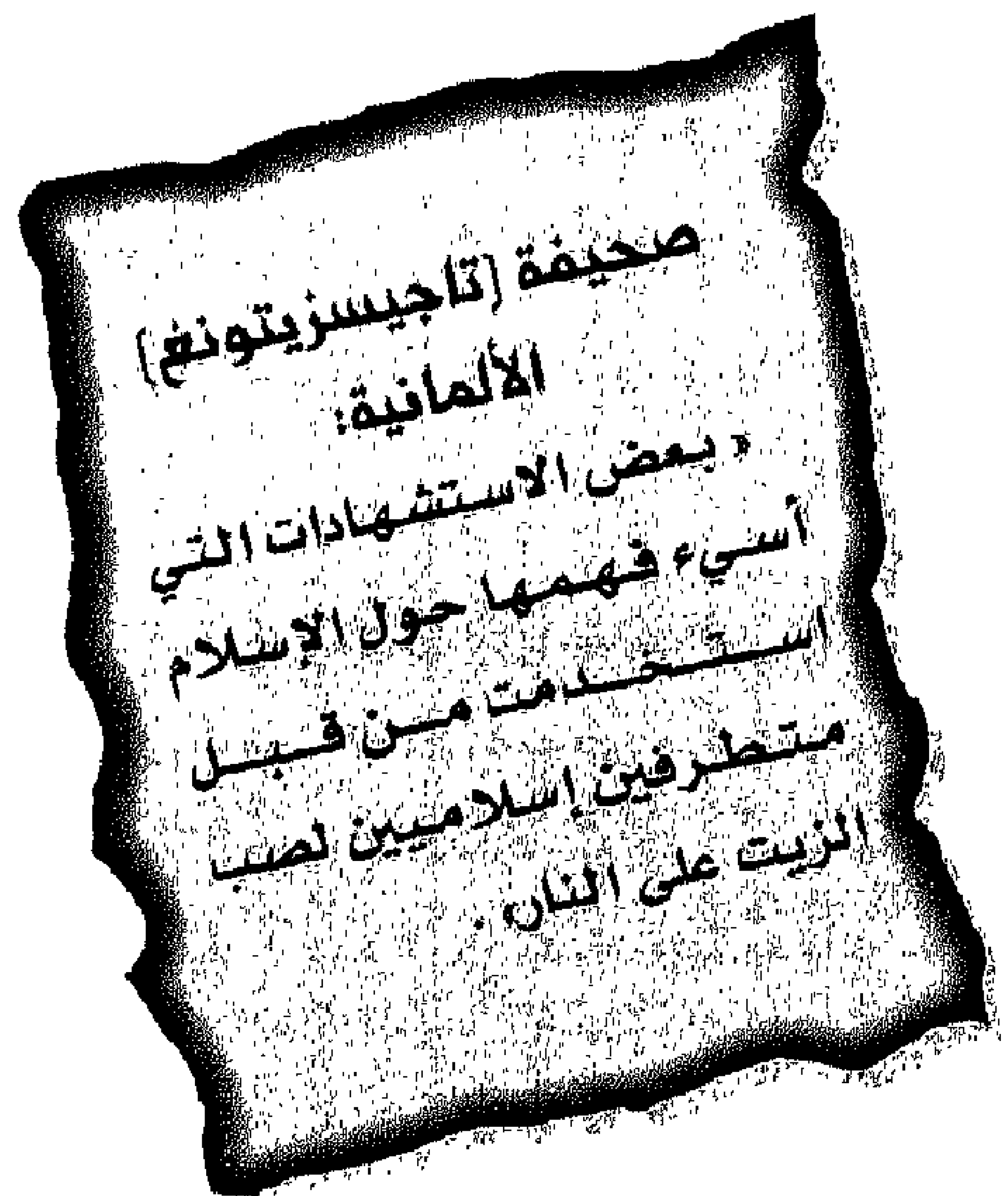
وبين القرن السادس عشر والقرن الحادي والعشرين خمسة قرون، مسافة زمنية قصيرة، أليس كذلك؟

خيال أم حقيقة ؟!

إعداد: التحرير

الآراء التي اقتبسها رئيس الكنيسة الكاثوليكية في محاضرته الثلاثاء 12-9-2006 مسيحي، جاءت في إطار جدل بيزنطي أرثوذوكسي معادٍ للإسلام، كما أنها هي ذات الآراء التي رسمت صورة الإسلام السلبية والمجافية للحقيقة في مخيلة مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية.

وكان بابا الفاتيكان أشار إلى أن الحرب المقدسة أو الجهاد الإسلامي «مفهوم غير مقبول ويخالف الطبيعة الإلهية»، وفي محاضرة ألقاها بجامعة ريجينسبورغ التي كان يدرس فيها علم اللاهوت بين عامي (1969 و1977 مسيحي)، قال بنديكت السادس عشر: «إن المسيحية ترتبط بصورة وثيقة بالعقل، وهو الرأي الذي يتباين مع أولئك الذين يعتقدون في نشر دينهم عن طريق السيف، في إشارة غير صريحة إلى الإسلام والمسلمين».



ثم عرج البابا في سياق شرح وجهة نظره في الفقرة الثانية مباشرة في حديثه واقتبس كلاماً مدوناً عن الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوجوس (1391 ـ 1425 مسيحي)، جاء فيه أن «محمداً جلب أشياء شريرة لا إنسانية، مثل أمره بنشر الدين الذي يدعو إليه بالسيف». واقتبس البابا عدة مرات من مدونات الإمبراطور باليولوجوس التي قال إنه كتبها إثر حوارات جرت بينه وبين مثقف فارسي مسلم.

وبحسب مراجع غربية وتاريخية، فإن ما أسس بابا الفاتيكان حديثه عليه اقتباساً من مدونات الإمبراطور باليولوجوس مبنية على كثير من التناقضات ومشكوك في حقيقة نسخها من الأصل، وإن كانت تعكس في نهاية الأمر رؤية لاهوتية معادية للإسلام.

ووفق الحقائق التاريخية، فإن تلك الحوارات جرت بين الإمبراطور باليولوجوس في الفترة بين شهري أكتوبر وديسمبر عام 1391 وبين قاض مسلم مثقف ومطلع، وبلغت نحو 26 حواراً، أول اثنين منها حول الإسلام، وأهدى الإمبراطور هذه الحوارات التي دوّنها لأخيه ثيودور الأول عام 1399 فقام بكتابتها.

وتقول موسوعة أباطرة الرومان على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) في محاولة لتفسير الفارق الزمني الكبير بين الحوارات وزمن انتهاء الكتابة: «ربما كان الإمبراطور يقوم بكتابة تدوين فقط في أثناء إجراء الحوار مع القاضي المسلم». لكن الموسوعة التاريخية ترجح على الأقل أن بعض هذه الحوارات لم يتم أصلاً، وأنها نتاج خلط الحقيقة بالخيال.

ويعزز الشكوك المثارة حول هذه الحوارات التي قيل إنها مع «فارسي» مسلم أن الموسوعة ذكرت هذا المسلم باعتباره فارسياً، بينما المعروف تاريخيًا أنه كانت بين الدولة الصفوية (في فارس) والدولة العثمانية سجال سياسي وعسكري؛ وهو ما يضعف تلك الرواية؛ حيث يفترض منطقياً أن يكون الحوار مع شخصية عثمانية وليست فارسية.

وتشير موسوعة أباطرة الرومان إلى أن الإمبراطور اعتمد ضمن هذه الحوارات في سياق دفاعه عن المسيحية ضد الإسلام على آراء جده لأمه جون السادس، والتي تتبني أصلا على نقد القرآن (Confutatio Alchoraniz) لراهب الدومنيكان (Ricoldo of Montecroce) وريكولدو أوف مونتيكروسي المتوفى عام 1320 مسيحي.

وخلصت الموسوعة إلى أن رؤية الجد (جون السادس) والحفيد (مانويل الثاني) ورأيهما التقليديين يظلان كلية في الإطار العام للجدل البيزنطي المعادي للإسلام.

وساهمت هذه الرؤية في تشكيل صورة ذهنية سلبية عن الإسلام وعن نبيه ﷺ في الثقافة السائدة في التراث الغربي، مفادها أن المسلمين نشروا دينهم «بالسيف والدم».. وأن تعاليم الإسلام الآن تغذي «الإرهاب» الذي يشيعه في العالم أتباعه من «الإرهابيين»!.

لكن الموسوعة لم تغفل في الوقت نفسه كون تلك الرؤية غذاها واقع سياسي كان يعد واقعاً أسود للدولة البيزنطية في ذلك الحين؛ ما يمكن أن يفقدها الكثير من الموضوعية، وربما كان انعكاساً لمأساة عاشها الإمبراطور؛ حيث فرض السلطان العثماني بايزيد الأول ـ وهو رابع قادة العثمانيين والمعروف بالصاعقة لشدة بأسه وسرعة بطشه بأعدائه ـ على الأباطرة البيزنطيين السابقين زيادة الجزية المفروضة عليهم، وإنشاء محكمة إسلامية وتعيين قضاة مسلمين بها للفصل في شئون الرعية المسلمة.

❖ نظرية هنري دي شامبون

وجاء في (الحديقة) في الجزء السابع صحيفة (246) تحت عنوان (**الانتصار الهمجي على العرب**) قول هنري دي شامبون مدير (ريفو بارلمنتير) الفرنسية : لولا انتصار جيش «شارل مارتل» الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي ، ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخرنا في المدنية ثمانية قرون ، ونحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة ، مع أنا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل ، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية . وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى.

❖ نظرية مستر كنورثي

وجاء في كتاب (الحديقة) جزء (11) صحيفة (67) عن مستر «كنورثي» الكاتب البريطاني الشهير أنه قال في مقالة نشرها في جريدة «هرالد تريبون» التي تطبع في نيويورك بأمريكا تحت عنوان (**ضغط العالم المسيحي ستة قرون على روح الحرية الإسلامية**): عندما حكم الخلفاء بغداد أداروا أمورهم بروح الحرية فارتفعت العلوم في أيامهم ، وازدهرت الحكمة ، حتى أخذ الغرب علومهم عنهم ودرسها في جامعاته ، وقد بقيت هذه الروح بعد سقوط بغداد ستة عصور كاملة تئن من ضغط العالم المسيحي المستمر عليها .

رجال دين مسيحيون..

ماذا قالوا عن إساءة بنديكت للإسلام؟!!

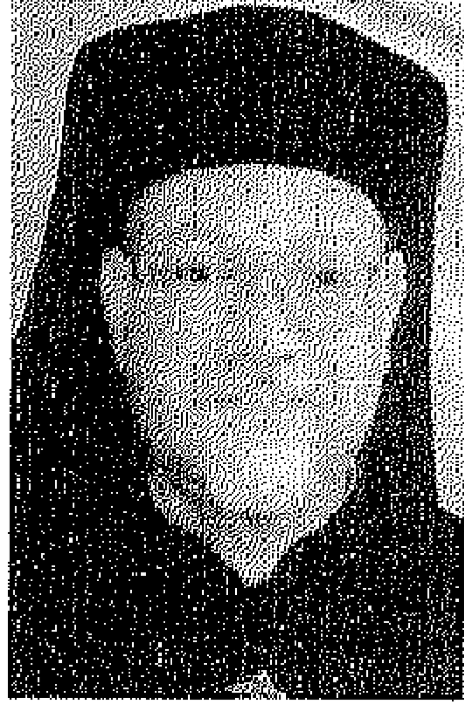
المسيحية لا تسيء أبداً للديانات السماوية


البابا شنودة الثالث

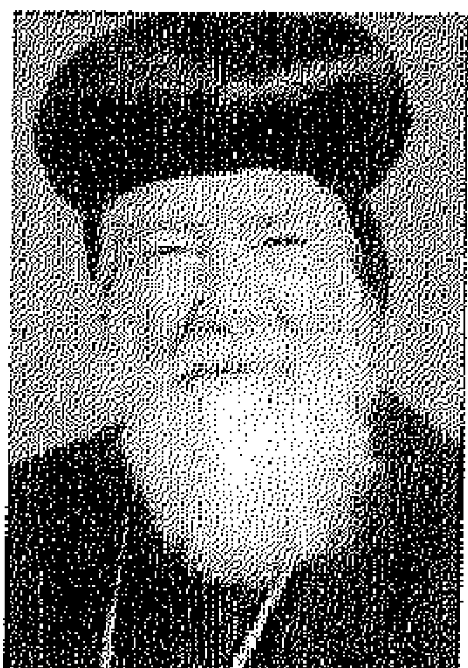
أكد البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية إثر تصريحات البابا بنديكت المقتبسة من القرن الرابع عشر، والتي كانت عبارة عن حوار مقتبس دار بين الإمبراطور البيزنطي ومثقف مسلم فارسي، حيث أوضح البابا شنودة أنه كان يتعين على بابا الفاتيكان أن يضع نصب عينه ردود فعل الشعوب الإسلامية، وما تثيره تلك الكلمات التي جاءت في تصريحاته، وأن يتجنب ما يثير غضب المسلمين من شيوخ وأطفال ونساء ورجال دين وعلماء مسلمين، مؤكداً أن هذا النص لا يصلح أن يقال في هذا العصر الذي نعيش، وأن المسيحية تؤمن بالأديان السماوية، معرباً عن أمله في عدم تفاقم ردود الفعل وضرورة ضبط النفس، حيث إننا نعيش في مصر في مودة وإخاء.

الدين يجمع ولا يفرق

قال الأنبا أنطونيوس نجيب بابا الكاثوليك في مصر: إنني قرأت ورأيت كثيراً من الكلمات والأعمدة التي ذكرت أن بابا الفاتيكان أساء للإسلام، وأنا لا أخاف من مواجهة الواقع بل أواجه الواقع، وإن كان لنا أسف عميق، ولكنني أعلم أن الدين يجمع ولا يفرق، الدين يرفع ولا يغرق، وأنا واثق أن البابا لم يكن يقصد أبداً الإساءة، وأريد أن أكرر أن البابا بنديكت بنية صادقة لم يكن يقصد أن يتسبب في إساءة الأقلية المسلمة ومعاملتهم على أحسن ما يكون، فلا أستطيع أن أتصور أن البابا يريد أن يسيء إلى الشرق ولا حتى أن يسيء إلى دين له الاحترام العظيم في قلب الكنيسة الكاثوليكية، فلقد وضعت دستوراً كاملاً من أجل الحوار مع الأديان غير المسيحية في فتره طويلة مع الدين الإسلامي والثوابت المشتركة بيننا وبين الإسلام. وأضاف الأنبا أنطونيوس أن بابا الفاتيكان أعلن احترامه وتكريمه ومودته للدين الإسلامي، ودعا إلى حوار الحضارات والى العمل البناء للمستقبل. وقال إنه يجب أن نعمل معاً بالعقول المستنيرة، ولا نجعل أحدا يفرق بيننا.


الأنبا أنطونيوس نجيب

نتعلم من المسيح مدح الإنسان وليس ذمه


الأنبا مرقس

قال الأنبا مرقس المتحدث باسم الكنيسة الشرقية إنه عندما ظهر ماكس ميشيل على الساحة وحدث الجدل حوله فإن المسلمين هم الذين تصدوا له، وعندما صدرت تصريحات البابا ظن الناس

خارج مصر أن المسيحيين هم المسلمون، وأن معدن الشعب المصري الأصيل يظهر دائماً في الشدائد، ويظهر الجميع كشعب واحد في الضيقات، ولا يمكن أن يستغل مهما حدث وهو ما انطبق عليه قول الكتاب المقدس (كل الأشياء تعمل معاً للخير).

وعن تصريحات بابا الفاتيكان أشار الأنبا مرقس إلى أنها فرصة طيبة للعالم كله أن يعلم مدى الصلة بين المسلمين والمسيحيين، وكذلك أن يعرف العالم أخطاء اللسان، وهذه النقطة خاصة بالصوم، فالمسلمون يصومون، وهكذا المسيحيون، وهم بذلك يتعلمون فضائل كثيرة، فالصوم هو تعبير عن حب الإنسان لله، إذ يقدم الإنسان جسده ذبيحة حب لله، وفى الصوم حفظ اللسان، فيأخذ الإنسان في اعتباره رد فعل هذه الكلمات هل هو صحيح أم خطأ ؟ تسيء أم تضر؟ مدروسة أم مقتبسة بطريقة صحيحة أم خاطئة؟.

وأكد الأنبا مرقس أنه عند الاستشهاد بكلمات من الإسلام فلا بد من أخذ رأى الأصدقاء المسلمين وهم يحضرون المراجع ويقولون ما يتحدث وما لا يتحدث فيه، والعتاب هنا هو أن البابا بنديكت عندما استشهد بهذه الأجزاء لم يعرف رأى المسلمين : هل سيضايقهم؟ وهل هذا الكتاب المقتبس منه النص مصرح به وتمت الموافقة عليه ؟ فالإنسان يصون اللسان، ونتعلم من المسيح مدح الإنسان وليس ذمه. إنه يجب أن يكون هناك تواصل وفتح حوار ولقاءات كثيرة بين المسلمين والمسيحيين، وليس في الأوقات الطارئة فقط.

التعاطف مع اليهود على حساب العقيدة الإسلامية

أبرز أسقف دمياط وكفر الشيخ وسكرتير المجمع المقدس الأنبا بيشوي أن البابا بنديكت السادس عشر رئيس الكنيسة الكاثوليكية كان يحاول عند إلقائه المحاضرة الأخيرة بالجامعة الألمانية في ظل المناخ السائد بألمانيا والذي يهدف إلى التعاطف مع اليهود على حساب العقيدة الإسلامية، بعد الحرب على لبنان وقيام حزب الله بإطلاق صواريخ على المدن الإسرائيلية التي قتل فيها نساء وأطفال، متسائلاً : لماذا يكيل بابا روما بمكيالين ؟ ولماذا لم يشر إلى العنف اليهودي ضد الفلسطينيين والعرب في حرب 1956، 1967.


الأنبا بيشوي

وأضاف أنه كان يسعى للدخول في تحليل خاص بأسباب الإرهاب، ولكن من الواضح أنه دخل في متاهة (هو في غنى عنها) لأنه أخطأ بالإساءة للإسلام، وكان عليه أن يتذكر أن هناك آراء متنوعة بخصوص هذه الظاهرة. كما كان عليه التذكر أنه رئيس أكبر كنيسة قديمة في العالم، وأن يضع ذلك في الاعتبار حتى لا يضع الكنيسة في هذا الموقف المحرج.

وينتقل الأنبا بيشوي إلى نقطة دعم الغرب لإسرائيل من خلال الضغوط التي وجهت أصابع الاتهام لألمانيا أو ما يعرف بـ (عقدة الذنب) والتي كلفت الألمان أموالاً طائلة لدفع تعويضات لليهود بعد الحرب العالمية الثانية، وترويج مصطلح (محرقة الهولوكست) وبما أن بابا روما ينتمي للجنسية الألمانية فهو يسعى لدعم الكيان اليهودي.

وأشار الأنبا بيشوى إلى أن القضية أكبر بكثير من محاضرة ألقاها بابا روما، وربما تكون هذه المحاضرة مفتاحاً لدخولنا في حوار حقيقي حول كل هذه القضايا المختلفة، ومنها ضرورة إقناع الغرب بأن دعم الفكر اليهودي شيء غير مقبول، كما أنه لا يجب الكيل بمكيالين، في وصف عنف الأشخاص أو إرهاب الدولة. ويضيف أنه قام بتوضيح تلك الأمور لمجلس الكنائس العالمي، وتم طرح عدة حلول منها أن يتم إقناع اليهود بأن بناء الهيكل ليس من مقاصد الله، وأن تسليم المسجد الأقصى بكامل السلطة للمسلمين سيكون حلاً لإنهاء الخلافات الطويلة وتحقيق السلام للطرفين.

وطالب الأنبا بيشوي بأن لا يندفع الشارع الإسلامي في الغضب، وأن يسعى لضبط النفس ويعطي وقتاً للتفكير، بعيدا عن أشكال العنف المختلفة، و لاسيما بعد اعتذار بابا روما. مؤكداً أن الأزمة لن تستمر طويلا، وستعود الأوضاع للاستقرار. وتمنى الأنبا بيشوي العودة للحوار بين الأديان لخلق تقارب يساعد على قبول الآخر وتحقيق التعايش في سلام بين الشعوب.

تأمل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية


عاطف فهيم

ذكر عاطف فهيم (صحفي قبطي من مؤسسة جود نيوز) أن البابا بنديكت السادس عشر المفترض فيه أن يجسد ويترجم على أرض الواقع كل تعاليم المسيح الداعية للمحبة والإخاء؛ ينتقد علناً - وإن كان بلغة غير صريحة أو مباشرة - الإسلام والمسلمين، معتبراً أن كل عمليات العنف والإرهاب في العالم تعتمد في انطلاقها على ركائز دينية يدعو لها الإسلام ويحض عليها. وإنني أتعجب حقاً كيف لبابا الفاتيكان المفترض فيه وفي دولته الصغيرة أن يكون راعياً للحوار والسلام؛ يحض بتصريحاته الغريبة هذه على الكراهية والعنف، وكأن العالم الذي يموج بالحروب والمجاعات والأوبئة في حاجة لمزيد من الحرائق تشتعل بسبب الدين.وأدعو البابا بندكت لأن يتأمل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية؛ لكي يتأكد له - بما لا يدع للشك - أن الإسلام مع المسيحية واليهودية عقائد سماوية سامية تدعو للسلم والسلام والتنمية والحوار والتعايش المشترك. يقول الإسلام بوضوح وشفافية وبما لا يدعو للشك أو المواربة:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾

[سورة النّحل:الآية125]

﴿...وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة:الآية2]

و ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

هكذا الإسلام، يؤمن بالتنوع في الجنس والدين واللغة والعرق، ويؤمن بالتعايش المشترك والتعاون من أجل مستقبل أفضل للبشرية. ولو أن الإسلام جاء بغير ذلك ما كان نصراني واحد يعيش حتى اليوم في بلاد العرب والمسلمين.

عصر التجريح للديانات انتهى


يوحنا قلتة

اعتبر الدكتور يوحنا قلتة نائب البطريرك الكاثوليك في مصر، أن تصريحات بابا الفاتيكان فاجأت المسيحيين الكاثوليك في المشرق العربي قبل أن تفاجئ المسلمين في شتى أنحاء العالم، منوها في الوقت نفسه بأن البابا لم يتعمق بما فيه الكفاية في دراسة وفهم الإسلام.

وأضاف قائلاً: «لا أخفي القول إن تصريحات بابا الفاتيكان فاجأت المسيحيين الكاثوليك في مصر، والمشرق العربي قبل أن تفاجئ المسلمين في العالم»، معرباً عن استغرابه لهذه التصريحات من البابا؛ موضحاً: إننا لم نتعود - كمسيحيين كاثوليك - على هذا الأسلوب منذ زمن طويل، وحيرتي منشؤها أيضاً أن الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية لها علاقات طيبة، وعقدت معاهدات مع المسلمين منذ وقت طويل». ودلل على ذلك بالقول: «لقد سلّم القائد صلاح الدين الأيوبي - وكان بوسعه، وهو المنتصر، أن يفعل أشياء كثيرة - مفتاح القدس إلى ريتشارد قلب الأسد الكاثوليكي، ومنذ ذلك الحين وللكنيسة الكاثوليكية في القدس أكبر مساحة من الأديرة والكنائس».

واستطرد قائلاً: «في العصر الحديث، وتحديداً عام 1964م أطلق الفاتيكان وثيقته حول الإسلام أشاد

فيها بروح الإيمان والتقوى عند المسلمين، حتى إنه مع البابا الحالي ثبتت لجان للحوار مع العالم الإسلامي.
وحول دوافع وخلفيات تصريحات البابا، قال قلتة: «علينا أن نعي أولاً أن البابا (بنديكت السادس عشر) لم يتعامل مع المسلمين في مشوار حياته، ولم يقترب من المسلمين والإسلام بما فيه الكفاية». وأشار قلتة في هذا الصدد إلى أنه « ينبغي أن نعترف في المقابل بأن هناك غيابا للفكر الإسلامي المعتدل عن العالم، بل الأكثر أننا أصبحنا ـ سواء المسيحيين أو المسلمين في المشرق العربي ـ متهمين بالتطرف والإرهاب». وأردف قائلاً: «إنني كقس حين أذهب للغرب ينظرون إليَّ بريبة وشك باعتباري عربياً». وشدد على أن «عصر التجريح للديانات انتهى، فكما أن المسيحية ديانة عالمية تبشيرية فإن الإسلام أيضا ديانة عالمية ولكل منهما خصوصيته التي تحترم».
من جهة أخرى قال قلتة: «أعتب على الإخوة المسلمين وأعتبرهم مقصرين في التواصل مع الغرب والفاتيكان في التعريف بتعاليم الإسلام السمحة». ودعا «العلماء المسلمين في العالم إلى مقابلة البابا وطلب تفسير منه؛ لكي يصلح ما جرح المسلمين، ويمكن اقتناص هذه الفرصة في توضيح موقف البابا».

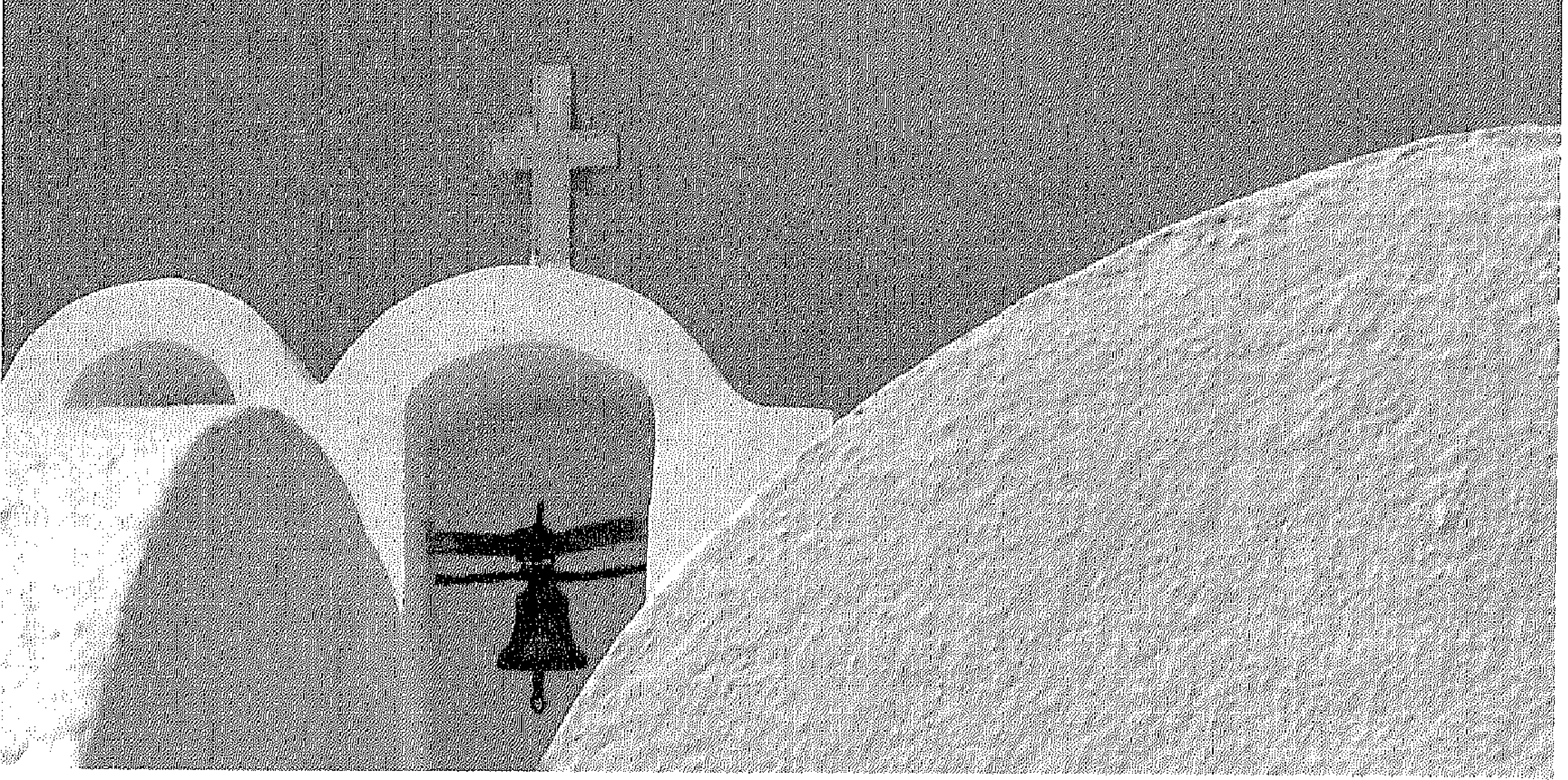
اعتماد الحوار والبحث عن نقاط لقاء تجمع ولا تفرق

قال الأب يوسف شحادة راعي كنيسة مارجرجس «توقفت عند محاضرة قداسة البابا وما ورد فيها من عبارات على لسان الإمبراطور وصفها البابا نفسه بالفظة، وتابعت ردود الفعل العربية والإسلامية والدولية، ويمكنني الجزم بأن البابا ـ كما قال ـ لم يكن يمس مشاعر المسلمين، وقد أعلن أسفه واحترامه لكل من يؤمن بالعقيدة الإسلامية». وشدد الأب شحادة على إدانته « لأي هجوم على المعتقد الديني لأي كان»، وطالب بـ «اعتماد الحوار والبحث عن نقاط لقاء تجمع ولا تفرق في هذا العالم المليء بالشرور، والذي يحتاج إلى المحبة التي دعا إليها الإنجيل المقدس»، مشيراً إلى أن البابا وقف مع المسلمين والإسلام عندما رفض الرسومات التي أساءت لرسول المسلمين. إلا أنه توقف ـ كمسيحي عربي ـ عند (هذا الغرب) الذي «هدم المقدسات وأزال صفة التقديس عن كثير من مقدساتنا المسيحية قبل أن يتطرق إلى الإسلام والمسلمين». وأوضح الأب شحادة «في الغرب أفلام وكتابات ورسومات كثيرة تسيء للمسيح وللعذراء وللإله، ولكل معتقد ديني يخص المسيحيين، إلا أن أحداً لا يجرؤ على المساس باليهودية، لأن جهات نسجت شباكها حول الإعلام والكتابة وباقي الفنون». وأضاف «إنهم يستغلون مفهوم الحرية المقدس للإساءة للحرية فأي حرية هذه؟ أليست فتنة ومدعاة للفتنة؟».

المسيحية ليست في خصومة وصراع مع الإسلام

أكّد البطريرك زكا الأول عيواص بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس أن المسيحية «ليست في خصومة وصراع مع الإسلام»، مؤكداً أن الدين المسيحي «يكرم» الإسلام. وقال في بيان أصدره حول تصريحات البابا التي أثارت الشارع الإسلامي والعربي «إن الصراعات الدائرة حالياً ليست بين الإسلام والمسيحية بل بين أعداء الشعوب ومثيري الحروب وبين الشعوب التي تريد حريتها واستقلالها وكرامتها»، معرباً عن أمله أن «يوضح بابا الفاتيكان مواقفه من الأديان الأخرى»، وأن « يبرئ المسيحية من أعمال مثيري الحروب في فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان»، معبراً من منظور معاصر لا من منظور العصور الوسطى.

الطوائف الأرثوذكسية ترفض خطاب البابا وتدعو إلى توضيحات



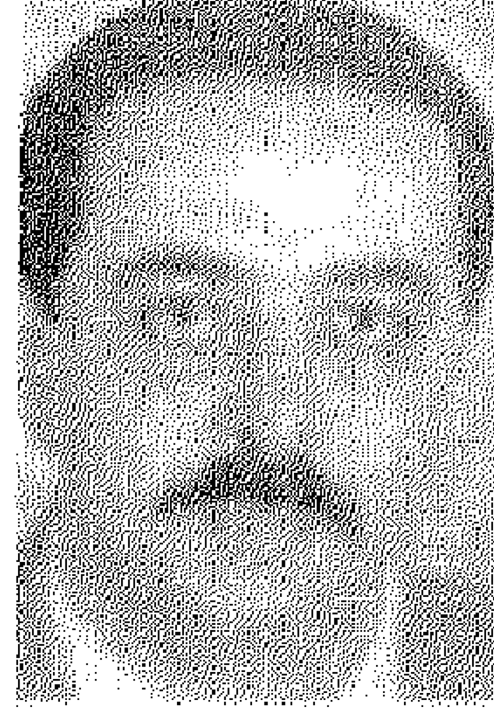
ندد رؤساء الطوائف المسيحية الشرقية الأرثوذكسية في العراق بخطاب بابا الفاتيكان المتضمن انتقادات وجهها إلى الفكر الإسلامي. ورفض رؤساء الطوائف المسيحية في بيانهم ما ورد على لسان البابا بنديكت السادس عشر، وأعربوا عن مشاعرهم قائلين «أحزننا وآلمنا ما ورد على لسان بابا الفاتيكان الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية من أمثلة حول الإسلام، فإننا لا نرضى بما تضمنه كلامه من تجاوز على الشعور الديني لإخوتنا المسلمين»، مؤكدين في بيانهم على أنهم يقفون « في الوقت ذاته، متضامنين مع أخوتنا المسلمين أينما وُجدوا، معلنين محبتنا لبعضنا البعض وتعايشنا السلمي والأخوي، ورأينا الود المتبادل في الدين وعبادة الخالق الواحد، لا يفرق بيننا أيا كان مهما كان انتماؤه أو موقعه».

ودعا رئيس أساقفة كنيسة المشرق في العراق المطران كيوركيس صليوا ومطران بغداد والبصرة لطائفة السريان الأرثوذكس المطران سيوريوس حاوا، ورئيس الكنيسة الشرقية القديمة في العراق والعالم البطريرك أدى الثاني، ورئيس طائفة الأرمن الأرثوذكس في العراق المطران آفاك أسادوريان، والقس يونان ألفريد عن غبطة المطران قسطنطين بابا ستيفانو رئيس طائفة الروم الأرثوذكس في العراق في بيانهم؛ دعوا «جميع العقلاء والحكماء والمؤمنين إلى ضبط النفس والتعاون معاً لمعالجة الأزمة». كما طالب رؤساء الطوائف المسيحية «الفاتيكان بتفسير وإيضاح للأمثلة الصادرة عن البابا وبالسرعة الممكنة»، على حد وصف البيان.

مفكر قبطي:
البابا مرجعية فكرية لتقسيم المنطقة

أكد المفكر القبطي الدكتور سمير مرقص، أن تصريحات بنديكت السادس عشر، بابا الفاتيكان، التي عبَّر فيها عن موقف مسيء للإسلام وللرسولﷺ تخدم المخططات الغربية الرامية لتقسيم المنطقة عبر تأليب المسلمين على المسيحيين، وزرع بذور الكراهية بينهما؛ باعتبار الإساءة صادرة عن أحد رموز المسيحيين المهمة في العالم؛ وهو ما يجعلها تشكل

«مرجعية فكرية» لأصحاب هذه المخططات. وشدد مرقص على أن تصريحات البابا لم تكن موفقة من حيث مضمونها وتوقيتها وتداعياتها المستقبلية على العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في العالم.

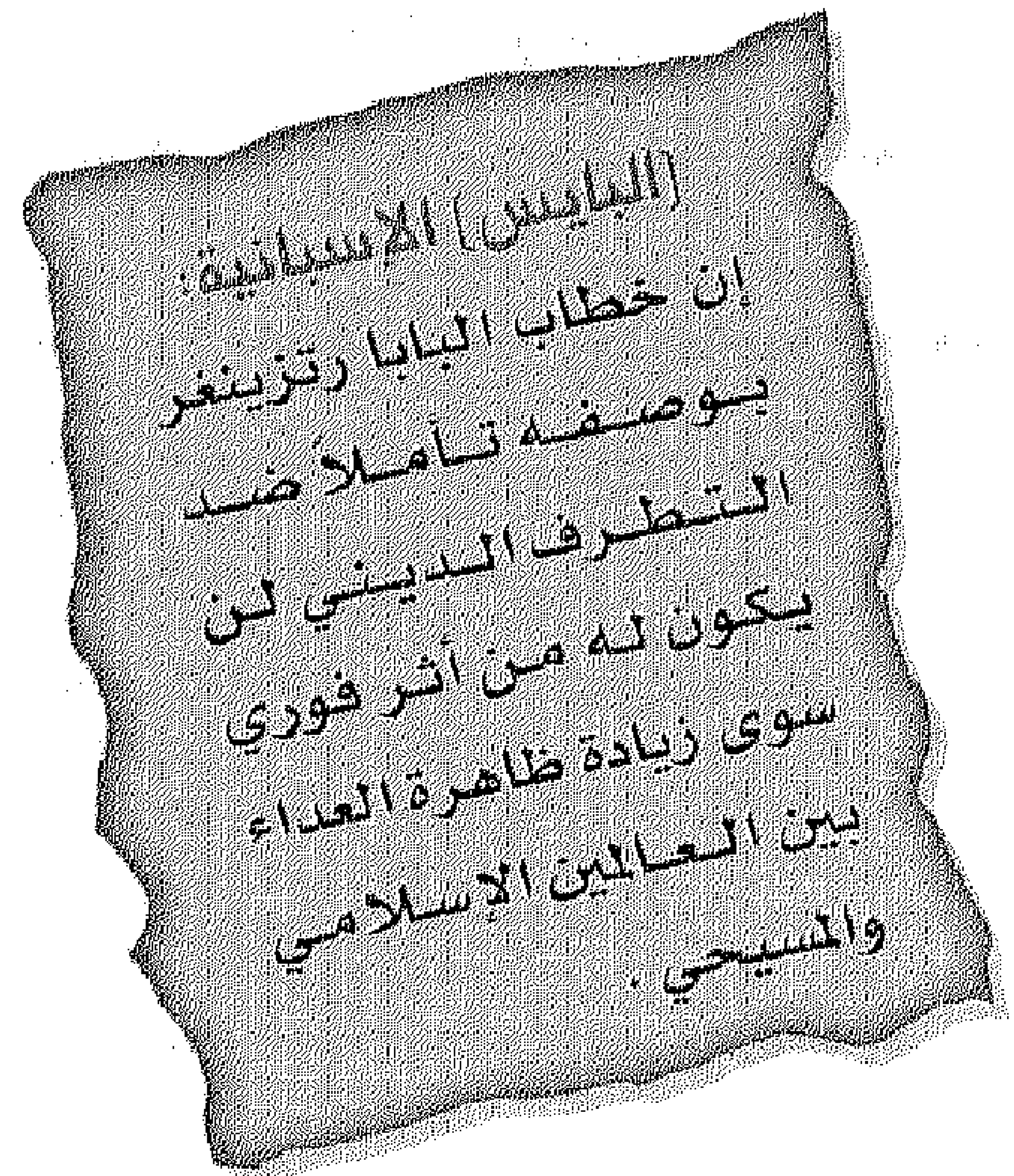

سمير مرقص

ورأى المفكر القبطي أن تصريحات البابا جاءت على «خلفية محافظة ومتشددة للعقيدة الكاثوليكية».

وقال مرقص: إن «تصريحات البابا جانبها التوفيق من حيث المضمون والتداعيات السلبية حيث ستسهم لا شك في نجاح مخططات خارجية ترمي لتقسيم المنطقة وتفكيكها إلى دويلات صغيرة على خلفيات طائفية أو عرقية بهدف إحكام السيطرة عليها».

وبيّن أن السيطرة تتم من خلال «إنتاج آليات للتفكيك الداخلي عبر إثارة النعرات الدينية والمذهبية والقومية من وقت لآخر»، كما أشارت مراكز بحثية أمريكية في الآونة الأخيرة.

وأشار مرقص إلى أن تصريحات البابا «تهيئ لعمل مرجعية فكرية تعمل على التفكيك». وأوضح قائلاً: «إن التصريحات المسيئة للإسلام خرجت من أحد رموز المسيحيين المهمة؛ وهو ما سيؤدي إلى استنفار مسلمي المنطقة في مواجهة المسيحية في العالم».



وأوضح قائلاً: «ربما تحدث بعض المشاحنات في الداخل بنظرة البعض لمسيحيي الداخل باعتبار أنهم امتداد للخارج، وهذا غير صحيح؛ لأن التهديدات الخارجية لا تفرق بين مسلم ومسيحي».

واعتبر مرقص أن تصريحات البابا لا تعبر إلا عن توجه خاص وفردي يمثله البابا ولا يعبّر عن مجموع التوجهات التعددية بالفاتيكان. وقال: «الفاتيكان مؤسسة لها آلياتها الحوارية ولديها توجهات متنوعة من عقول ومراكز بحثية هيكلية قادرة على تدارك الأمر، واستيعاب التصريحات».

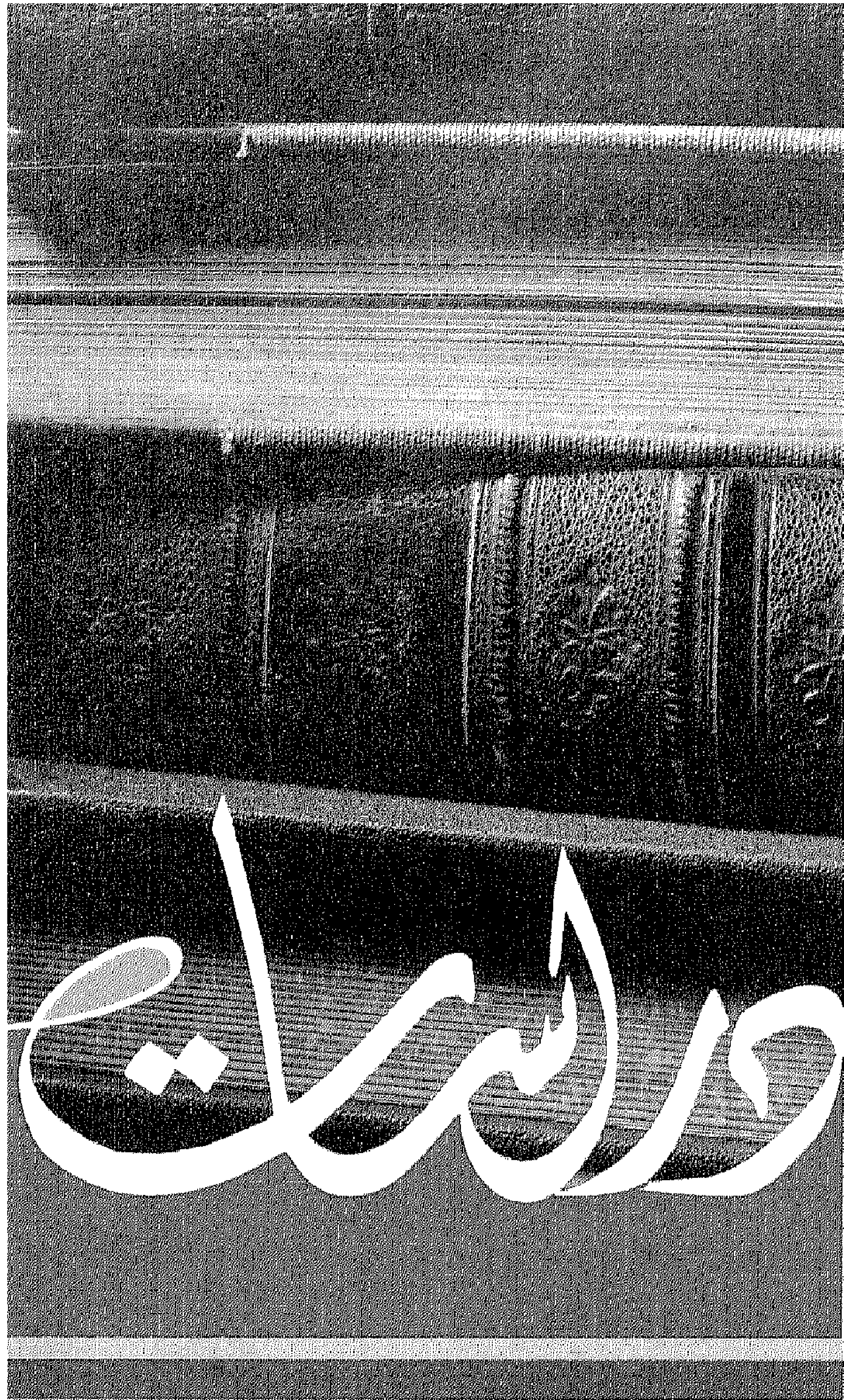
وحول خلفية تصريحات البابا قال مرقص: «إن تصريحات البابا المسيئة للإسلام ربما جاءت وفقا لمسيرته الفكرية، حيث كان يشغل موقع المسئول عن الإيمان والعقيدة بالفاتيكان» وأضاف: «ربما بحكم الموقع يميل البابا إلى المحافظة والتشدد للعقيدة الكاثوليكية».

ودلل مرقص بموقفه من حركة لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، وكيف واجهها بشكل حاد وعنيف في داخل الإطار الكاثوليكي في منتصف الثمانينيات.

يشار إلى أن (لاهوت التحرير) هو القراءة الثورية للمسيحية التي من خلالها أعاد بعض آباء الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية قراءة المسيحية لمصلحة الفقراء والمعدمين والمظلومين والمهمشين، في ضوء اتجاه الكنيسة لإعادة تكييف علاقتها مع المجتمع.

وكانت تصريحات البابا المثيرة للجدل في محاضرة بألمانيا عن الإسلام ونبيه الكريم قد استندت إلى رؤية لاهوتية قديمة عمدت إلى تشويه الإسلام، غذاها صراع سياسي بين الدولتين العثمانية والبيزنطية، كما تشير المراجع الغربية التاريخية.

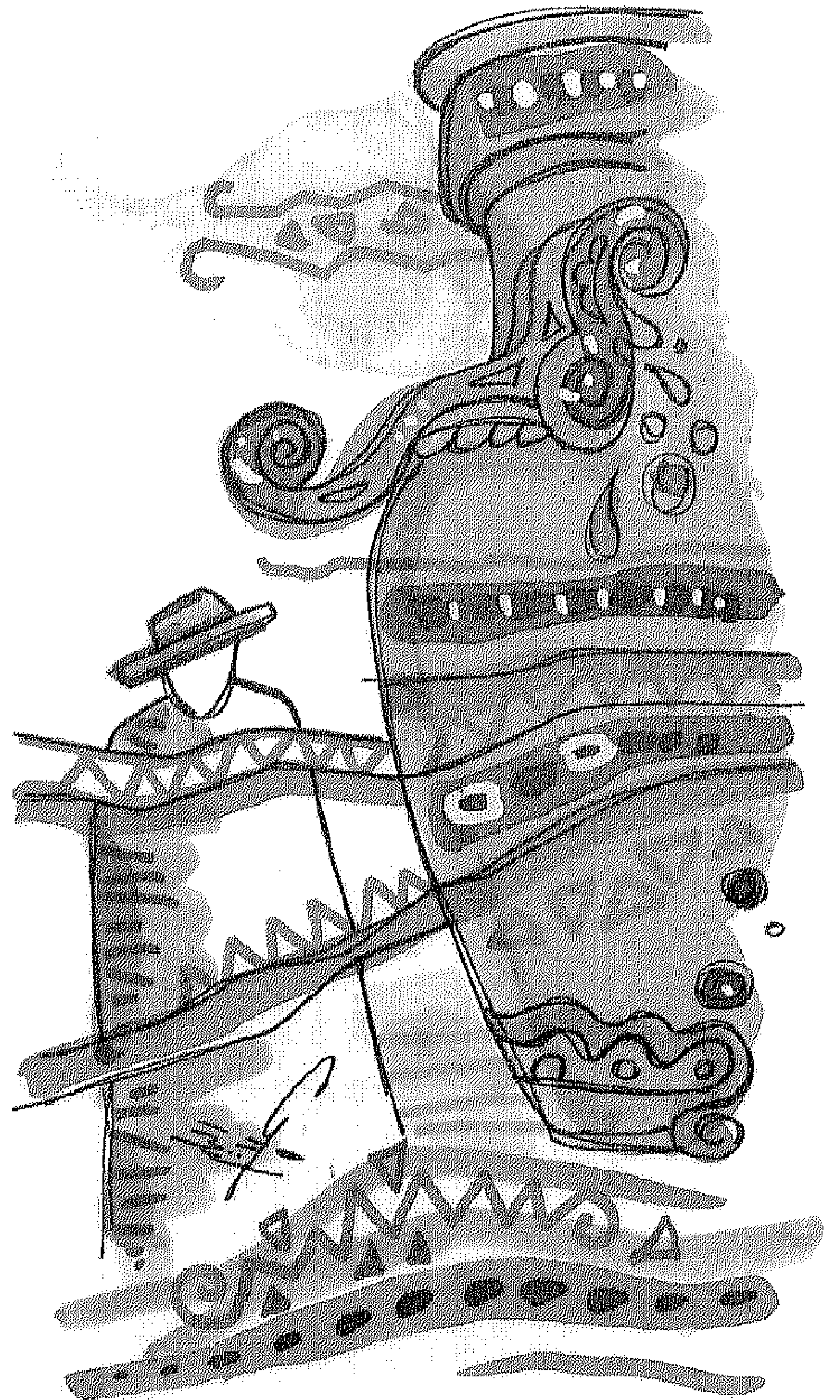
ولم يفت مرقص التأكيد على أن المسيحيين الشرقيين بالمنطقة لهم موقف مغاير من تصريحات البابا، حيث إن «لهم جذوراً متأصلة في المنطقة وأي تهديد للمنطقة هو تهديد غير مباشر للمسيحيين».



❖ أثر الحضارة العربية ـ الإسلامية على الحضارة الأوروبية
في مجال الفنون

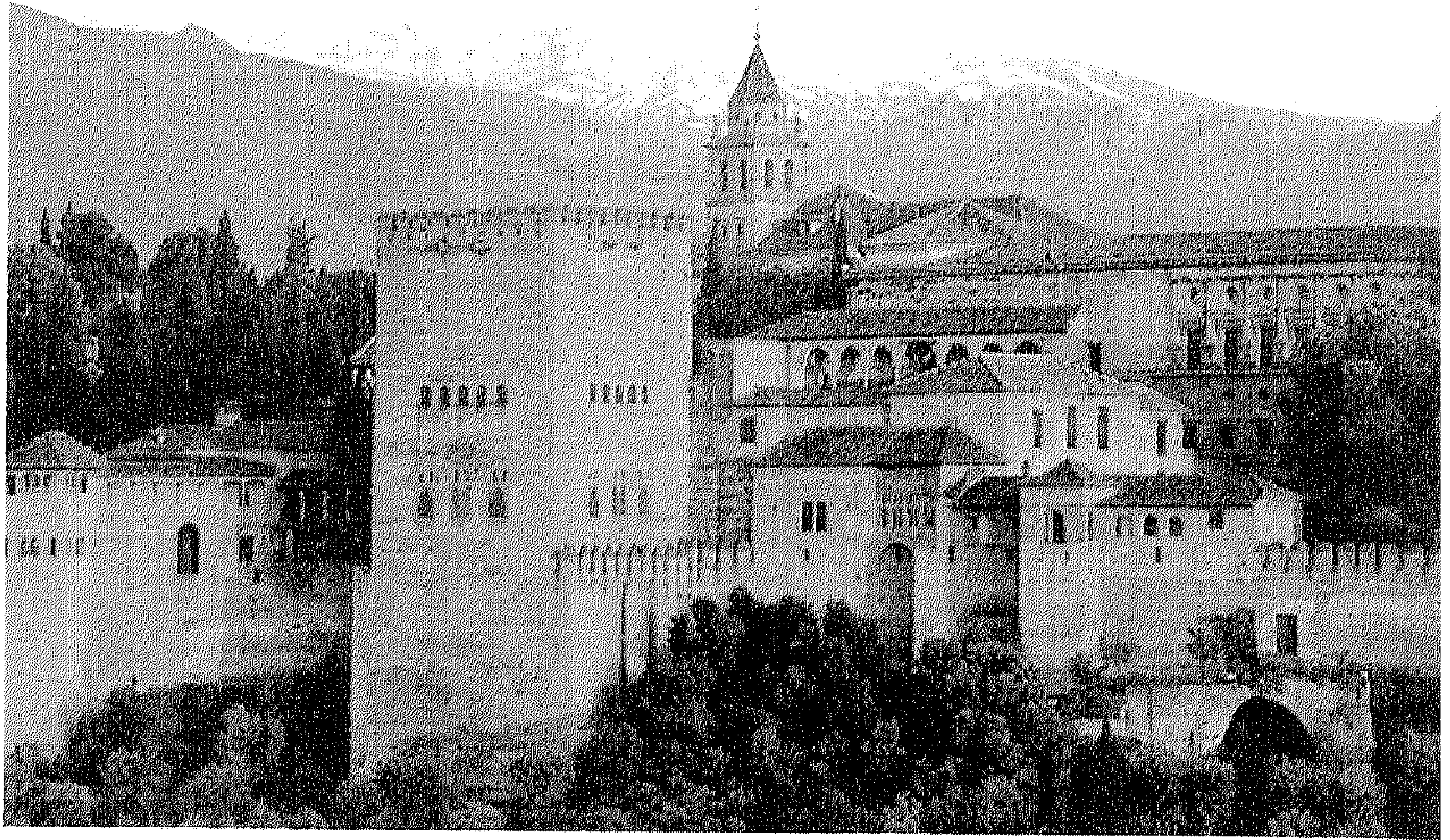
أثر الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوروبية في مجال الفنون

د. إيهاب أحمد إبراهيم *



يجدر بنا قبل أن نناقش أثر الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية، أن نتحدث عن المعابر والجسور، التي انتقلت من خلالها هذه التأثيرات إلى أوروبا، والتي بدونها ما كان من الممكن أن تنتقل هذه التأثيرات الحضارية، ولكن قبل أن نتناول مناقشة هذا الموضوع، أحب أن ألفت الانتباه في أول الأمر، إلى مسألة غاية في الأهمية، بدونها لم يكن من السهل انتقال التأثير الحضاري الإسلامي إلى أوروبا، وهذه المسألة تتعلق بشكل مباشر، بطبيعة الحضارة العربية الإسلامية، والدرجة التي بلغتها من النضج والازدهار، والتطور والتقدم، الأمر الذي فرض واقعًا، يستوجب نوعًا من الهيمنة والسيطرة التي أدت في النهاية، إلى انتشار نظم هذه الحضارة في بقية أنحاء العالم، ثم يأتي بعد ذلك دور هذه المعابر والجسور، الذي يقتصر على تحديد مسارات هذا الانتشار، بشكل خاص إلى أوروبا، وهو ما أملته أوضاع سياسية واقتصادية وجغرافية،

* باحث وأستاذ جامعي/ مصر.



قصر الحمراء في غرناطة

وغيرها الكثير، ومن ثم فقد كان للحضارة الإسلامية، قوة دفع ذاتية، هي التي فرضت انتقال تأثيرها، إلى غيرها من حضارات العالم.

هذا بالإضافة، إلى أنه توافرت للحضارة العربية الإسلامية، أمور أفضت إلى حتمية انتقال تأثيرها، إلى غيرها من حضارات العالم، وأقصد بها الموقع الجغرافي، الذي نمت عليه هذه الحضارة، وهو موقع تشغل معظمه منطقة قلب العالم، أو وسط العالم ومركزه، وهذا وفر له مزية، أن يقع في منطقة تلاقي طرق التجارة العالمية، ولعب دور الوسيط التجاري، الذي تجتمع لديه روافد حضارات العالم لتصب فيه، وبشكل معاكس تنهل منه، لترفد مرة ثانية تلك الحضارات، حيث كانت طرق التجارة العالمية، من أهم المعابر التي انتقلت عليها، التأثيرات الحضارية بشكل عام، مما يعمل على إحياء الثقافات وازدهار العلوم، والآداب والفنون.

الأندلس:

كان لفتح العرب للأندلس في سنة 711 مسيحي، دور مهم في انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا، وذلك باعتباره كان بمثابة اقتطاع العرب لجزء من أوروبا المسيحية، وظل العرب يحكمون تلك المنطقة إلى سنة 1492 مسيحي، حيث اختلط العرب بأبناء شبه الجزيرة الأيبيرية، وتعايشوا معًا سلميًا، وخلقوا من هذا التعايش حضارة عربية إسلامية، على الحدود الجغرافية لأوروبا، وأصبحت الأندلس بذلك مركزًا حضاريًا يشع على أوروبا من علوم وآداب وفلسفات وفنون العرب(1).

1ـ كريست ـ أرنولد ـ بريجل، تراث الإسلام، ترجمة: زكي محمد حسن، ج1، لجنة الجامعيين لنشر العلم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1936 مسيحي، ص ج-د؛ ج.ب. ترند.
أسبانيا والبرتغال، ترجمة وتعليق: حسين مؤنس، ضمن كتاب: تراث الإسلام، ج2، ص 1 ـ 78.

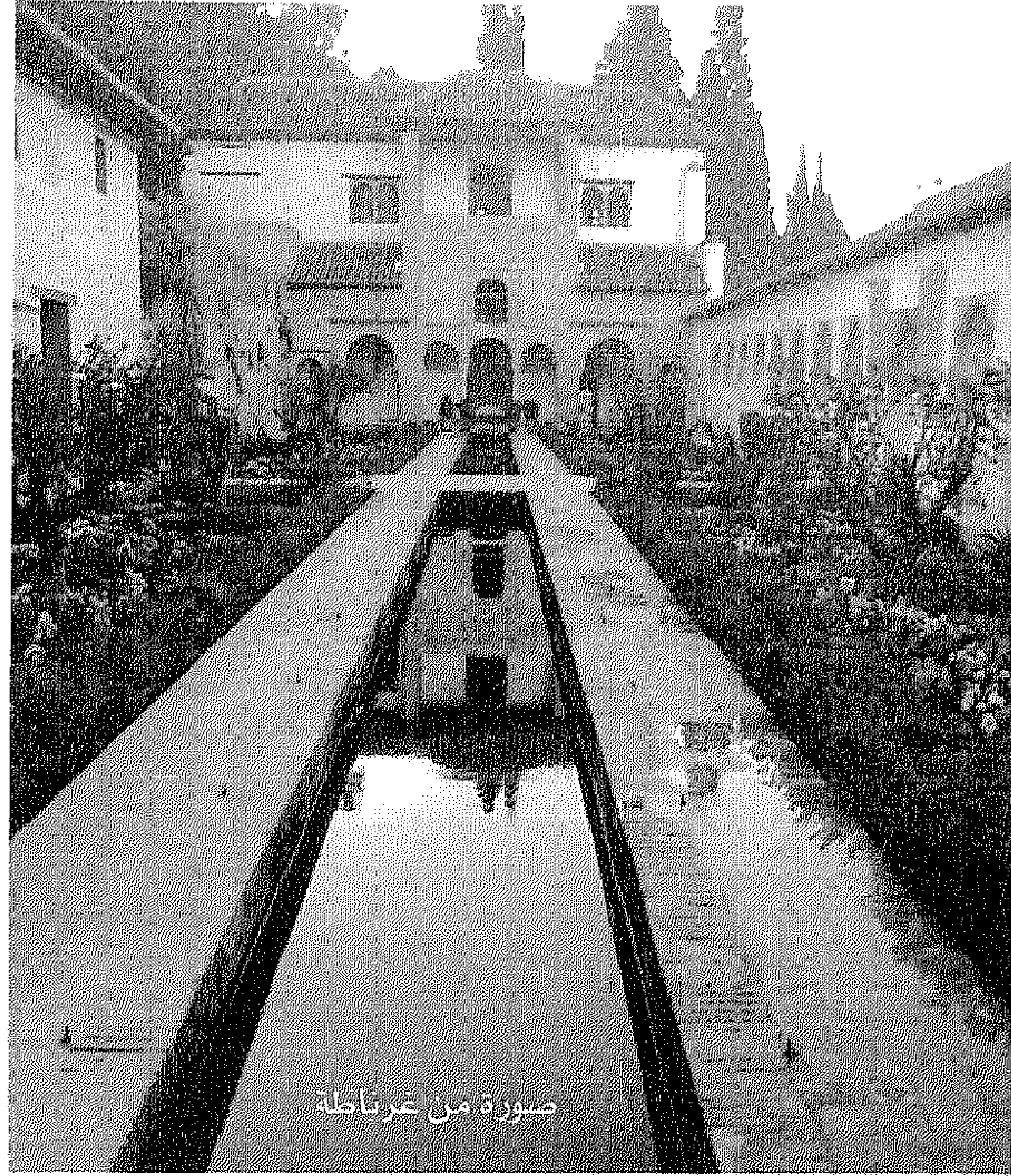
بلاد الشام والحروب الصليبية:

لقد استمرت الحروب الصليبية من عام 1097، إلى عام 1291 مسيحي، وبغض النظر عن نتائجها الحربية والسياسية، وما ألحقته من خسائر على الجانبين، فقد نشأت صلات تجارية وحضارية، بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، حيث مثلت تلك الحروب في النهاية، جسرًا انتقلت عليه المدنية العربية الإسلامية، إلى أوروبا(3).

حتى الأسرى المسلمون في الحروب، كانوا عاملاً لنقل الحضارة العربية الإسلامية، وكذلك الأسرى الأوروبيون قاموا بنفس الدور أيضًا(4).

حركة الترجمة:

لعبت حركة الترجمة دورًا مهمًا في تعرف أوروبا، على الحضارة العربية الإسلامية، فما أن أفاقت أوروبا من عصور ظلامها، وفطنت إلى ما حققه المسلمون، في مجال المعارف والعلوم المختلفة، حتى أخذت بأسباب التعرف على تلك الإنجازات العلمية، ومن ثم صارت هناك، حركة محمومة من الترجمة، في مجالات الكيمياء، والطب، والرياضيات، والفلك، والجغرافيا، والفلسفة، والأدب، والموسيقا، وغيرها من العلوم، وكانت هذه الترجمات هي الأساس الحقيقي، للنهضة الكبيرة التي شهدتها أوروبا(5)، وكانت كل من: جامعة قرطبة، ومدرسة طليطلة، ومدرسة


صورة من غرناطة

صقلية وجنوب إيطاليا:

لقد حكم المسلمون صقلية مدة، قاربت على خمسة قرون من الزمان (212 ـ 699هـ/827 ـ 1300 مسيحي)، حيث حظيت تلك المنطقة بحكم مزدهر، في عصري الأغالبة والفاطميين، انتشرت خلاله الحضارة الإسلامية في بقاعها المختلفة، حيث المساجد والقصور، والحمامات، والمستشفيات، والأسواق، والقلاع، وكانت صقلية معبرًا مهمًا، انتقلت عليه الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، إلى أوروبا(2).

---

2 ـ كريست، تراث الإسلام، ج1، ص د ـ هـ.
ايرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة: علي أحمد عيسى، ضمن كتاب: تراث الإسلام، ج2، ص 79 ـ 147؛ علي حسني الخربوطلي، العرب والحضارة، ص 274 ـ 282.

3 ـ مصدر سابق، تراث الإسلام، ج1، ص هـ ـ و.

4 ـ أحمد الشامي، الحضارة الإسلامية، ص 202.

5 ـ مونتجومري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص 83 ـ 87.
عبدالمنعم الجميعي، دور الحضارة العربية الإسلامية، ص 34 ـ 36.
توماس جولد شتاين، المقدسات التاريخية للعلم الحديث، ص 120 ـ 126.
عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ص 6 ـ 9.
إيناس حسيني، أثر الفن الإسلامي على التصوير في عصر النهضة، ص 118 ـ 119.

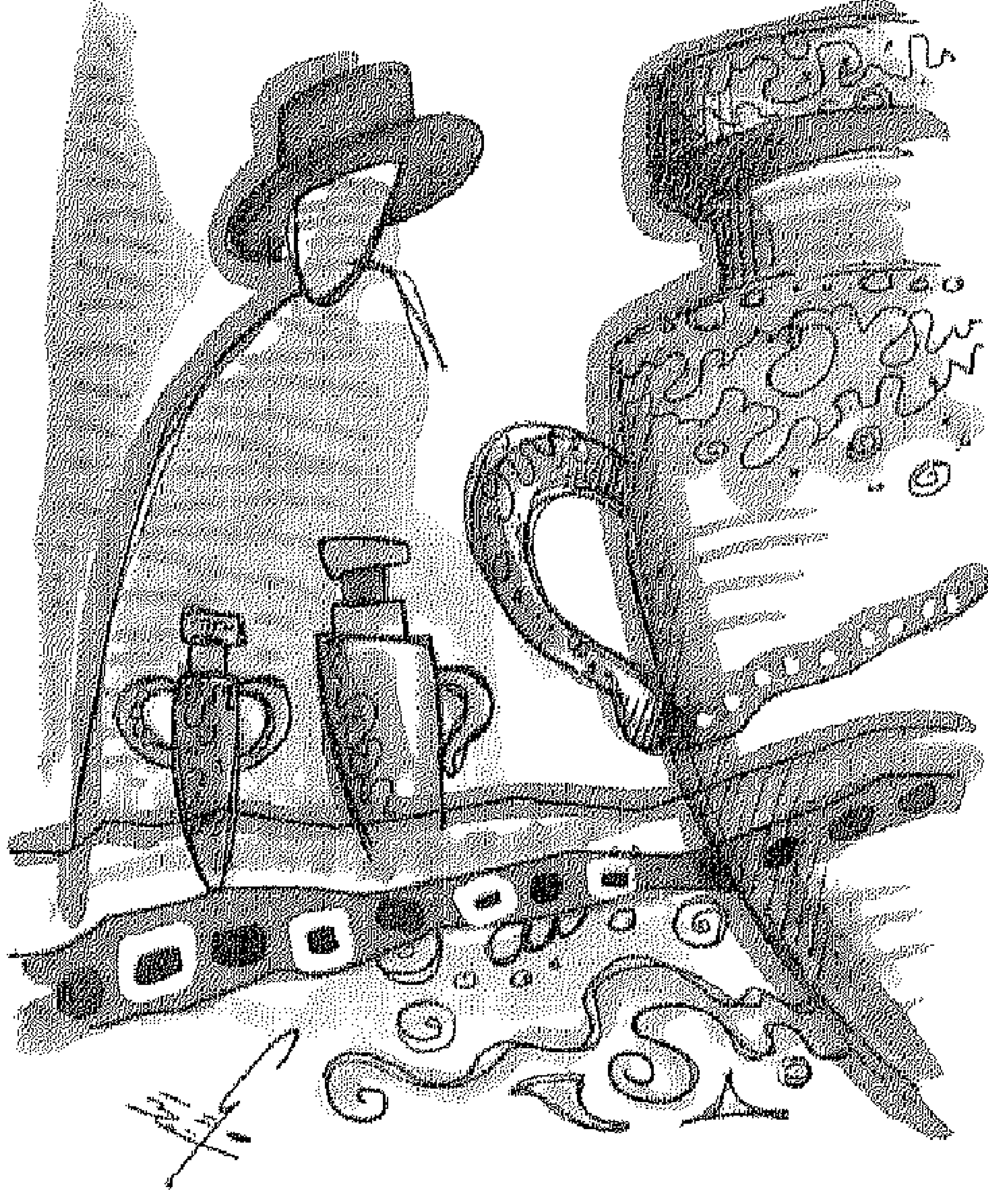
سالرنو، في صقلية من أبرز مراكز الترجمة الأوروبية[6].

السفارات والجاليات العربية في أوروبا:

كان للسفارات والجاليات العربية في أوروبا، أثر هام في تكشف أوروبا لمدنية وثقافة وحضارة الإسلام، حيث لم تقتصر العلاقات والصلات بين العرب وأوروبا، على الفتوحات أو الغزو الحربي، بل كانت هناك علاقات أكثر عمقًا، وشهدت القارة الأوروبية قدوم سفارات عربية، تحمل نفائس عربية أطلع الأوروبيون من خلالها على نتائج الحضارات العربية الزاهرة، وأقامت جاليات عربية في مدن أوروبا، وأصبحت منارًا للمدينة العربية، ومثال ذلك: السفارات التي كانت بين الدولة العباسية، ودولة الفرنجة، وبين الأندلس والدولة البيزنطية، وبين الفاطميين ومدن إيطاليا، وبين النورمانديين بصقلية، والدولة الأيوبية، وبين دولة المماليك ودول أوروبا[7].

العلاقات التجارية بين العرب وشمال أوروبا:

لعبت العلاقات التجارية بين الغرب وشمال أوروبا دورًا مهمًا في توثيق العلاقات الحضارية بين الطرفين، وكانت هذه الصلات، تتم عبر ثلاثة طرق، هي: طريق جبال البرانس، وطريق البحر المتوسط، وطريق (الفلجا) المؤدية إلى شمال أوروبا باجتياز بلاد روسيا، أما الطريقان الأولان، فكان يسلكهما عرب الأندلس، والطريق الثالث كان يسلكها عرب المشرق[8].



البعثات العلمية:

هذا، ولا يمكن إغفال الدور الذي لعبته البعثات العلمية، في نقل المعارف الإسلامية إلى أوروبا، حيث اهتمت الدول الأوروبية، بإرسال بعثات علمية، إلى بلاد الأندلس العربية الإسلامية، لدراسة العلوم والفنون والصناعات، في معاهدها الكبرى، ومن أشهر هذه البعثات، تلك التي أرسلتها فرنسا وإنجلترا وأسبانيا وإيطاليا والأراضي الواطئة[9].

الفتوحات العربية في أوروبا:

لقد نجح المسلمون في إقامة كيانات عربية إسلامية، على سواحل جنوب إيطاليا وفرنسا في القرن الثالث الهجري/ التاسع المسيحي، وما كان هذا النجاح إلا حلقة من الحلقات، التي انتقلت عبرها التأثيرات الإسلامية إلى أوروبا، حيث استولى

6- محمد غريب جودة، عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، ص 20 ـ 24.

7- علي حسني الخربوطلي، العرب والحضارة، ص 282 ـ 294.

حياة ناصر الحجي، أضواء على العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين دولة سلاطين المماليك وأوروبا أواخر العصور الوسطى، ضمن حصاد 7 (العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ)، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 133 ـ 143.

8- مصدر سابق، علي حسني الخربوطلي، العرب والحضارة، ص 295 ـ 296.

9- علي حسني الخربوطلي، العرب والحضارة، ص 310 ـ 314.

المسلمون على جزيرتي صقلية وكريت، والأرخبيل المالطي وجزر البليار[10].

وكذلك كان استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية وامتداد سلطانهم على أمم البلقان، وسكان جزائر بحر الأرخبيل، واتصال ملوك أوروبا ببلاط الخلافة، كان لذلك كله أكبر الأثر، على طبع فنون تلك الأقاليم، بطابع شرقي لا يزال ظاهرًا حتى اليوم، كما كان مصدر كثير من الأساليب الفنية الإسلامية، التي انتشرت من العالم التركي، إلى سائر أنحاء القارة الأوروبية[11]، كما نفذ العثمانيون إلى أجزاء أخرى من أوروبا، مثل بلجراد، ورودس والمجر ووصلوا إلى النمسا وحاصروها[12].

وكان للتأثير الكبير، الذي أحدثته الفتوحات الإسلامية، في نهضة البلاد المفتوحة، سببًا في جعل المنصفين من أبناء الغرب، يعدّون إخفاق الفتوح الإسلامية لبعض البلاد، بمثابة كوارث حلت بها[13].



الرحالة والرحلات :

لقد كان للرحالة الأوروبيين، الذين زاروا المناطق العربية الإسلامية، فضل كبير في الإسهام، بنقل التأثيرات العربية الإسلامية، إلى أوروبا، وذلك من خلال ما دونوه في رحلاتهم، عن المناطق التي زاروها[14]، وقد قام بنفس الدور، الرحالة العرب والمسلمون الذين قاموا برحلات إلى الغرب وأوروبا[15].

10- أحمد محمد الدسوقي المنوفي، الكيانات العربية الإسلامية على سواحل جنوب إيطاليا وفرنسا، ضمن حصاد 7 (العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ)، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 241 ـ 266.

11- كريست، تراث الإسلام، ج1، ص و. (مصدر سابق)، كمال سوكيتش، فن العمارة الإسلامية في منطقة البلقان والبوسنة والهرسك، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ ايسيسكو، سلا/ المغرب 1424هـ/ 2003 مسيحي، ص 19 ـ 38.

12- محمد حمزة إسماعيل الحداد، العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية، المجلد الأول، لجنة التأليف والتعريب والنشر، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت 1423هـ/ 2002 مسيحي، ص 55 ـ 86.

13- محمد غريب جودة، عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب، سلسلة الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2004 مسيحي، ص18.

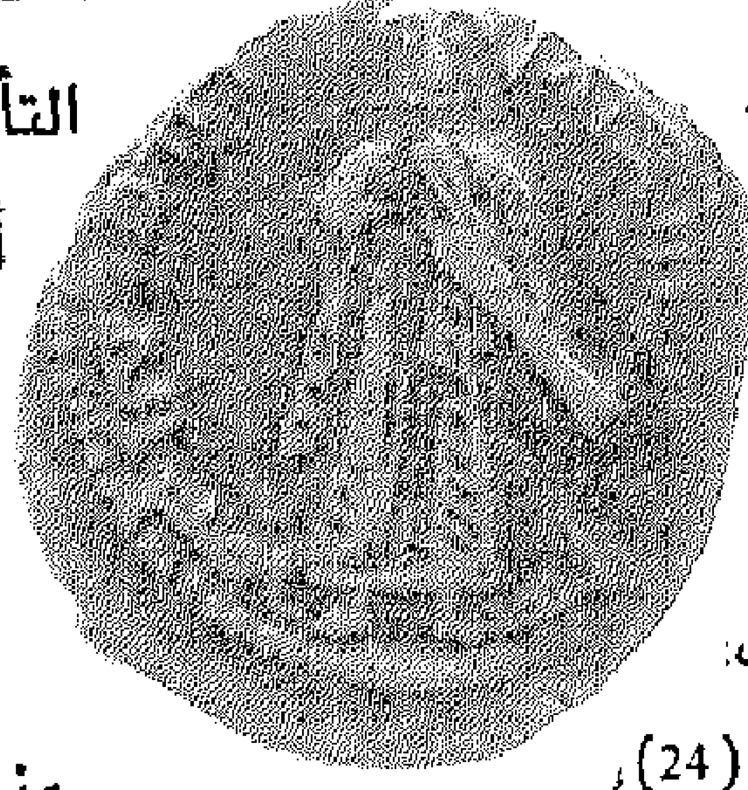
14- إبراهيم حركات، مصر في كتب الرحلات والجغرافيا الغربية الوسيطة، ضمن أبحاث ندوة: العلاقات المصرية المغربية الثانية، القاهرة 25 ـ27 يناير 1990 مسيحي، إصدارات بريزم، القاهرة 1992 مسيحي، ص 130 ـ 147.

أحمد محمد محمود الطوخي، غرناطة الإسلامية في نظر الرحالة الأجانب، مجلة أوراق، المعهد الأسباني العربي للثقافة، ع4، 1981 مسيحي.

15- أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد حماد، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ/ 921 مسيحي، تحقيق: سامي الدهان، ط2، مكتبة الثقافة العالمية، بيروت/ لبنان 1987 مسيحي.

وهناك الكثير من الشواهد، التي تؤكد تأث الفكر الأوروبي، بتراث العرب في مجالات الأدب(16)، والفلسفة(17)، والجغرافيا(18)، والتاريخ(19)، والموسيقا(20)، والتصوف(21)، هذا فضلاً عن تراث العرب العلمي، وأثره في الفكر الأوروبي في مجالات الرياضيات(22)، والفلك(23)، والتنجيم(24)، والكيمياء(25)، والفيزياء(26)، والطب(27)، والصيدلة(28)، و(التكنولوجيا) الهندسية(29)، والمصطلحات العربية(30)، والصناعة(31)، والزراعة(32).

وإذا كان المقصد الأساسي من وراء هذه الدراسة، هو تبيان أثر الفن الإسلامي، على فنون أوروبا، فإنه يلزم التنويه، إلى أنه بجانب ما ذكرناه آنفًا، عن المعابر التي انتقلت عن طريقها التأثيرات الإسلامية إلى أوروبا، توجد معابر أخرى انتقلت من خلالها التأثيرات الفنية على وجه خاص، منها:



الفنانون المستشرقون :

منذ عام 1480 مسيحي، وفد إلى عاصمة الدولة العثمانية الفنان الإيطالي الشهير (جنتيلي بلليني)، قادمًا من البندقية، بناء على طلب السلطان محمد الثاني، وأقام عامين في القسطنطينية، حيث اكتشف فنون حضارات شرقية غريبة عليه، أصبحت مصدر إلهام له، ولكثير من الفنانين الذين جاءوا من بعده، أمثال (كارباشيو) و(فيرونيز) و(جيروده) و(جرو)(33).

---

16 - هـ. آر. جب، الأدب، ترجمة وتعليق: عبداللطيف محمود حمزة، ضمن كتاب: تراث الإسلام، ج2، ص 148 - 221.

17 - الفرد جيوزم، الفلسفة والإلهيات، ترجمة وتعليق: توفيق الطويل، ضمن كتاب: تراث الإسلام، ج2، ص 222 - 323.

18 - عبدالمنعم الجميعي، دور الحضارة العربية الإسلامية، ص 50 - 54.

19 - المرجع نفسه، ص 54 - 57.

20 - أحمد الشامي، الحضارة الإسلامية، ص 211 - 212.

21 - عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص 23 - 29.

22 - مونتجومرى وات، مرجع سابق، ص 49 - 51، 87 - 89.
عبدالمنعم الجميعي، دور الحضارة العربية الإسلامية، ص 69 - 75.
توماس جولد شتاين، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، ص 135 - 142.
عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 17 - 18.

23 - مونتجومري وات، مرجع سابق، ص 51 - 53، 89 - 90.
عبدالمنعم الجميعي، مرجع سابق، ص 75 - 78.
توماس جولد شتاين، مرجع سابق، 130 - 131.
عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 18 - 20.

24 - تشارلز بورنيت، طريقة إسلامية في التنجيم بأسبانيا العصور الوسطى، ضمن كتاب: ديونيسيوس آجيوس - ريتشارد هيتشكوك، التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، ص 135 - 146.

25 - مونتجومري وات، مرجع سابق، ص 57 - 58.
عفيف البهنسي، أثر الجمالية الإسلامية، ص 63.
عبدالمنعم الجميعي، مرجع سابق، ص 79 - 83.
عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 20 - 21.

26 - عبدالمنعم الجميعي، مرجع سابق، ص 83 - 86.
توماس جولد شتاين، مرجع سابق، ص 131.

27 - مونتجومري وات، مرجع سابق، ص 53 - 57؛ 90 - 94.
عفيف البهنسي، مرجع سابق، ص 63.
أحمد الشامي، مرجع سابق، ص 213 - 215.
عبدالمنعم الجميعي، مرجع سابق، ص 87 - 93.
توماس جولد شتاين، مرجع سابق، ص 116 - 119.
عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 21 - 22.

28 - أحمد الشامي، مرجع سابق، ص 213 - 216.
عبدالمنعم الجميعي، مرجع سابق، ص 93 - 95.
توماس جولد شتاين، مرجع سابق، ص 117.

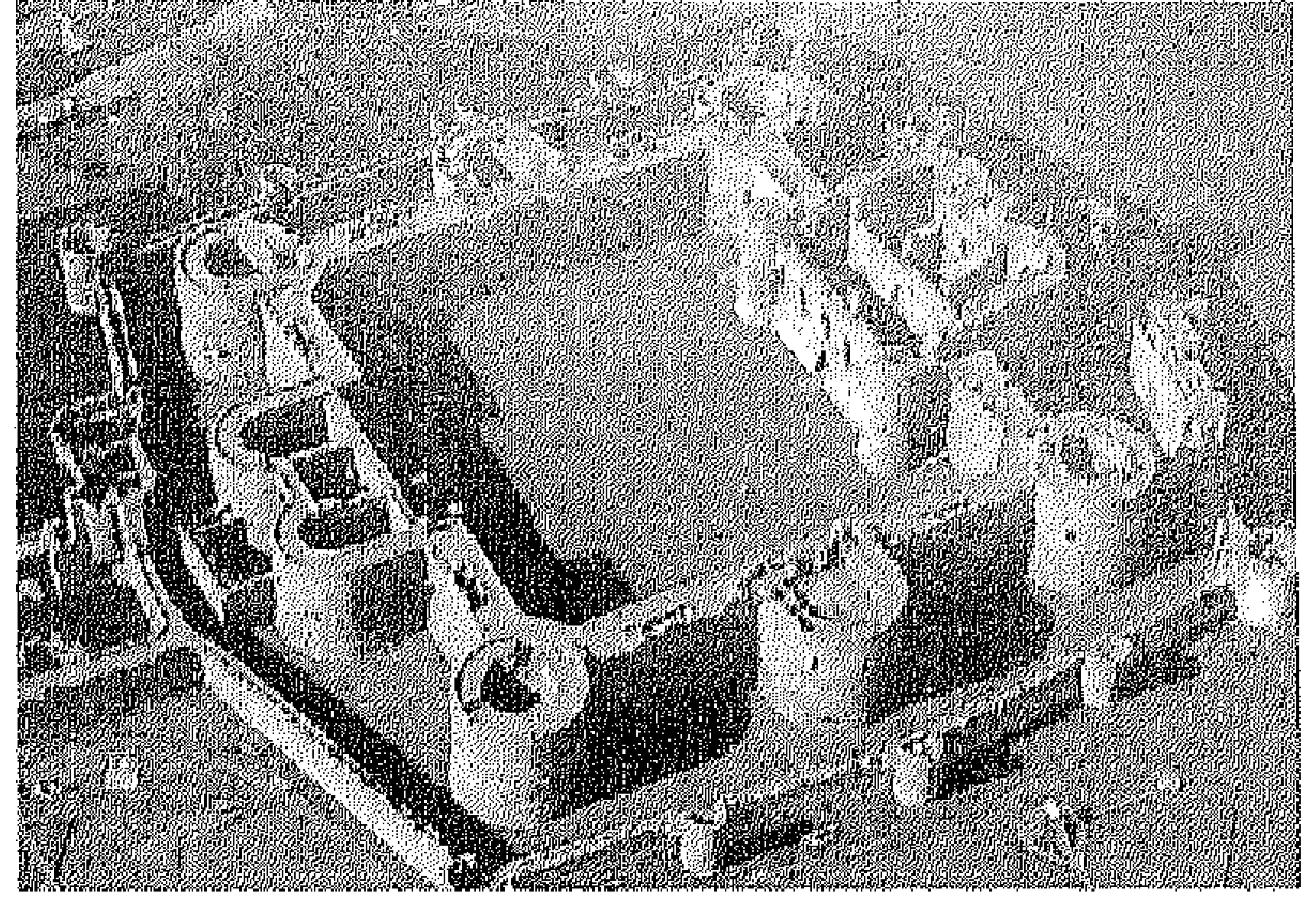
29 - دونالد ر. هيل، التكنولوجيا العربية الراقية وتأثيرها على الهندسة الميكانيكية الأوروبية، ضمن كتاب: ديونيسيوس آجيوس - ريتشارد هيتشكوك، التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، ص 43 - 62.

30 - مونتجومري وات، مرجع سابق، ص 115 - 125.
أحمد الشامي، مرجع سابق، ص 200.
عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 39 - 40.

31 - حسن الباشا حسن محمود، نقل صناعة الورق من العالم الإسلامي إلى أوروبا وأثره في اختراع الطباعة، ضمن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م2، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، 352 - 354.
عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 37 - 39.

32 - عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 39 - 40.

33 - عفيف البهنسي، أثر الجمالية الإسلامية، ص 74 - 75.



قلعة أوروبية اسلامية الطابع

معارض الفن العربي والإسلامي في أوروبا:

وقد كان لمعارض الفن العربي والإسلامي في أوروبا(34)، أثر واضح وأكيد، في وضع فناني أوروبا بشكل واضح وصريح، أمام إبداعات الفن الإسلامي، مما مهد لهم الطريق، إلى التعرف على ذلك الفن واقتباس الكثير من أفكاره(35)، ومن أهم هذه المعارض، المعرض الذي أقيم في باريس بفرنسا سنة 1903 مسيحي، والمعرض المقام في ميونخ بألمانيا سنة 1912 مسيحي، وغيرهما الكثير(36).

العمارة الإسلامية:

لقد كان للحروب الصليبية أثر كبير، في نقل معالم الحضارة والفنون الإسلامية إلى أوروبا، في مجال العمارة بصفة عامة والعمارة الحربية على وجه الخصوص، حيث عرف الأوروبيون عمارة القلعة الملموسة Concentric Castle، وهي طراز من القلاع، يتميز بأن جميع أبراج القلعة وأبهائها الدفاعية، تؤدي إلى مركز واحد، أو بقعة في وسط القلعة سميكة الجدران، منافذها عبارة عن شقوق ضيقة، تسمح بدخول الهواء وبعض النور، ومدخلها من أسفل أحيانًا، وانتشر بناء هذه القلاع في إنجلترا، أثناء حكم الملك إدوارد الأول (النصف الثاني من القرن الثاني عشر المسيحي)، ومن المعتقد أن هذا الطراز، نموذج من فن العمارة العسكرية، الذي نشأ في المملكة اللاتينية في القدس، التي سارت بدورها في عمارتها على نهج التعديلات، التي أدخلها المسلمون على القلاع البيزنطية في سوريا، وتتضح هذه التأثيرات في إدخال عناصر معمارية جديدة، من أهمها: الحوائط المزدوجة، تشييد برج إضافي بين الجدارين المزدوجين(37).

بالإضافة إلى اضطرار اللاّتين في سوريا، في كثير من الأحيان، إلى تشييد مبانيهم وفق قواعد البناء العربي نظرًا للظروف المحلية، وكانت بيوت الأعيان في مملكة بيت المقدس، تبنى على الطراز الإسلامي، فيما يختص بفناء الدار والفسقية والمياه الجارية(38).

34ـ المرجع نفسه، ص 84.

وللتعرف على دور الاستشراق بشكل عام في تعريف أوروبا بالحضارة العربية الإسلامية، أنظر: محمد عيسى صالحية، المستشرقون ودورهم في التواصل الحضاري بين الحضارتين العربية الإسلامية والأوروبية، ضمن حصاد 7 (العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ)، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 315 ـ 341.

ثروت عكاشة، الشرق في عيون غربية، ضمن كتاب: التعبير بالألوان، آفاق من الفن التشكيلي، كتاب العربي، ع39، الكويت 15 يناير 2000 مسيحي، ص 106 ـ 131.

35ـ إحسان فتحي، الفنانون الرحالة في العراق، مجلة فنون عربية، ع3، 1402هـ/ 1981 مسيحي، ص 24 ـ 30؛ 7 لوحات.

عبدالله مشاري النفيسي، حين يكون الرحالة فنانًا، جون لويس رحلة تصويرية في أعماق مصر، مجلة الكويت، ع212، الكويت 9 ربيع الأول 1422هـ/ 1 يونيو 2001 مسيحي، ص 107 ـ 107، 3 لوحات.

محمود قاسم، عرض لكتاب: الرسامون الرحالون إلى الشرق، تأليف: لين تورنتون، مجلة الفيصل، ع227، السعودية جمادى الأولى 1416هـ/ سبتمبر وأكتوبر 1995 مسيحي، ص 93 ـ 97، 5 لوحات.

36ـ عفيف بهنسي، مرجع سابق، ص 101 ـ 104.

37ـ حسن الباشا، مرجع سابق، ص59 ـ 60.

38ـ المرجع نفسه، ص 60 ـ 61.

هذا فضلاً عن بعض العناصر المعمارية، مثل: العقد المدبب، الذي كان له أثره في العمارة القوطية، والعقد على هيئة حدوة الفرس، والعقد المفصص والنصف دائري[39].

كما تأثرت العمارة الإيطالية في بعض ملامحها، بالفنون الإسلامية، ومن الأمثلة على ذلك، أبراج الأجراس، في الكنائس التي تأثرت من غير شك، بالمآذن الإسلامية، ولا سيما حسب الطراز السائد في شمال أفريقيا، كما أنه من المعروف، أن قمة كاتدرائية فلورنسا، التي صممها المهندس (برونليسكي) متأثرة بعنصر معماري إسلامي، يعرف باسم المنور أو الشخشيخة في مصر[40].

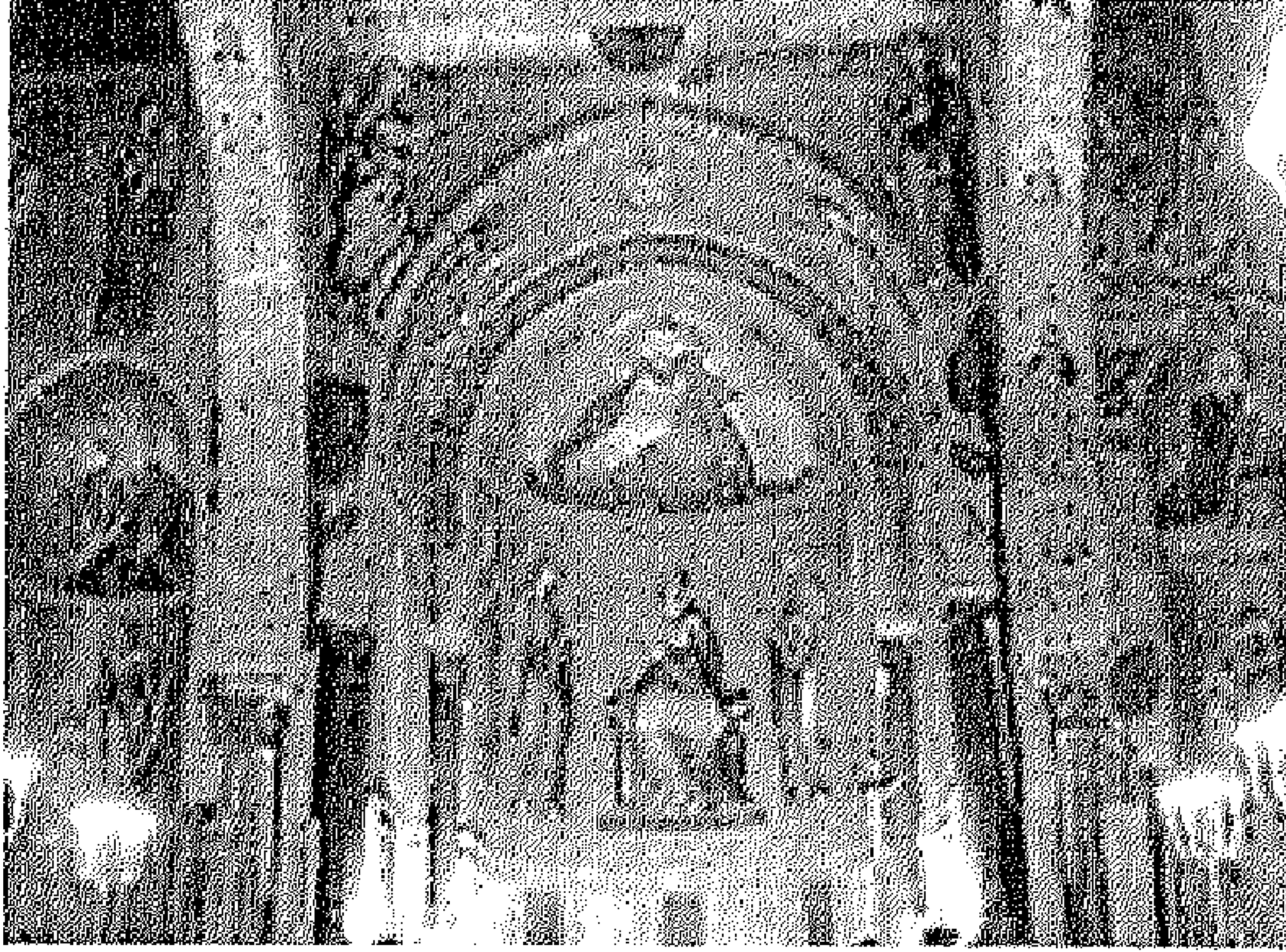
ولم يقتصر التأثير الإسلامي على العمارة الأوروبية، في مجال التخطيط والعناصر المعمارية، بل تعدى ذلك إلى زخرفة العمائر في أوروبا، وربما كان من أشهر هذه العمائر، الكابلا بلاتينا في باليرمو، التي شيدها الملك النورماندي (روجر الثاني) فيما بين سنة 1151 و1154 مسيحي، ويزخرف سقف هذه الكابلا، صور كثيرة داخل مناطق مختلفة الأشكال، تحف بها أشرطة من الخط الكوفي، ذي الأسلوب الفاطمي[41].

الصناعات والفنون التطبيقية:

ظهرت تأثيرات واضحة، في مجال الصناعات والفنون التطبيقية، مثل: إقبال الأوروبيين على استخدام المنسوجات الحريرية، المطرزة بالزخارف والكتابات العربية، والأدوات النحاسية، المكفتة







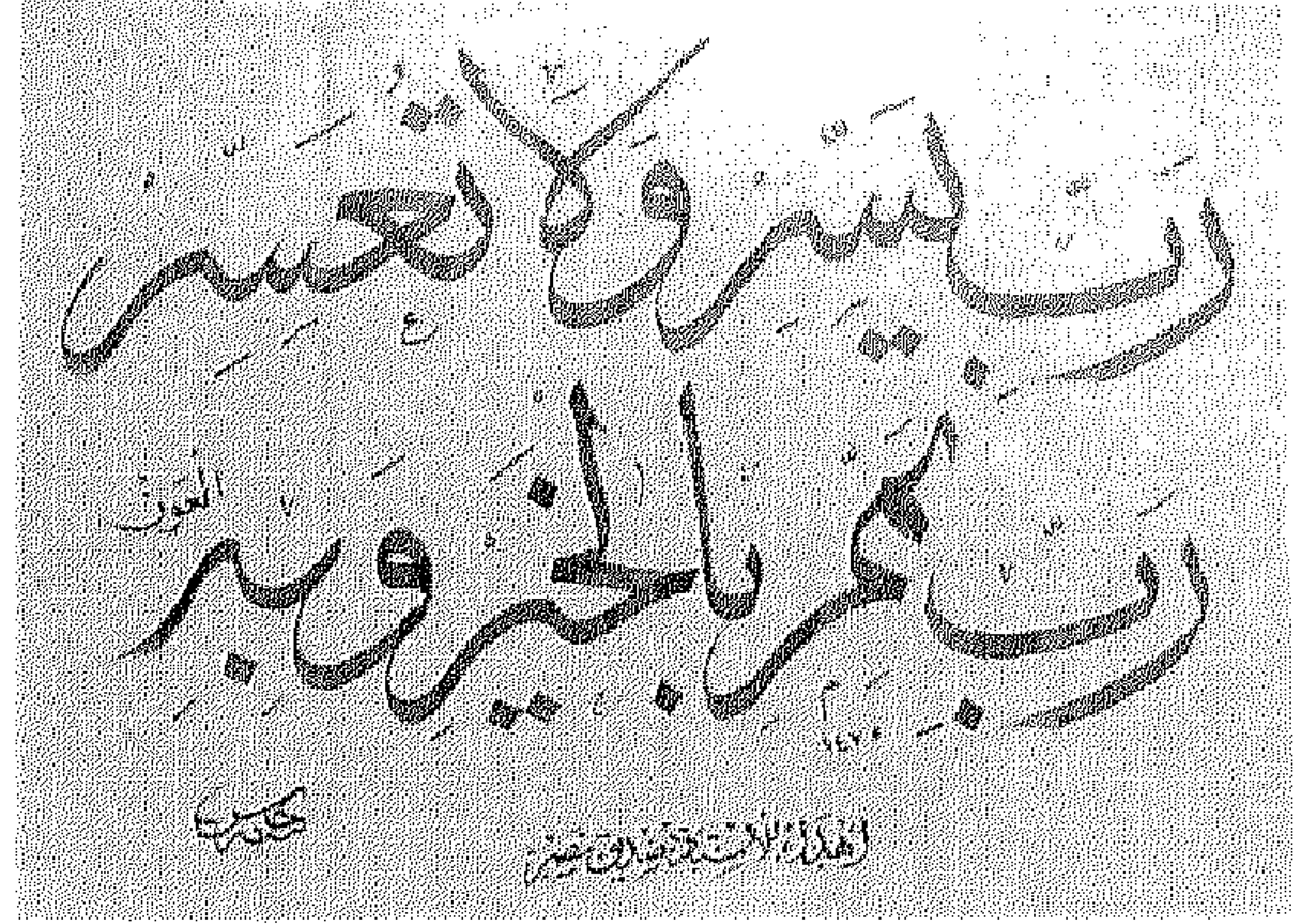
من مظاهر التأثير الإسلامي

39- المرجع نفسه، ص 60.

حسن الباشا، أثر العمارة والفنون الأندلسية في أوروبا، ضمن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م2، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 81 ـ 82.

40- حسن الباشا، أثر الفنون الإسلامية بصقلية وإيطاليا في أوروبا، ضمن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م2، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 89، لوحات 704 ـ 706، 708.

41- حسن الباشا، أثر الخط العربي في الفنون الأوروبية، ضمن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م3، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 227 ـ 228، لوحات 709 ـ 710.







بالذهب والفضة، وأواني الخزف والزجاج، وأشغال المينا والبلور الصخري، والأدوات العاجية، والأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات، والمخطوطات الإسلامية المزوقة بالتصاوير، وغير ذلك من منتجات الفنون الإسلامية، المزينة بالزخارف المختلفة، من صور وكتابات وحليات، هندسية ونباتية وحيوانية، وبفضل ما تميزت به هذه التحف، من جمال الزخرف وجودة الصنعة، حظيت الفنون الإسلامية بصيت ذائع في مختلف دول أوروبا، وأقبل على اقتنائها كثير من الأسر، من مختلف الطبقات الدينية والمدنية، كما عمد الفنانون الأوروبيون إلى تقليدها، سواء من حيث الصنعة والأسلوب الزخرفي، ومن ثم نقلوا أساليبها وزخارفها، واستخدموها في أعمالهم ومنتجاتهم الفنية، وبفضل هذه التأثيرات ظهر في أوروبا إصطلاح (الأرابيسك) Arabesque وكان من نتيجة ذلك أيضًا، ظهور التأثيرات التالية:

1 - إدخال أنواع جديدة من الأقمشة، كالمنسوجات القطنية و(الموسلين) نسبة إلى الموصل، و(البلدكان) نسبة إلى بغداد، و(الدمقس) نسبة إلى دمشق، والسميتي والدمياطي، نسبة إلى دمياط والأطلس العربي، وهو نوع من الحرير (الساتان) كان يصنع في بلاد الشرق، والفستيان Fustian قد اشتق إسمها من كلمة الفسطاط، أولى عواصم مصر الإسلامية، وفي العصور المتأخرة، كان يطلق



على أقمشة الملابس المستوردة من غرناطة Grenada اسم (جرينادين) Grenadines، وعرفت بهذا الإسم في المتاجر الأوروبية، حيث كانت السيدات يعرفنها بهذا الاسم نفسه، وهو Taffeta، وكان حي العتابية Atabiyah ببغداد، وهو الحي الذي كانت تقطنه سلالة عتاب، حفيد أحد صحابة الرسول ﷺ معروفًا بشهرته في القرن الثاني عشر المسيحي، بنوع من المنسوجات، قلده القوم في أسبانيا، وصار يعرف فيها باسم الحرير العتابي، وعرفه الفرنسيون والإيطاليون باسم (تابس) Tabis، ثم أصبح معروفًا بهذا الإسم التجاري في أنحاء أوروبا جميعها.

2 ـ إدخال أزياء شرقية مثل (الكاملت) Camelt وهو لباس يصنع من وبر الجمل أو الخملة، و(الجوب) jupe من الجبة العربية، ومثل الحزام الشرقي ذي الصدر والجيوب الذي ربما ارتداه الحاج في عودته.

3 ـ أدوات الزينة مثل المرايا الزجاجية، وعلب المجوهرات، والمساحيق والعطور.

4 ـ المسبحة التي يقال إنها انتقلت من البوذيين، إلى أوروبا عن طريق سوريا[42].

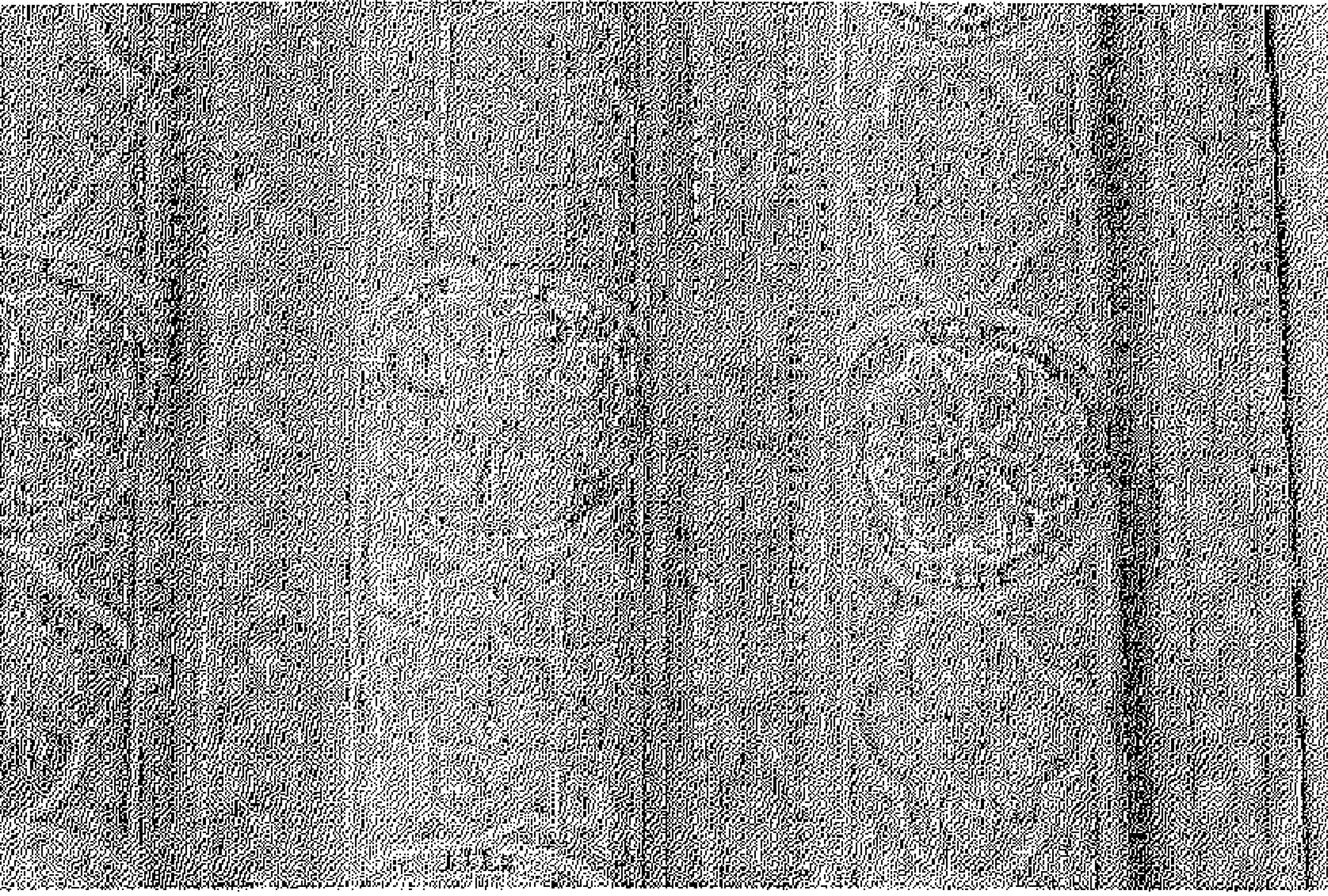
وكانت مصانع النسيج، التي أسسها أمراء المسلمين في القصر الملكي، في (بليرمو) تمد الأسر الأوروبية النبيلة بالثياب الرسمية، وقد طرزت عليها الكتابات العربية، ومن (صقلية) استمد صناع النسيج الأول في إيطاليا، معرفتهم وخبرتهم الفنية ونماذج الرسوم، والزخارف على المنسوجات، وفي أوائل القرن الثالث عشر المسيحي، كانت حياكة الحرير قد أصبحت الصناعة الرئيسة في عدة مدن إيطالية،

42 ـ أ. هـ. كريست، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الإسلامية، ضمن كتاب: كريست، أرنولد، بريجز، تراث الإسلام، ترجمة: زكي محمد حسن، م1، لجنة الجماعيين لنشر العلم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1936 مسيحي، ص 61 ـ 63.
حسن الباشا، مرجع سابق، ص 61.

وأخذت هذه المدن تصدر المنسوجات، تقليداً للمصنوعات الصقلية، إلى أنحاء مختلفة من أوروبا، وكان في البندقية وفي (فرارا) و(بيزا) كما كان في (بليرمو) جماعات من الصناع الشرقيين العرب، يسهمون في العمل ويعلمون أبناء البلاد أسرار صناعتهم، وبلغ الطلب على المصنوعات الشرقية، درجة عالية بحيث إن الأوروبي لم يكن يحسب نفسه حسن الهيئة والهندام، ما لم يكن في حوزته ثوب شرقي واحد على الأقل، وكان ملك صقلية (روجر الثاني) يلبس الزي العربي، حتى إنه أغضب معاصريه من النصارى، وقد وصلتنا عباءة تتويجه، وعليها زخارف ذات طابع عربي إسلامي، وتشمل حافتها أدعية باللغة العربية، بالإضافة إلى تاريخ صنعها الهجري، وهو سنة 528 هـ/1133 مسيحي، وهي محفوظة حالياً في متحف الكنوز في (ڤيينا)، ولم يكن الملك (روجر الثاني)، وحده هو الذي يرتدي زيًا عربيًا، بل إن الشعب الصقلي أيضًا، حتى النساء كانت ترتدي هذا الزي، وقد ذكر إبن جبير، أنه شاهد في سنة 1184 مسيحي، في عهد (وليم الثاني) حفيد (روجر الثاني) النساء النصرانيات في صقلية، يرتدين زي المسلمات أثناء خروجهن من منازلهن[43].

وفي أوائل القرن الثالث عشر المسيحي، كان نسج الحرير قد أصبح أهم الصناعات، في كثير من المدن الإيطالية الغنية، حيث ظهرت منسوجات قلدت المنسوجات الصقلية، تقليداً يصعب معه التفرقة بين النوعين، وكانت تصدر بوفرة من تلك المدن الإيطالية إلى البلدان الأخرى، وفي القرن الرابع عشر المسيحي، ظهر في المنسوجات الحريرية الإيطالية، أثر عوامل جديدة، كانت في ذلك الوقت تؤثر في الفن





الإسلامي، ففي قطعة من الديباج موشاة بالذهب، ترجع إلى إيطاليا في ذلك القرن، ومحفوظة في متحف (ڤيكتوريا وألبرت) بلندن، نرى الأسد والمراوح النخيلية، والفروع النباتية والكتابات العربية، وغير ذلك من تلك العناصر الشرقية الأخرى، التي كانت ذائعة في المنسوجات الإسلامية، في ذلك العصر[44].

وفي مجال فنون الخزف كانت (بلنسية) من المراكز التي ازدهرت فيها فنون الخزف المطلي، وكانت تصدر بعض إنتاجها إلى (بواتييه) التي صارت من مراكز صناعة الخزف في أوروبا، وانتشر تقليد الخزف الإسلامي في أوروبا في القرن الخامس عشر المسيحي، حتى وصل هولندا، كما انتقلت هذه الصناعة إلى إيطاليا، وعلى الرغم من استيلاء

---

43 ـ حسن الباشا، مرجع سابق، ص 85 ـ 86، لوحات 800 ـ 803.

44 ـ أ. هـ. كريست، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الإسلامية، ص 66 ـ 67، شكل 33.

النصارى على أسبانيا، فقد ظل كثير من مراكز صناعة الخزف بها، ينتج خزفًا ذا طابع إسلامي، رغم ما كان يرسم عليه من رموز نصرانية(45).

هذا وقد تأثر الإيطاليون بالخزف الإسلامي، من النوع المعروف بالجابري، حيث نجحوا في القرن الخامس عشر، نجاحًا كبيرًا في استخدام هذه الطريقة، ولعلهم اقتبسوها من مصادر إسلامية، أفادوا منها في إحياء الفنون الخزفية، في عصر النهضة، وقد أثارت الأواني الخزفية الأندلسية، ذات البريق المعدني، غيرة ناجحة في نفوس الإيطاليين، حتى استطاع صانعو الخزف الإيطاليون، في القرن السادس عشر، أن يكسبوا زخارف عصر النهضة، ذلك البريق الذي لا ينطفئ سناه، وذلك بأساليب صناعية، تخالف كل المخالفة، ما كان معروفًا في إيطاليا قبل ذلك العهد، وقد وصلت إلى أوروبا من إيران ـ وفي أغلب الأحيان عن طريق تركيا وسوريا ـ، رسوم بعض الزهور التي شاعت الآن في الحدائق الأوروبية، والتي كان الأوروبيون في وقت من الأوقات لا يعرفونها، إلا على الفخار والخزف الواردين من الشرق الإسلامي(46).

ومنذ القرن الثالث عشر، ذاعت في أوروبا شهرة صانعي زجاج من البندقية، وفي القرن الخامس عشر، وجه هؤلاء الصناع، اهتمامهم إلى الأساليب الشرقية، وأجادوا عملية تمويه الزجاج بالميناء، إلى درجة لم يعد بعدها هذا الفن احتكارًا في أيدي المسلمين، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية إلى غيرها من المراكز الأوروبية، ولم تلبث أن ظهرت فيها أنواع جديدة، على أن قوارير الكحول ذات الميناء الزاهية الألوان، والتي كانت شائعة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد، لم تكن إلا صورًا مشوهة للنماذج التي أنتجتها،



ولكن التحف التي قلد بها الغربيون فنون الشرق الأدنى، وإن كانت لا تخلو من متعة طيبة، إلا أنها لا تضارع النماذج الشرقية، التي نقلت عنها جمال شكل ودقة صنع وسلامة هذه الزخرفة(47).

ولقد أدخل الفنانون التطبيقيون في أوروبا، الزخارف العربية الإسلامية، حيث شجعتهم القيمة الزخرفية الكامنة في الخط العربي، على استخدامه في تزيين وزخرفة منتجات الفنون التطبيقية، من مختلف المواد، من أخشاب، ومعادن، وزجاج، ورخام، ونسيج، كما وجدت على أدوات مختلفة مثل: مطارق الأبواب، والأطباق، والأرفف، والنوافذ، ذات الزجاج الملون، والأبواب والثياب وغيرها، وكانت الحروف العربية، تمثل إحدى الزخارف الرئيسة على الأطباق القوطية؛ ومن المعروف أن لويس ملك أنجو، كان لديه

45 ـ حسن الباشا، مرجع سابق، ص 83.

46 ـ أ. هـ. كريست، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الإسلامية، ص 43 ـ 44، 48، 53.

47 ـ المرجع نفسه، ص 55 ـ 56.

أكثر من مائة طبق تزخرفها حروف عربية، وعلى الرغم من أنه لم يصلنا نماذج من أطباق لويس، فقد وصلنا غطاء إناء من الخشب المتين، يرجع إلى حوالي العصر نفسه، ويشتمل هذا الغطاء على زخارف محفورة من الخط العربي، الوثيق الصلة بخط النسخ المملوكي، واستخدمت أيضًا زخارف الخط الكوفي على أبواب بعض الكنائس الأوروبية، مثل: كنيسة نوتردام في لابوي، وكنيسة لافوت شلهاك، وكنيسة سان بيترو في البا، وتشتمل أبواب كنيسة لابوي على زخارف مستمدة من الخط الكوفي، محفورة في الخشب، وتمتد هذه الزخارف في أعلى الأبواب وجوانبها، وتنسب هذه الزخارف، إلى حفار مسيحي، يدعى جوفريدس، ويرجح أنها تكرار لعبارة بالخط الكوفي نصها: «الملك لله» منقولة بقليل من التصرف عن تحفة إسلامية، هذا وقد وجدت زخارف مستمدة من الخط العربي، على تحف أخرى من الفنون التطبيقية، مثل مطرقة باب من البرونز، في كابلة بوهيموند الجنائزية، في كانوسا، ورف خلف المذبح، في كنيسة وستمنستر، وشبابيك قديمة من الزجاج الملون، ولوحة من الرخام بالشيون في أثينا[48].

وقد تعلم الصناع الأوروبيون، من المسلمين نسج السجاد ذي الوبر، وكانوا يتبعون في أول الأمر، الطريقة الشرقية اليدوية، التي تظهر فيها خفة اليد، وسرعة الحركة، ولكنهم استخدموا في الأزمنة المتأخرة، طرقًا آلية (ميكانيكية) بحتة، ونحن نرى على السجاد المصنوع بالآلات، والذي ذاع استعماله الآن، كثيرًا من الرسوم المأخوذة عن الأصول الإسلامية، ولكنها رسوم اقتضاها الذوق السائد[49].

وازهرت في مدينة البندقية، صناعة التجليد، تقليدًا للتجليد الإسلامي، حيث استخدم اللسان، لحفظ أطراف الورق، بالإضافة إلى زخرفة الغلاف، وطبع الرسوم عليه، حسب الطراز الإسلامي، وانتشر هذا الأسلوب في مدن إيطالية أخرى، ولقد أوحى الصناع المسلمون، إلى صناع الغرب، طريقة جديدة في زخرفة جلود الكتب، ففي العصور الوسطى، كان المجلدون الأوروبيون، غالبًا ما يزخرفون الكتب بطبع رسوم عليها، مستعينين في ذلك بمكابس معدنية، وقد تيسر بهذه الطريقة، الوصول إلى موضوعات زخرفية جليلة الأثر، فبعد أن كبرت المكابس، وزادت زخارفها، كمالا وإبداعًا، ذاع استعمال زخارف دقيقة الصنع، وفيها حافات (كنارات) ورسوم متكررة، وكانت الزخارف التي تصنع بهذه الطريقة، بارزة فقط، حتى بدأ الصناع الشرقيون يزينون الرسوم المطبوعة، بملء أجزائها المنخفضة بصبغات ذهبية، وقد أدخل هذه الطريقة، إلى أوروبا، المجلدون المسلمون، الذين أقاموا في البندقية، وفي أواخر القرن الخامس عشر، استبدلت بهذه الطريقة، طريقة جديدة، كان التذهيب فيها يثبت تثبيتًا قويًا، بضغط الآلات المحماة على صفائح من الذهب، ويظهر أن هذه الطريقة الجديدة، نشأت في قرطبة، ثم أصبحت في القرن عشر شائعة الاستعمال، بين المجلدين المسلمين والمسيحيين على السواء، وذلك بالرغم من أن الطريقة الشرقية القديمة، لم تندثر تمامًا، وما يزال التذهيب والكتابة، شائعين في عصرنا هذا، على جلود الكتب الجميلة، ولم يزل الأوروبيون يؤدونها بوسائل، كان للصناع المسلمين فضل إبلاغها درجة الكمال، وفي القرن التاسع عشر، بدأت الطرق الآلية، تحل في صناعة تجليد الكتب،

48. حسن الباشا، أثر الخط العربي في الفنون الأوروبية، ص 226 ـ 227، لوحات 800 ـ 804، 958 ـ 961، 1023، 1181، 1238.

49. أ. هـ. كريست، مرجع سابق، ص 76.

محل الطرق اليدوية القديمة، ولكن الطرق الآلية في صناعة الكتب، كانت إلى حد كبير تنتج زخارف، وتتبع أساليب ترجع إلى أصول فنية إسلامية(50).

وربما كان أهم ما أخذه الأوروبيون في الأندلس، هو الورق الذي انتقلت صناعته إلى الأندلس، من الشرق الإسلامي، حيث عرفها العرب، منذ أوائل القرن الثاني الهجري، الثامن المسيحي، وسرت صناعة الورق من مراكش إلى أسبانيا، وربما كانت شاطبة مركز هذه الصناعة في أسبانيا، وكان الأوروبيون في أول الأمر يشترون الورق من الأندلس، ثم تعلموا فيها صناعة الورق، ونقلوها إلى أوروبا، وقد بقي أثر العرب في صناعة الورق الأوروبية، متمثلاً في استخدام ألفاظ عربية، مثل: كلمة رزمة العربية، التي ظهرت في اللغة الأسبانية Resma وفي الفرنسية Rayme وفي الإنجليزية Ream؛ وإذا كانت صناعة الورق، قد انتقلت إلى فرنسا من أسبانيا، فإن هذه الصناعة انتقلت إلى إيطاليا حوالي 1268-1276 مسيحي، عن طريق آخر هو صقلية، التي ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ومن فرنسا وإيطاليا، انتقلت صناعة الورق إلى دول أوروبية أخرى، ومن المعروف أنه بفضل معرفة الغرب لصناعة الورق، صار في الإمكان استخدام آلة الطباعة، ذات الحروف المنفصلة والمتحركة، وظهر هذا الإختراع في ألمانيا، حوالي القرن الخامس عشر، وبفضل الورق والطباعة تقدم العلم في أوروبا، وتأسست المدنية الحديثة؛ هذا ويبدو أن العرب في الأندلس، كانوا قد توصلوا لنوع من الطباعة، إذ يقال إنه كان لعبد الرحمن الناصر، ثالث الخلفاء الأمويين في الأندلس 890 ــ 961 مسيحي، كاتب يرسل الرسالة، التي ينشئها



تعلم فنانو الغرب المسيحي من الفن الشرقي الإسلامي

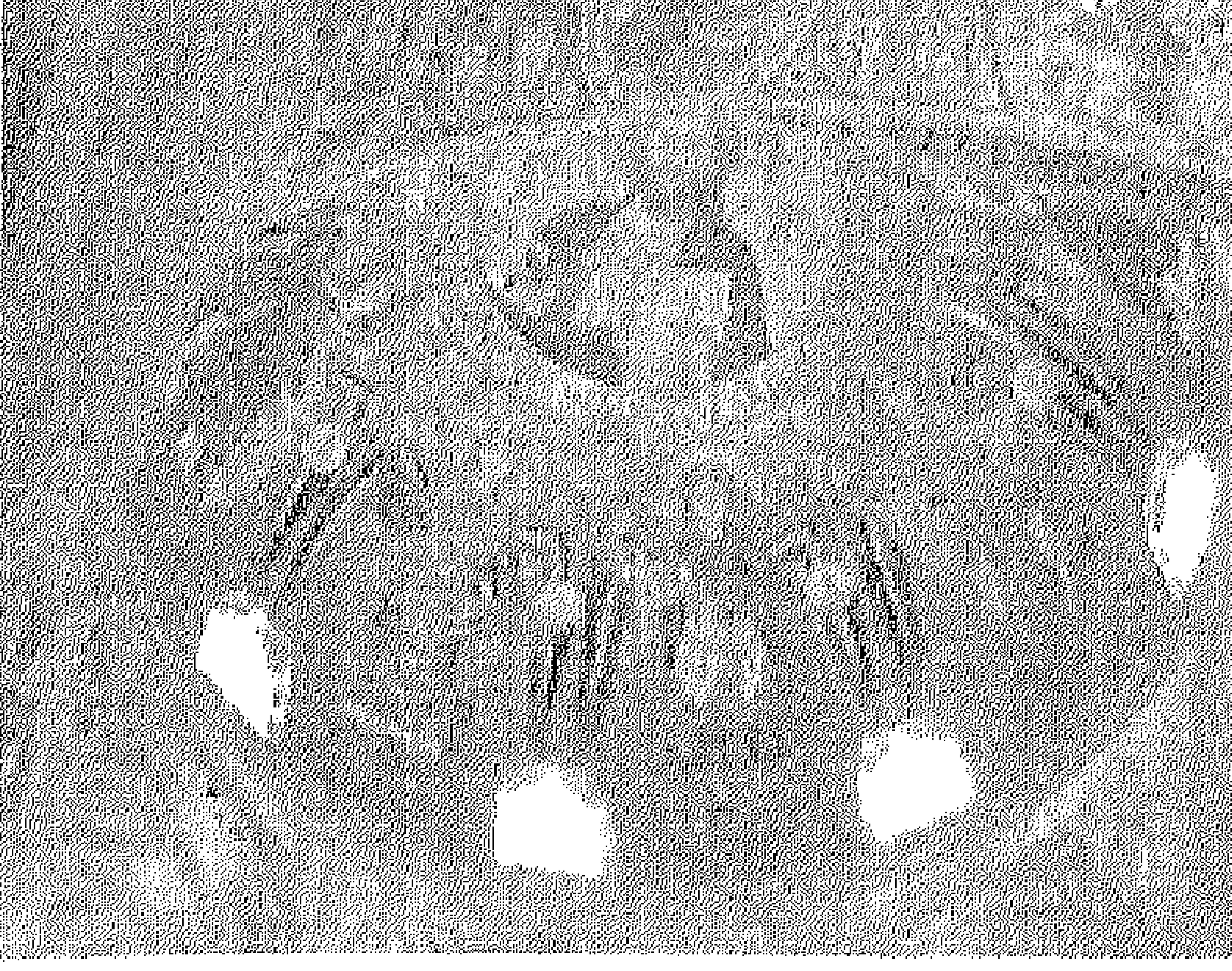
50ـ المرجع نفسه، ص 88 ــ 91، أشكال 56 ــ 58.
حسن الباشا، مرجع سابق، ص 89 ــ 90.

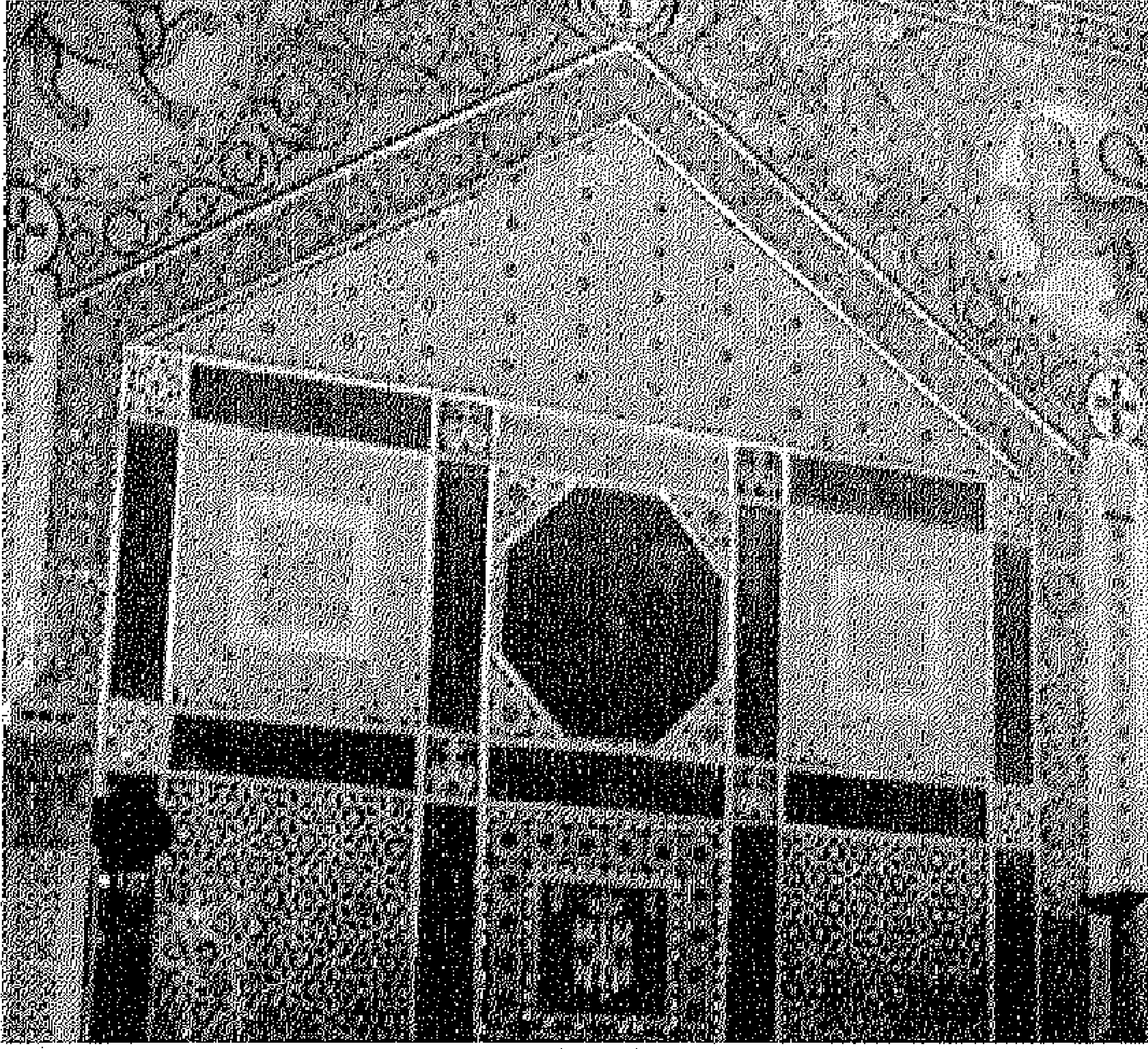
إلى ديوان خاص، حيث يصير فيه إظهارها على الورق، فتصدر منها نسخ كثيرة توزع على عمال الدولة(51).

التصوير:

لقد اشتمل سقف كنيسة القصر في (بليرم كابلا بلاتينا Capella Palatine) التي بناها (روجر الثاني) على صور مرسومة حسب الأسلوب الفني الإسلامي، وذات موضوعات مدنية من النوع الذي شاع تصويره في الفن الإسلامي، ولا سيما في مصر الفاطمية، بالإضافة إلى كتابات باللغة العربية، تمثل أدعية بالأسلوب الإسلامي، ومن المعتقد أن هذه الكنيسة بنيت وزخرفت، على يد صناع مسلمين، أو على الأقل صناع، نشأوا حسب التقاليد المهنية الإسلامية، ومن المرجح أن مثل هؤلاء الصناع أسهموا في تشييد عمائر أخرى، في صقلية وصلتنا آثارها، مثل: قصر القبة، وقصر العزيزة، اللذين شيدا وزخرفا حسب الطرز الإسلامية(52).

وهذه الرسوم البديعة الرخامية الشكل، التي ترى كثيرًا جدًا، على غلف الورق وعلى الأوراق الختامية في الكتب، وعلى حافات الكتب المجلدة، في أوروبا إبان القرن الثامن عشر، كلها مأخوذة عن مصادر شرقية، ونحن نرى أمثلة دقيقة من هذه الرسوم، على أشرطة الورق التي كانت تلصق على هوامش الصور الإسلامية، والنماذج الخطية، وقد كان الورق الرخامي الشكل، معروفًا في إنجلترا في عصر الرسام الإنجليزي فرنسيس بيكون 1909 ـ 1992 مسيحي، وهو يذكر: «أن عند الأتراك طريقة غير معروفة عندنا، يكسبون بها الورق شكل المرمر، فهم يستحضرون ألوانًا زيتية مختلفة، ويضعونها في الماء قطرة قطرة، ثم يحركون الماء تحريكًا رقيقًا، وبعد ذلك يبللون الورق ـ وهو سميك بعض السمك ـ في هذا المزيج، فيكتسب الورق هذه التموجات والتعرجات، التي تجعله شبيهًا بالرخام»(53).

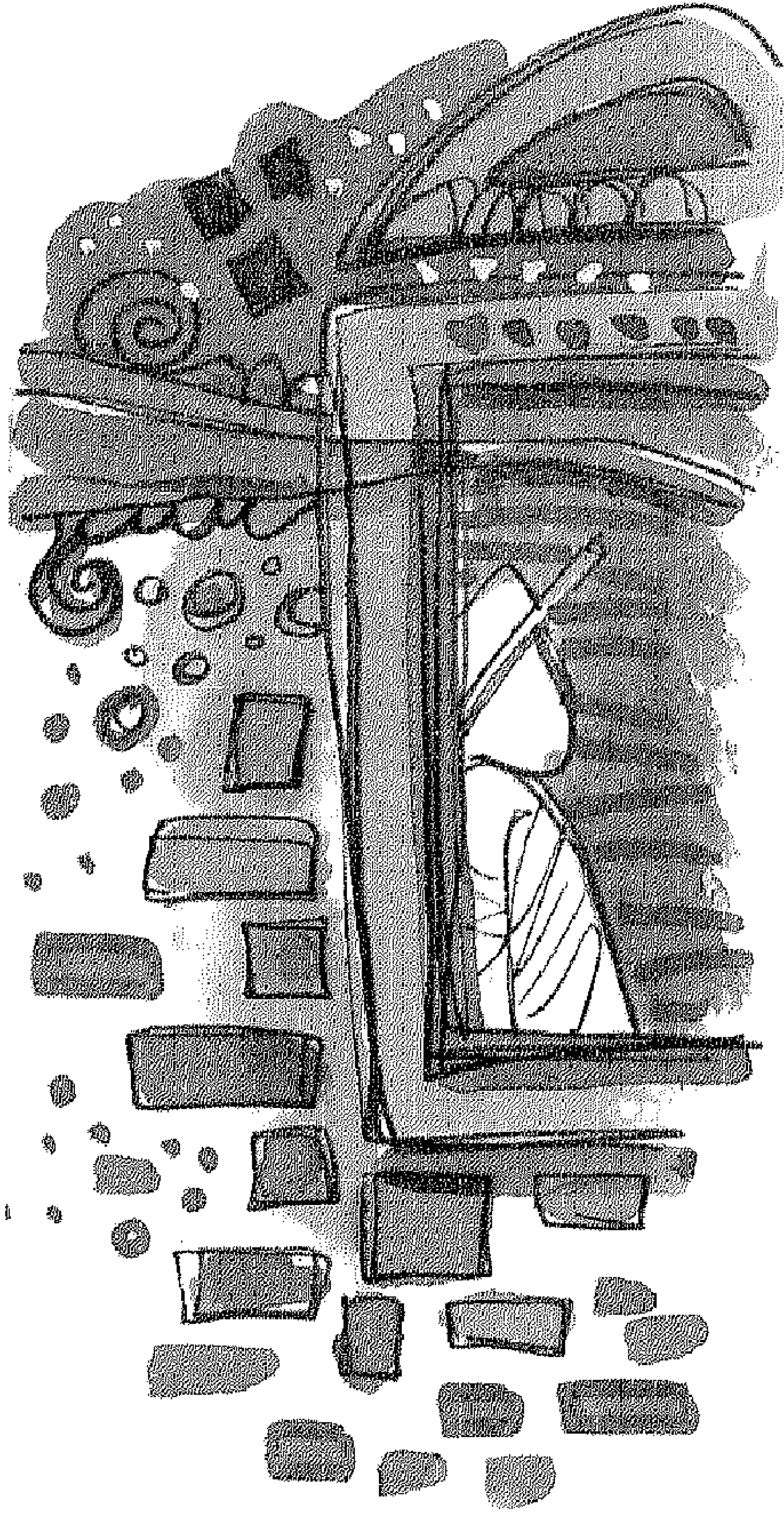

أسلوب الفن الإسلامي في رسومات أسقف الكنائس


رسوم مسيحية غربية وأصل هذا الفن شرقي إسلامي

51. حسن الباشا، مرجع سابق، ص 81 ـ 83.
حسن الباشا، نقل صناعة الورق من العالم الإسلامي إلى أوروبا، وأثره في اختراع الطباعة، ص 352.
52. أ. هـ. كريست، مرجع سابق، ص 86 ـ 87.
حسن الباشا، مرجع سابق، ص 86؛ لوحات 709 ـ 719.
53. أ. هـ. كريست، مرجع سابق، ص 92 ـ 93.

ويتضح التأثير الإسلامي، في أسلوب المصور جنتيلى دافبريانو (من حوالي سنة 1370 ـ 1427 مسيحي) أحد مصوري الطراز القومي الدولي، والذي استخدم الخط العربي، في زخرفة وشاح يرتديه أحد السياس، في لوحته المشهورة «تبجيل المجوس» التي ترجع لسنة 1423 مسيحي، والمحفوظة حاليًا، في الأوفيتسى في فلورنسا، ومن الملاحظ أن الخط من نوع النسخ المملوكي، وهو عبارة عن حروف لا تكون معنى مفهومًا، ولم يقتصر التأثير الإسلامي، على فناني الطراز القوطي الدولي، بل عرفه كثير من فناني عصر النهضة، حيث يظهر في أعمال منشئ التصوير الحديث، الرسام الإيطالي والمصور الشهير «جيوتو» (1266 ـ 1337 مسيحي)، الذي يعتبر أهم رواد النهضة الأوروبية، في مجال التصوير، وقد حرص «جيوتو» على أن يزخرف بعض الثياب، التي يرتديها الأشخاص، في الصور التي رسمها في كابلا أرينا، في مدينة بادوا، فيما بين سنة 1303 ـ 1305 مسيحي، بزخارف مستوحاة من حروف عربية؛ كما يبدو التأثير الإسلامي في بعض أعمال المصور الفلورنسي فيليبو ليبي (حوالي 1406 ـ 1469 مسيحي)، إذ نجد أن ثياب بعض الأشخاص في لوحة تتويج العذراء، في فلورنسا، تزخرفها أشرطة من الخط العربي، ومن المرجح أن (فيليبو ليبي) قد أتيحت له فرصة دراسة الخط العربي، حين وقع في أسر المسلمين، في بلاد المغرب، حسب ما جاء في تاريخ فزاري[54].

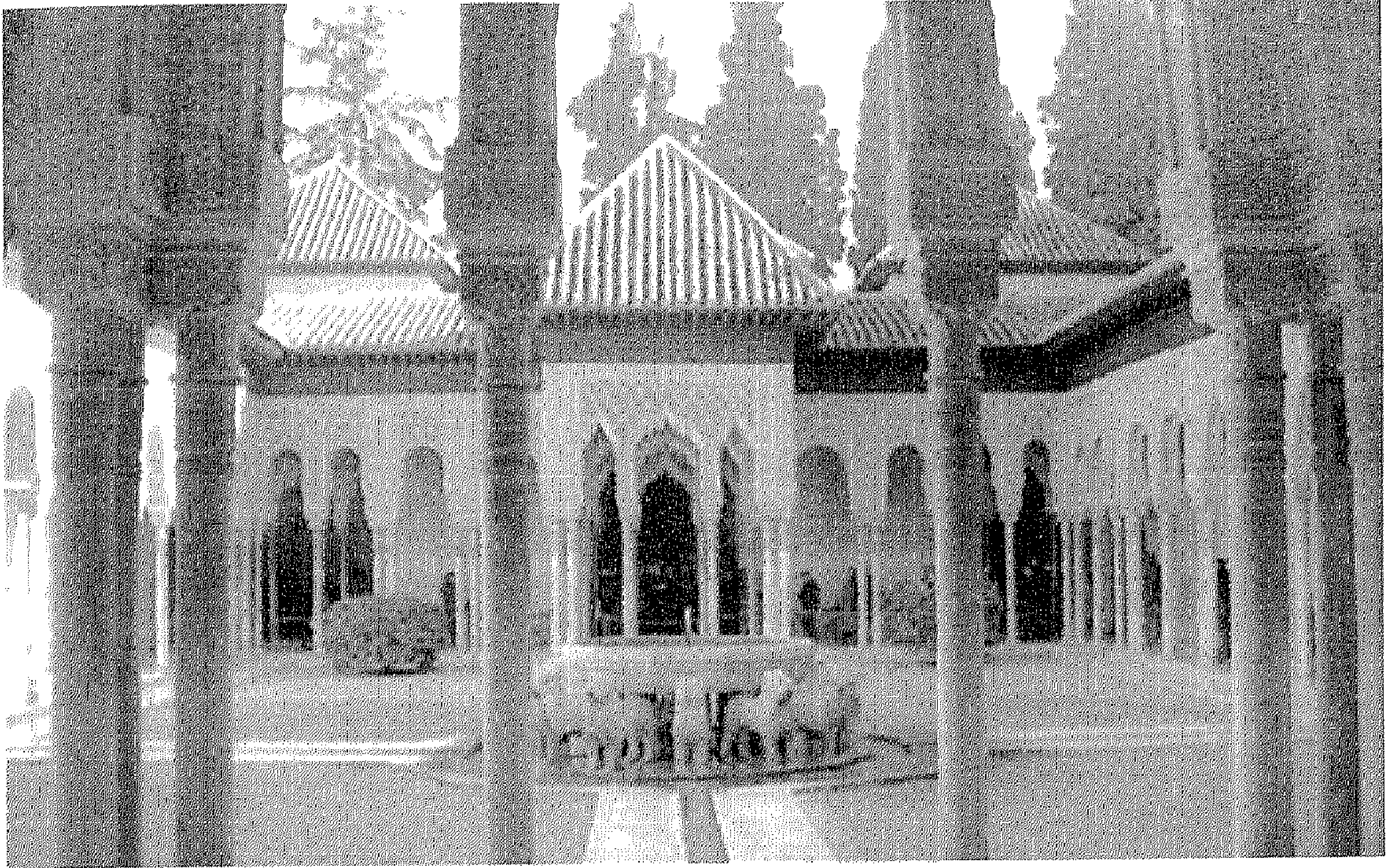
لقد أرسلت حكومة البندقية الفنان جنتيلى بلينى 1429 ـ 1507 مسيحي، إلى القسطنطينية، أو استانبول، في سنة 1479 مسيحي، بناء على طلب السلطان محمد الفاتح، ومكث هناك سنة، رسم فيها بعض الصور، و(الاسكتشات) والدراسات التي استغلها في أعماله الفنية، فمثلاً في صورته المتقدمة، في الأوفيتسى في



فلورنسا، وفي لوحته، موعظة سانت مارك، في الاسكندرية، في متحف بريرا، في ميلانو، حيث نلاحظ صورة مئذنة وأزياء إسلامية، بالإضافة إلى بعض الحيوانات، والنماذج المألوفة في الشرق الإسلامي، وبالإضافة إلى أعمال ـ جنتيلى بلينى)، تركت هذه الرسوم أثرها في أعمال كثير من المصورين الإيطاليين، ولا سيما في مدينة البندقية، أمثال (مانسويتى) 1470 ـ 1530 مسيحي، وجيرولامو دا سانتا كروتشى، الذي كان يزاول نشاطه الفني من سنة 1503 ـ 1556 مسيحي، وفيتورى كارباتشيو 1455 ـ 1526 مسيحي، ولم يقف تأثير دراسات (بلينى) عند حد فناني البندقية، ولكنه امتد خارجها، ومن أوضح الأمثلة على ذلك المصور (بنتوريكيو) 1454 ـ 1513 مسيحي، وهو من فناني مدرسة أمبريا، وكان له نشاط

---

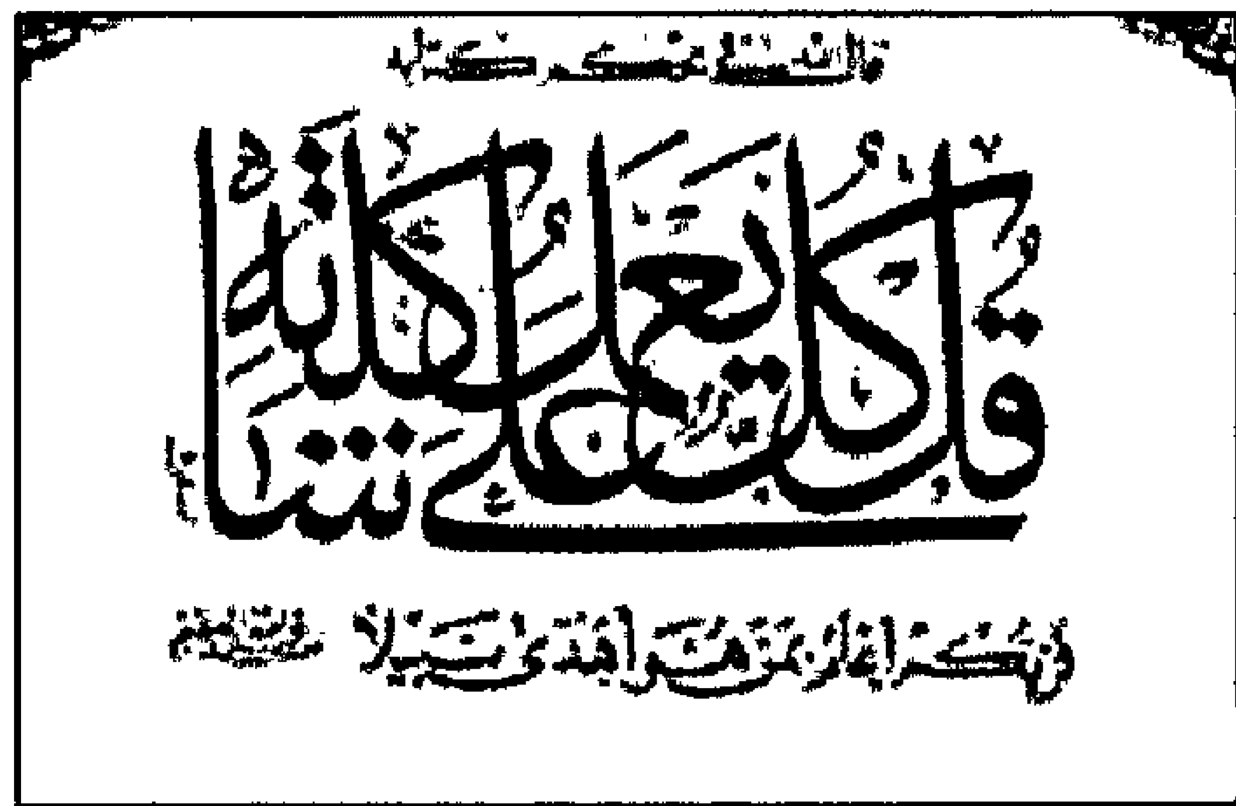
54 حسن الباشا، مرجع سابق، ص 228 ـ 229، لوحات 1584 ـ 1585، 1590 ـ 1592.



الطابع الإسلامي لم يندثر في العمارة الأوروبية

فني كبير في مدينة: بيروجيا، وروما، وسينا، وامتدت تأثيرات رسوم (جنتيلى بلينى) خارج إيطاليا نفسها، إذ مجد مثلاً المصور الألماني ذائع الصيت، ديرر[55].

ويمثل هانس هولباين الصغير 1497 ـ 1543 مسيحي، أحد هؤلاء الفنانين الأوروبيين الذين استهوتهم الفنون الإسلامية، وعنوا عناية خاصة باستخدام بعض عناصرها ووحداتها، ويتمثل الفن الإسلامي في إنتاج (هولباين) بصورة واضحة في ناحيتين: الأولى: زخارف الثياب، ذلك أنه يلاحظ على ثياب الأشخاص التي يرسمها، تزخرفها في كثير من الأحيان وحدات فنية إسلامية، ولا سيما تلك الوحدات الزخرفية التي يسميها البعض، بالزخرفة العربية المورقة، والتي اصطلح المستشرقون على تسميتها (بالرابيسك)، ويتضح هذا التأثير في صورة نصفية

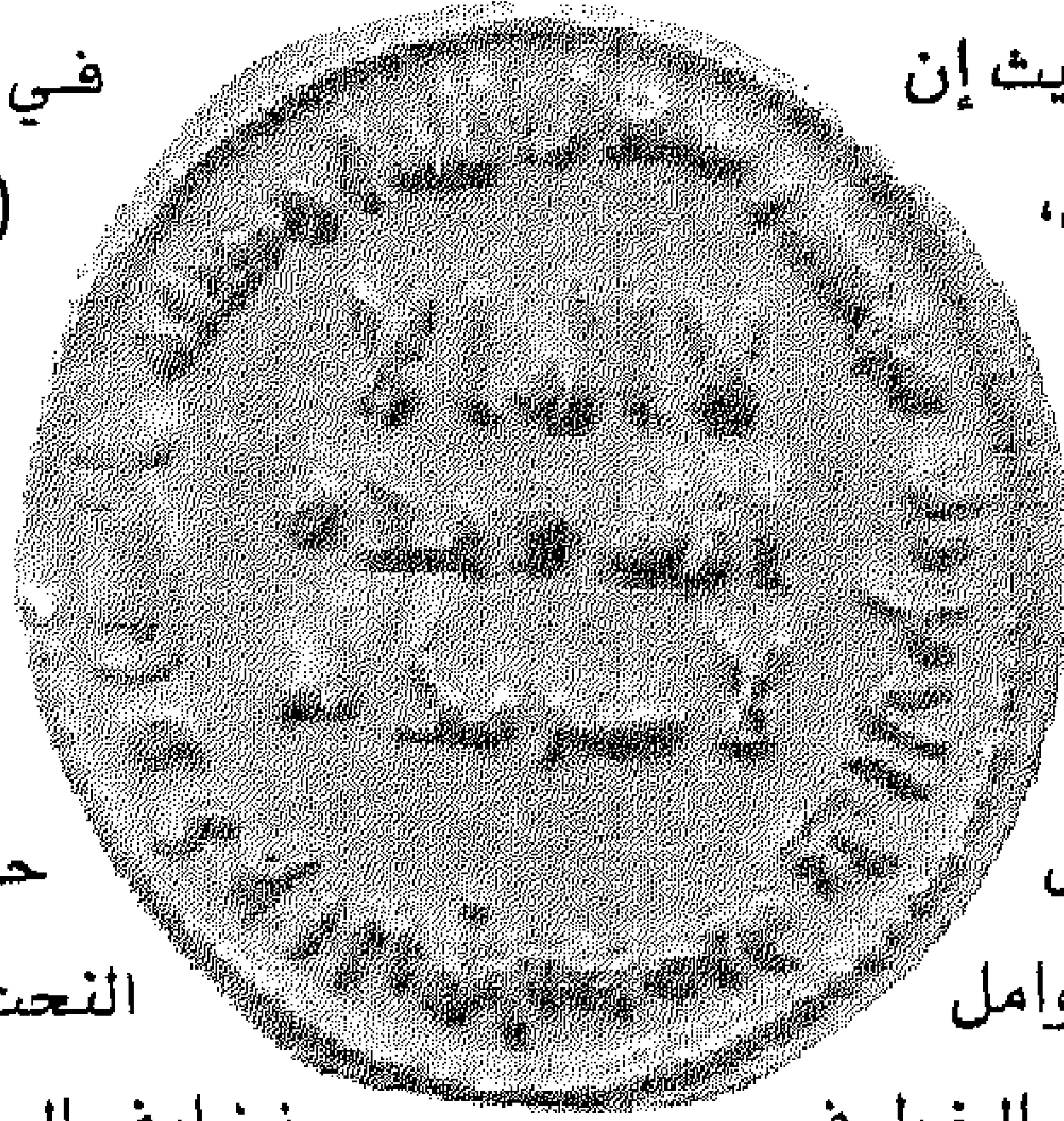


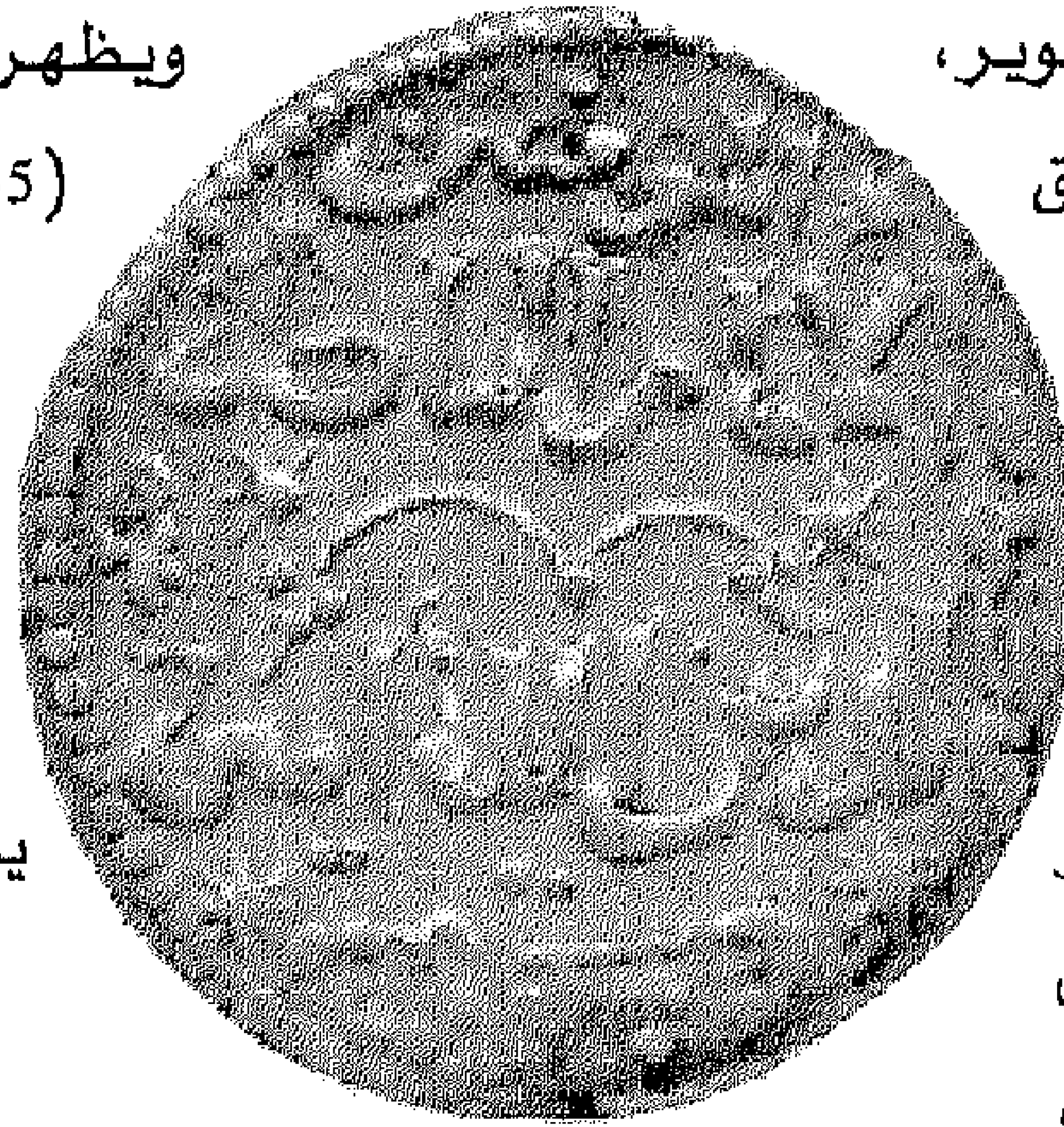
(لهنري الثامن) 1491 ـ 1547، ملك إنجلترا من مجموعة (كونت سبنسر) في الثورب، ترجع إلى سنة 1537 مسيحي، حيث تظهر الزخارف العربية المورقة (الأرابيسك) على ثوب الملك الرمادي، والمطرز بخيوط سوداء ومرصعًا بالياقوت المطعم بالذهب، أما الناحية الأخرى، التي تتضح فيها صلة (هولباين) بالفن الإسلامي، فتتعلق برسوم السجاجيد التي تظهر في صوره، إذ فطن علماء الآثار الإسلامية،

55 حسن الباشا، أثر الفنون الإسلامية في آسيا الصغرى والبلقان في التصوير الأوروبي، ضمن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م3، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 118 ـ 120، لوحات 1595 ـ 1610.

إلى أن (هولباين) قد اعتاد أن يرسم في صوره سجاجيد من نوع إسلامي معين، كمفارش على الأرض، أو على الأثاث، وقد عرف هذا النوع من السجاجيد في آسيا الصغرى، في الفترة ما بين أواخر القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر مسيحي، ولشيوع ظهوره في صور (هولباين) اصطلح على تسميته بسجاجيد (هولباين)، ويبدو ذلك التأثير في صورة التاجر (جورج كيز) المؤرخة بسنة 1532 مسيحي، حيث إن السجادة المفروشة على الخوان، من طراز السجاجيد الإسلامية المعروفة بسجاجيد (هولباين)[56].

وكان تقدير الغربيين للخطوط الشرقية بعامة، وجمال الخط العربي بخاصة، من العوامل التي أدت إلى أن صارت صنعة الخط في الغرب، قسمًا من أقسام التصوير، وصار الخط صورة تتذوق لجمالها، بصرف النظر عن مضمونها، وقد استوحى بعض الرسامين الأوروبيين في العصر الحديث، الخط العربي في رسم لوحاتهم، ومن أشهر هؤلاء (باول كليه) الألماني الذي زار تونس سنة 1914 مسيحي، وقام برحلة إلى مصر فيما بين عامي 1928 ـ 1929 مسيحي، ومن أهم صوره الرسوم التي أطلق عليها اسم الصور الرمزية، أو الصور بالكتابة النباتية، ويتضح فيها تأثره الكبير بالخط العربي وباتجاهه من اليمين إلى الشمال، واستدارة حروفه، ومنهم أيضًا الفنان (كارل جورج هوفر) الذي ولد في سنة 1914 مسيحي، في ولاية سيلسيا، وقد تأثر بقوة الحركة الجميلة في الخط العربي عمومًا، والخط النسخ خصوصًا، ويتضح ذلك في رسومه التي عرضت في متحف (كلنجشبور) في (أوفنباخ) على الراين[57].





نموذج لدينار إسلامي
صكت منه العملة المسيحية

النحت :

ولم يقف التأثير الإسلامي عند حد التصوير، بل نجده يمتد إلى فن النحت، حيث استخدم فنانو عصر النهضة، زخارف الخط العربي في تزيين منحوتاتهم، ويظهر ذلك في تماثيل الفنان (فيركيو) (1435-1488 مسيحي)، مثال ذلك: تمثاله البرونزي «داوود» المخطوط في (البارجيلو) في فلورنسا، وذلك على هيئة أشرطة من خط النسخ المملوكي، تزخرف حواف الثوب الذي يرتديه داوود[58].

المسكوكات :

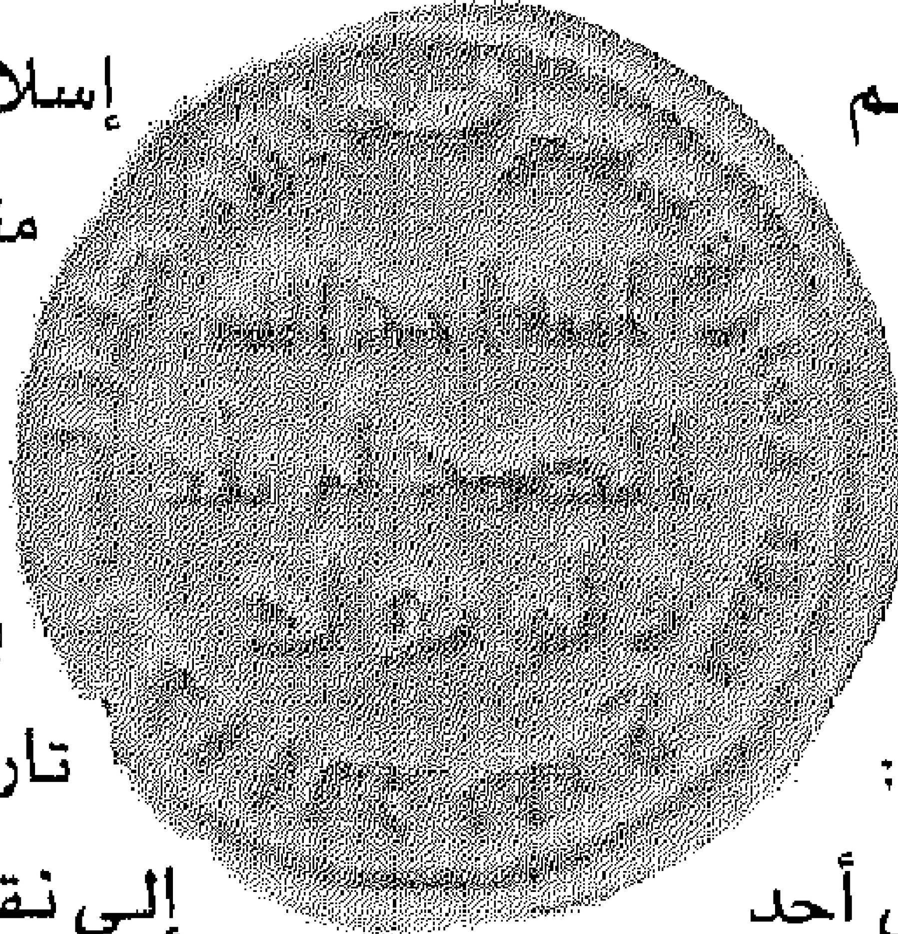
حرص بعض الملوك الأوروبيين، على

56. أ. هـ. كريست، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الإسلامية، ص 73 ـ 74.
حسن الباشا، أثر الفن الإسلامي في صور هولباين، ضمن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م3، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 1420هـ/ 1999 مسيحي، ص 114 ـ 117، لوحات 1607 ـ 1609.
57. حسن الباشا، أثر الخط العربي في الفنون الأوروبية، ص 230، لوحات 1611 ـ 1614.
58. المرجع نفسه، ص 229، لوحات 1055 ـ 1056.



تأثر النورمانديون بالنمط الإسلامي في الكتابة على عملاتهم

الكتابة بالخط العربي على عملاتهم النقدية في القرن الثامن الميلادي، ويتضح ذلك على قطعة من العملة الذهبية، باسم الملك (أوفا) ملك مرسية 757 ـ 796 مسيحي، ويلاحظ أن تلك العملة تشتمل على كتابة نصها: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له» على أحد الوجهين، و«محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» على الوجه الآخر، وذلك بالإضافة إلى تاريخ 157هـ، ويستدل من صيغة هذه الكتابات، ذات الطابع الإسلامي الصرف، أنها منقولة دون وعي، من دينار



إسلامي، كان هو نفسه النموذج الذي سكت منه العملة المسيحية(59).

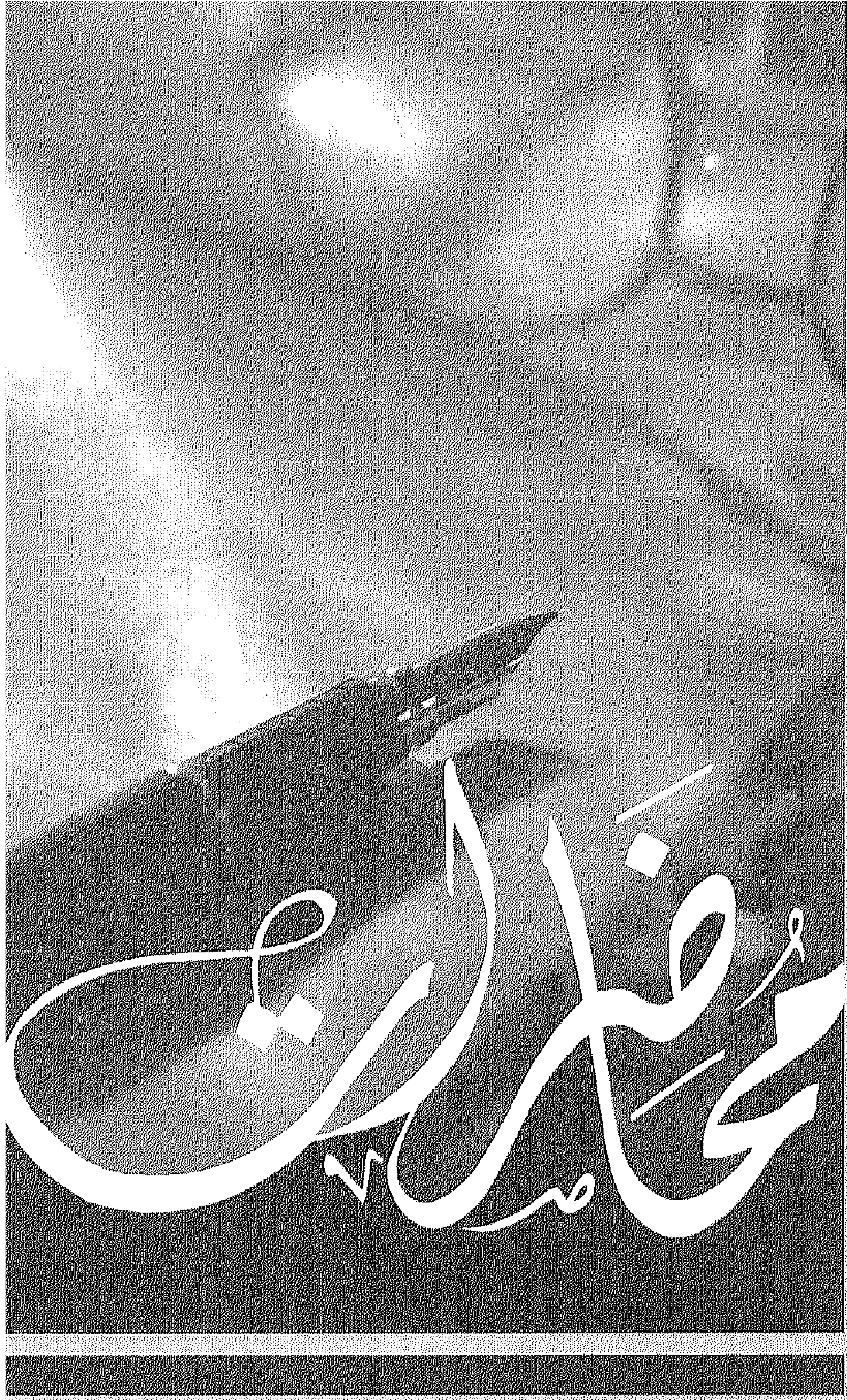
ومما يسترعي الإنتباه أن النورمانديين، سكوا نقودًا متأثرة في طرزها بالنمط الإسلامي، حتى أنها كانت تحمل تاريخًا مكتوبًا بالأرقام العربية، بالإضافة إلى نقش عربي، وقد وصلنا من عهد الملك روجر الثاني، نقد من هذا القبيل، يرجع إلى سنة 1138 مسيحي(60)، هذا بالإضافة إلى ربع دينار باسم الملك (غليالم) ملك صقلية 548-561هـ/ 1154 ـ 1166 مسيحي، جاء على وجهه كتابة بالخط الكوفي نصها: «الملك غليالم المستعين بالله»(61).

59 ـ أ. هـ. كريست، مرجع سابق، ص 17، شكل1.

حسن الباشا، مرجع سابق، ص 225.

60 ـ حسن الباشا، أثر الفنون الإسلامية بصقلية وإيطاليا في أوروبا، ص 85، لوحات 1100، 1101.

61 ـ حسن الباشا، أثر الخط العربي في الفنون الأوروبية، ص 225، لوحات 1100 ـ 1101.



العلاقات المسيحية ـ اليهودية
والعلاقات المسيحية ـ الإسلامية
تاريخياً ولاهوتياً



العلاقات المسيحية ـ اليهودية والعلاقات المسيحية ـ الإسلامية تاريخيًا ولاهوتيًا *

د . عبدالرحمن عُطبة **

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه أجمعين، إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم ممن حملوا رسالة الله وأدوا الأمانة:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ (سورة الشورىٰ الآية: 13)

تمهيد

الحديث عن العلاقات بين المسيحيين واليهود، وبين المسيحيين والمسلمين، ترافقه كثير من الحساسيات، بسبب ما يتداوله عامة أبناء هذه الملل من روايات حولها، قد يتداخل فيها الصحيح بغير الصحيح، بحيث تبقى الحقيقة غائمة تجاه غير المدقق، ولذا كان من واجب كل باحث في مثل هذه الموضوعات، أن يتوخى الحذر لئلا يجنح به الهوى، أو تزل به عثرات اللسان إلى غير الحق، الأمر الذي يقتضي أن يكون كل كلام في هذا الموضوع، متسمًا بالدقة وبالصحة، ولا يتأتى ذلك، إلا لمن يلتزم الموضوعية في بحثه، ويدعم كل رأي بالدليل الذي لا يقبل النقض.

وأنا، في هذه المحاضرة ملتزم بهذه الضوابط، ومتمثل بالقاعدة الإسلامية في مناهج البحث: «إذا كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعيًا فالدليل»؛ المصادر التي اعتمدتها في هذا البحث هي المراجع الأصلية في كل من اليهودية والمسيحية والإسلام: العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) و(القرآن الكريم) وهي الأصول المعتمدة، لدى رعايا الملل الثلاث، أضفت إليها بعض المراجع الإسلامية والمسيحية.

* هذا الموضوع صدى لتصريح البابا الجديد بنديكت السادس عشرالذي أعلن بعد أيام من تنصيبه على كرسي البابوية أن العلاقات المسيحية اليهودية قديمة وقوية ومتجددة، وألقاه الكاتب (محاضرة) في صالة معاوية بمدينة حلب السورية بتاريخ 2005/5/19 مسيحي.

** أستاذ جامعي، كاتب/ سورية.

العلاقة مع الآخر

العلاقة بين المسيحيين واليهود، والعلاقات بين المسيحيين والمسلمين، علاقات ثنائية الأطراف، وهناك طرف ثالث هو (الآخر)، يحسن أن نعرج إلى الحديث عن العلاقة معه بالنسبة لكل من هذه الأطراف، وبكثير من الإيجاز.

الآخر بالنسبة للمسيحية، مهما كان انتماؤه أو اعتقاده، مُكرم، مُحسن إليه حتى في أشد حالات عدوانه على المسيحي، مثال واحد من أمثلة كثيرة، تعج بها صفحات الأناجيل، يترجم عن الروح العامة للتعامل مع الآخر في المسيحية، وهو قول السيد المسيح (عليه السلام)، ننقله عن الإصحاح السادس، من الإنجيل الذي رواه القديس لوقا - الفقرات من 27-32: «أما أنتم أيها السامعون، فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضيكم، وباركوا لاعنيكم، وادعوا للمفترين الكذب عليكم... افعلوا ما أردتم أن يفعل الناس لكم، فإن أحببتم من يحبكم، فأي فضل لكم؟». فهل هناك تسام في التسامح وفي الحس الإنساني أروع مما سمعنا؟.

من هو الآخر بالنسبة للمسيحيين؟ ومن هو الآخر في الإسلام؟ ومن هو الآخر لدى اليهود؟

هذا في المسيحية، أما في الإسلام، فإن الله يؤكد لجميع البشر أنه ربهم جميعًا، لا رب فئة منهم، فكان مفتتح أول سورة في المصحف الشريف قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الفاتحة الآية: 2)

وكان مفتتح آخر سورة فيه قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة النّاس الآية: 1)

وكان مقياس الإسلام في التعامل بين البشر جميعًا، لا بين المسلمين وحسب، هو العدل، حتى في أشد حالات العداوة وذلك في قوله تعالى:

﴿...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة المائدة الآية: 8)

وأيضًا أترك لكل منكم التعليق على الروح التي تملي هذه العلاقات مع الآخر.

هذا في المسيحية، وهذا في الإسلام، أما في اليهودية، فقد قسم البشر إلى قسمين: (يهود) و(جوييم)، وهم الذين تسميهم أسفار العهد القديم (الأمم) والذين يطلق عليهم حديثًا اسم (الأمميين)[1]، أي جميع الأمم غير اليهودية.

الأمم، أو الأمميون، هم (الآخر) عند اليهود، والنظرة إليهم في معظم أسفار العهد القديم نظرة ازدراء، وهم يستحقون القتل، ومن لا يقتل منهم، يجب أن يكون تابعًا ذليلاً لليهود، والنصوص في ذلك كثيرة، نجتزئ بعضها في هذه المحاضرة.

ورد في سفر القضاة (1و2) في الإصحاح الثالث - الفقرة (1) أن بعض سكان مدينة جبعون تظاهروا بأنهم غرباء فقراء، ولما كشف يشوع أمرهم، سألهم عن السبب، فأدلوا له بسبب مخاوفهم، وقالوا: «أخبر عبيدك (أي سكان جبعون)، إخبارًا بما أمر به الرب موسى عبده، أن يعطيكم كل الأرض، ويبيد جميع سكان الأرض من أمامكم» وفي سفر يشوع - الإصحاح الثامن - الفقرتان (34 و35)، ورد حول حرب إسرائيل لشعب (عاي): «أن جميع إسرائيل رجع

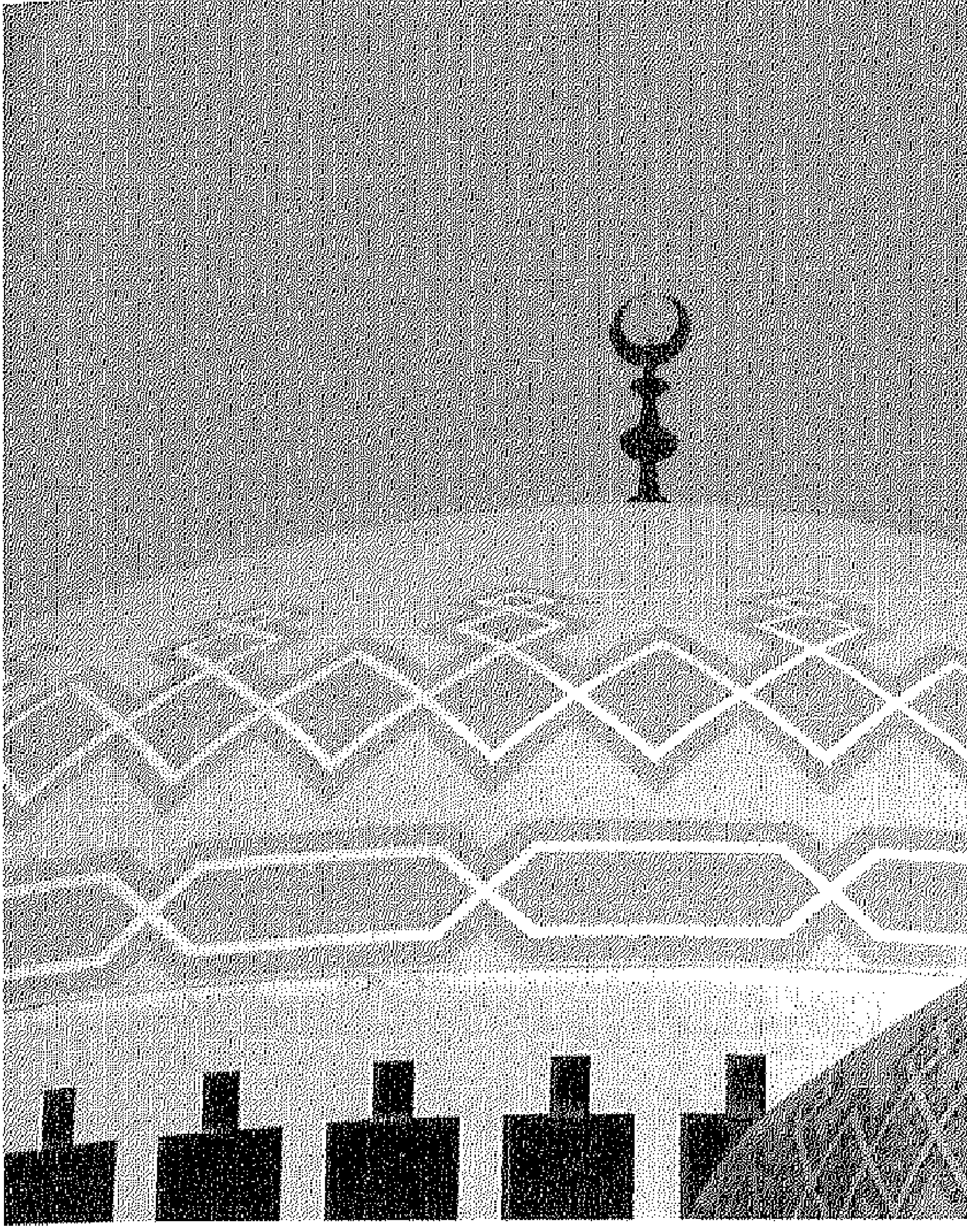
1- «جوييم» اسم لشعب غير اليهود هو (تدعال) - انظر العهد القديم/ سفر التكوين - الإصحاح 14 الفقرة 1 و2، ثم أصبح يطلق على كل شعب من غير اليهود، وهم الذين يسميهم العهد القديم (الأمم) كما ورد في سفر القضاة (1و2)، الإصحاح 2 - الفقرة (1و2): «فأنا أيضًا لا أعود أطرد إنسانًا من أمامهم من (الأمم) الذين تركهم يشوع» وكما ورد في سفر القضاة (2ز3)، الإصحاح 3 الفقرة (1): فهؤلاء (الأمم) الذين تركهم الرب ليمتحن بهم إسرائيل».

المحاضر في سطور

❖ ولد في حلب عام 1927.
❖ أستاذ جامعي في جامعة قطر.
❖ عضو جمعية الدراسات والبحوث.
❖ درّس في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية لكلية التربية بجامعة الفاتح لسنين طويلة.

من مؤلفاته:

1 ـ الصنوبري شاعر الطبيعة.
2 ـ تطور الشعر في بلاد الشام.
3 ـ مع المكتبة العربية.
4 ـ في رحاب اللغة العربية.
5 ـ صفحات من دفتر الإسلام.



إلى (عاي)، وضربوها بحد السيف، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء، إثني عشر ألفاً، جميع أهل (عاي)».

في النص الأول، إشارة إلى إذن الرب بإبادة جميع سكان الأرض، وفي النص الثاني إبادة شعب مدينة (عاى) رجالا ونساء.

اغتصاب الأرض وتخريبها، وتحليل القتل والإبادة لغير اليهود، ممن يقفون ضدهم، أو لا يقفون معهم، هي قيم سلبية لا إنسانية، تعجّ بها صفحات العهد القديم، ومنها، وغير النصين السابقين، نسمع أيضًا في سفر الخروج ـ في الإصحاح 23 والفقرات 23، 24 خطاب الرب لموسى: «إن ملاكي يسير أمامك، ويجيئ بك إلى الأموريين، والحثيين، والفرزيين، والكنعانيين، والحويين، واليبوسيين، فأبيدهم. لا تسجد لآلهتهم، ولا تعبدها، ولا تعمل كأعمالهم، بل تبيدهم وتكسر أنصابهم»[2].

الإبادة هنا لشعوب كثيرة لم تكن من اليهود، لا لشعب واحد يحاربهم، حتى ولو كان الأمر مع شعب واحد محارب، فهل يجوز ـ إنسانيًا وأخلاقيًا ودينيًا، إبادتهم جميعًا؟

وفي المزمور السابع والثلاثين بعد المائة نسمع في الفقرتين 8 و9: « يابنت بابل المخربة، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة»[3].

صحيح أن شعب بابل سبى اليهود وشردهم، ولكن هل يجوز، وفي أي عرف من الأعراف، سحق الأطفال لأن شعبهم تغلب على شعب آخر؟!

وفي الإصحاح الثالث من سفر الملوك الثاني ـ الفقرة 18 و19 جاء ما يلي: «فيدفع ـ أي الرب ـ موآب إلى أيديكم فتضربون كل مدينة مصحّحة، وكل مدينة مختارة، وتقطعون كل شجرة طيبة، وتطمون جميع عيون الماء، وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة»[4].

---

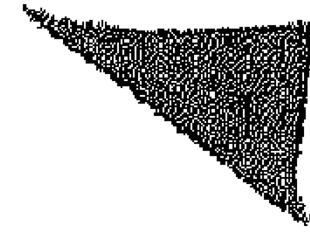
2 ـ العهد القديم: ص 115 ـ طبعة بيروت 1891 مسيحي.
3 ـ المصدر نفسه: ص 846.
4 ـ المصدر نفسه: ص52.

وفي الفقرات من 13 إلى 26 من الإصحاح التاسع من سفر التكوين ذكر لأبناء نوح الذين خرجوا من الفلك سام وحام ويافت، وأن حام أبوكنعان، جاء فيه «ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته»[5].

أظن أن هذه الأقوال، وهي قل من كل، لا تحتاج إلى أي تعليق، وينبني عليه أن ما جاء في (البروتوكولات)، تمليه الروح نفسها، التي سمعنا ببعض آثارها في النصوص السابقة. ومن وحي هذه التوجهات والمواقف مع الآخر، ستتحدد أيضًا علاقة اليهود بالمسيحيين، هذه العلاقة التي هي إحدى مادتي البحث في محاضرتنا هذه.

العلاقة الثنائية بين المسيحية واليهودية، وبين المسيحية والإسلام، كثيرة ومتشعبة، وتضيق كثير من الكتب عن استيعاب تفصيلاتها؛ الأمر الذي حملني على تركيز محاضرتي حول نقطتين أساسيتين فقط، هما من أهم ما يتصل بمحاضرتنا، من أصول العقيدة في الملل الثلاث، ونعني بهما الموقف من السيدة مريم، ومن السيد المسيح (عليهما السلام) عقديًا، أي من وجهة النظر اللاّهوتية، ومن ثم تداعياتهما في التعامل مع الآخرين تاريخيًا، ومع التساؤل، هل بقيت المواقف اللاهوتية التي جاءت في أصول العقائد على حالها؟ أم داخلها شيء من التغيير؟ وإذا حصل ذلك، فما هي المسوغات التي اقتضت ذلك، وهل بمستوى تلك الأصول؟

هل بقيت المواقف اللاهوتية التي جاءت في أصول العقائد على حالها؟ أم داخلها التغيير؟!



علاقات اليهود بالمسيحيين:

المسيحية جاءت زمنيًا بعد اليهودية بفترة طويلة، وكان طبيعيًا غياب أيّ ذكر لها في نصوص العهد القديم، لأنه سابق لها. ولكن لما كان مجيئها إلى مجتمع يهودي، فقد كان طبيعيًا أن يتعامل معها هذا المجتمع بالأساليب نفسها، التي ألفها في تعامله مع الآخرين، وقد تجلى هذا التعامل في غاية الوضوح، مع أول رمزين أصيلين ومعتبرين في المسيحية، وهما السيدة مريم والسيد المسيح (عليهما السلام).

موقف اليهود من السيدة مريم:

السيدة مريم، أم السيد المسيح (عليهما السلام) عذراء، ولدت به بمعجزة، وقد جاءت أخبار هذه الولادة شديدة الإيجاز في المصادر المسيحية، أشار إليها باقتضاب إنجيل (متّى)، وبقليل من التفصيل إنجيل (لوقا) بينما أفاض المصدر الإسلامي ـ القرآن الكريم ـ في قصة الولادة، وفي تكريم السيدة مريم، إفاضة واسعة ستأتي في موضعها من هذه المحاضرة.

جاءت رواية إنجيل (لوقا) في الإصحاح الأول على الصورة التالية:

«أرسل الله الملاك جبرائيل، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود، اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها وقال: السلام عليك أيتها الممتلئة نعمة الربُّ معك.

فاضطربت لهذا الكلام، وقالت في نفسها: ما معنى هذا السلام؟ فقال لها الملاك: يا مريم لا تخافي، قد نلت حظوة عند الله، فستحبلين وتلدين إبنا تسميه (يسوع) فيكون عظيمًا، وابن العليّ يدعى، ويوليه ربنا عرش أبيه داود، فقالت مريم للملاك: أنى يكون هذا ولا أعرف رجلاً، فأجابها الملاك. إن الروح القدس يحل بك، وقدرة العليّ تظللك، لذلك سيكون المولود ذكرًا وابن الله يدعى».

5ـ المصدر نفسه: ص13 و14.

السيدة مريم، فتاة عذراء، حملت ووضعت طفلاً، ومألوف الناس في عالم الأسباب، أن الطفل وَلَدُ سِفاح، وأن أمه زانية. هذا ما وقر في أذهان المجتمع اليهودي حينذاك، بل إن خطيبها الذي ذكرته الأناجيل، والذي لم يكن قد دخل بها بعد، راودته الشكوك أيضًا، لولا أن صحح له الأمر ملاك الرب في الحُلم، فقد جاء في الإصحاح الأول من إنجيل (متّى): «ولمّا كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، وُجدت قبل أن يتساكنا حاملاً من الروح القدس، وكان يوسف زوجها بارًا، فلم يرد أن يشهر أمرها، فعزم على تركها سرًا. وما فكر في ذلك حتى تراءى له ملاك الرب في الحلم وقال له: يا يوسف بن داود لا تخف أن تجئ إمرأتك إلى بيتك، إن الذي تحمله هو من الروح القدس، وستلد إبنًا فسمّه يسوع».

الزانية في التشريع اليهودي ترجم حتى تموت، جاء هذا في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر تثنية الاشتراع في العهد القديم[6]، ومريم اتهمت بالزنا، وظاهر أمرها يقتضي التصديق بذلك، فلماذا لم يرجموها؟ أو على الأقل لماذا لم يعاقبوها؟ لابد أن هناك مانعًا حال دون ذلك، ولا بد أن يكون هذا المانع دليلاً لا يقبل النقض، فما هو هذا الدليل الذي برأها ثم حماها؟

المراجع القديمة لم تذكره، والمصادر المسيحية سكتت، ولم تأت حوله بشئ يشفي الغلة، ولكن القرآن الكريم، المصدر الإسلامي الأول، هو الذي كشفه، وهو دليل رباني لا يقبل النقض، وسيجيء تفصيله في موضعه من هذه المحاضرة أيضًا.

وعلى الرغم من وجود الدليل الذي جبّ أيدي اليهود عن السيدة مريم، فإن ألسنة السوء لديهم، ما زالت وحتى اليوم، تلهج بالتعريض بها، وبقذفها بأشنع التهم.

موقف اليهود من السيد المسيح (عليه السلام):

السيد المسيح آية من آيات الله، وحياته كلها تشهد بذلك، صرّح بذلك رجل تقي صالح اسمه سِمْعان، وكان روح القدس قد نزل به وبشره بالسيد المسيح قبل أن يولد، ولما رآه بعد ولادته بين يديّ أمه، وعمره أربعون يومًا، حمله ثم خاطبها بقوله: «إنه جُعل لسقوط كثير من الناس، وقيام كثير منهم، من بني إسرائيل، وآية ينكرونها»[7]، ويقول شارح هذه النسخة من الإنجيل: «يسوع آية الله الكبرى، بَيْدَ أن رؤساء اليهود أنكروها»[8].

اضطلع السيد المسيح بحمل رسالة الله، وهو في الثلاثين من العمر، كما يروي إنجيل لوقا: «ولما اعتمد الشعبُ كله، اعتمد يسوع أيضًا، وبينما هو يصلي، انفتحت السماء، ونزل الروح القدس عليه، في صورة جسم كأنه حمامة، وأتي صوت من السماء يقول: (أنت ابني الحبيب عنك رضيت[9]، وكان عمر يسوع عند بدء رسالته في نحو الثلاثين من عمره»[10].

كان السيد المسيح (عليه السلام)، قبل تكليفه بالرسالة متحنثًا، يتعبد الله، ويخدم الناس، ويعمل الخير، ويدعو إلى المحبة والتسامح، وهي قيم تخالف ما ألفه اليهود في تعاملهم، من أنماط الظلم

---

6 ـ العهد القديم: ص:287 ـ طبعة بيروت 1891 مسيحي.

7 ـ انظر «الإنجيل» الذي رواه القديس لوقا/ الإصحاح الثاني ـ الفقرات 25 إلى 35. «الكتاب المقدس وأعمال الرسل» ص:176 ـ منشورات المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 3/4/1973 مسيحي.

8 ـ المصدر نفسه ص:177.

9 ـ المصدر نفسه، الفقرات 21 و22 و23، ص:181.

10 ـ إنجيل متّى: الإصحاح 16 الفقرات 18.

والاستغلال والتعالي حتى مع شعبهم اليهودي، وحين كلف (عليه السلام) بالرسالة جهر بالدعوة وأعلن إنشاء الكنيسة: «على الصخر سأبني كنيستي، فلن تقوى عليها أبواب الجحيم[11] وأمعن في أعمال البر، وعزز الله سبحانه نشاطه بالمعجزات من إحياء الموتى وشفاء المرضى، فالتف حوله الناس وكثر محبوه، واصطفى مجموعة من تلاميذه توسم فيهم الخير، هم الحواريون الإثنا عشر؛ الأمر الذي أحدث خلخلة في البناء الديني والاجتماعي في المجتمع اليهودي والذي ثارت ثائرة المتنفذين فيه، من الأحبار والكتبة والشيوخ، ومعظمهم من الفريسيين والصدوقيين.

الأحبار هم رؤساء الكهنة، وكبيرهم حينذاك (قيافا)، والشيوخ هم وجهاء اليهود وأعيانهم، والفريسيون وكانوا يتبعون مذهبًا دينيًا متشددًا وكان أكثر الكتبة منهم.

والصدوقيون هم حزب ديني سياسي، أكثر أعضائه من الأحبار والكهنة، أما الكتبة فهم علماء الكتاب المقدس، وأكثرهم من الفريسين، وقد أخذ السيد المسيح على معظمهم رياءهم وكبرياءهم[12].

ولعلاقتهم العنيفة والعميقة بإيذاء السيد المسيح، نشير إلى بعض أقواله فيهم، فمما قاله لتلاميذه محذّرًا من هؤلاء الكتبة: «إياكم والكتبة، يحبون المشي في الجُبب، ويتوقون إلى تلقي التحيات في الساحات، وإلى صدور المجالس في المجامع، والمقاعد الأول في المآدب، يأكلون بيوت الأرامل، وهم يظهرون أنهم يطيلون الصلاة. هؤلاء سينالهم العقاب الأشد»[13]، ومما قاله أيضًا في الكتبة وفي الفريسيين: الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، تؤدون عُشر النعنع والشبث والكمون، بعدما أهملتم ألزم ما في الشريعة: العدل والرحمة والوفاء... يا أيها الذين يُصفون الماء من البعوضة ويبتلعون الجمل... أيها الحيات أولاد الأفاعي، أنّى لكم أن تهربوا من عقاب جهنم. هأنذا أرسل إليكم من أجل ذلك أنبياء وحكماء وكتبة، ففريقًا تقتلون وتصلبون، وفريقًا في مجامعكم تجلدون، ومن مدينة إلى مدينة تطاردون حتى يقع عليكم كل دم زكي، سفك على الأرض. من دم هابيل الصدّيق، إلى دم زكريا بن بركيا، الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح، الحق أقول لكم: هذا كله سيقع على هذا الجيل»[14].

ما أسباب ومظاهر تعاطف النصارى مع المسلمين؟ وكيف تعامل المسلمون الأوائل مع النصارى؟

هذه الإفاضة في التعريف بحقيقة هؤلاء الناس من وجوه المجتمع ممن ناصبوا السيد المسيح أشد العداء، قد تكون ضرورية، لتفسير مواقفهم العنيفة تجاهه، لأن هذه المواقف تمثل نموذجًا لا يغاير سلوكهم العام وحسب، بل هو جزء من لحمته ومن طبيعته نفسها.

الأناجيل كلها تحدثت عن ألوان الإضطهاد، التي مارسها قادة اليهود ضد السيد المسيح، كما تحدثت عن المؤامرة التي أدت إلى القبض عليه ومحاكمته، ومن ثم اتخاذ القرار بقتله، وانتهت به إلى الصلب والقتل كما يعتقدون.

بدأت المؤامرة باختراق الصف المحيط بالسيد المسيح، على عادة جميع المؤامرات، بالبدء باختراق داخل صفوف الجبهة المعادية، وذلك بعد أن باعهم

11ـ انظر قسم (فوائد) من فهرس (الكتاب المقدس ـ الإنجيل وأعمال الرسل) ص:460 وما بعدها.

12ـ إنجيل لوقا: الإصحاح 20ـ الفقرات 45 إلى 47.

13ـ إنجيل متّى: الإصحاح 23ـ الفقرات 24 إلى 35.

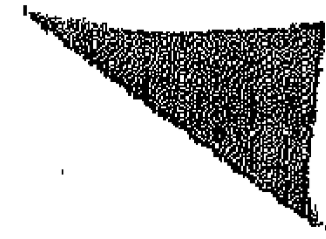
14ـ إنجيل متّى: الإصحاح 26 الفقرات 53 إلى 55.

أحد الحواريين، وهو يهوذا الإسخريوطي، ضميره مقابل مبلغ من المال، على أن يسلمهم السيد المسيح، واهتبل يهوذا إحدى الفرص، وجاء بصحبة عصابة مدججين بالسلاح، فقبضوا عليه وساقوه إلى دار (قيافا) عظيم الأحبار؛ وقد يتساءل سائل، كيف يقبضون عليه وكيف يسلمه الله، وهو رسوله، وهو ابنه في اعتقاد من يؤمنون به؟، وقد أعطى هو الجواب على ذلك في قوله لواحد ممن حاولوا الانتصار له: «أو تظن أني لا أستطيع أن أسأل أبي، فيمدني الساعة بأكثر من اثني عشر فيلقاً من الملائكة؟ ولكن كيف تتم آيات الكتب التي تقول: إن هذا ما يجب أن يحدث؟[15]...

وجرت المحاكمة برئاسة (قيافا)، وجيء بكثير من شهود الزور، ثم وجّه إليه (قيافا) سؤالاً قال فيه: «أستحلفك بالله الحي لتقولن لنا: أأنت المسيح ابن الله؟ فأجاب يسوع: أنت قلت. وأنا أقول لكم: سترون بعد اليوم ابن الإنسان جالسًا عن يمين القدرة، وآتيا على غمام السماء. فشق عظيم الأحبار ثيابه وقال: (لقد كفر، فأي حاجة بنا إلى الشهود، وقد سمعتم كفره، فما قولكم؟) فأجابوه: (يستوجب الموت) فبصقوا في وجهه ولطموه، ومنهم من لكمه[16].

كان الرومان يحكمون البلاد سياسيًا، وكان الحاكم حينذاك هو (بيلاطس)، وكانت هذه المحاكمة دينية، ولا بد لتنفيذ حكم الموت، من موافقة السلطة التنفيذية، وحُمِل يسوع ومعه قرار المحكمة، إلى الحاكم الروماني (بيلاطس) ليصدق الحكم، وكان بيلاطس على شيء من الإنصاف، ولم يقتنع بالحكم، وحاول دفع الأمر أكثر من مرة، ولكنهم كانوا يصرون على التنفيذ، وعبّأوا الشعب حول دار الحكم، وهم يبالغون في الصياح: (ليُصلب) «فلما رأى بيلاطس أنه لم يستفد شيئًا. بل تفاقم الإضطراب. أخذ ماء وعسلاً بمرأى من الجميع وقال: أنا بريء من هذا الدم. أنتم وشأنكم فيه. فأجاب الشعب بأجمعه (دمه علينا وعلى أولادنا)، فجلد يسوع ثم أسلمه للصلب[17].

لماذا لم يعاقب اليهود (مريم)؟ ولماذا لم يعلنوا براءتها؟ ولماذا سكتت المصادر المسيحية ولم تشر الى ذلك الموقف؟



وفي الطريق إلى الصلب، تبعه جمع كبير من الشعب، ومن نساء كن يضربن الصدور وينحن عليه، فالتفت يسوع إليهن وقال: «يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن، وعلى أولادكن، فسوف تأتي أيام يقال فيها: طوبى للعواقر، وللبطون التي لم تلد، والثدي التي لم ترضع، ويقال للجبال انهدي علينا، وللتلال ادفنينا»[18].

وكان الصلب والموت يوم الجمعة، واستأذن أحد الوجهاء الصالحين، واسمه (يوسف الرامي) بيلاطس في حمله ودفنه، فكفنه ودفنه في قبر حفر بالصخر، وأغلق القبر، وجاء بعض النسوة يوم الأحد يحملن الطيب للقبر، فوجدنه مفتوحًا وخاليًا[19]. وكانت قيامة السيد المسيح بعد الموت، كما في روايات الأناجيل.

وهذه هي المأساة التي نفذها اليهود، تجاه المسيحيين الذين يتجرعون غُصصها حتى اليوم، فقد قتل اليهود رمزهم الذي هو نبي الله، والذي هو

15- إنجيل متّى: الإصحاح 26 الفقرات 63 إلى 78.

16- المصدر نفسه الإصحاح 27 الفقرات 23 إلى 26.

17- إنجيل لوقا، الإصحاح 23 الفقرات 27 إلى 31.

18- إنجيل مرقس، الإصحاح 16 الفقرات 1 إلى 6.

19- انظر كتاب «من يحمي المسيحيين العرب» ص:29 لفيكتور سحاب، دار الوحدة، بيروت.

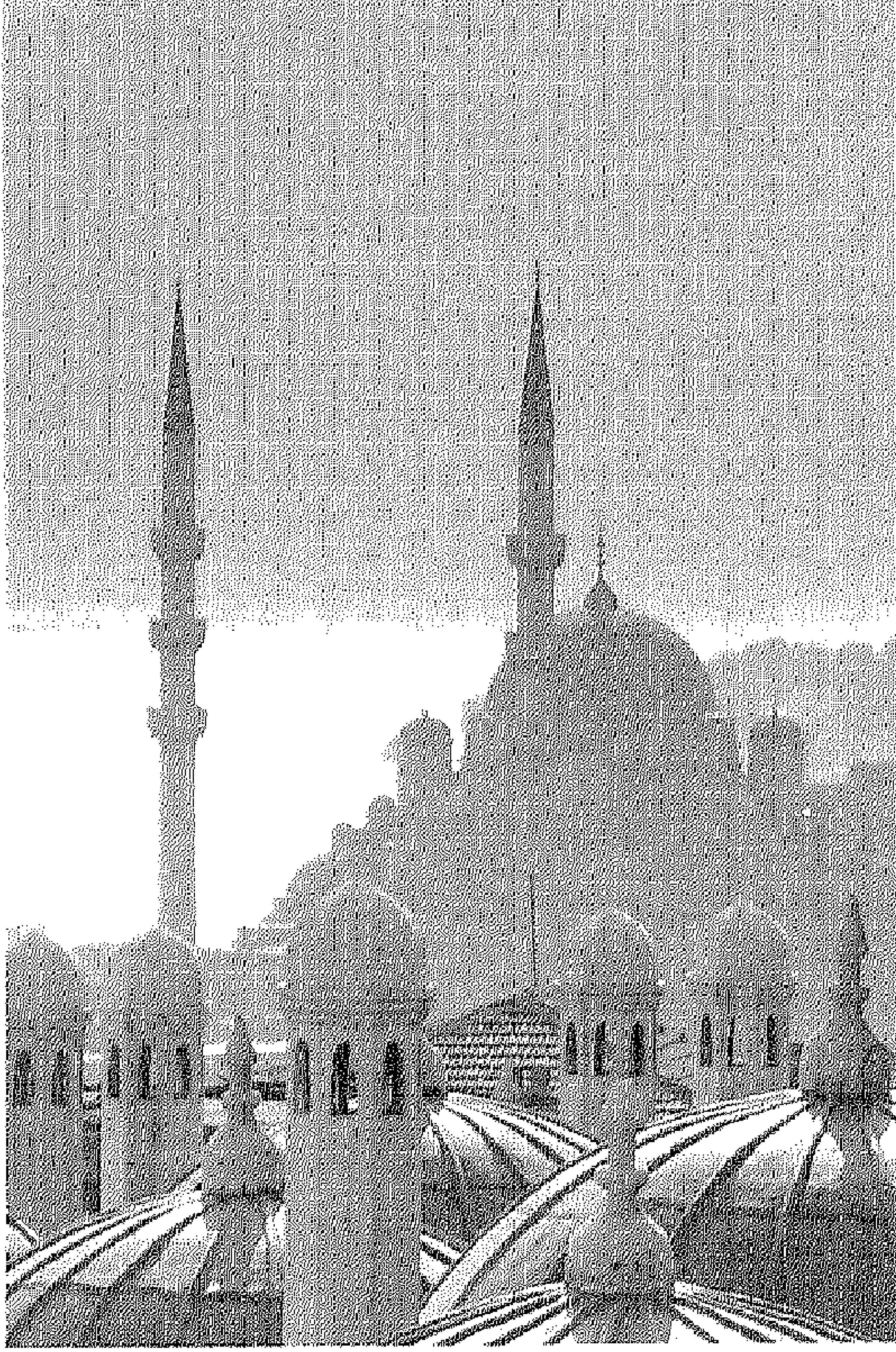
في اعتقادهم ابن الرب، وهل هناك أقسى من هذه الفاجعة التي ارتكبها اليهود جميعًا، عبر كل طوائفهم، وخلال جميع فترات التاريخ وحتى اليوم؟ وهل هناك من يجرؤ على الإدعاء بأن اليهود قريبون من المسيحيين، سواء على مستوى اللاّهوت أو على مستوى مجريات الأحداث في التاريخ؟

وإنني أترك لكم أيها المستمعون، مسيحيين ومسلمين، الحكم على هذه المقولة!!

علاقات المسلمين بالمسيحيين :

الإسلام جاء بعد المسيحية بمدة طويلة، وكان المجتمع في الجزيرة العربية آنذاك، وفي جوارها، يضم أشتاتًا من الملل، منهم اليهود والنصارى والصابئة والمشركون وعبدة النار. وعبر موضوع محاضرتنا، نذكر أن اليهود، كعادتهم، وكما فعلوا مع المسيحيين من قبل، ناصبوا الدعوة الجديدة العداء، وتعاملوا معها بأفانين من المكر ومن الإيذاء، ولا حاجة بنا لتفصيل ذلك لأن الخوض فيه خروج عن منهجية البحث.

أما المسيحيون، فقد كان تعاملهم مع المسلمين، ومنذ اللحظات الأولى، موسومًا بالتعاطف، جريًا على سنن المسيحية في الحب وفي التسامح، وسجل التاريخ لهم مواقف كريمة تجاه الإسلام والمسلمين، ويقف المسلمون منها دائمًا موقف الإجلال والتقدير، ونذكر بإشارات عجلى بعضًا منها، مما أفاضت بتفصيلاته كتب السيرة وكتب التاريخ، وفي بداياتها كان تنبيه الراهب (بحيرا) لأبي طالب عم الرسولﷺ، في تجارته إلى الشام، والرسول صغير، تنبيه إلى المخاوف من غدر اليهود بابن أخيه، وبعدها، وبعد إعلان الرسالة، هناك مواقف البر والعدل من (النجاشي) للمسلمين في هجرتي الحبشة، وهناك أيضًا المعاملة الكريمة من ملوك النصارى في الجوار للرسل الذين بعث بهم الرسولﷺ، إلى هؤلاء الملوك يحملون إليهم رسائله،



وهم: النجاشي في الحبشة، والمقوقس في مصر، وهرقل في بلاد الروم.

وفي المقابل، فإن المسلمين، بدوافع من إيمانهم برسالات الله، ومن القيم التي أرساها دينهم الجديد، ومن الوفاء الذي فطرت عليه جبلة العرب، حملة الرسالة آنذاك، كانت لهم مواقف مماثلة تجاه المسيحيين، ففي مكة حين كان المسلمون في غاية الضعف، وفي أشد حالات الضنك، تعاطفوا في كثير من الحزن مع الروم النصارى، في خسارتهم في إحدى المعارك إزاء الفرس المشركين من عبدة النار، وكان مصدر حزنهم إيمانهم بأن هزيمة الروم هي هزيمة للإيمان أمام الشرك، في الوقت الذي انعكست فيه الآية مع مشركي مكة الذين أعلنوا فرحتهم بانتصار الشرك على الإيمان، ونزلت بهذه المناسبة آية في القرآن الكريم تسجل الحدث وأصداءه، ثم تبشر المسيحيين بنصر قريب على الفرس، يفرح به المؤمنون، وكانت هذه الآية مطلعًا لسورة كاملة،

سميت باسم سورة الروم، والآية هي:

﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۞ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة الرُّوم الآيات: 1-6)

وبالفعل تحقق وعد الله وتحقق هذا النصر، بعد مدة قريبة، في سنة 628 مسيحي، ونجح المسيحيون في استرداد الصليب الكبير الذي كان الفرس قد سلبوه منهم، وهذا ما جعل المسيحيين يفرحون بذكرى استرداده شفويًا في عيدهم المسمى (عيد الصليب)[20].

ومن ذلك توجيه الرسول ﷺ بعض المسلمين في الهجرة إلى الحبشة، وكانت على المسيحية، دفعًا لأذى قريش عنهم قائلاً: «إنَّ بها ملكًا لا يظلم أحد عنده»، وهي أرض صدق، ومن ذلك أيضًا، استقباله لوفد نصارى نجران، في مسجده، وطلبه منهم أن يقيموا صلاتهم فيه، واستقباله لعدي بن حاتم الطائي المسيحي، في مسجده وفي بيته.

هذه بعض نماذج من التعامل الواقعي مع المسيحيين في مطلع الرسالة الإسلامية، والذي استمر على النهج نفسه على امتداد التاريخ الإسلامي كله.

وأما في أصول العقيدة التي يفرض على كل مسلم الالتزام بها، وعدم اجتراحها في أي زمان ومكان، فإن برّ النصارى ومودتهم تمثل جزءًا منها، وآيات كثيرة من القرآن الكريم، ونصوص كثيرة من الحديث الشريف، تؤكد هذه القيمة بكل قوة وبشكل لا يحتمل أيّ لبس، ونكتفي منها بنموذج واحد يمثل أجلى صورها، وهو قوله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾
(سورة المائدة الآية: 82)

موقف المسلمين من السيدة مريم:

الحديث عن السيدة مريم، لم تفض فيه المصادر المسيحية كما أفاضت فيه المصادر الإسلامية، قرآنًا وسنة، وقصة حملها وولادتها التي وردت في القرآن الكريم، تضم تفصيلاً لجميع المراحل الزمنية والواقعية، التي استغرقها هذا الحدث العظيم، ورواية المسلمين لها في نفوسهم دائمًا كل مشاعر الغبطة، والابتهاج، كما أن اطلاع المسيحيين على هذه الرواية، يثير في نفوسهم المشاعر نفسها المكونة لدى المسلمين، ولدي شواهد من أقوال بعض كبار رجال الكنيسة، وعلى مستوى العالم، تشيد بموقف الإسلام والمسلمين من مريم ومن عيسى (عليهما السلام)، وأرجو أن تعذروني، إذا أغفلت ذكرها أو ذكر بعضها، في هذه المحاضرة لضيق الوقت.

لقد بدأت قصة مريم في القرآن الكريم، من قبل أن تخلق مريم نفسها، وذلك عبر الحديث عن أمها (حنة) زوجة عمران، وكانت من العابدات الصالحات، وكانت قد أسنّت، واشتهت الولد، ونذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا - أي حبيسًا - في خدمة بيت المقدس[21]، وجاءت رواية هذا النذر في القرآن:

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾
(سورة آل عمران الآية: 35)

وتساوقت الآيات في عدد من المواضع من القرآن

---

20 - انظر البادية والنهاية: 56/2.

21 - صحيح البخاري 318/4 (كتاب الأنبياء.

الكريم تتابع الحدث خطوة خطوة، لقد وضعت أم مريم، ولكن المولود جاء على غير ما نذرت، لم يكن المولود ذكرًا كما كانت تتمنى، بل كان أنثى، وسلمت المرأة الصالحة أمرها إلى الله، وسمتها مريم وحصّنتها بإعاذتها بالله من الشيطان الرجيم قال تعالى:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾
(سورة آل عمران الآية: 36)

وأحسن الرب الكريم قبولها وأحسن إنشاءها، وكفلها زكريا ليرعاها، وخصّها بكرامات لم تكن مألوفة عند الناس قال تعالى:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة آل عمران الآية: 37)

وزادها الله سبحانه كرامة، وأغدق عليها صفات الطهر والتعبد، وفضلها على نساء العالمين، وأبلغها بذلك عن طريق الملائكة، تهيئة لنفسها للحدث العظيم المرتقب قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۞ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾
(سورة آل عمران الآيات: 42-43)

واستجابت مريم لأمر ربها، وابتعدت عن الناس، وخلت بنفسها للعبادة قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ (سورة مريم الآيات: 16-17)

ولكن هذه الخلوة التي اختلتها للتعبد اهتزت حين فوجئت بمن يقتحمها عليها، وكان هذا المقتحم هو الروح الأمين جبريل (عليه السلام)، الذي تمثل أمامها بصورة البشر قال تعالى:

﴿...فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾
(سورة مريم الآية: 17)

ولنتصور نحن الآن حالة الروع النفسية التي اعترت مريم (عليها السلام) حين رأت ـ وهي منفردة عن الناس في مكان قصي ـ بشرًا ينتصب أمامها، ولكنها تجلدت، وتجرأت، ودار بينهما الحوار التالي الذي صوره لنا القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۞ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾
(سورة مريم الآيات: 18-21)

وجاءتها الملائكة بعد جبريل تحدثها بتفصيل عن هذا الولد وصفاته وعمّا سيكون له من شأن قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة آل عمران الآيات: 45-46)

وناجت مريم ربها ضارعة إليه، مكررة عذريتها، مستغربة ما تبشر به من الولد قال تعالى:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾
(سورة آل عمران الآية: 47)

وجاءها الجواب الحاسم في قوله تعالى:

﴿...قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران الآية: 47)

لقد نال مريم من الذعر ما ينال كل بكر طاهرة بتول، حين ينسب إليها حمل ووضع، ولكنها صبرت

لأمر الله... ثم أحست بالحمل وشعرت بالحرج وازدادت بعدًا عن الناس قال تعالى:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾
(سورة مريم الآية: 22)

وبعد الحمل مخاض، لجأت معه إلى جذع نخلة تستند إليها، وتناجي نفسها متمنية الموت على الفضيحة المحتملة قال تعالى:

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾
(سورة مريم الآية: 23)

ولكن رحمة ربها لم تتركها في هذا القلق، وجاءها صوت يطمئنها، صوت جبريل - عليه السلام - أو صوت الوليد - على اختلاف لدى المفسرين - يطلب منها أن تدع الحزن جانبًا، وأن أمر معاشها مؤمن من خلال جدول ماء بقربها ورطب جني تساقطه عليها النخلة التي لجأت إليها قال تعالى:

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (سورة مريم الآيات: 24-26)

وجاءها التوجيه بالاستعداد للرد على هجوم الناس، إذا رأوها وطفلها، وذلك بأن تمتنع عن الكلام معهم قال تعالى:

﴿...فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾
(سورة مريم الآية: 26)

وحدثت المواجهة، وابتدأ الهجوم، وروعت بأقسى اتهام، قال تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (سورة مريم الآيات: 27-28)

هذا، الاتهام صريح، ولابد معه من عقاب، ولكنهم لم يعاقبوها، ولا شك أن الحائل دون ذلك كان دليلاً قاطعًا لا يقبل النقض فما هو؟ لقد كف اليهود عن العقاب، ولكنهم لم يعلنوا البراءة، ولم يذكروا الدليل الذي منعهم من العقاب، كما أن المصادر المسيحية، سكتت ولم تشر إليه ولكن القرآن الكريم وهو المصدر الإسلامي الأول، كشف هذا الدليل وهو دليل رباني جاء على شكل معجزة، حين تكلم الطفل الرضيع يقول القرآن الكريم:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾
(سورة مريم الآية: 29)

ولكن الصبي، ابتدر الجواب عن أمه معرفًا بنفسه في قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (سورة مريم الآيات: 30- 33)

إنه عيسى كما يقول القرآن الكريم:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾
(سورة مريم الآية: 34)

وأخرس الله ألسنتهم بهذه المعجزة، وهي كلام الطفل الرضيع، فكفوا عن العقاب كما أسلفنا، ولكنهم بحكم طبيعتهم، لم يكفوا عن العدوان.

كفى بمريم فخرًا لدى المسلمين ولدى النصارى، - على السواء - أنها أم لنبي عظيم. ذلك الإجلال الذي كرمها الله ورسوله به، فحيثما ذكرت في القرآن الكريم ذكرت موصوفة بالطهر والعفاف كما في قوله تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾
(سورة التحريم الآية: 12)

وهي صديقة ..

﴿...وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ (سورة المائدة الآية: 75)

وقد كذّب الله اليهود أبلغ تكذيب حين افتروا عليها وعلى عفتها بالبهت والكذب في قوله تعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾

(سورة النِّساء الآية: 156)

وسجل لها رسول الله ﷺ مكانة لا تداني حين نعتها بأنها من خير نساء الدنيا: «خير نسائها مريم ابنه عمران وخير نسائها خديجة»[22].

وحين قال عنها: «لم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية إمرأة فرعون»[23].

وحين قال أيضًا: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم، وابنها»[24]، ويتلو أبو هريرة راوي هذا الحديث الآية الكريمة على لسان أم مريم في قوله تعالى:

﴿...وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾

(سورة آل عمران الآية: 36) [25].

ولعل من طريف العادات عند مسلمي مدينة حلب بالذات، أن يقدموا لكل نُفَسَاء صبيحة ولادتها، هدية تتمثل في مائدة عامرة بالطعام ـ وبالحلوى منها بشكل خاص ـ ويسمونها «سفرة مريم» وتعليلها لديهم أن السيدة مريم حين وضعت طفلها كانت وحيدة، وحزينة، ولم يفرح لها أحد بالمولود، فهم يعوّضونها، وبعد آلاف السنين، ما فقدته من البر، وأنهم يشاركونها فرحتها بمولودها العظيم.

موقف المسلمين من السيد المسيح (عليه السلام):

أما عيسى (عليه السلام)، فهو نبيّ الله ورسوله، وقد أشاد الإسلام بذكره، وبسيرته، والآيات التي تحدثت عنه كثيرة، منها قول الله تعالى:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (سورة الحديد الآية:27)

ومنها:

﴿...إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾

(سورة النِّساء الآية:171)

ومنها:

﴿...وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ (سورة البقرة الآية:87و253)

ومنها:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

(سورة مَريَم الآية:34)

ومنها قوله تعالى:

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

(سورة الأنعام الآية:85)

أما محمد رسول الله ﷺ فقد قال معظمًا شأن عيسى (عليه السلام): ((من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل))[26].

وكان يعطي عيسى (عليه السلام) من بين الأنبياء مكانة خاصة، فيقول في موضع: «أنا أولى الناس

---

22 ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها.

23 ـ صحيح البخاري 4/317 (كتاب الأنبياء) وصحيح مسلم، كتاب الفضائل 7/96.

24 ـ المصدران نفسهما والصفحتان نفسهما.

25 ـ صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم 4/319.

26 ـ صحيح البخاري: كتب الأنبياء 4/323.

بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات[27]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[28]، كما يقول في موضع آخر: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي»[29].

ولا بد من التأكيد ـ صونًا للحقيقة والتاريخ ـ بأن المسلمين حين يحيطون عيسى وأمه (عليهما السلام) بهالات من التقدير، وإنما يفعلون ذلك، لا من باب المجاملة، وإنما يفعلون بدافع من إيمانهم، واستجابة منهم لأمر الله، وإثباتًا لعلمهم اليقيني به.

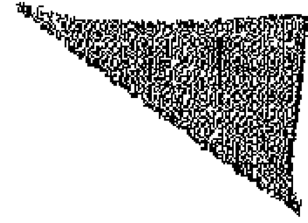
وأخيرًا:

إن أذى اليهود للمسيحيين لم يتوقف، بعد أن فعلوا ما فعلوه بالسيد المسيح (عليه السلام)، وبقي اضطهادهم لهم وللكنيسة مستمرًا لأزمان طويلة، فقد نقموا منهم استمرار دعوتهم، وإقبال الناس عليهم، وناصبوهم العداء دائمًا، والأحداث كثيرة، ويشهد بها التاريخ، ونشير منها إلى حدثين قريبي عهد من أيام السيد المسيح (عليه السلام)، أحدهما نقمتهم على القديسَين: بطرس، ويوحنا؛ لالتفاف الناس حولهما، ثم زجهما بالسجن، ولكن الله سبحانه يسر لهما الخروج منه[30]، وثاني الحدثين محاكمة مَجمع اليهود للقديس اسطيفانوس محاكمة جائرة، ثم قتله رجمًا بالحجارة، واشتد بعدها اضطهادهم للكنيسة[31].

ونسمع في العصر الحديث المفكر المسيحي ميشيل حايك يقول: «فما أبعدناها هنا عن الأقاصيص المجحفة التي ما زال اليهود منذ ألفي سنة يتداولونها في كتاب (توليدات يشوع)، فيهينون فيها ذكر الابن، ويتهمون أمه بالشيء الفريّ قائلين إنها بغيّ، فاحتج محمد أولاً، والمسلمون من بعده، وأكثروا من الاحتجاجات، ضد هذا البهتان العظيم»[32].

وأخيرًا: المسيحيون والمسلمون، ومنذ بدء رسالة الله لدى كل منهم، كانوا مؤمنين بطهر مريم وبصدق عيسى (عليهما السلام)، واستمروا، وسيبقون مستمرين على معتقدهم هذا، حتى يرث الله الأرض وما عليها.

ما حقيقة (سفرة مريم) التي يقدمها المسلمون من مدينة حلب لكل امرأة تنجب؟!



أما اليهود فهل بقوا مستمرين على معتقدهم فيما نسبوه إليهما؟ أم عدلوا عنه؟ كل المعطيات التي عرفها العالم عن اليهود تؤكد أنه لم يصدر عنهم ما يغير هذا المعتقد، وبالتالي فإن رأيهم فيما نسبوه إليهما من إفتراء، هو لم يتغير، وعليه فأية علاقة على المستوى الديني واللاّهوتي يمكن أن تقوم بين المسيحيين واليهود؟.

إن ما حدا بي إلى التساؤل ما نشهده في هذه الأيام، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بالذات من أناس يدّعُون إلى (الصهيونية المسيحية) ويسمون أنفسهم «المسيحيين الصهاينة»، وهم شريحة من

---

27 ـ العلات، بنو أمهات شتى من رجل واحد (القاموس المحيط، مادة علل).

28 ـ صحيح البخاري: كتاب الأنبياء 323/4 وصحيح مسلم، كتاب الفضائل 143/7، وسنن أبي داود، الحديث رقم:4675.

29 ـ انظر مسند أحمد بن حنبل 411/2، وسنن الترمذي، الحديث رقم:223، وسنن ابن ماجه، الحديث رقم:4077.

30 ـ أعمال الرسل، الإصحاح 4، الفقرات 1–4 ص:374 (الكتاب المقدس، الإنجيل وأعمال الرسل، وانظر «تاريخ الكنيسة المسيحية» ص:22، لسمير نوف، تعريب المطران الكسندر بن جحا، حمص 1964.

31 ـ انظر الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة، ص:86 للبطريرك أفرام الأول برصوم، حمص 1940 مسيحي، وانظر «تاريخ الكنيسة المسيحية» ص:23 و24.

32 ـ المسيح في الإسلام لميشيل حايك، نقلاً عن بحث «الأسس المشتركة بين الديانتين في المعتقدات ومواطن الإلتقاء بينهما» ألقي في ندوة الحوار الإسلامي المسيحي، طرابلس 1976مسيحي، ونشر في كتاب «بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي» ص:284، ليبيا 1977 مسيحي.

المسيحيين هناك، ارتهنت نفوسها لخدمة الصهيونية، التي هي تكريس لمطامع اليهود لهذه الشريحة، حتى غدا عدوُّ المسيحيين التاريخي واللاهوتي صديقًا حميمًا؟ ثم هل سمع عن اليهود أو عن أي واحد منهم، وحتى يومنا هذا أي تصريح يغاير ما يعتقدونه في السيد المسيح وفي أمه؟ وهل اعتقدوا، تصريحًا على الأقل، بطهرهما؟ حتى يقبل الناس، ولو على الرغم منهم، مثل هذه الصداقة المسيحية الصهيونية الجديدة؟

إن الأمور لو سارت طبيعية في فهم الناس لبعضهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، لكان المسلمون هم الأصدقاء الحقيقيون للمسيحيين، ولكان النصارى في العالم أشد اتصالاً بالمسلمين وصداقة لهم.

إن الإسلام هو الدين الوحيد في العالم، الذي يدعم النصارى ويؤكد معهم باعتقاد جازم، ويقول لهم: الحق معكم، وإن سيدنا المسيح لم يكن له أب.

إن وصف القرآن الكريم لعيسى (عليه السلام) بأنه ﴿كلمة الله﴾ تأكيد على أنه خلق بتقدير من الله بكلمة ﴿كن﴾، وذلك على غير سنن التوالد الناجم عن لقاء زوجين، وإذا كان ذلك عجيبًا في عالم الأسباب، فإنه ليس بعجيب أمام قدرة الله سبحانه، فإن خلقًا سابقًا له، هو أشد عجبًا منه، ذلك هو آدم بكلمة ﴿كن﴾ أيضًا، ولكن بدون أب أو أم.

المداخلات:

مداخلة سيادة المطران يوحنا إبراهيم

مطران السريان الأرثوذكس بحلب:

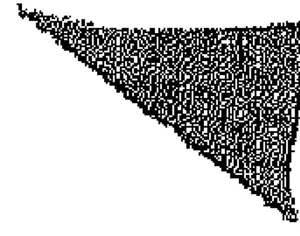
أولاً: شكرًا للسيد الدكتور عبدالرحمن عطبة على هذه المحاضرة القيمة جدًا.

عندما كنت أسمعك، كنت أفكر ما هو الجديد في هذه المحاضرة؟ فوجدت فيها أشياء كثيرة جدًا. وأهم شيء في المحاضرة هي هذه اللغة الجديدة في التحادث مع الآخر؛ هذا الشيء ربما لم نسمعه في الماضي من شخصية مهمة لها مكانتها في الإسلام.

اليوم أعتقد أننا بحاجة إلى هذه اللغة، لغة الحوار الحقيقية التي نتحدث عنها، والسبب أن لغتكم هذه جديدة علي، وربما على الآخرين؛ لأنكم اعتمدتم على مصادر معتمدة من هذه الديانات التي تكلمت عنها.

عندما يتحدث المسلم عن المسيحي ويستشهد بالإنجيل المقدس، وعندما يتحدث المسيحي عن الإسلام ويستشهد بالقرآن الكريم، وعندما يتحدث المسيحي عن اليهودية ويستشهد بالتوراة؛ يعني أنه من الصعوبة جدًا أن يخطئ، لأن المصادر التي تعتمد عليها هي التي تشهد بأن قولكم هو قول الحق، وهذا ما وجدته أولاً في المحاضرة.

المسيحية اخترقت منذ زمن بعيد من فئات وفرق ومجموعات حسبت نفسها على المسيحية وهي ليست مسيحية.



المحاضرة في أكثرها لا هوتية، لقد شبعنا من التاريخ، وحسنًا فعلتم بعدم سردكم لأحداث تاريخية مهمة تؤكد على هذه العلاقة المميزة بين المسلمين والمسيحيين.

هذا الذي سمعناه وقرأناه ورأيناه في المحاضرة.

ولكننا من الناحية اللاهوتية نحن بحاجة ماسة إلى من يستطيع أن يسلط الأضواء على آيات مهمة جدًا وردت سواء في الإنجيل أو القرآن الكريم؛ فأنا أرى أن هذه المحاضرة موجهة أولاً إلى المسيحيين الذي قد يسيئون الظن بأن المسلمين لا يعرفون شيئًا عن المسيحية الحقيقية.

هذا الموقف الصحيح من الإسلام نحو المسيحية نريده دائمًا نحن المسيحيين.

والمحاضرة موجهة للمسلمين - واسمحوا لي أن أقول - بأن هذه المحاضرة تشكل جزءًا مهمًا مما نطالب به دائمًا في الخطاب الديني.



في كثير من الأحيان أسمع أشياء كثيرة تصدر عن بعض رجال الدين، ليست معتمدة من المصادر الصحيحة، ولهذا يخطئون عندما يقولون ما يقولون، ويظهر أن هناك أشياء كثيرة عند المسيحية والمسلمين.

هذا الخطاب الديني الذي يجب أن يأخذ مكانه الصحيح في حياتنا، سواء أكان بين المسيحيين أم المسلمين، وأعتقد أنه يستطيع أن يعتبر أن هذه المحاضرة مهمة.

الموضوع الأخير: هذه المحاضرة موجهة للغرب؛ وهذا الأمر مهم جدًا.

أولاً: عندما قلتم إن المسيحيين، هم مسيحيون، أعتقد أن هذا الكلام ليس صحيحًا مئة بالمئة، فنحن نعرف أن المسيحية اخترقت ـ منذ زمن بعيد، كما قرأتم بالمصادر ـ من قبل فئات وفرق ومجموعات حسبت نفسها على المسيحية، وهي ليست مسيحية، ويسمون أنفسهم مسيحيين، ولكنهم ليسوا مسيحيين.

هذه المحاضرة موجهة للغرب لأن الغرب دائمًا يتساءل ويسمع من هؤلاء الذين يأتون من بلدان مختلفة. ما هي العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في هذا الشرق؟، هل حقًا أن المسيحيين ليسوا مضطهدين؟!! هل حقًا أن المسيحيين يحصلون على حقوقهم، ولهم مكانتهم عند المسلمين؟! هل هناك تساو بين الجامع والكنيسة؟!

أسئلة كثيرة، وكما قرأتم في كتاب (من يحمي المسيحيين؟) أخطار كثيرة تتعلق بأولئك الذين يخافون في بعض الأحيان من حوادث تقع.

الغرب يجب أن يسمع هذه المحاضرة، لكي يعرف حقيقة كيف يفكر الإسلام بالمسيحيين.

وعندما يسمع ويقرأ، يستطيع أن يضع حدًا لتساؤلاته، دون أن يعود إليها، لأنكم فعلاً وجهتم هذه المحاضرة إلى من يريد أن يعرف رأي الإسلام في المسيحية.

أعتقد أن هذه المحاضرة يجب أن تترجم إلى لغات أخرى، وترسل إلى جهات معنية، خاصة تلك التي تعتني بشؤون الحوار الإسلامي المسيحي، فتبقى مصدرًا مهمًا من المصادر التي تحدثتم عنها.

وشكرًا.

مداخلة سيادة المطران بطرس مراياتي
مطران الأرمن الكاثوليك بحلب

استمعت اليوم إلى هذه المحاضرة، وما علمت أن الدكتور قرأ الإنجيل والتوراة من مصادرها، وهي دعوة لنا نحن المسيحيين أن نقرأ القرآن، ودعوة للمسلمين أن يقرءوا الإنجيل وأن يقرءوا التوراة، ليكتشفوا ما يجهلون؛ ولكي نكتشف أيضًا ما نجهل في الديانة الإسلامية.

أما الأمر الثاني، فإن ما يجمعنا، أكثر مما يفرق

بيننا نحن المسلمين والمسيحيين، فلماذا هناك بعض التيارات المغرضة التي تبرز الفروق بين الديانتين ولا تسعى إلى إبراز ما يجمعنا لاهوتيًا وعقائديًا؟

والأمر الثالث والأخير، ربما يجب أن نسير معًا إلى ما يوحد الديانتين في شأن الانفتاح العالمي، فالديانة اليهودية ديانة عرقية تعصبية منغلقة، وبالنسبة إلينا نحن معشر المسيحيين، نقبل بالتوراة؛ ولكن نسمي هذه الكتب بالعهد القديم، أما الإنجيل فهو العهد الجديد، وهذا ما يشير إلى أهمية هذا الموضوع، إن الماضي بالنسبة إلينا قد انتهى، ومع السيد المسيح (عليه السلام) فتحت صفحة جديدة في ديانة عالمية منفتحة.

ونحن مع إخواننا المسلمين ندعو إلى هذه الديانة الكونية المسكونية العالمية التي تدعو إلى الخير، تدعو جميع الناس إلى عبادة الله الواحد.

وشكرًا.

مداخلة الدكتور الشيخ أحمد بدر الدين حسون
مفتي سورية

ثلاث كلمات، ثلاث من الكلمات، محاضِرٌ ومحاضرة وواقع.

أما المحاضر: فهو اليوم حجة على جيل الشباب ليقول لهم: إن العلم والعطاء لا يحده عمر، ولا زمن من المهد إلى اللحد.

المحاضرة: لماذا الآن؟ وأكثر ما تحدث به أستاذنا مكتوب عندنا كمسلمين ومسيحيين؟ هناك بعضكم وبعض الاخوة الآخرين الذين قرأوا عنوان الدعوة يقولون لماذا، هذا الذي سيتحدثه معنا؟ وهنا ننبه سيادة المطران إبراهيم إلى أن الخطاب خطاب ثلاثي: مسيحي، إسلامي، غربي.

ولكن تعالوا لنربط هذه المحاضرة بالواقع..

أنا طالب درست الثانوية الشرعية، وهناك من درس في كلية الشريعة، وهناك طلاب درسوا اللاهوت في اليسوعية، وغيرها، والسؤال: هل كانت مدارسنا تدرسنا الآخر أم تدرسنا نحن فقط؟!!

الحقيقة أنها كنت تدرسنا. بل تدرسنا المذاهب، حتى وليس الدين فقط!! تضيق علينا الساحة حتى ندرس مذهب الأستاذ الذي يدرسنا!!.. ومن هنا تحولنا من العالمية إلى القطرية، إلى العشائرية، إلى العائلة، إلى الأسرة إلى الفردية!!... فدراستنا دراسة فردية، والدليل عندي يوم كنت طالبًا في الثانوية الشرعية، تحول طالب من مذهب إلى مذهب؛ واذكر أن هذا الطالب ـ رحمه الله ـ (توفاه الله)، تحول من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي، ففصل من المدرسة.

أي علاقة على المستوى الديني واللاهوتي يمكن أن تقوم بين المسيحيين واليهود رغم أن هؤلاء لم يعدلوا عما قالوه في حق مريم وعيسى عليهما السلام؟!

هو داخل ساحة الدين، وداخل ساحة الطائفة كما نسميها ولكن الواقع أنا قرأنا أنفسنا، ولم نقرأ الآخرين.

وأتساءل: هل قرأنا أنفسنا؟!!!

هذا كلام يحتاج إلى محاولة جديدة، ومحاضرة جديدة.

هل نعرف من نحن؟!....

أعتقد أننا ضائعون تائهون لا نعرف من نحن، من كثرة ما وجد في أفكارنا، لا نعرف من نحن؟!..

الواقع: ما حدث في السنوات العشر الأخيرة، حروب سياسية ارتدت ألبسة دينية.

ما حدث في البوسنة والهرسك، وفي صربيا، وكرواتيا، أقدم المساجد والكنائس أحرقت، وما اتعظ العالم، إنما اتجهوا باتجاه العراق.

ما يحدث في فلسطين، منذ سبعة وثمانين عامًا حتى الآن، من تدمير كل شيء لاهوتي وحضاري والعالم يتفرج، ونحن نمتلئ حقدًا وقهرًا!....

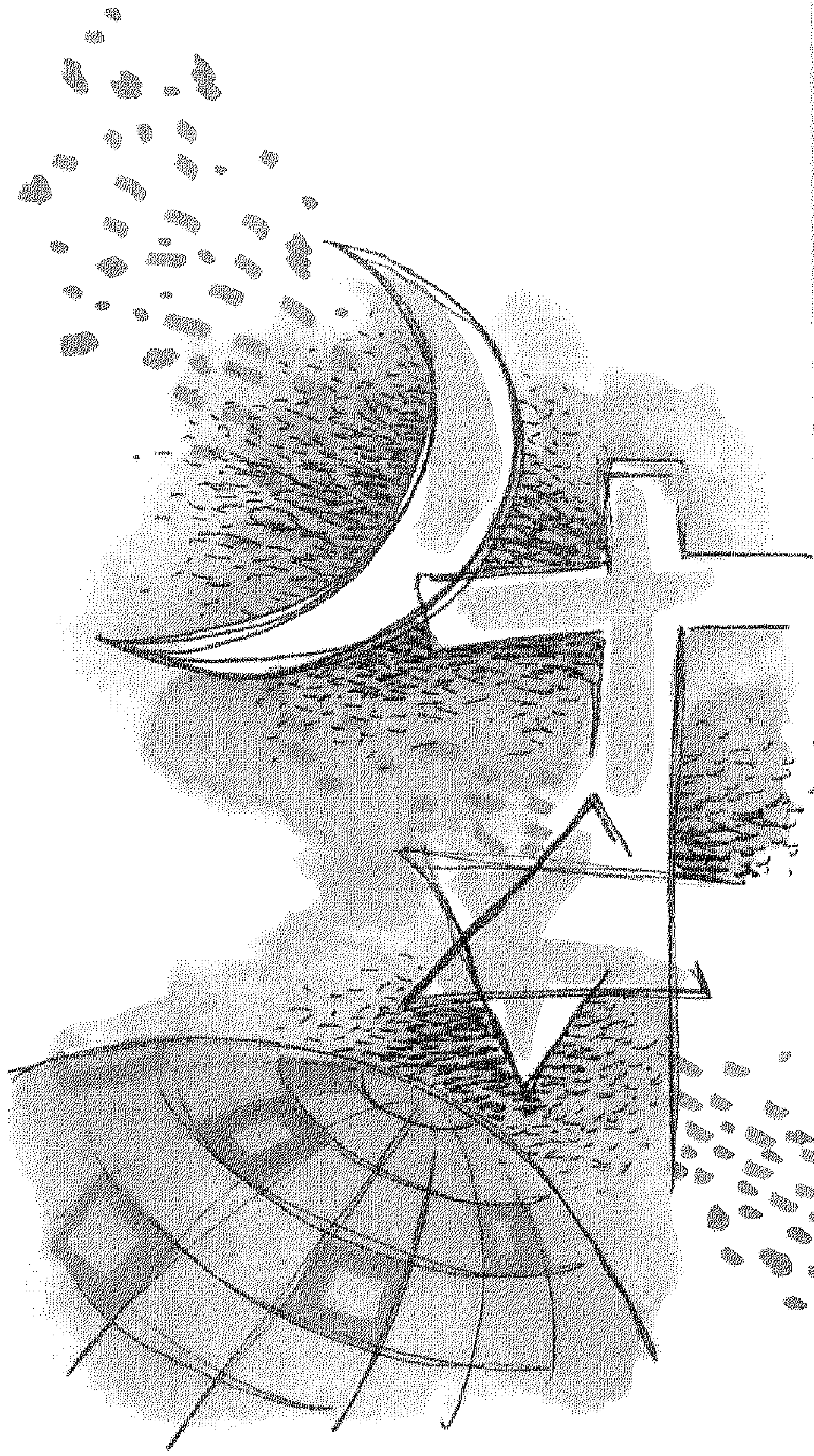
كيف تخاطب العالم؟ الخطاب متعدد الأركان، قد يكون خطاب طائرة وسلاح!... لكن فقدنا الخطاب الأقوى، خطاب العقل، واستعمل الصهاينة هذا الخطاب فجلبوا العالم إليهم ونحن خسرنا هذا الخطاب مع الآخر، وفيما بين بعضنا البعض، فخسرنا بعضنا أولاً؛ ثم خسرنا الآخر.

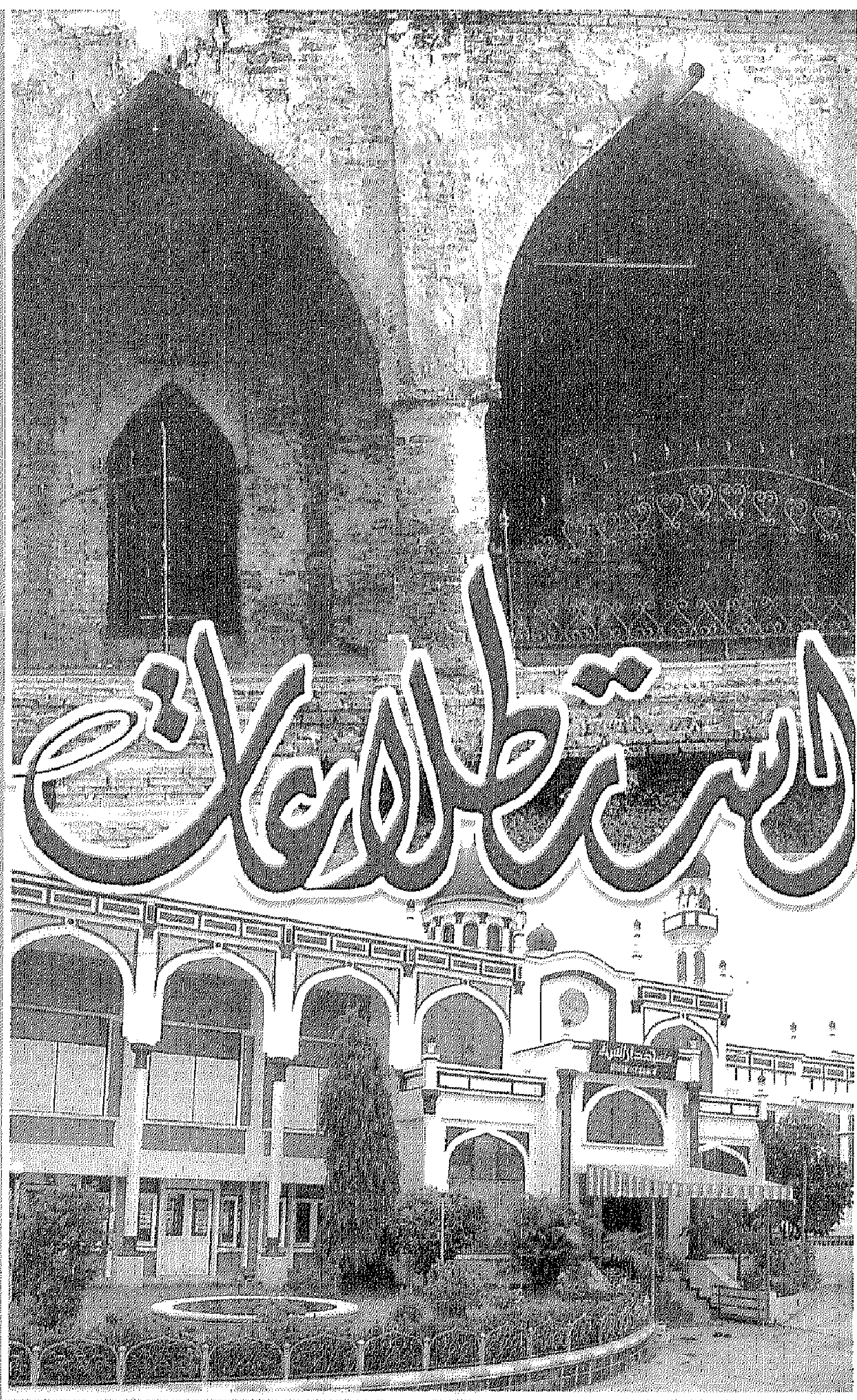
إن ما يحدث في العراق، أخطر مما تتصورون.

أن نرى كل يوم بين الستين والسبعين جثة مربوطة الأيدي، ومعدمة بطلقة في الرأس هذا شيء جديد، شيء عجيب، إذن الآخر بدأ يقتل الآخر، وليس يحاور العربي المسلم، المسيحي، الجندي صار لا يدري لِمَ يُقتل، ولم يقتل!!... يخرج من بيته هو وزوجته... الطبيب الذي قتل هو وزوجته وطفله يا ترى من قتله؟ هل يدري لم قتل؟ ويا ترى، من قتله هل يدري لم قتله؟!

تحرق الكنيسة الكلدانية في الموصل، أحرق كل ما فيها من كتب ومخطوطات التي تعود إلى ثمانمئة سنة، ثم وضع فيها مفرقعات ودمرت، من دمرها؟ لا ندري! نحن ننظر إلى تماثيل بوذا حينما دمرتها طالبان، عقدت الأمم المتحدة (12) جلسة من أجل تماثيل بوذا، ومتحف العراق الذي يضم أكثر وأكبر كنوز عالمية، لم تجتمع الأمم المتحدة اجتماعًا واحدًا لأجله!!... إذاً هناك مستهدف، وهو نحن، وحضارتنا، وقيمنا.

هذا الخطاب يبعد عنا جزءًا من الخطر، ولا يبعد الخطر كله، إنما العمل بهذا الخطاب هو الذي يبعد الخطر عنا، أن نبدأ العمل به، فرقوا بين سياسة أمريكا وبين شعبها، أمريكا مظلومة ممن يسمون أنفسهم المسيحيون الجدد، الذي أخذوا الإسم زورًا وبهتانًا، فالمسيحي لا يكون جديدًا لأن عمره ألفي عام، والدين لا يجدد، إنما يجدد الدين قيم وثوابت جاءت مع آدم، وهي سائرة إلى يوم القيامة.





مساجد من أرض الابتسام

تايلاند

مساجد من أرض الابتسام

تايلاند

إعداد: د. عبد العاطي محمد عبد الجليل

* صحفي كاتب وأستاذ جامعي / ليبيا



خارطة ليست رسمية

تايلاند:

المساحة: 514,000 كيلومتر مربع.

ثاني أكبر دولة في جنوب شرق آسيا.

الترتيب الدولي من حيث المساحة: 49.

عدد السكان: 63 مليون نسمة.

عدد المحافظات: 76 محافظة.

مراحل من التاريخ

يقول التايلانديون إن أجدادهم هاجروا من جنوب الصين منذ أمد بعيد، وتشير المكتشفات إلى أن شعباً عريقاً عاش في منطقة تعرف حالياً باسم (بان شينج) في محافظة (أودون تاني) على بعد 560 كيلومتراً من العاصمة بانكوك.

وقد اكتشفت عدة مقتنيات في هذه المنطقة من بينها أدوات منزلية وأدوات حديدية وبعض الأدوات المستخدمة في صناعة الخزف تعود إلى فترة تقدر بستة آلاف سنة، وهي فترة تتزامن مع حضارات قديمة في الصين ..

أشياء كثيرة يفخر بها أهل تايلاند - أو بلد الابتسام - من أهمها أن أرضهم لم تقع تحت الاحتلال خلافا للدول المجاورة..

يقسم التايلانديون تاريخ بلادهم إلى عدة مراحل، أهمها :

1 - **عصر سؤختاي:** وهو العصر الذي شهد بداية تجمع شعب تايلاند الذي هاجر من جنوب الصين ليستقر في الجزء الأعلى من نهر (جاويرأيا)، وتم تأسيس (سؤخوتاي) عاصمة في تلك الفترة، وهي حاليا منطقة سياحية شمال العاصمة بانكوك وتبعد عنها بمسافة 427 كيلومتراً.

2 - **عصر آيوتيا:** بدأ عام 1359 م. على يد (أمير أوتونج) الذي اختار مدينة (أيوتيا) عاصمة للبلاد، وتبعد هذه المدينة عن العاصمة بانكوك بمسافة 67 كيلومتراً، واستمرت هذه الفترة قرابة 417 عاما.

وتعتبر هذه الفترة من أهم فترات تاريخ تايلاند، حيث شهدت أهم التحولات السياسية والاجتماعية والدينية، وفي مقدمتها دخول الاسلام.

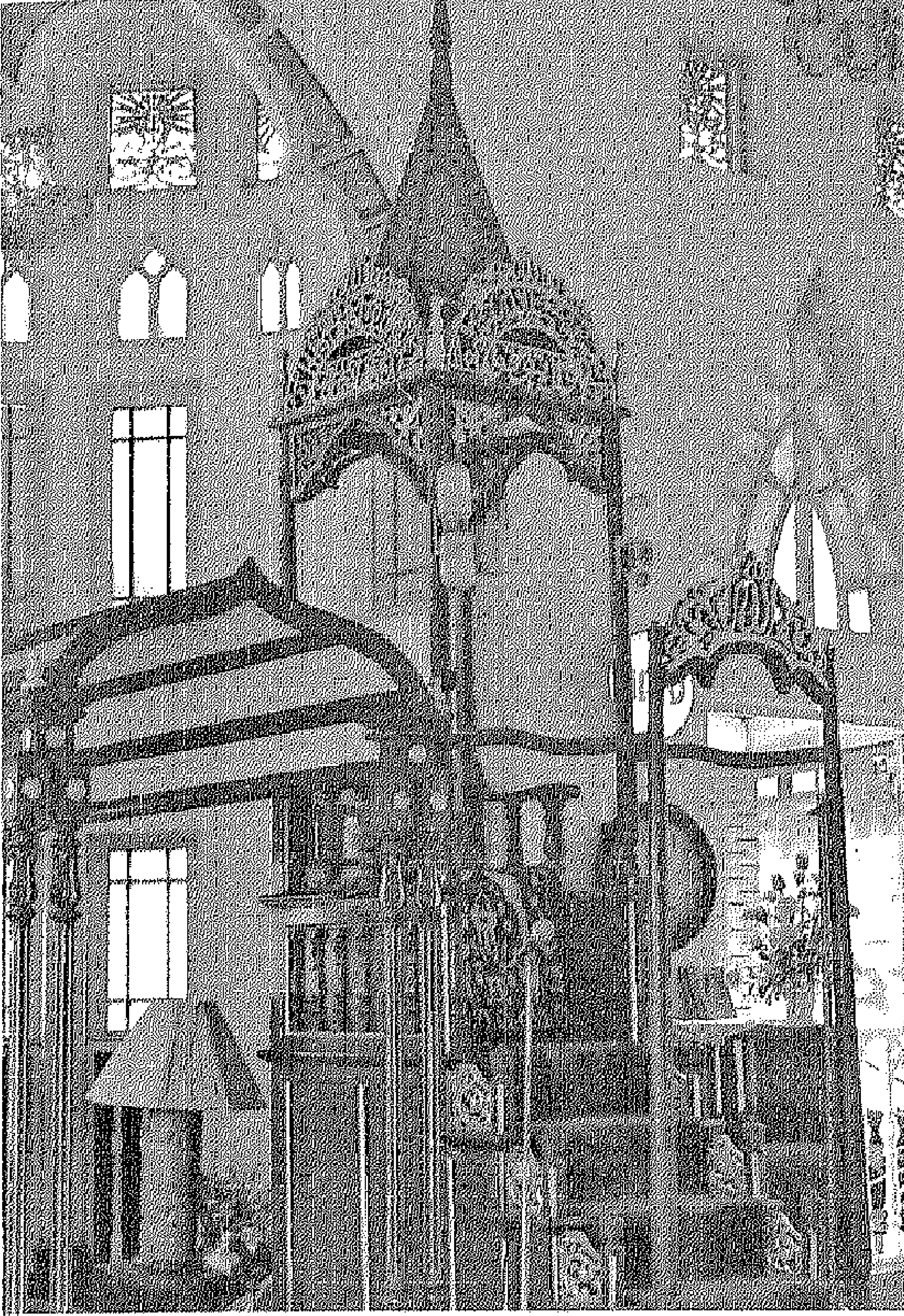
3 - **عصر راتنأ كوسين:** بدأ سنة 1782 م. ويستمر حتى الآن، وفي هذه المرحلة تم نقل العاصمة إلى بانكوك.

الإسلام في تايلاند

تذهب بعض المصادر التاريخية - ومن بينها الدراسات التي نشرها معهد دراسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي وكلية العلوم السياسية بجامعة جولالونج كورن - إلى أن القرنين السادس عشر والسابع عشر شهدا بداية انتشار الاسلام في تايلاند، وتقول هذه المصادر أن رجلاً يسمى (الشيخ أحمد) وفد إلى تايلاند أواخر القرن السادس عشر ومارس نشاطا تجارياً ملحوظاً، وقدم خدمات جليلة للدولة ما دفع بالملك (سرونج تهام) إلى اختياره رئيساً للوزراء، منعما عليه بلقب (جاوبر أيا شيخ أحمد) تأكيداً على المكانة الرفيعة التي بات يتبوؤها.

ولم تمض سنوات كثيرة حتى بدأ الاسلام ينتشر في ربوع البلاد، وقد استقبل الملك (سوم ديج برأناراي الكبير) بعثة إسلامية تدعوه لاعتناق الاسلام..

ويعتبر (الشيخ أحمد) الجد الأكبر لعدد من العائلات التايلاندية التي لا تزال تنتسب إليه تاريخياً ورسمياً.



المنبر والمحراب في مسجد (شاكفونج)
المعروف باسم مسجد (تونج بؤ)

المسلمون في الجنوب

المسلمون في جنوب البلاد مواطنون تايلانديون تعود جذورهم إلى شعب استوطن المنطقة منذ أكثر من ألفي عام، حيث أقاموا دولة عرفت باسم (مملكة لانكا شوكا)، وفي سنة 220 م. أقاموا دولة أخرى عرفت باسم (تامبورن لينج)، وفي سنة 675 م. قامت دولة جديدة باسم (مملكة سري ويشاي) التي انقرضت لتحل محلها دولة عرفت باسم (مملكة ماشبا هيت) التي اضمحلت سنة 1401 م.

في القرن المسيحي الثامن توطدت دعائم الاسلام جنوب تايلاند ما حدا بـ(برأياتو انكوانترا) إلى تأسيس مملكة (فطاني) الاسلامية ..

ويشكل المسلمون في تايلاند نسبة تتراوح بين 5 و8٪ بينما تذهب بعض المصادر إلى أن النسبة تصل إلى 18٪، أما في مناطق : فطاني وجالا وناراتيواس وستول فإن نسبة المسلمين تفوق 80٪ ...

ومنذ سنة 1946 م يطبق مسلمو الجنوب الشريعة الاسلامية، خاصة ما يتعلق بالأحوال الشخصية والإشراف على المساجد ..

واعتباراً من سنة 1955م تأسست الهيئة الإسلامية التايلاندية والهيئة الإسلامية للمحافظات للإشراف على شؤون المسلمين في 26 محافظة من بينها 10 محافظات في المنطقتين الوسطى والشمالية، واثنتين في المنطقة الشرقية وثلاث عشرة في المنطقة الجنوبية.

ويجدر بي أن أشير هنا إلى أن إلى أنني منذ أكثر من ثلاثين عاماً التقيت في طرابلس شابين، أحدهما أوغندي والثاني تايلاندي، كنت آنئذ طالباً في المرحلة الثانوية، كانا حديثي عهد بالعرب واللغة العربية، وعلى الرغم من أن كل واحد منا ينتمي إلى حضارة ولغة



أهالي قبيلة موصور الجبلية

مختلفة إلا أن علاقة طيبة ربطت بيننا، كان كل منا يحاول أن يعرف من الآخر شيئاً عن بلده وحضارتها ولغتها، ومع أنهما وفقا في استيعاب العربية، إلا أن الحظ لم يحالفني لأتعلم شيئا يذكر من لغاتهم الإفريقية والآسيوية، اللهم ألا كلمات قليلة تلاشت مع الزمن ..

كان عبد الرحمن من تايلاند، ومن محافظة (فطاني) وكان كثيراً ما يقول لي مداعباً: لم لا تزيل حرف (الميم) من لقبك (فطماني) حتى تنتسب إلى (فطاني)؟ وكنت أجيبه: ولم لا تضف أنت حرف (الميم) إلى (فطاني)؟ وكانت هذه المفارقة كفيلة بتعميق أواصر الصداقة بيننا، لم يبخل عبد الرحمن بما لديه عن بلده تايلاند، وخاصة إقليم (فطاني)، أهدى لي بعض الصور، وكان يجيب أي سؤال أطرحه، حتى خيل إلي أنني زرت تلك البقاع ..

ومثلما التقينا صدفة افترقنا صدفة، ثم التقيت طلاباً آخرين من جنسيات مختلفة في الجامعة، كان من بينهم طلاب وطالبات من إفريقيا وآسيا، جمعت بيننا أوجه النشاط الجامعي المتعدد والمتنوع،

- **التنوع السكاني:** تاي، لاو، الملايو، تايلانديون من أصول صينية .
- **الديانة:** البوذية، الإسلام، الهندوكية، المسيحية، وعقائد أخرى .
- **اللغة الرسمية:** التايلاندية، وتتكون من 44 حرفاً، مع 21 حركة، درجة الصوت خمس درجات، تكتب من اليسار إلى اليمين.
- **اللغة في الأقاليم الجنوبية الأربعة:** البهاسا، وتكتب بالأبجدية العربية .



يوم مفتوح لشباب وفتيان من مسلمي تايلاند

مهرجانات فنية، ثقافية، رياضية، كان الأفارقة أبطال الرياضات القوية، خاصة العدو بكل أنواعه، كان الصينيون أبطالا في تنس الطاولة، وكان الروس أساتذة في الشطرنج، وكان التايلانديون متميزين في فن الديكور والزينة، صهرتنا المهرجانات الثقافية والفنية، تبادلنا الخبرات، ومن بين أولئك الطلاب كان بعض التايلانديين الذين كانوا يمدونني بصور عن بلادهم، وللمرة الثانية ربطت بيني وبين بعضهم صداقة متميزة خاصة منهم من ينتمي إلى (فطاني) وتذكرت تلك المفارقة التي كان يتمسك بها عبد الرحمن، والتي بسببها أيضا توطدت بيننا صداقة



مسجد (سلوك المتقين) القديم

التاريخ في تايلاند يبدأ بدخول البوذية إلى البلاد، والفرق بينه وبين التاريخ الغريغوري 543 سنة، ولذا فسنة 2006 مسيحي عند التايلاندي هي سنة 2549.



قوية خاصة مع الطلاب القادمين من (فطاني)..

من بين الطلبة والطالبات كانت: نورية أرشد الأكثر نشاطاً وحيوية، لم تكن من (فطاني)، كانت من بانكوك، كان نشاطها ومساهماتها في تنظيم المهرجانت وتمكنها من إضفاء مسحة من الجمال على كل شيء يقع أمامها جعلتها من الطالبات المتميزات، أمدتني بكثير من المعلومات والصور عن بلدها..

غادرت نورية أرشد ليبيا بعد تخرجها من الجامعة لتكرس حياتها للعمل الخيري والدعوي في بلدها، أسست معهدا، ودارا للأيتام، ومدرسة..

وحين عدت إلى أوراقي القديمة وجدت بعض الصور عن معالم تايلاند، تاريخية وسياحية ومناظر طبيعية ... ونظراً لأن العلاقة مع نورية لم تنقطع عبر المراسلات وعبر علاقاتها مع بعض أفراد أسرتي الذين كانت تزورنا كلما تأتي إلى الجماهيرية، فقد كانت تمدني دائماً بمقتنيات من بلدها، ومنذ سنة تقريباً التقيتها في مدينة طرابلس، تحدثنا عن نشاطها وعملها، كانت دائماً تلومني لعدم زيارتي بلدها، سامحها الله فهي تعتقد أن الأمر سهل!! وكنت أقول لها ها نحن نلتقي في بعض المؤتمرات والملتقيات التي تنظمها جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، وفجأة وجدت نفسي أقول لها: لديَّ صور عديدة عن تايلاند، جبالها، مدنها، سهولها، قصورها، حدائقها، وصورة أو اثنتين عن شيء يهمني كثيراً وهو: مساجدها..

نظمت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية العام الماضي 1373 من وفاة الرسول ﷺ 2005 مسيحي دورة تثقيفية استفاد منها 800 طالب وطالبة من عدد من محافظات تايلاند، كما نظمت بمسجد (دار النصيحة) بالعاصمة بانكوك دورة تثقيفية لمائة ممن أشهروا إسلامهم من الرجال والنساء.



من أوراق داعية

تخرجت من المعهد العالي للدعاة بطرابلس/ الجماهيرية العربية الليبية عام 1973 م وكنت ضمن الفوج الأول الذي تخرج من ذلك المعهد.

عدت إلى بلدي تايلاند وبدأت عملي في مجال الدعوة والتدريس في مدرسة (نهضة الشبان فداو) بمديرية روسو، محافظة ناراتيوات.

قبل التحاقي بتلك المدرسة كان عدد طلابها حوالي 170 طالبا وطالبة، ومنذ التحاقي بها تنامى عدد الطلاب ليتجاوز 800 طالب وطالبة في الموسم الدراسي 2004- 2005 مسيحي.

وطيلة ثلاثة عقود استطعنا أن نطور مدرستنا، وإضافة إلى العلوم الدينية بدأنا ندرس العلوم التطبيقية والتكنولوجيا.

وعدتني بأن توفر لي ما يمكن أن تحصل عليه من صور لمساجد تايلاند..

افترقنا على أمل أن تفي أختنا نورية أرشد بوعدها، وما هي إلا أشهر قليلة حتى أتحفتني بصور لعدد كبير من مساجد تايلاند التقط معظمها المصور التايلاندي الفنان السيد: سوتيب سودويلاي المصور بمجلة (هاي كلاس) إضافة إلى صور أخرى أحتفظ بها منذ سنوات الدراسة ..

وضعت أمامي هذه الصور، وعدت إلى ما بحوزتي من معلومات عن تايلاند، خاصة ما يتعلق بالإسلام في تلك البلاد القصية، بعض الكتب والنشرات وقصاصات بعضها من صديقنا عبد الرحمن وبعضها من نورية أرشد، وغيرها من طلاب آخرين .. وما وجدته شجعني لأضع بين يدي القارئ الكريم هذه الأسطر ... ولا بد من تسجيل شكري العميق لنورية أرشد من بانكوك، وعبد الرحمن من فطاني وغيرهما ممن كانوا زملاء دراسة ...

بعض مساجد تايلاند

تقول بعض المصادر أن أول مسجد أسس في تايلاند يعرف باسم (كودي تونج) أسسه الشيخ أحمد الذي عرف بـ (شيخ الإسلام) في القرن السابع عشر، إلا أن مصادر أخرى تذهب إلى أن أول مسجد أسس سنة 1514 م. وتوالى تأسيس المساجد في مختلف المناطق حتى فاق عددها 2400 مسجد...

تتميز مساجد تايلاند بتنوع نمطها المعماري لعدة أسباب، من أهمها تنوع مؤسسيها الذين ينتمون إلى أعراق متعددة من صينيين وفرس وتايلانديين وغيرهم ..

ولاستحالة التحدث عن معظم مساجد تايلاند فإن اختيار بعضها كنماذج من شأنه أن يعطينا صورة عنها وعن نمطها المعماري..

مسجد تونسون

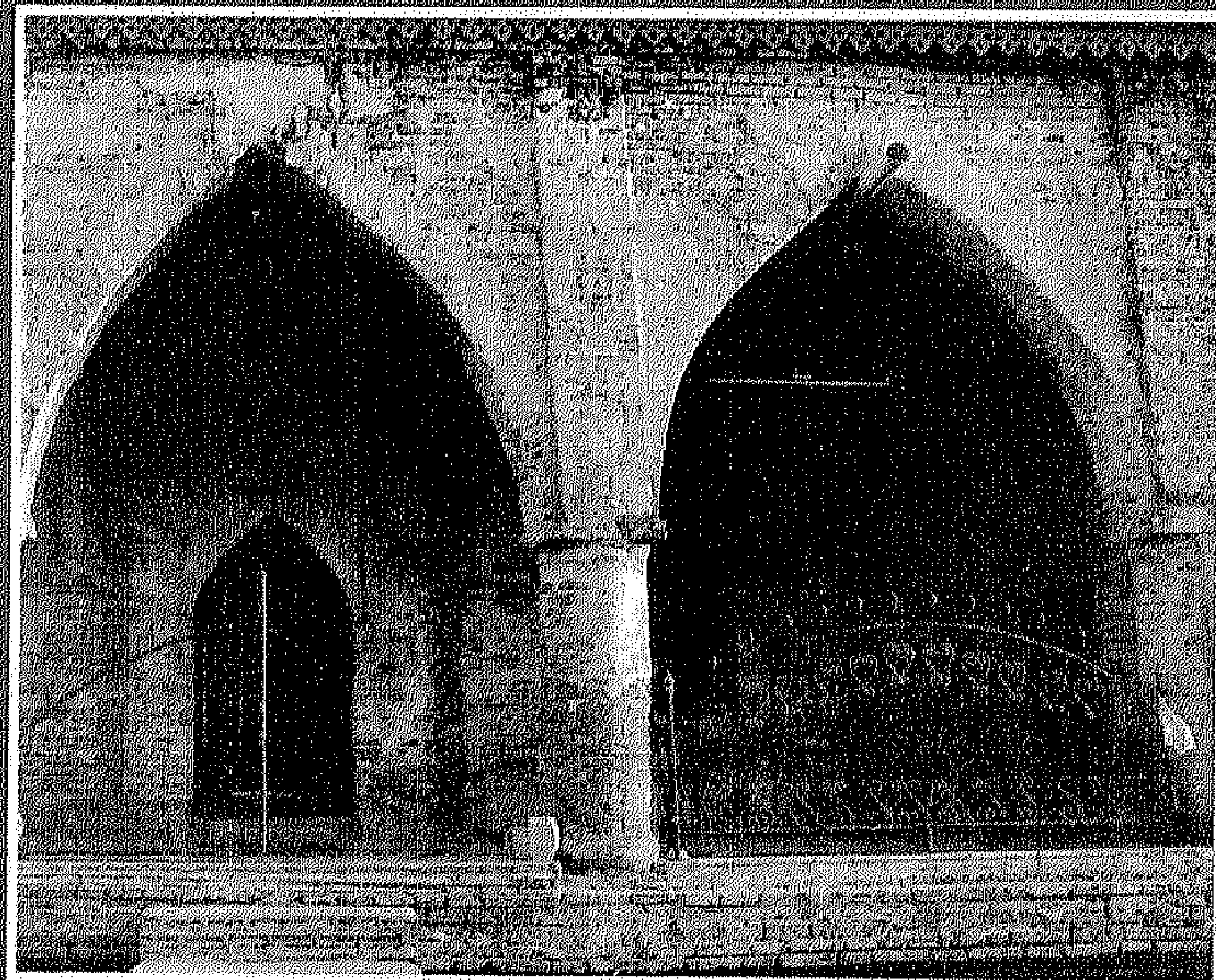
شيد سنة 1644م بناؤه مقتبس من قصر (بورن ستان مونجكول) الخاص بنائب الملك في تلك الفترة، بجواره مبنى خشبي كان مخصصاً لتقديم الطعام للفقراء..

محراب المسجد ومنبره يجسدان مهارة ودقة فائقتين، وبالمسجد قطعة خشبية عمرها 300 سنة تقريباً، نقشت عليها صورة الكعبة المشرفة وآيات من

مسجد كرسيك

أقدم المساجد الباقية هو مسجد (كرسيك) الذي بني سنة 1514 م في ولاية فطاني، وهو متأثر بالمعمار الفارسي، وقد احترق منذ فترة طويلة، ويحاول مسلمو فطاني إعادة ترميمه بالتنسيق مع مصلحة الفنون للحفاظ على طابعه المميز..

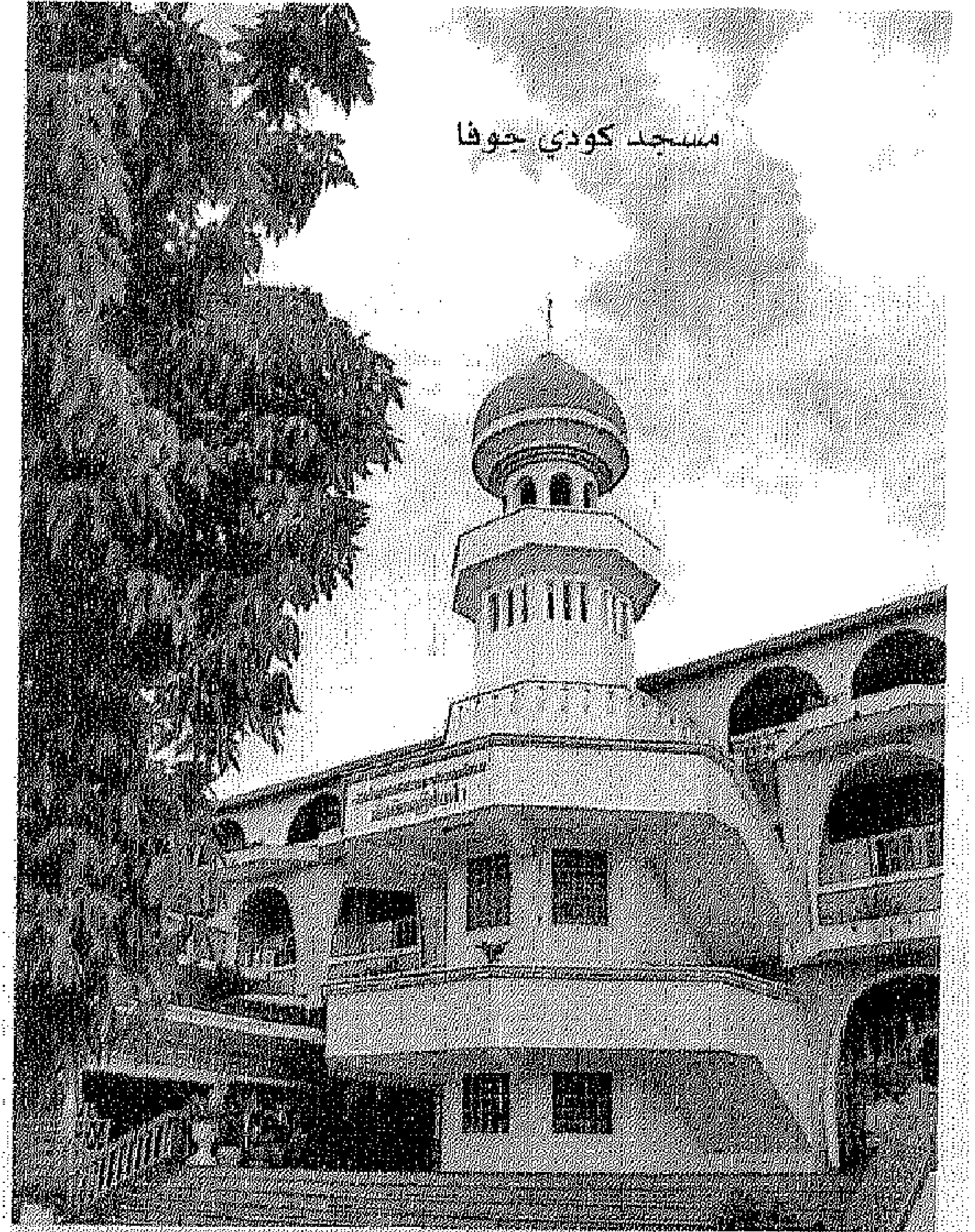




القرآن الكريم، وتذكر بعض الروايات أن المياه جلبت هذه القطعة إلى جوار المسجد..

مسجد كودي جوفا

أنشئ قبل سنة 1700م وقد تهدم المبنى القديم للمسجد، ولم يتبق منه إلا المنبر والمحراب، وقد أعيد بناؤه مرة ثانية، يغلب على المسجد اللون الأخضر والزخارف والنقوش الخشبية في المنبر، وأعمال الجص في النوافذ ..


مسجد كودي جوفا

عدد المساجد في بعض المدن والمحافظات التايلاندية:

بانكوك	150
فطاني	438
ناراتيواس	372
جالا	203
ستول	126
سونجكلا	256

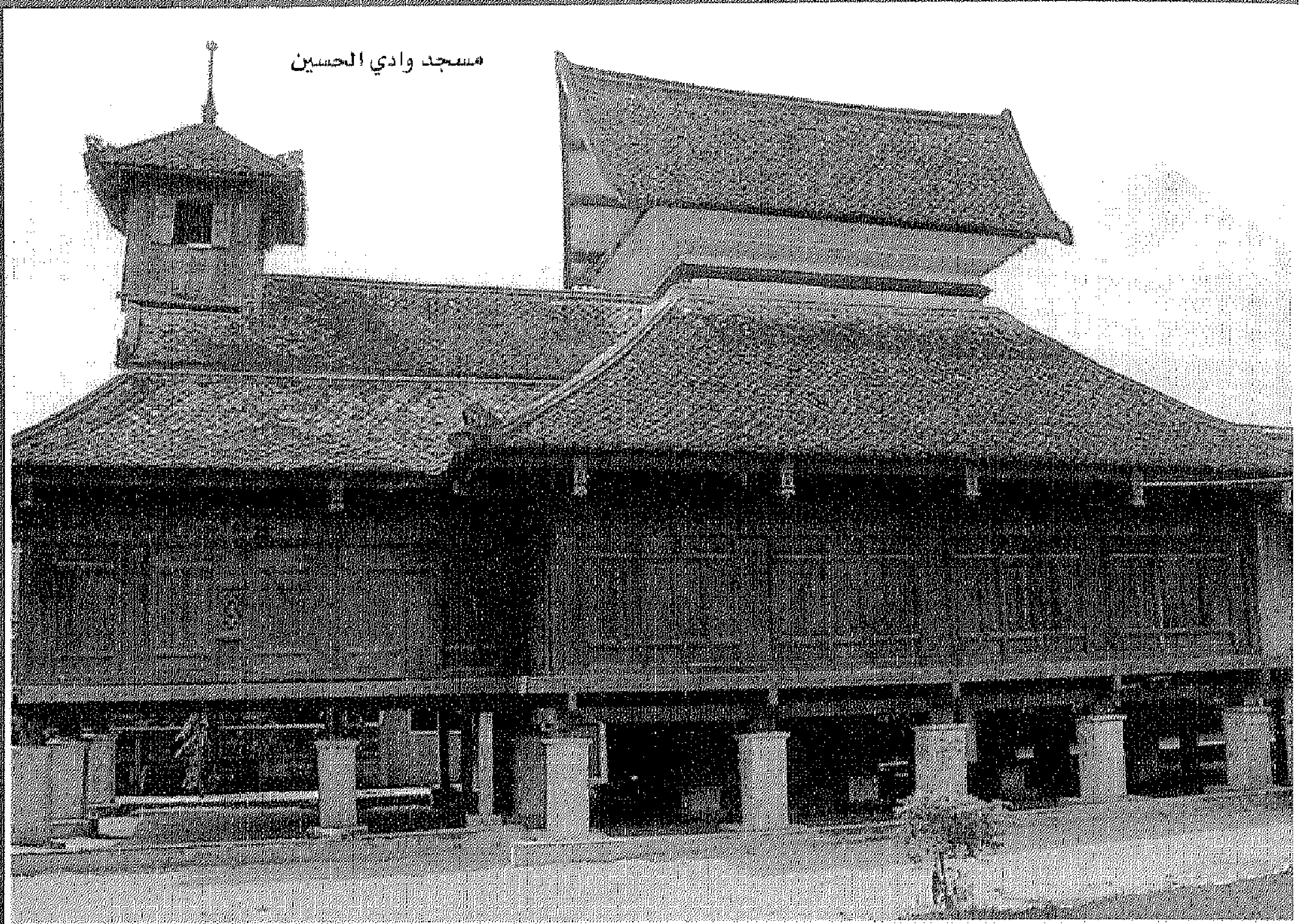


دورة تثقيفية للمسلمات في تايلاند

تحت إشراف جمعية الدعوة الإسلامية العالمية وبرعايتها نظمت في الشهر الثامن (أغسطس) سنة 2000 مسيحي دورة تثقيفية علمية للنساء المسلمات التايلانديات بقاعة مسجد (خير الدين) ومدرسة (عمر المختار) بالعاصمة بانكوك.

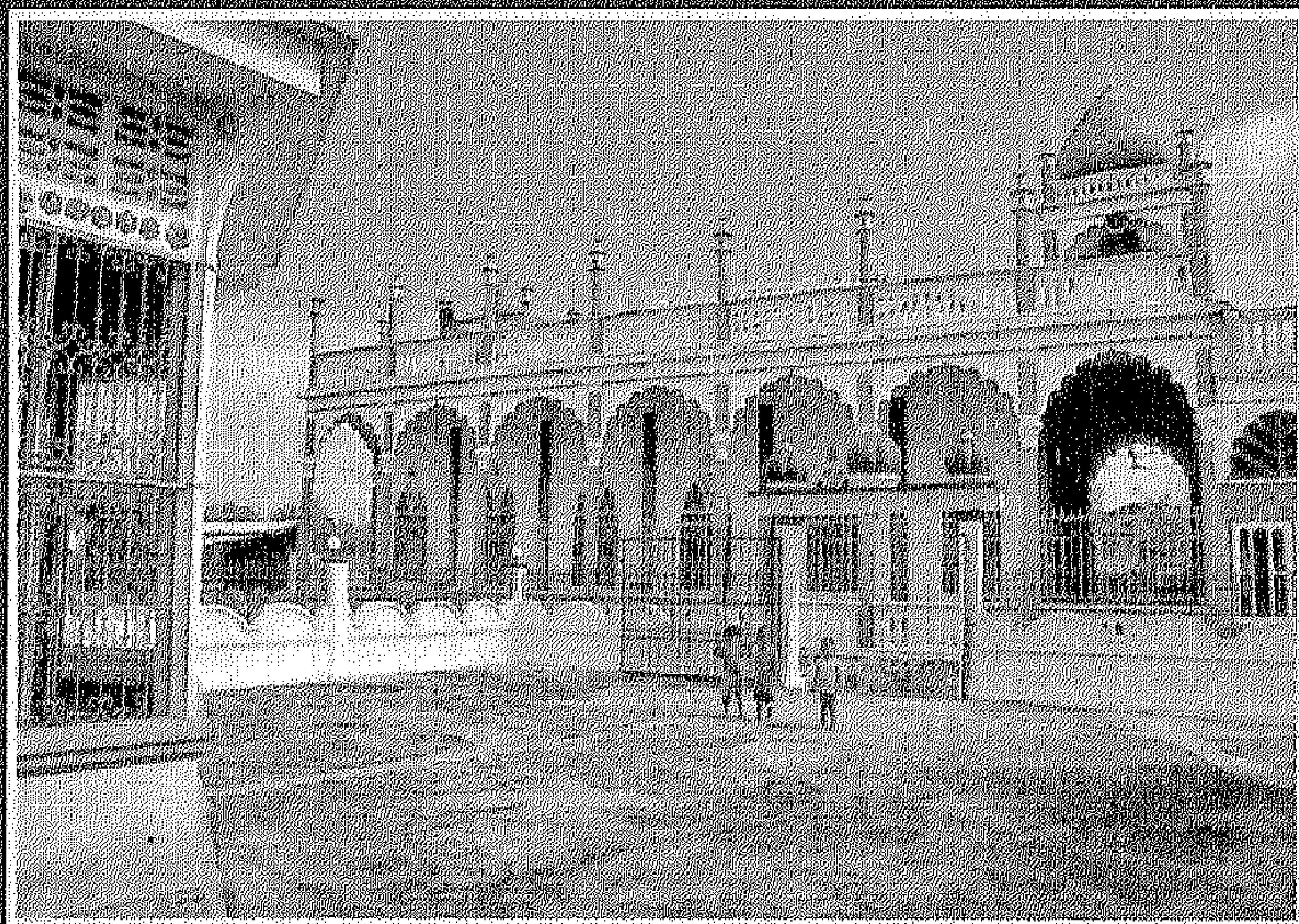
وأخرى للأئمة والخطباء والمؤذنين

توجد مساجد عديدة في العاصمة بانكوك وشمال تايلاند، وبتلك المساجد أئمة وخطباء ومؤذنون، ما حدا بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية إلى تنظيم دورة تعليمية تثقيفية لهم بمدرسة (عمر المختار) ومسجد (خير الدين) بالعاصمة بانكوك خلال شهر الحرث / نوفمبر سنة 2000 م بهدف التثقيف المتجدد ومواكبة المتغيرات التي يشهدها العالم، وأُلقيت في تلك الدورة محاضرات ألقاها عدد من العلماء، من بينهم: شيخ الإسلام في تايلاند، والدكتور عمران مألوليم والأستاذ شريف سري، والسيدة نورة أرشد منسقة العمل الإسلامي في بانكوك وشمال تايلاند.



مسجد تالؤ مانق

يعرف أيضا باسم (مسجد وادي الحسين)، بني سنة 1616 م يتميز هذا المسجد بأنه تجسيد للفن المعماري التايلاندي القديم، وتظهر فيه براعة فن الملايو والصين، والمسجد مبني بخشب تاكيان، سقفه مكون من طبقتين على هيئة (جملون) حسب المعمار التايلاندي ..



مسجد تقيا يوكين

شيد سنة 1625 م من قبل الشيخ أحمد القمي وبعض أتباعه، عرف أولاً باسم (كوديجاي تقية)، ثم أصبح باللغة التايلاندية (تقيا)، أرضه مبلطة بالرخام، ونوافذه مزينة بالزجاج الملون ..

مسجد لوانج كوشا إسحاق

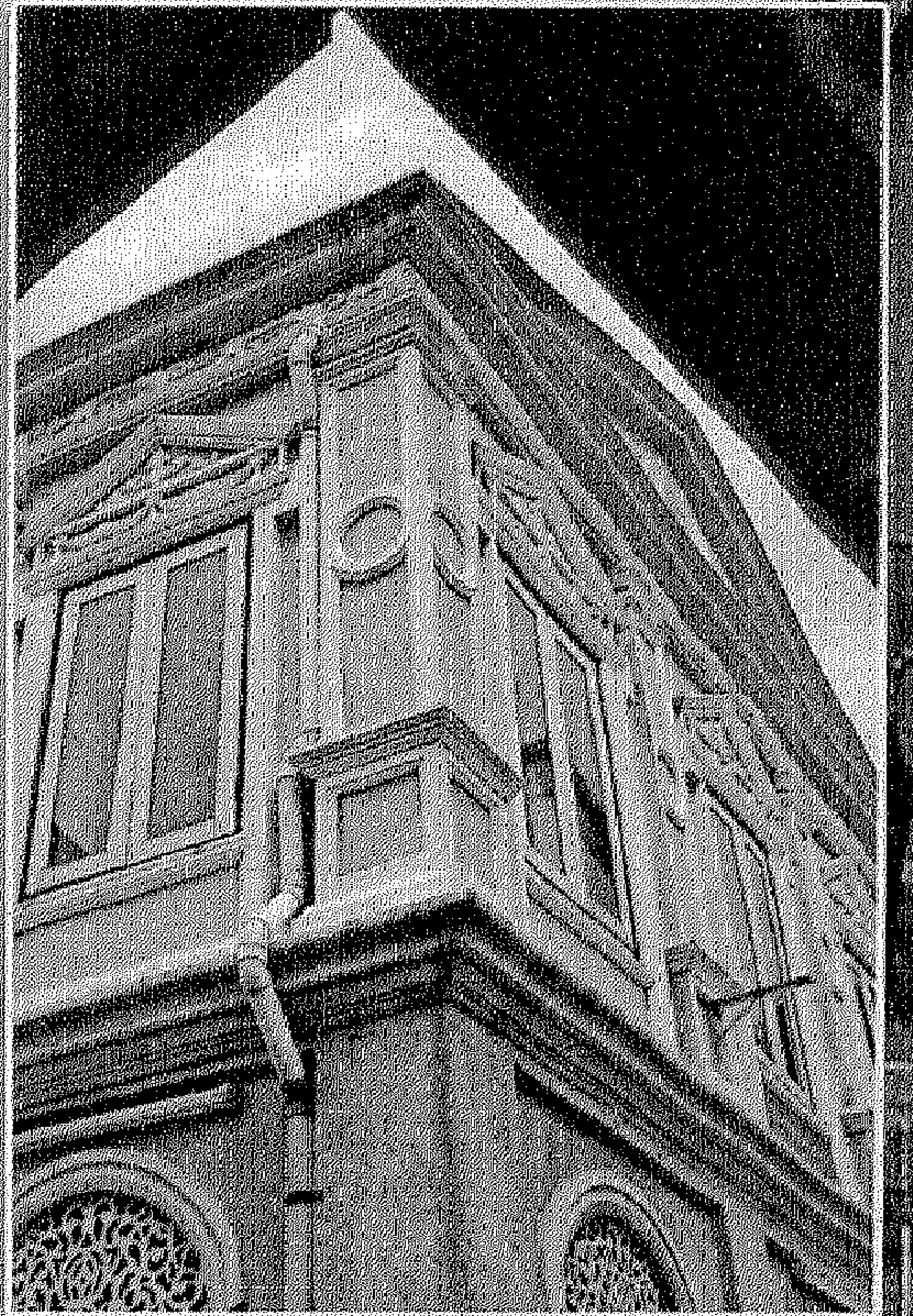
أسس هذا المسجد الذي يعرف أيضاً باسم (واد كؤ) قبل سنة 1800م ويعد من المساجد القديمة في بانكوك، يقع على شاطئ نهر شاوبزايا بمنطقة سام بانتا وونج، ويقال إنه المسجد الوحيد الذي يقع في منطقة (شاينا تاون) بتايلاند.

أسس المسجد (لوانج كوشا إسحاق) الذي كان يتولى منصب مراقب التجارة البحرية في عهد الملك الأول في عصر راتنا كوسين، ويعود سبب تأسيسه إلى أن التجار المسلمين القادمين من ماليزيا واندونيسيا لا يجدون مكاناً يؤدون فيه الصلاة، ولذا جمعوا الأموال وفوضوا (لوانج كوشا إسحاق) بشراء الأرض التي تم تشييد المسجد عليها.

يتميز هذا المسجد بنمط معماري لايوحي بأي ملمح من الملامح التي من شأنها أن تدل على كونه مسجداً..

قاعة الصلاة تتميز بأرضيتها الخشبية وأعمدتها الضخمة ذات قواعد ضخمة مربعة الشكل، وأقواس تتسع أحياناً وتضيق أحيانا أخرى، ولا توجد بقاعة الصلاة أي زخارف أو نقوش ..

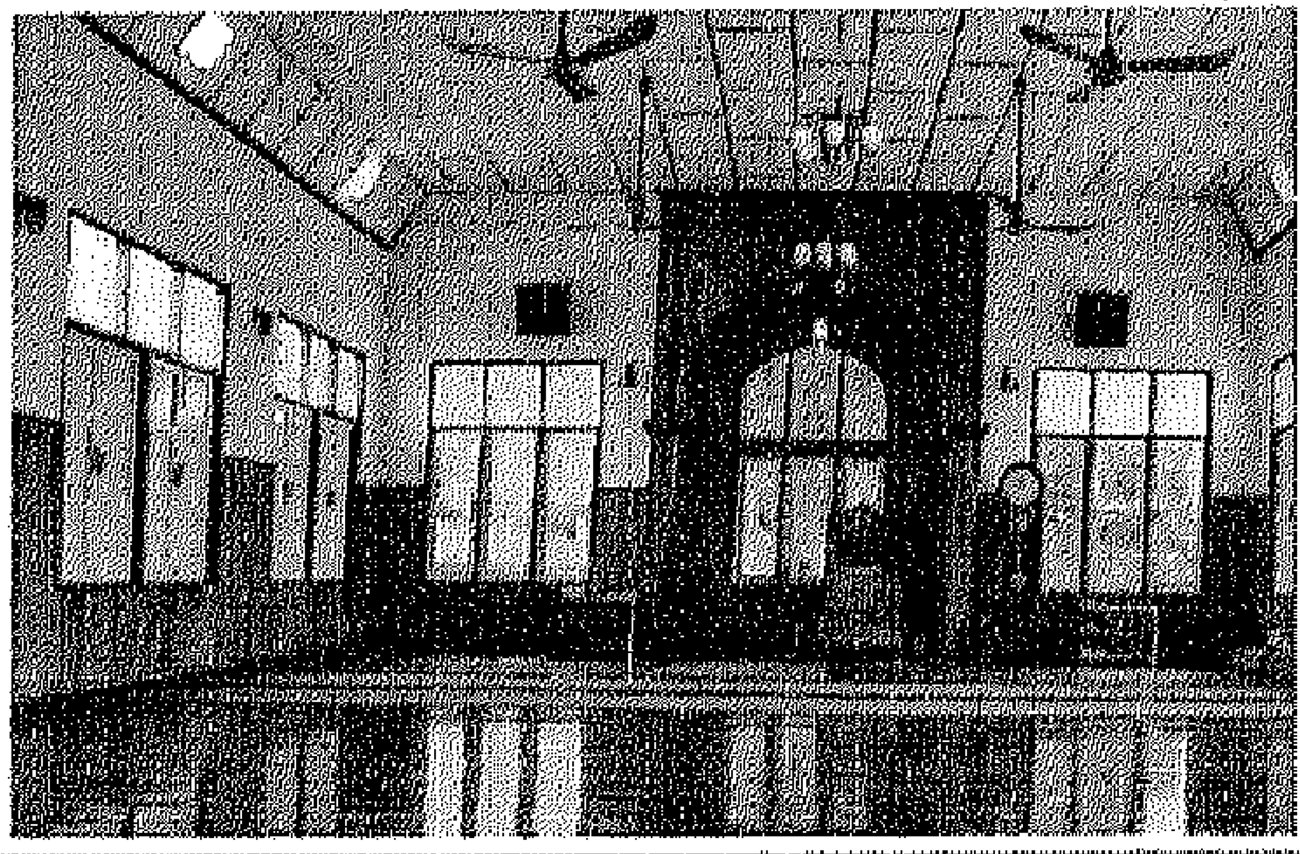
المنبر الخشبي الصغير موضوع داخل محراب خشبي ضخم، وهو عبارة عن قوس خشبي تزينه نقوش زهرية مطلية بالذهب، ويعتبر المحراب من القطع الأثرية المهمة..

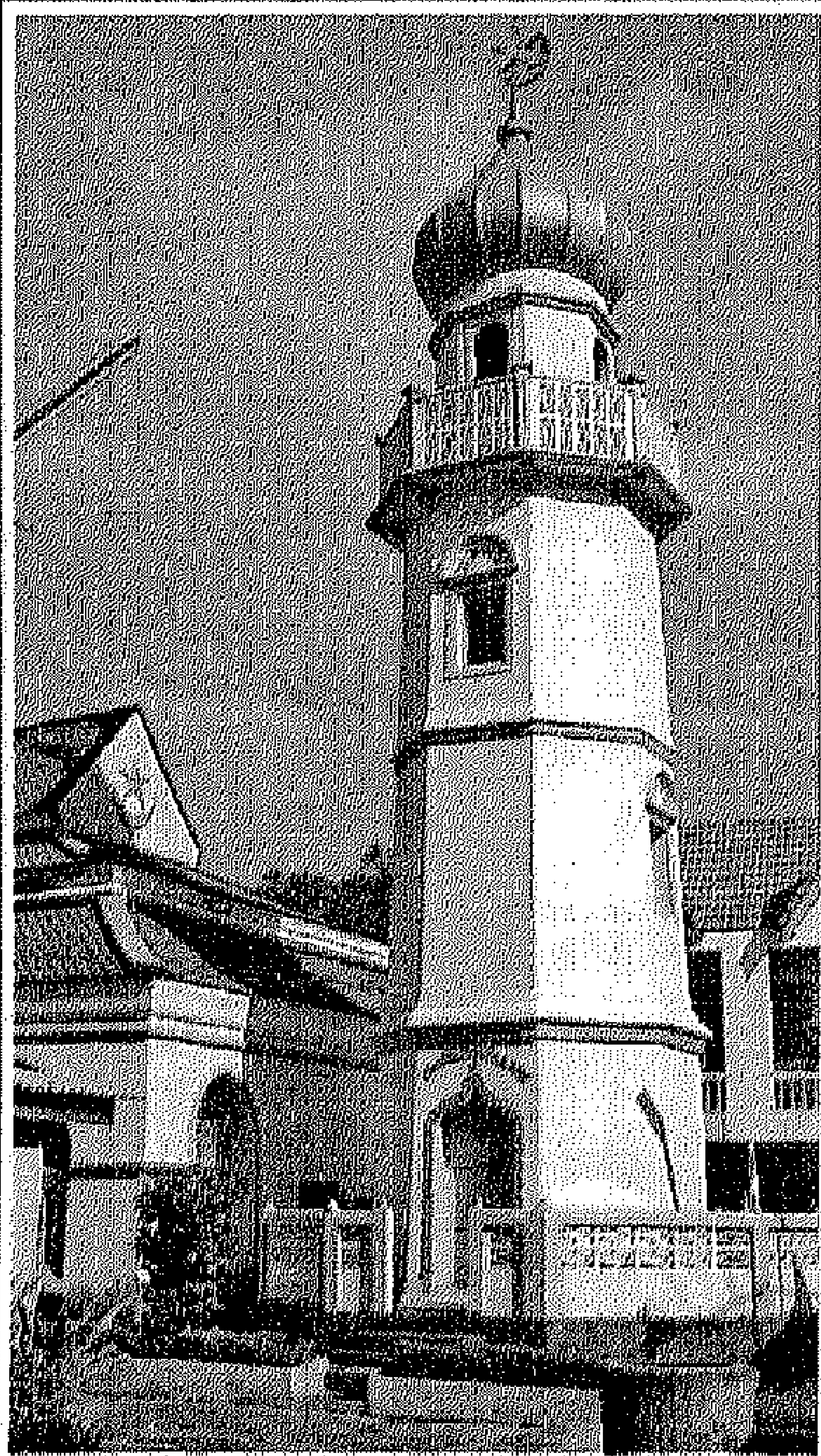




مسجد دار السنة

أنشئ حوالي سنة 1806م ويقع في قرية قديمة يسكنها مسلمون من أصول كمبودية، يتميز هذا المسجد بنمطه المعماري الخارجي الذي تلعب فيه الألوان والأقواس دوراً واضحاً، أرضيته مكسوة بالخشب، وتحتل النوافذ مساحة كبيرة من جدران بيت الصلاة ضماناً للتهوية والإضاءة، ويخلو المسجد تماماً من الزخارف.





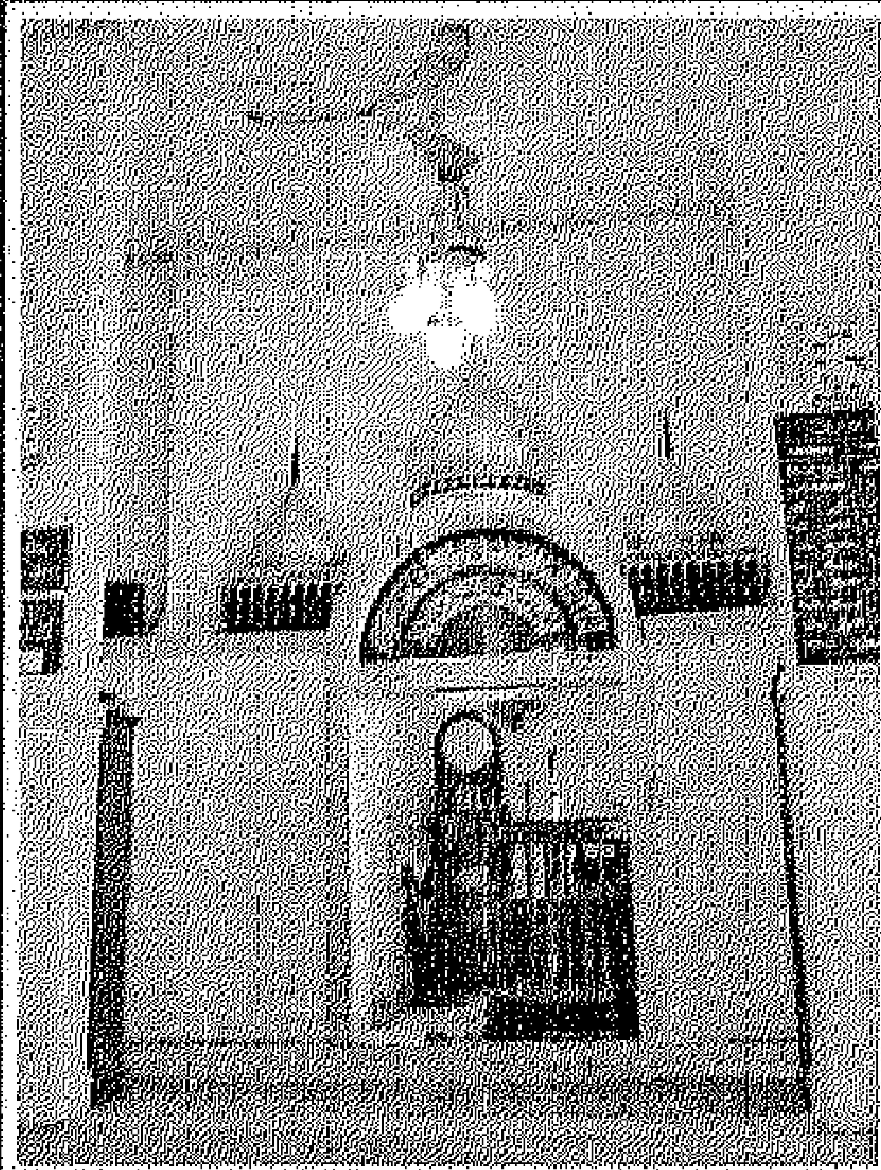
مسجد أوساسنا إسلام

يعرف أيضاً باسم (بانبون)، تم بناؤه سنة 1807م يتميز هذا المسجد بأن بناته كانوا منتدبين لبناء معبد بوذي، وهم خليط من المسلمين والبوذيين، ولذا فإن شكله الخارجي لا يعطي إيحاء بكونه مسجداً باستثناء المئذنة المنفصلة عن مبنى المسجد، يخلو من النقوش والزخارف. كما تم دمج المحراب والمنبر الذي زين بقوس مذهب، تعلوه الآية القرآنية الكريمة:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

[سورة التوبة: الآية 18]

إضافة إلى ثلاث قباب مذهبة.

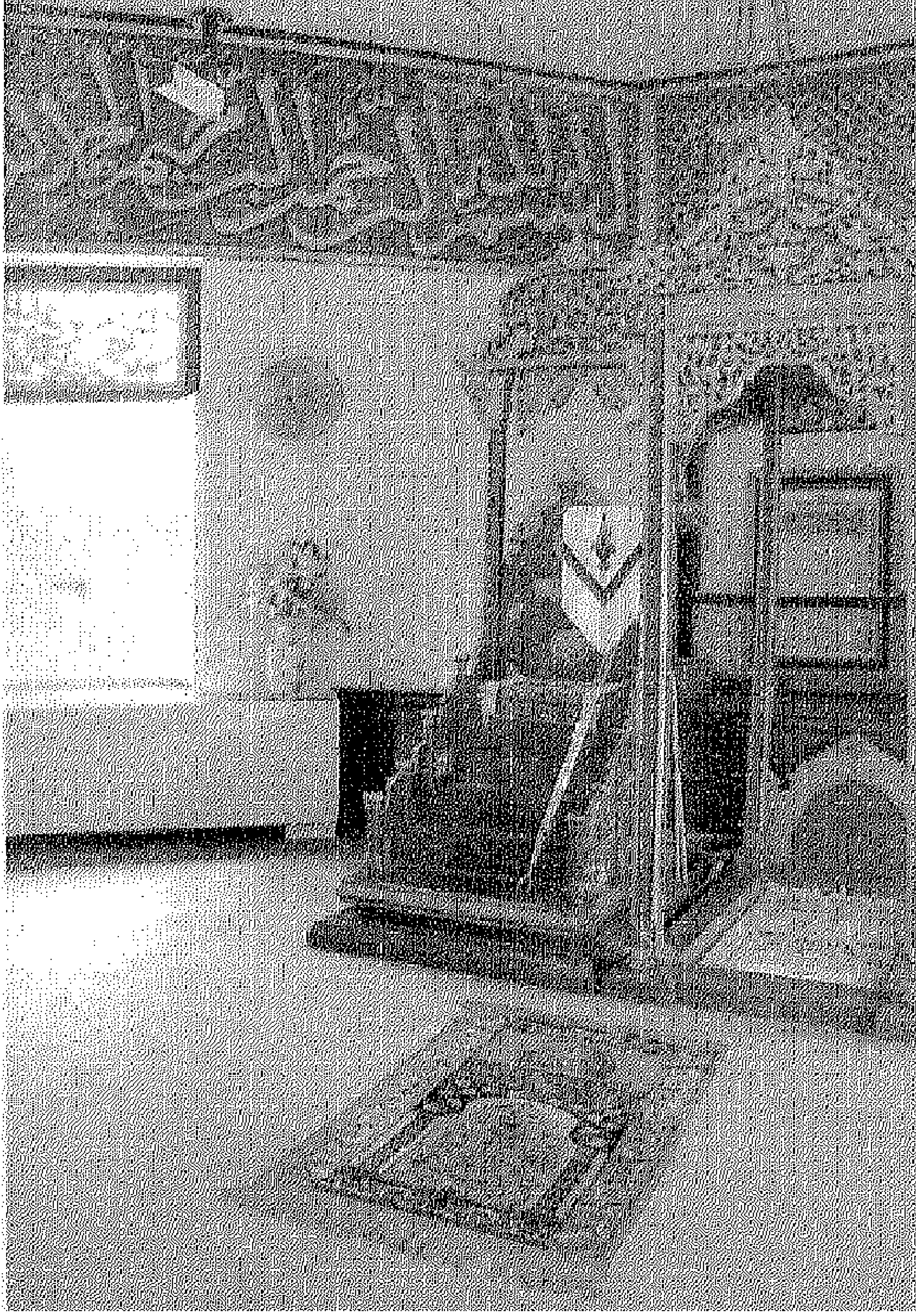


مسجد هارون

أسس للمرة الأولى سنة 1846م. على شاطئ نهر (شاو برايا)، وكانت به مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم.

تمَّ هدمه لتحتل مكانه مصلحة الجمارك، وتمَّ تخصيص قطعة أرض أخرى بشارع (رونج باسي) ببانكوك، وتمت توسعته ليستوعب عدد المصلين الذين يتزايدون باستمرار، وهو المسجد الوحيد الذي تلقى فيه الخطب باللغتين التايلاندية والإنجليزية ..

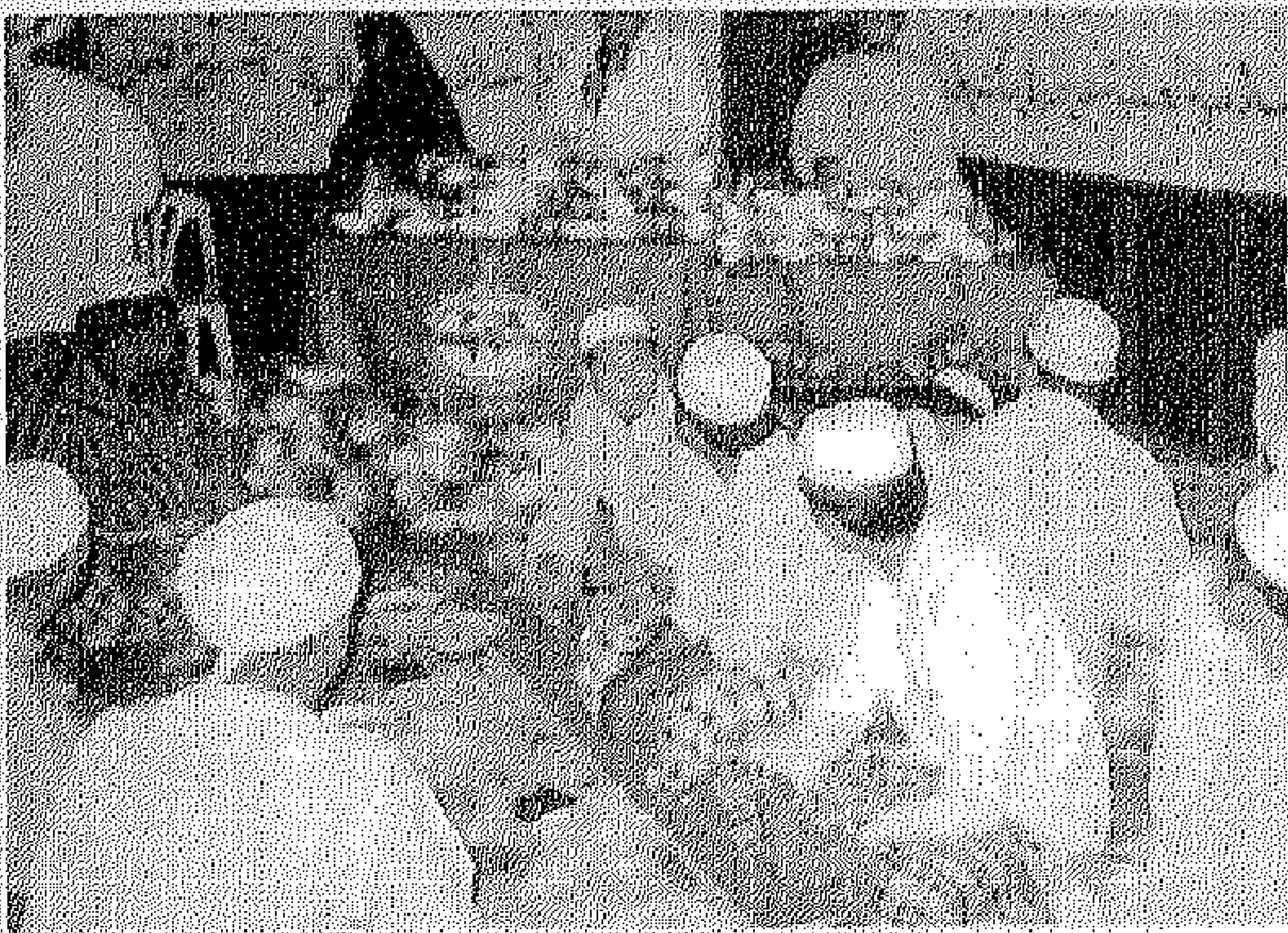
يشكل اللون الأخضر العنصر الأساس داخل المسجد، ويلاحظ أن آيات قرآنية كتبت على شريط أخضر، ويمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار بدءاً من يمين المحراب، وكتبت بشكل معكوس بدءاً من يسار المنبر المحاذي للمحراب، تمت زخرفة المحراب والمنبر بنقوش خطية ونباتية ذهبية اللون على أرضية خضراء..



إفطار الصائم

تنظم جمعية الدعوة الإسلامية العالمية مشروع (إفطار الصائم) في عدد من بقاع العالم، ومن بينها: تايلاند، حيث نظمت عدة موائد (إفطار الصائم)، وخلال سنة 1368 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2000 مسيحي شملت قوافل (إفطار الصائم) التي قدمت الغذاء والكساء للرجال والنساء والأطفال في عدة مناطق، من بينها: منطقة مسجد (الهدى)، منطقة مسجد (صراط الجنة)، منطقة مسجد (خير الله)، منطقة تونغ شوك، منطقة منبوري، وعدد آخر من أحياء العاصمة بانكوك.

وقامت منسقة العمل الإسلامي في بانكوك وشمال تايلاند السيدة نورية أرشد صحبة طلاب المعهد العلمي الديني بتنظيم موائد (إفطار الصائم) في منطقة شينغ ماي شمال تايلاند.

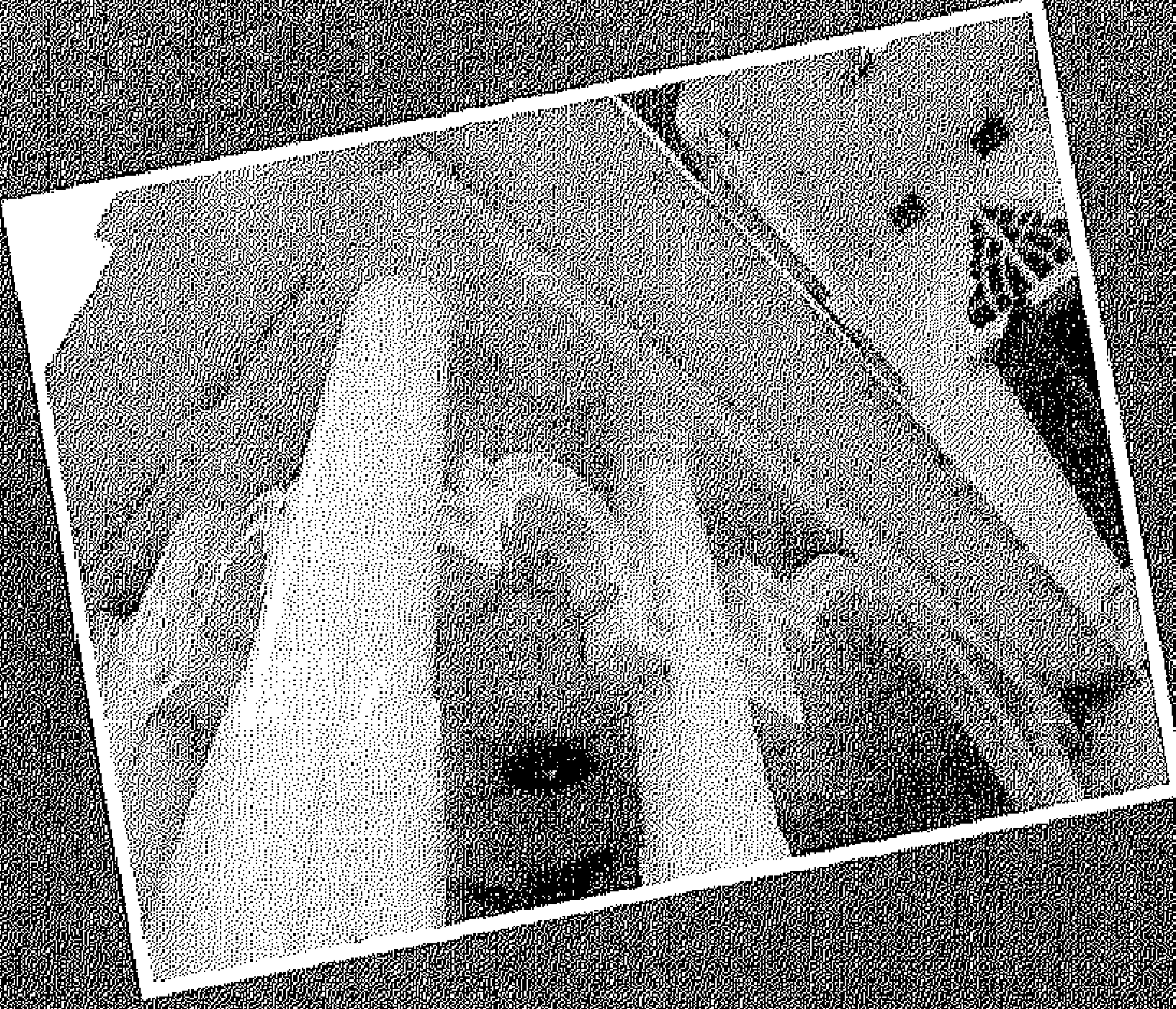




مسجد باهي سيفي

أسس من قبل مسلمين هنود سنة 1876م، ويعرف أيضاً باسم (توك كاو) بمعنى المبنى الأبيض، بسبب طلائه باللون الأبيض..

يتكون المسجد من طابقين، ومع أنه يخلو من النقوش والزخارف إلا أن أعمال الخشب والزجاج الملون يلعبان دورا بارزا في إضفاء التنوع الفني داخل المسجد..

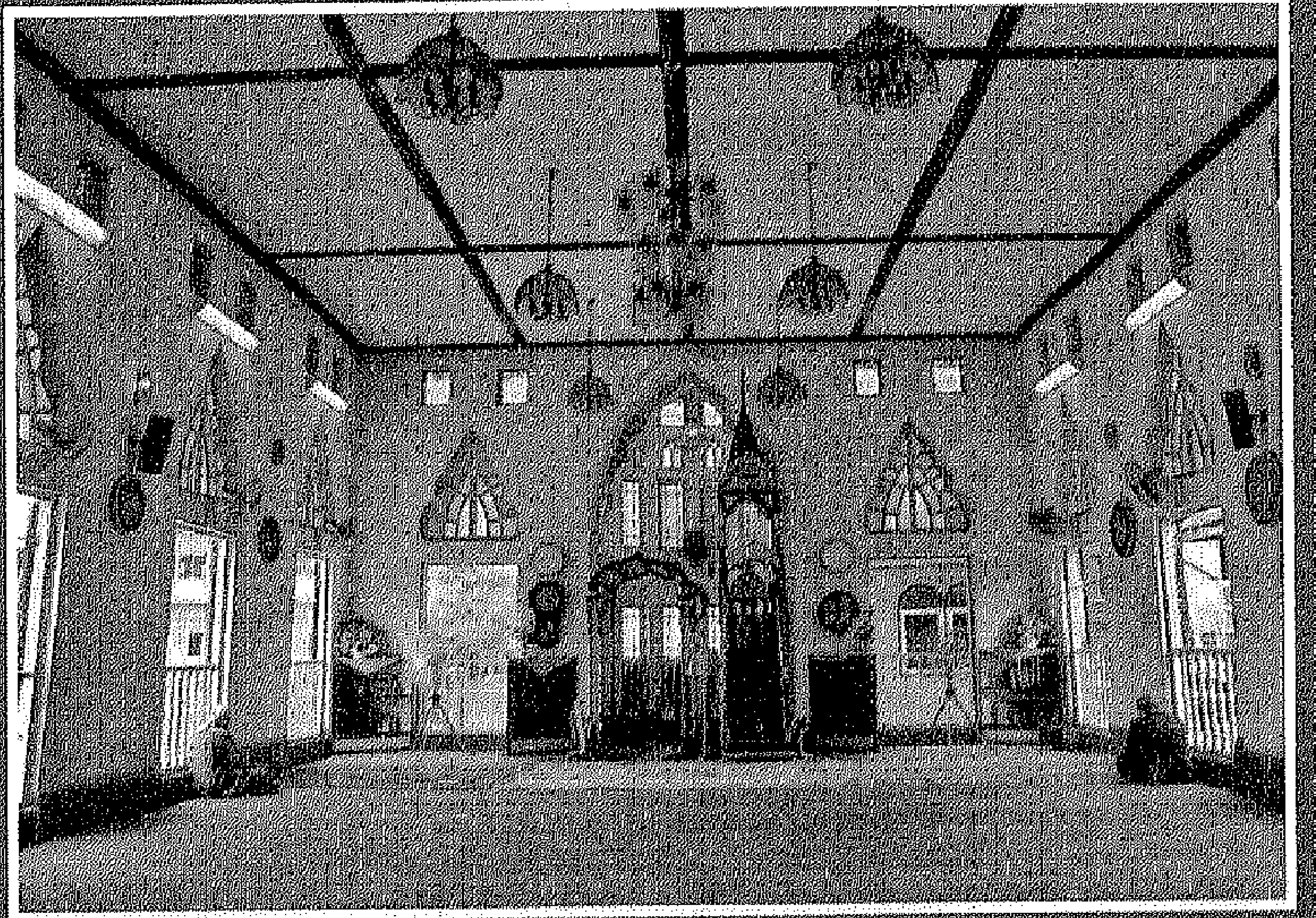


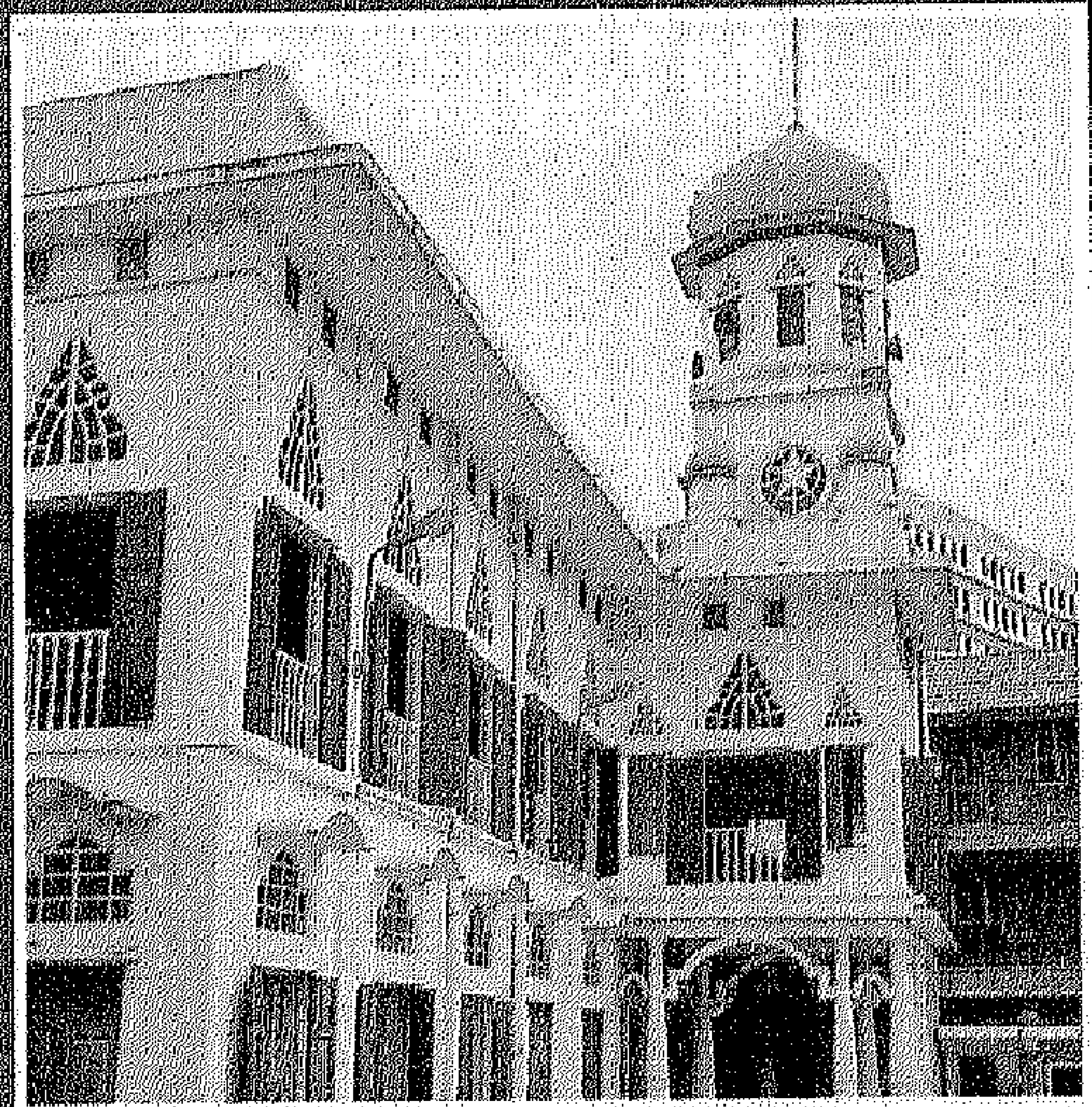
مسجد شاكفونج

يعرف أيضا باسم (مسجد تونج بؤ)، يقال أنه حين قدم الملك الأول (برآبو ديو دفا) مع أتباعه ورعاياه المسلمين من فطاني إلى العاصمة بانكوك بدئ في تشييد هذا المسجد سنة 1879م، وهو المسجد الوحيد الذي يقع في قلب العاصمة بانكوك القديمة، على مقربة من القصر الملكي وميدان (سنام لوانج). تم تجديده وتوسعته سنة 1966م.

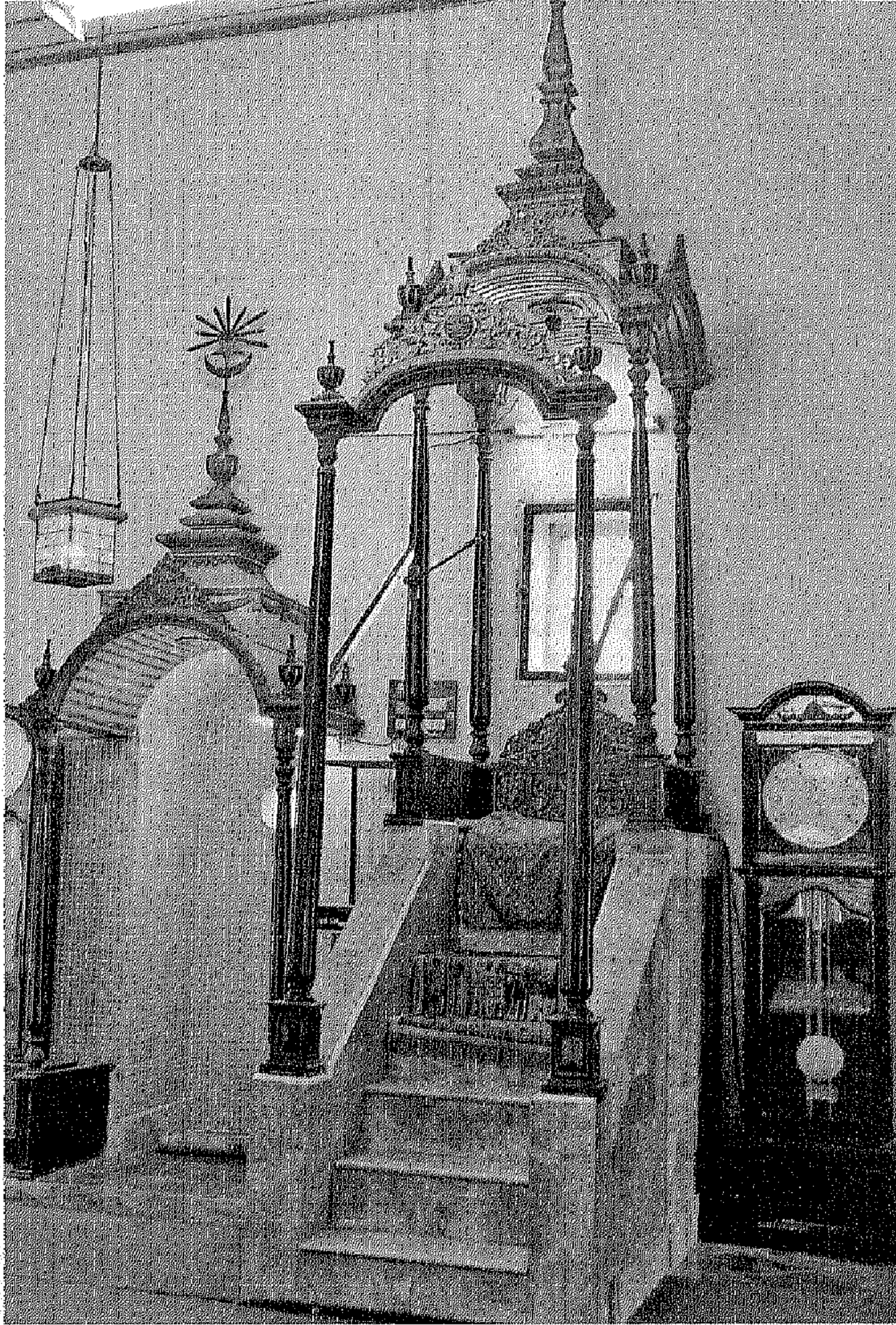
المنبر والمحراب من خشب بني بهما زخارف مذهبة، تعلو المنبر بعض الآيات من القرآن الكريم المذهبية، أما المحراب فهو مزين بقوس على الطراز القوطي..

يغلب على المسجد اللون الأخضر بما في ذلك طلاء الجدران الداخلية إضافة إلى تغطية الأرضية بالسجاد الأخضر، تحتل نوافذ التهوية مساحة كبيرة وتعلوها قطع من الزجاج الملون..





مسجد نور الجمال

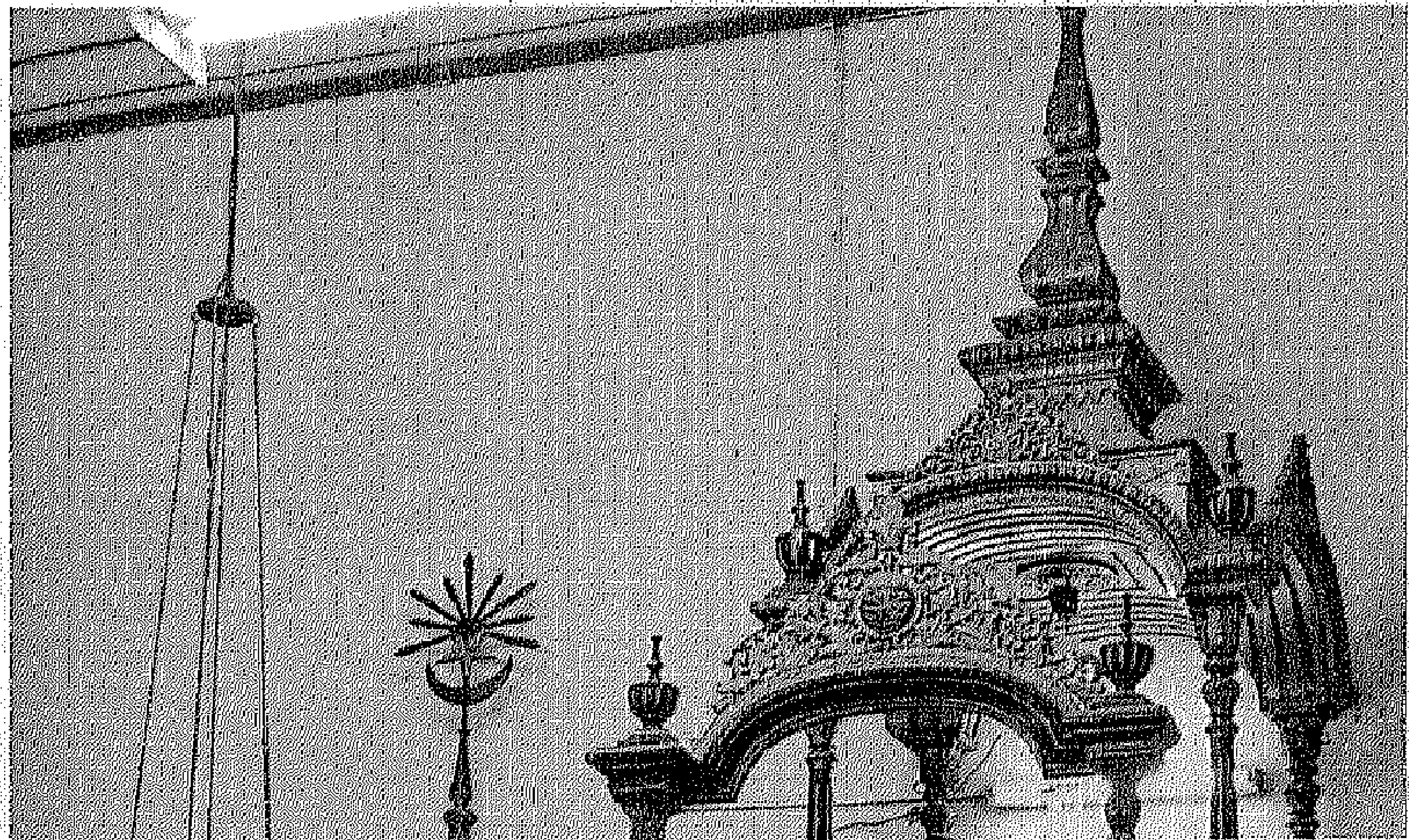


أسس في القرن الثامن عشر، وكان مبنياً بالخشب، وسمي من قبل الملك السادس في عصر راتنا كوسين باسم الإمام الثاني للمسجد (محمد نور)..

جدد بناؤه من قبل عمال ومهندسين صينيين سنة 1896م، وأصبح مكوناً من طابقين..

المنبر الخشبي الجميل تتجلى فيه المهارة والدقة في النحت على الخشب من قبل الفنان المسلم الحاج (إسحاق بن يحيى)..

سقف المسجد من الخشب، وأعمدته مزينة بقطع صغيرة من السيراميك البني، تعلوها تيجان منقوشة، بيت الصلاة مستطيل الشكل به نوافذ كبيرة وقريبة من الأرض..



مسجد نور الجمال
من الخارج

مسجد هداية الإسلام

يعرف أيضاً باسم (بان هوا)، بني للمرة الأولى بالخشب سنة 1916م، ثم جدد بناؤه سنة 1966م، يعتبر أكبر مساجد محافظة شينجماي شمال تايلاند، وفيه يتجلى المزج بين الفنون الصينية والعربية، معظم رواده من المسلمين الصينيين. واللوحة التي تعلو مدخله مكتوبة باللغات التايلاندية والعربية والصينية، وهي ميزة يختص بها المسلمون في شمال البلاد..

يتميز ببساطة واضحة في التصميم، ويتجلى ذلك في المنبر الخشبي الصغير، استعيض عن المحراب بلوحة نقشت عليها سورة الفاتحة وآية الكرسي علقت في اتجاه القبلة، وهي مكتوبة بخط عربي بأسلوب صيني، وهذا النوع من الكتابة ينتشر لدى المسلمين في شمال تايلاند..



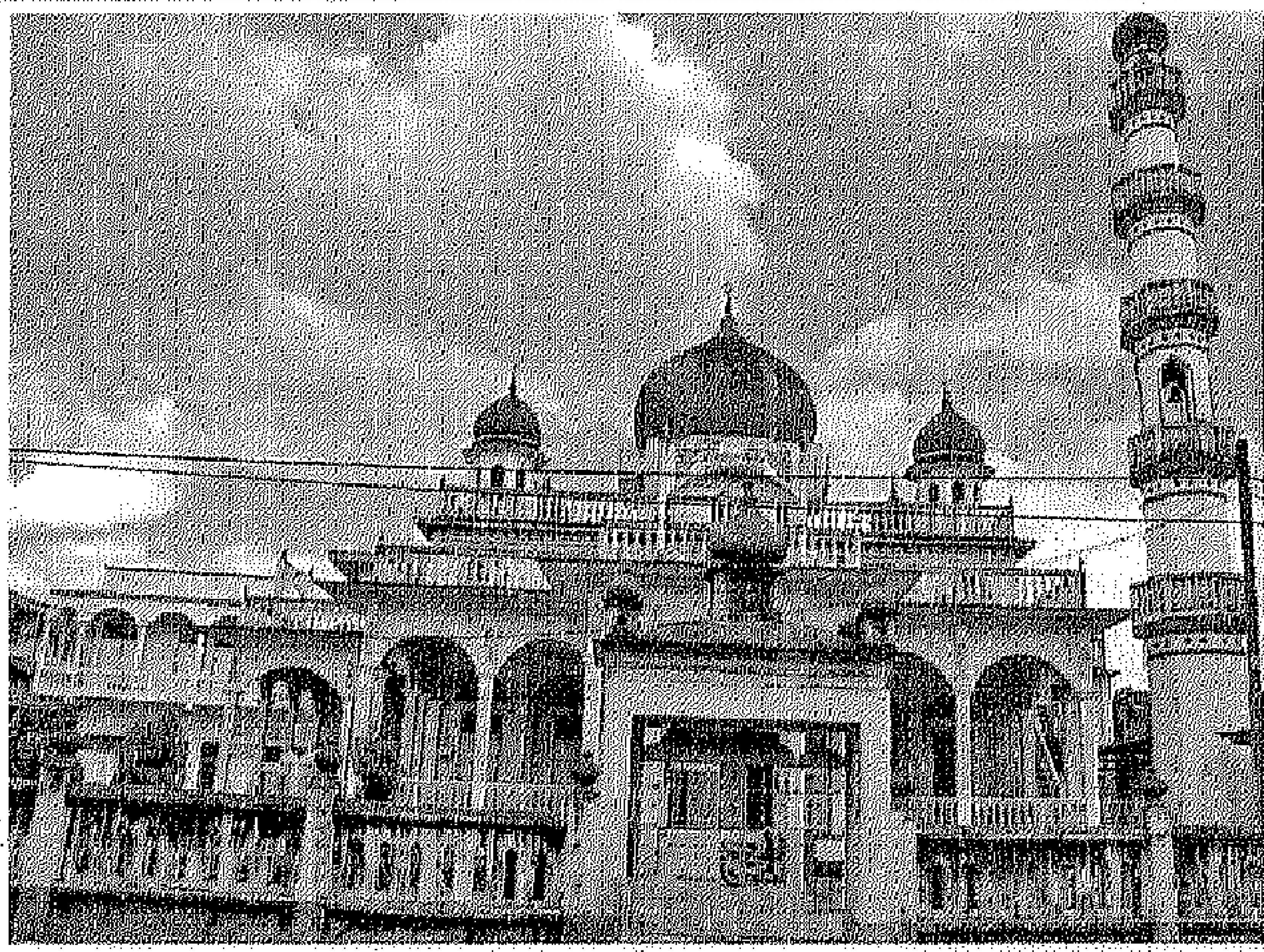


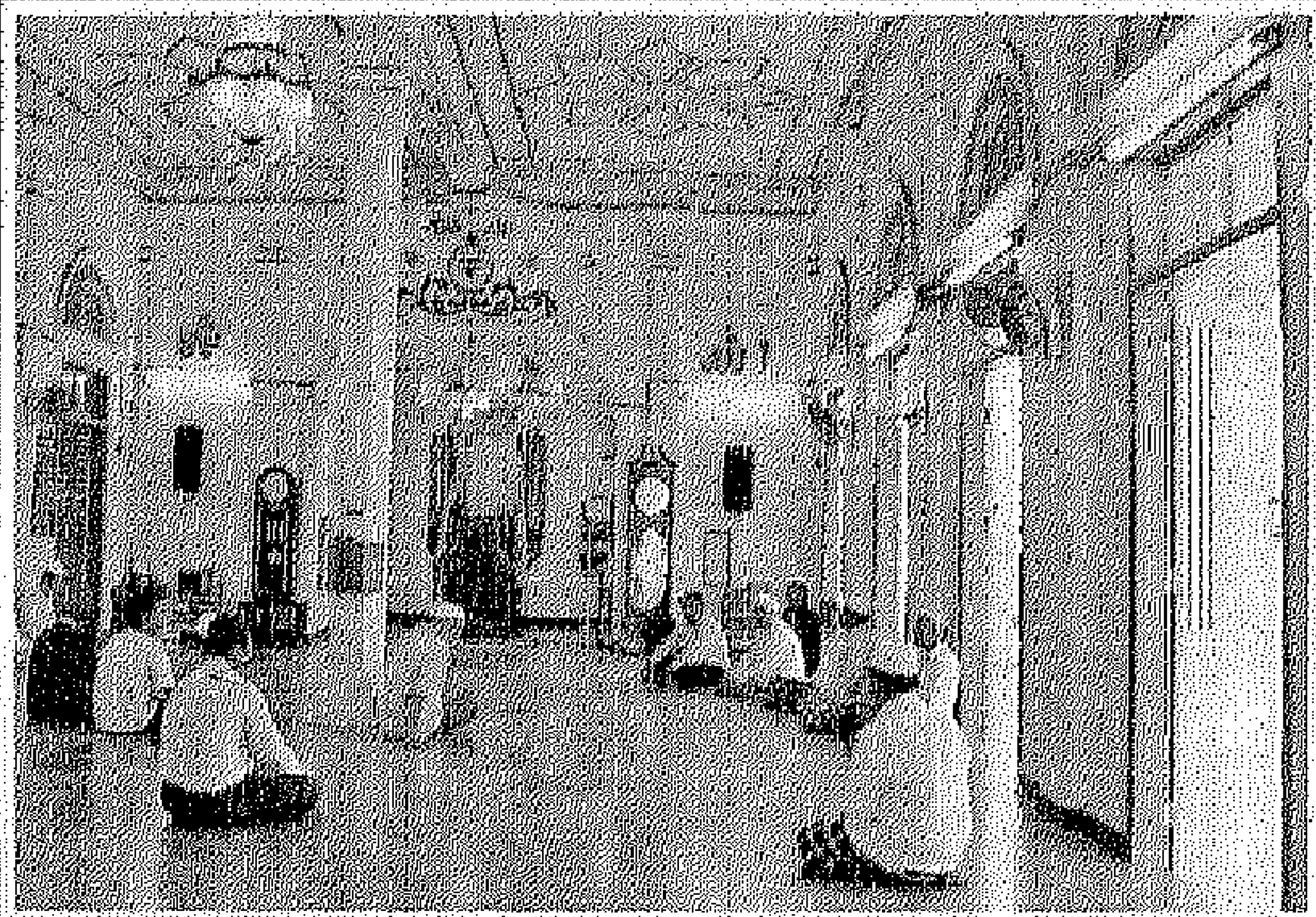
مسجد صلاح الدين

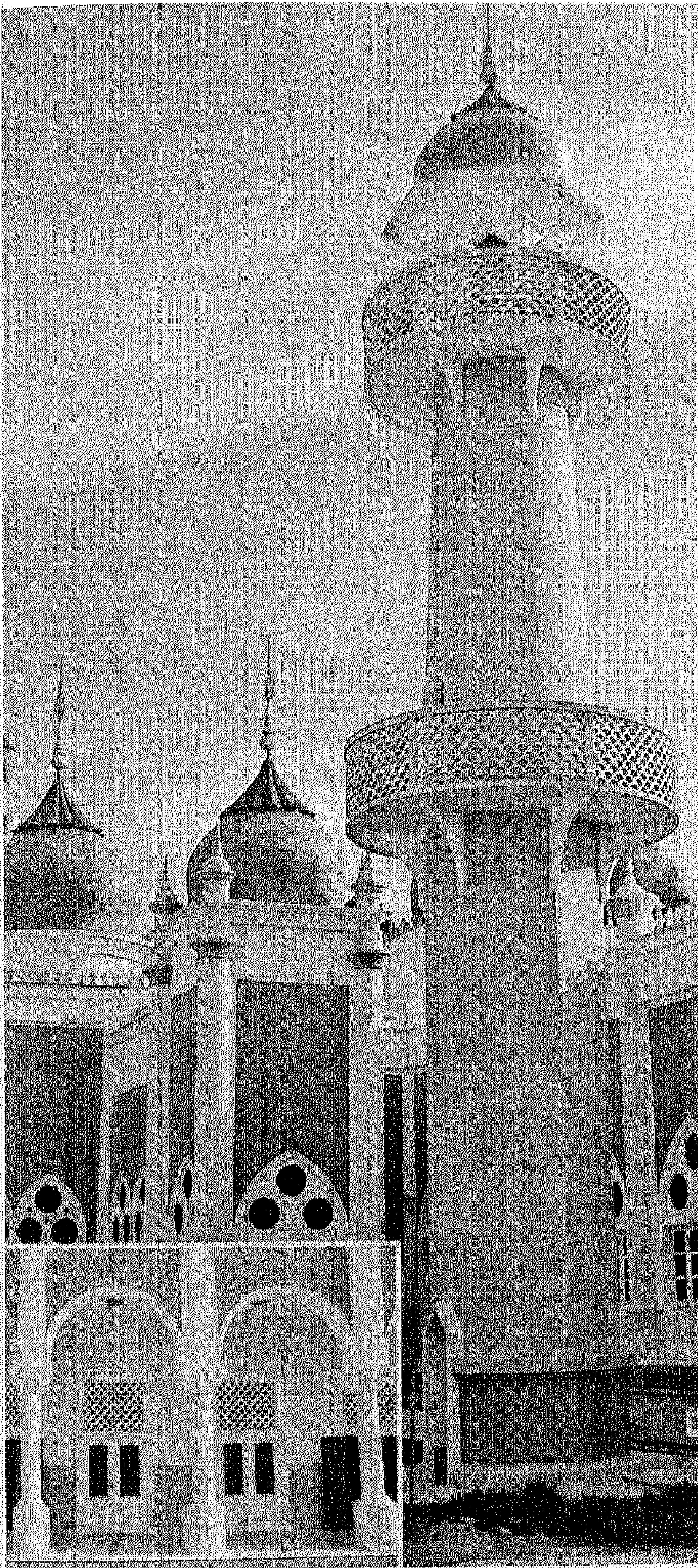
أقدم مساجد محافظة ناخون سري تامراتش، جنوب البلاد، سمي أولا باسم (تاشانج)، واعتباراً من سنة 1947م عرف باسم مسجد (صلاح الدين). ظل المسجد غير مسجل رسميا بسبب تشييده فوق أرض لم تكن مسجلة باسمه، وبعد جهود من قبل اللجنة التنفيذية للمسجد تبرع ملك تايلاند بدفع تعويض لمصلحة الأديان، واعترافاً بهذه البادرة وجهت له دعوة لزيارة المسجد ولبى الدعوة سنة 1959م..

يتميز المسجد بوجود بعض الزخارف البسيطة في سقف بيت الصلاة والأروقة، أرضيته من الرخام، تكثر به الأبواب التي تقوم بدور النوافذ..

أعمدته دقيقة، منبره بسيط، شأنه في ذلك شأن معظم مساجد تايلاند..







المسجد الجامع / فطاني

افتتح سنة 1963م ليكون مركزاً لمسلمي جنوب تايلاند، يعد من أهم وأجمل مساجد تايلاند، يتميز بتصميم معماري أقرب إلى التصاميم الحديثة للمساجد في العالم الإسلامي، ولذا ليست به تأثيرات من المعمار المحلي السائد في غيره من المساجد، إلا أن مدخله متأثر بالطابع الفارسي.. سقف المسجد مزين بعدة قباب مختلفة الأحجام، طليت من الخارج باللونين الأخضر والأحمر، ساحات المسجد مبلطة بالرخام على شكل مربعات باللونين الأبيض والأسود، أقواس الأبواب والنوافذ مزينة بالزجاج الملون..

للمسجد مئذنتان تقعان في واجهته الأمامية، تعلو كل واحدة منها قبة شبيهة بتلك التي تعلو بيت الصلاة..

وباستثناء الزجاج الملون الذي يعلو الأبواب والنوافذ فانه يخلو من النقوش والزخارف أعمدة بيت الصلاة تتكون من ثلاث كتل القاعدة أسطوانية كبيرة ثم عمود أسطواني أقل حجماً ثم تصبح مربعة الشكل..

المنبر مصنوع من الخشب ورغم بساطته تعلوه قبة كبيرة ذهبية اللون..

المسجد الجامع لمحافظة جالا
(روضة الجنة)

المسجد الجامع بمحافظة جالا

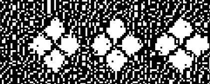
يعرف باسم (روضة الجنة)، بدئ في تشييده يوم 1979/9/27م. وافتتح بتاريخ 1983/10/24م، وهو من المساجد الكبرى في تايلاند، يتكون من ثلاث طوابق بارتفاع يفوق أربعة أمتار ونصف المتر، يتسع لألفي مصل..

المسجد يجمع بين المعمار الحديث والمعمار التايلاندي التقليدي..

يتميز بمئذنته التي يعتقد أنها مستوحاة من المئذنة الملوية في سامراء وهي منفصلة عن مبنى المسجد وتتصل به عن طريق جسر صغير في الطابق الثالث..

مدخل المسجد يقع في الطابق الثاني، ويتم الصعود إليه عبر سلم ضخم..

القبة مخروطية الشكل مقسمة إلى قسمين، أحدهما أصغر من الآخر لضمان الإضاءة، وهي تشبه قبة مسجد عمر المختار في شمال قبرص..



ختامًا، ربما لم يكن من السهل التحدث عن مساجد أخرى، إلا أن ما قدمناه من شأنه أن يعطينا صورة لعدد من المساجد ذات الأنماط المعمارية المتنوعة، تم تشييدها في فترات زمنية مختلفة ومتباعدة، بدءاً من القرن السادس عشر المسيحي وحتى أواخر القرن العشرين..



مع شعب فلسطين

يتفق معظم التايلانديين على وصف ما يعانيه الشعب الفلسطيني بأنه ظلم فادح، لا يختلف في ذلك البوذيون والمسلمون وغيرهم من التايلانديين، إلا أن المسلمين في مختلف أنحاء البلاد يعلنون وبشكل مستمر رفضهم كل الأفعال التي يقوم بها محتلو فلسطين، وتنظم في سبيل إيضاح ذلك الموقف المؤتمرات والندوات والمسيرات التي تستنكر ما يتعرض له الشعب الفلسطيني.

ويختار المسلمون المناسبات الدينية على وجه الخصوص ليؤكدوا وقوفهم مع الشعب الفلسطيني وقضاياه العادلة.

ولعل المخيمات التي تنظم خلال ليلة القدر في شهر رمضان المبارك صورة من صور التضامن مع شعب فلسطين، حيث تلقى الكلمات والخطب وتعلق اللوحات المنددة بكل الأفعال التي توجه ضد الشعب الفلسطيني، ويحضر تلك الاحتفالات عدد كبير من المسلمين يتقدمهم أعضاء البرلمان والأساتذة وأئمة المساجد والطلاب ..

وخلال هذه المهرجانات التضامنية يتم التأكيد وبشكل مستمر على المكانة السامية للمسجد الأقصى في قلوب المسلمين، والرفض القاطع لكل أنواع القهر التي يعانيها الشعب الفلسطيني.



❖ حركية التحديث في عالم الإسلام اليوم

حركية التحديث في عالم الإسلام اليوم

عرض وتلخيص: **جمعة محمود الزريقي***

عقدت تحت هذا العنوان ندوة علمية، بمدينة أصيلة في المغرب، خلال يومي 10 - 11 من شهر هانيبال (أغسطس) 2006 مسيحي، برئاسة الأستاذ محمد بن عيسى، وزير خارجية المملكة المغربية، وأمين عام مؤسسة منتدى أصيلة، وقد شارك في هذه الندوة العلمية أساتذة وعلماء من المغرب وليبيا والبحرين والكويت والسعودية وماليزيا ومالي، وقدم بعض المشاركين ورقات تعلقت بمحاور الندوة التي كانت على النحو التالي:

1- الاجتهاد وعلاقته بالتحديث في الإسلام.

2- دور المذاهب في الاجتهاد والتحديث.

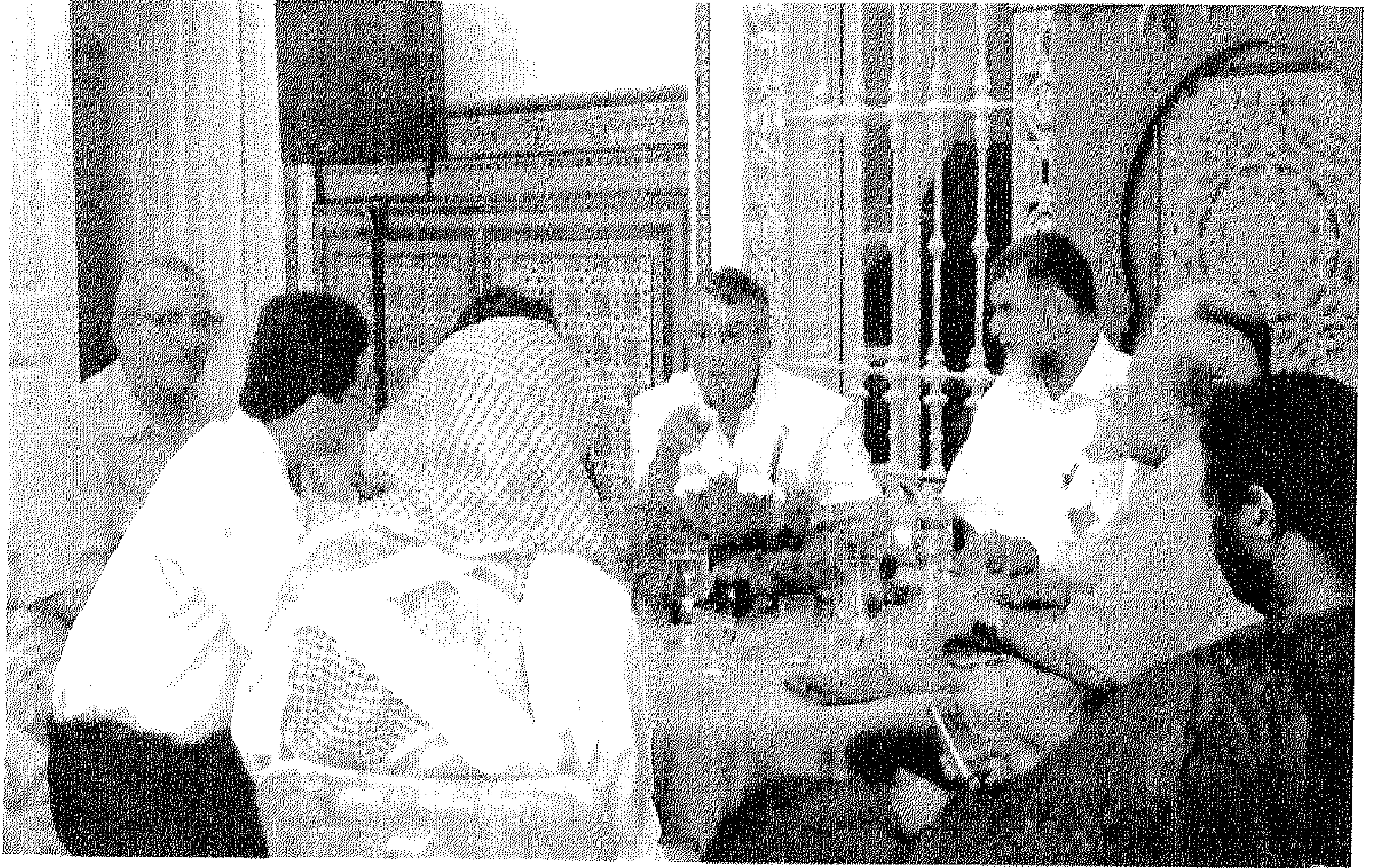
3- نموذج المذهب المالكي في علاقته بحركية التحديث.

تطرق الأستاذ محمد بن عيسى عند افتتاح الندوة إلى إفراط المفكرين المسلمين في التركيز على الصراع بين الانغلاق والتجديد، معتبرا أن النقاش ليس حكراً على الإسلام، بل هو ظاهرة عابرة لجميع الديانات السماوية، وأن العالم الإسلامي يعاني من صعود تيار التطرف الديني، الذي تقوّى في الدول الإسلامية، بسبب البطالة والفقر والظلم الاجتماعي، مما يفرض على المسلمين ضرورة مواجهة هذه التيارات المتطرفة التي تسيء إلى سمعة الإسلام، ودعا إلى ضرورة توسيع مجال حوار الديانات، وإخراجه من حدوده التقليدية التي تعوّد المسلمون أن يتحدثوا بها، وضرورة الانفتاح على ثقافات العالم ودياناتها، ومنها البوذية على سبيل المثال.

كما ألمح إلى أن ندوة (حركية التحديث في عالم الإسلام اليوم) هي ندوة الساعة، مشيرا إلى أن الإسلام دين حنيف تعرض لكثير من الإشكاليات، إلى جانب التهجم المستمر عليه، وهو التهجم القائم الآن في عدد كبير من الدول لعدة أسباب، وشدد الأستاذ بن عيسى على القول إن الهدف من الندوة، هو دراسة سبل التحديث في عالم الإسلام على أن يكون ذلك في نطاق الثوابت الإسلامية ونظامه الشرعي.

ثم انطلق الحاضرون إلى المحور الأول الذي يدور حول الاجتهاد وعلاقته بالتحديث في عالم الإسلام، نظرا إلى أن الظروف الحالية تتسم بكثير من المغالطات والتهجم من طرف الأخر، الأمر الذي يجب معه مراجعة ما يعتقد أنه فقه إسلامي، مع ضرورة فتح باب الاجتهاد، ذلك أن الواقع الحالي يفرض علينا التساؤل عما إذا كان باب الاجتهاد قد أغلق، واستنفد كل أغراضه، أم أن التحديات الراهنة تفرض على المهتمين والمتخصصين في الشأن الديني بلورة اجتهاد

* باحث وأستاذ جامعي / ليبيا.



جديد بدلاً من السابق، على أن يأخذ الاجتهاد المستحدث بالتطورات الحالية في نطاق المعرفة الإنسانية وتطورها، ولم يمنعهم تخصصهم الديني في الاستفادة من علوم الآخرين، فاستفادوا منها، بل وطوروها.

وفي هذا النطاق، طرح الكاتب البحريني ضياء يحيى الموسوي، إشكاليات البحث في هذا المجال، وتساءل هل بإمكاننا اليوم خصوصاً بالنسبة للخطاب الإسلامي، ونحن نعيش مأزق السياسة، أن نتعاطى مع هذا الواقع، دون أن نلغي ثوابت الإسلام ؟، وأشار إلى أن المفكرين الإسلاميين لم يقدموا حتى الآن نظرية واضحة عن الإسلام، سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي، وقال: «إن معظم النظريات الصادرة عنهم هي نظريات تلفيقية وتجسيدية»، وضرب لذلك مثلاً على هذا الفراغ، فقال: «عندما يأتي إلينا الشباب اليوم ليسألوننا عن النظرية الإسلامية في الاقتصاد، فإننا نقدم لهم كلاماً إنشائيا وخطاباً رومانسياً».

وإذا كان الموسوي، قد طرح مداخلته في شكل أسئلة تضمنت عدة إشكاليات، أثار بها شعور بعض المتدخلين، إلا أن الدكتور أحمد الخمليشي، عميد دار الحديث الحسنية بالرباط، قدم ورقة للندوة تناول فيها الواقع الإسلامي، والأفكار التي تسيطر عليه، فأشار إلى أننا لن نخرج من هذه الوضعية إلا بنشر الوعي في المجتمع الإسلامي، على أن يتحمل كل فرد فيه مسئوليته، ومن خلال الواقع المعاش، فإن الكلام السطحي الباطل العاطفي هو الذي يتلقفه الناس ويؤمنون به، ويضحون بأنفسهم في سبيل الضلال الذي يتلقفونه، وبالتالي فمن الضروري أن ينتشر الوعي بين المسلمين، ذلك أننا ما زلنا نجد مستوى الأمية مرتفعاً، وما دام ذلك موجوداً، فإننا لن نتخطى هذه المرحلة التي نحن قابعون فيها منذ أمد بعيد.

تناول الكلمة بعد ذلك الأستاذ الدكتور إسماعيل الشطي، نائب رئيس مجلس الوزراء الكويتي، فتحدث عن موضوع الاجتهاد، وأشار إلى أن العقل البشري له مساحات شاسعة، لا يشغل النص الديني إلا مساحة قليلة منها، أما بقيتها فهي مخصصة للإبداع والفكر والبحث، وأن الإسلام هو الذي منح هذه المساحات

التي منها انطلق المسلمون الأوائل، وانشئوا حضارة عظيمة شهد لها التاريخ، غير أن الفكر الإسلامي المعاصر، جعل تلك المساحات مشغولة بالتراث الذي زحف عليها، وضيق الخناق على انطلاقتها، ذلك أن الإسلام لم يأت بكل التفاصيل تاركا للعلم والعقل البشري القيام بذلك، وبدلاً من أن ينطلق العقل من خلال تلك المساحات، تقوقع في أنماط قديمة من التفكير، دون أن يجتهد في ابتداع أساليب أخرى، موضحا أن ما يعانيه المسلمون الآن إنما كان بسبب غلق باب الاجتهاد والاكتفاء بما قام به المصلحون الأوائل، ولم يسعفهم التراث إلا في مجال الأحوال الشخصية، لذلك يجب فتح باب الاجتهاد، وبناء آلية جديدة لاستنباط الأحكام، وليست الآلية التي صنعها الفقهاء قديما، خلال القرون الثلاثة الأولى، أعني أصول الفقه، التي أصبحت آليات مقدسة، لأن الأمة تلقفتها بالقبول، لذلك يجب تحرير المساحات المخصصة للتفكير والبحث، وإبقاء المساحة التي جعلها الله للنص.

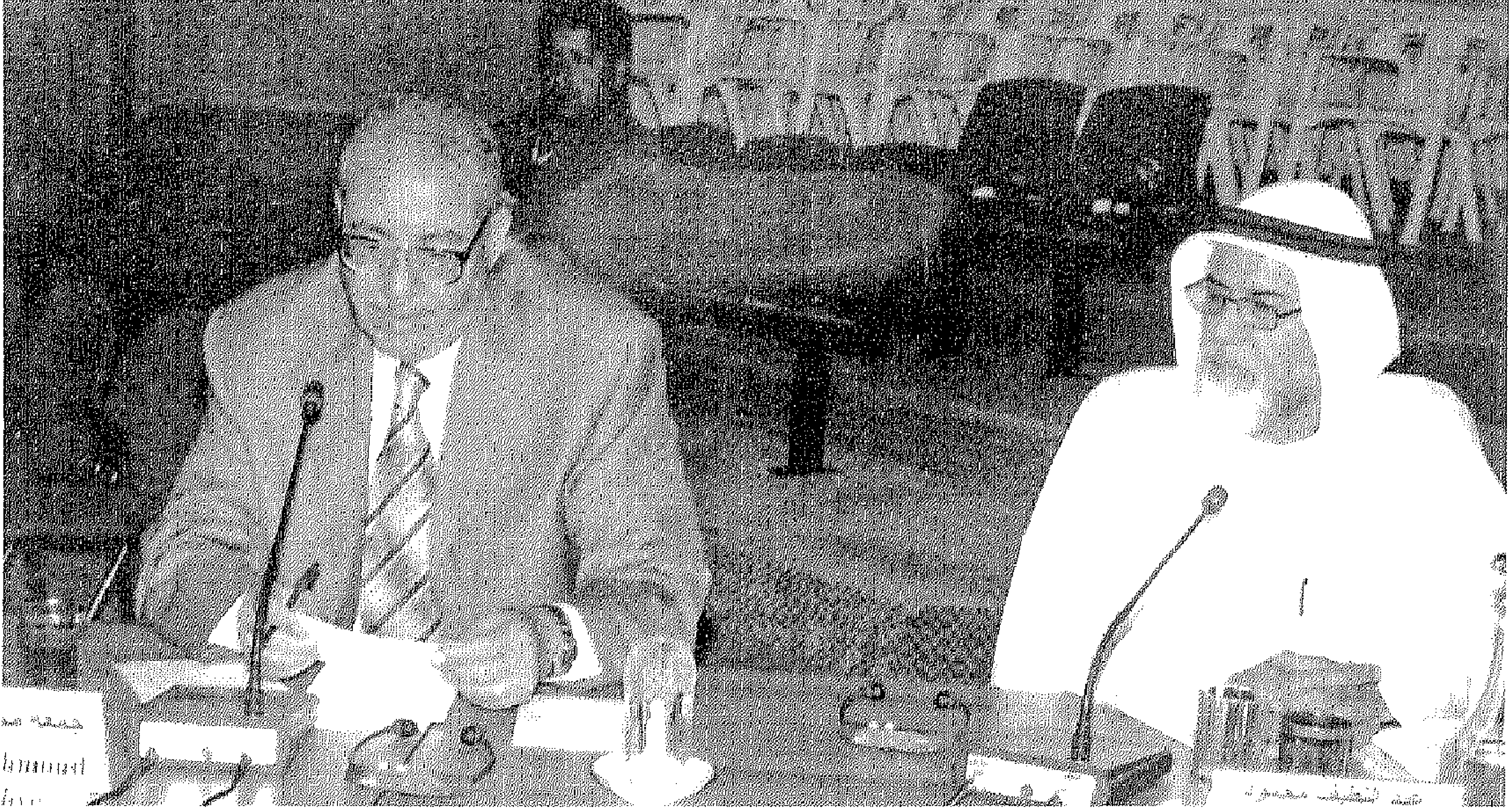
يبدو من خلال مداخلة الأستاذ الشطي أنه يعزو سبب تخلف العالم الإسلامي إلى سيطرة التراث على العقل، وبالتالي لم يعد بإمكانه أن ينطلق لكي يجتهد في الوصول إلى حلول لما يعانيه المسلمون الآن، أو يتطور حتى يواكب العصر.

ومن هنا ساهمتُ في هذا الموضوع بالتعليق على ما بدأ به الصحفي البحريني، ضياء يحيى الموسوي، من أن الإسلام لا توجد به نظرية اقتصادية أو سياسية متكاملة، فأوضحت أن ذلك من مميزات الدين الإسلامي، ذلك أن الله تعالى لم يفرض على المسلمين نمطا معينا من أساليب الحياة التي يعيشونها، بل ترك لهم حرية الاختيار، وذلك مدعاة للاجتهاد على مر العصور، فلو حدد لنا الدين نمطا معينا لما استطعنا أن نخالفه، ونظل فيه إلى أبد الآبدين، ولكنه ـ أي الإسلام ـ لم يترك الأمر بدون ضوابط معينة، بل وضع قواعد في السياسة وفي الاقتصاد، منها على سبيل المثال لا الحصر: تحريم الربا، الوفاء بالعقود، حسن الجوار بين المسلمين وغيرهم، المعاهدات بين الدول، معاملة الأسرى، تحريم الاستغلال والسرقة، والاعتداء على الأموال، إلى غير ذلك من الضوابط الكثيرة، فهذه الضوابط هي التي يحرص عليها الإسلام، أما شكل النظام الاقتصادي أو السياسي فهو متروك لاجتهاد المسلمين في كل عصر ومصر.

أما من حيث التراث الإسلامي، فنحن أمة تفتخر بهذا التراث، بل وتعتز به، وهو يمثل اجتهاد علماء المسلمين منذ خمسة عشر قرنا، فهل يجب علينا أن نرمي به وراء ظهورنا، لنقوم بالبحث عن غيره؟، إن الواجب يقتضي أن نقوم بتحليل ودراسة هذا التراث، ونتأمل فيه، ونأخذ من سمينه ونرمي بغثه، ولكن لا يجب علينا أن نتشرنق فيه بحيث لا نخرج عن نطاقه، وإنما يجب أن نواكب العصر، ونستفيد من تجارب الشعوب في كل ما يفيد المسلمين، وخاصة في مجال العلم والتقنية.

النقاش ليس حكراً على الإسلام، بل هو ظاهرة عابرة لجميع الديانات السماوية،

ذلك فيما يخص التراث الإسلامي، أما من حيث البحث عن آليات جديدة للتفكير، فإن ما وضعه علماء المسلمين من أصول وقواعد، اجتهدوا من خلالها في الوصول إلى أحكام تتعلق بمعاملاتهم وعباداتهم، بل وكل ما يتعلق بهم، فهي قواعد يستخدمها العقل لمعرفة الأحكام الشرعية، وهي جامعة لكل أساليب التفكير، وإذا حاولنا أن نفكر بآلية جديدة، فلن نخرج - إذا تركنا الأصول المتعارف عليها، من إجماع، وقياس، واستحسان، واستصحاب، وشرع من قبلنا.. ألخ - فلن نخرج عن مقاصد الشريعة، بمعنى أن نجعل أسلوب بحثنا يتركز فيما يقصده الشرع لفائدة الإسلام



والمسلمين، ويعود عليهم بالنفع، وهذا الأصل قال به الفقهاء في السابق ، ومن ثم فلا نخرج عن الأصول المتعارف عليها.

وفيما يتعلق بالمذاهب، فهي في حقيقة الأمر مدارس فقهية، وهي لا تختلف عن العلوم الأخرى، فكل علم له دراسات وبحوث ونظريات، كما له مدارس للتفكير، والمذاهب الإسلامية لا تخرج عن ذلك ، وبالتالي لا يجب إهمالها، بل إن وجودها يدل على تنوع الفكر وشرعية الاختلاف، ويمكن للمجتمع الإسلامي أن يأخذ بأي مدرسة منها، وبما يوافق مصالحه والعصر الذي يعيش فيه، لأن الخلاف لا يكون في الأصول بل في المسائل الفرعية.

وخصصت الجلسة الصباحية لليوم الثاني لتناول (دور المذاهب في الاجتهاد والتحديث) وقد ترأس هذه الجلسة السيد مونتغى تال، نائب رئيس الجمعية الوطنية في مالي، حيث تناول الكلمة الأستاذ أحمد ماهر، وزير خارجية جمهورية مصر العربية السابق، فأشار إلى أن المناقشات تلتقي في نقطة مهمة، وهي أن الإسلام دين العقلانية، ولا يقبل أن يظل أسيرا لمفاهيم قديمة، وأنه لا يمانع في مواكبة العصر، ومن ثم لا بد أن يتفاعل مع القضايا التي تواجهه.

تناول بعدها الكلمة، الأستاذ عبد اللطيف آل محمود، من علماء البحرين، فأشار إلى أن الإسلام دين يدعو إلى الوسطية، فلا غلو فيه ولا شطط، ويجب أن يعود إليها الإسلام إذا حاد عنها، وإذا أردنا التحديث، فعلينا مسايرة العصر، مع الاحتفاظ بالثوابت التي لا يمكننا القضاء عليها.

تدخل بعد ذلك الشيخ سلمان بن فهد العودة من السعودية، فأشار إلى ضرورة التحديث، بالنظر إلى ما يواجهه الإسلام من تحديات في الوقت الحاضر، وتطرق إلى ما طرحه بعض المتدخلين حول أصول الفقه، ومحاولة التقليل من أهميتها باعتبارها عائقا للاجتهاد، فقال إن ذلك غير صحيح، لأن هذه الأصول كانت حصيلة اجتهاد علماء الإسلام، وهي أدوات للتفكير، ولاستخلاص الحكم الشرعي، فلا يمكن إهمالها أو التقليل من أهميتها.

وشارك الباحث أشرف محمد، الأستاذ بالجامعة الإسلامية ماليزيا، فأشار إلى أن الأحكام الشرعية تدور مع عللها وجودا وعدما، وأن في اختلاف المذاهب الإسلامية سعة ومرونة في اختيار الأحكام المناسبة للأمة، ونحن في ماليزيا نستعرض أقوال المذاهب، وندرسها عن طريق لجان تضم علماء الدين إلى جانب

العلماء المتخصصين في مجالات أخرى، ثم نأخذ بالآراء التي تتلاءم مع البيئة والعصر، على سبيل المثال، فإن حديث رسول الله ﷺ: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له...» هناك اختلاف بين العلماء في تفسيره، وذلك مما يساعد على اختيار الرأي المناسب، وهناك مثال أخر، وهو بيع المعدوم، فكثير من الفقهاء لا يجيزون ذلك، غير أن بعضهم أجازه إذا لم يكن في ذلك غرر، ونحن في ماليزيا نأخذ بهذا الرأي.

تدخل بعد ذلك الدكتور فريد يعقوب المفتاح، وكيل وزارة الشؤون الإسلامية بالبحرين، حيث بين وجود مذاهب أربعة هي مذاهب أهل السُّنة، ولكن بعض الباحثين يقول: إن المذاهب خمسة، أي بإضافة المذهب الجعفري، إلا أن الأمر المثير للجدل، هو التعصب لهذه المذاهب، فهناك فقهاء لا يرون التجديد، ويتمسكون بالآراء السابقة، وهناك من يرى التحرر من هذه المذاهب بالعودة إلى الكتاب والسنة، وهناك موقف وسط لا يؤيد هؤلاء أو هؤلاء، وجمعوا بين الرأيين مع التحرر مطلقا من الآراء السابقة، فحدث الترهل، وأدى ذلك إلى ضياع الفكر، ولو نظرنا إلى بعض الفقهاء السابقين الذين درسوا علوم الأوائل، كالفلسفة اليونانية، لم نجدهم منغلقين بل كانوا منفتحين، فانكبوا على دراسة علم من سبقهم، ثم انطلقوا يشيدون صروح العلم والحضارة، أما نحن فما زلنا الآن نناقش الموضوع، هل نجدد أو نغير، فينبغي علينا أن نتجاوز هذا السجال ونعمل وننطلق.

خصصت الجلسة الأخيرة، التي عُقدت مساء الجمعة 11/8/2006م، للمحور الثالث (نموذج المذهب المالكي في علاقته بحركية التحديث) وقد تميز هذا المحور بوجود ثلاث ورقات مقدمة من المغرب وليبيا والبحرين، قدّم الورقة الأولى الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، مدير عام وكالة بيت مال القدس الشريف، ووزير الأوقاف السابق في المغرب، فذكر أن مصطلح التحديث قد لا ينسجم مع المراد به في الندوة، وإنما قصد به التجديد، فهو الذي ورد به النص، إذ يحتاج أمر الدين إلى تجديد مستمر، أما إذا قصد بالتحديث إدخال أمور أخرى على الدين، وتغيير الأحكام لمسايرة التطور والتجاوب مع المجتمع الحداثي، فإننا سنكون متجاوزين لحدودنا.

إن بعض الدارسين يطالبوننا بالتغيير والتحديث، كشرط أساسي وضروري من شروط التقدم والاندماج في المجتمع العالمي الحديث، ويتهمون علماء الإسلام بقفل باب الاجتهاد، واختيار الجمود والتقوقع، ويجب أن نعترف أولا بأننا أمة متخلفة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسيًا، وهذا التخلف ظاهر للعيان، ونحن نرغب في الخروج من التخلف، ولكن دون التخلي عن ديننا، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحديث الدين عن طريق قراءة جديدة للنصوص، تأخذ بعين الاعتبار واقع الحال، وترفع الحرج عن الناس، وتحقق المصالح، وتدرأ المفاسد، في إطار المقاصد الضرورية والحاجية والتحسينية، التي جاءت الشريعة لحفظها، وسبيلنا إلى ذلك هو النظر في آليات التحديث والتجديد في الفقه.

يجب أن نواكب العصر، ونستفيد من تجارب الشعوب في كل ما يفيد المسلمين، وخاصة في مجال العلم والتقنية.

ثم تطرق في الورقة المقدمة إلى آليات التحديث في المذهب المالكي، والتي تظهر بوضوح في منهج الإمام مالك، وهو منهج له خلفية إيمانية علمية، تتجلى في التقوى والإخلاص والإتقان والصدق، مشيراً إلى أن من ملامح المذهب المالكي، كثرة أصوله وتنوعها، فهي تمتاز بالتنوع والدقة العلمية، وبإمكانها أن تجعل المذهب قادرا على مسايرة التطور والتلازم مع تغييرات الزمان والمكان.

وختم حديثه بالقول: «إن أصول المذهب وأدواته



الجانب القديم لمدينة أصيلة وقصر الثقافة من الميناء

تعتبر أداة ناجعة في التحديث والتطوير والتجديد، وقد استخدمها فقهاء المذهب على مدى قرون عديدة، وكان لها دور فعال في إغناء الفقه والتوسع فيه، وأفسحت المجال لاجتهادات بديعة في جميع المجالات، وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق».

قُمت بعد ذلك بعرض ورقتي المشارك بها في هذه الندوة وهي بعنوان (أصول المذهب المالكي وعلاقتها بتحديث المجتمع الإسلامي، عمل أهل المدينة نموذجاً) حيث ورد فيها تعريف بالإمام مالك مؤسس المذهب، ثم الأصول التي اعتمد عليها في مذهبه، ومفهوم عمل أهل المدينة، والأدلة التي يقوم عليها هذا الأصل، ومواقف العلماء منه، مبيناً موقف كل من الإمام الشافعي، والإمام الليث بن سعد، والإمام ابن القيم، مستعرضا الآراء التي أبدوها حول هذا الأصل، والتي لا تتعارض في مجملها مع عمل أهل المدينة، إذا كان يعتمد على النقل عن رسول الله ﷺ، وإنما في عملهم الذي لم يكن محل اتفاق مع غيرهم.

أما فيما يتعلق بأثر هذا الأصل - أي عمل أهل المدينة - بمواقف الإمام مالك، رضي الله عنه، فقد أشار الباحث إلى موقفه من محاولة الخليفة أبي جعفر المنصور، الذي أراد أن يعتمد كتاب الإمام مالك (الموطأ) ويجعله مقدماً على غيره من كتب الحديث الأخرى في كافة الأمصار، إلا أن مالكا رفض ذلك بحجة انتقال صحابة رسول الله ﷺ إلى العديد من الأقطار التي وصلها الإسلام، فنقلوا الحديث، وكانت لهم اجتهاداتهم في الوقائع التي واجهتهم، واستخلص الباحث من هذا الموقف حقيقتين:

الحقيقة الأولى: احترام الإمام مالك للحرية الفكرية، وهو في ذلك تبع لما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، فما كان أحدهم يرى رأيه هو الصواب الذي لا ريب فيه، وإنما كان يقول: هذا رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني واستغفر الله، وقد نقل الإمام ابن القيم قول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «السُّنة ما سَّنه رسول الله ﷺ، لا تجعلوا خطأ الرأي سُنة للأمة»، فكتاب الموطأ، كتاب حديث وفقه، وفيه اجتهاد، لذلك لم يرض الإمام مالك فرضه على

المسلمين المنتشرين في الأمصار الأخرى.

الحقيقة الثانية: مراعاة اجتهاد فقهاء الأمصار، وما جرى عليه عملهم وأحكامهم في المسائل التي وقعت لديهم، جاء ذلك واضحا في رده على الخليفة «إن الناس سبقت لهم أقاويل، وسمعوا الحديث، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به» وهو بذلك يشير إلى ذهاب بعض الصحابة إلى مناطق عديدة، فنشروا علمهم، واجتهدوا في الوقائع التي ألمت بهم، ولم يرد بها نص، فأصبح لديهم عرف يجب مراعاته إذا كان لا يصادم نصاً قاطعاً، وفقاً لأحكام التشريع الإسلامي، لذلك قال الإمام مالك للخليفة: «فدع الناس وما هم عليه، وما أختار أهل كل بلد لأنفسهم»، وفي رواية ابن قتيبة: «وإن لكل قوم سلفاً وأئمة، فإن رأى أمير المؤمنين إقرارهم على حالهم، فليفعل».

انتقلت بعد ذلك إلى الموقف الثاني الذي اشتهر به الإمام مالك، وهو محنته في الفتوى، ذلك أن أبا جعفر المنصور، أخذ البيعة من الأمصار، ومن بينها المدينة المنورة، وجعل الناس يقسمون عليها، فنقل للخليفة أن مالكا يفتي الناس بأن أيمان البيعة لا تحل ولا تلزمهم لمخالفتك، واستكراهك إياهم عليها، وزعموا أنه يفتي بذلك أهل المدينة أجمعين، لحديث: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه) فهذا الموقف كما ورد في الرواية، كان سبباً في قيام والي المدينة بتعذيب الإمام مالك وضربه حتى يرجع عن فتواه، إلا أن موقف الإمام كان ثابتاً، ويستخلص منه مبدأين هامين، كان لهما الأثر في تاريخ المسلمين عامة:

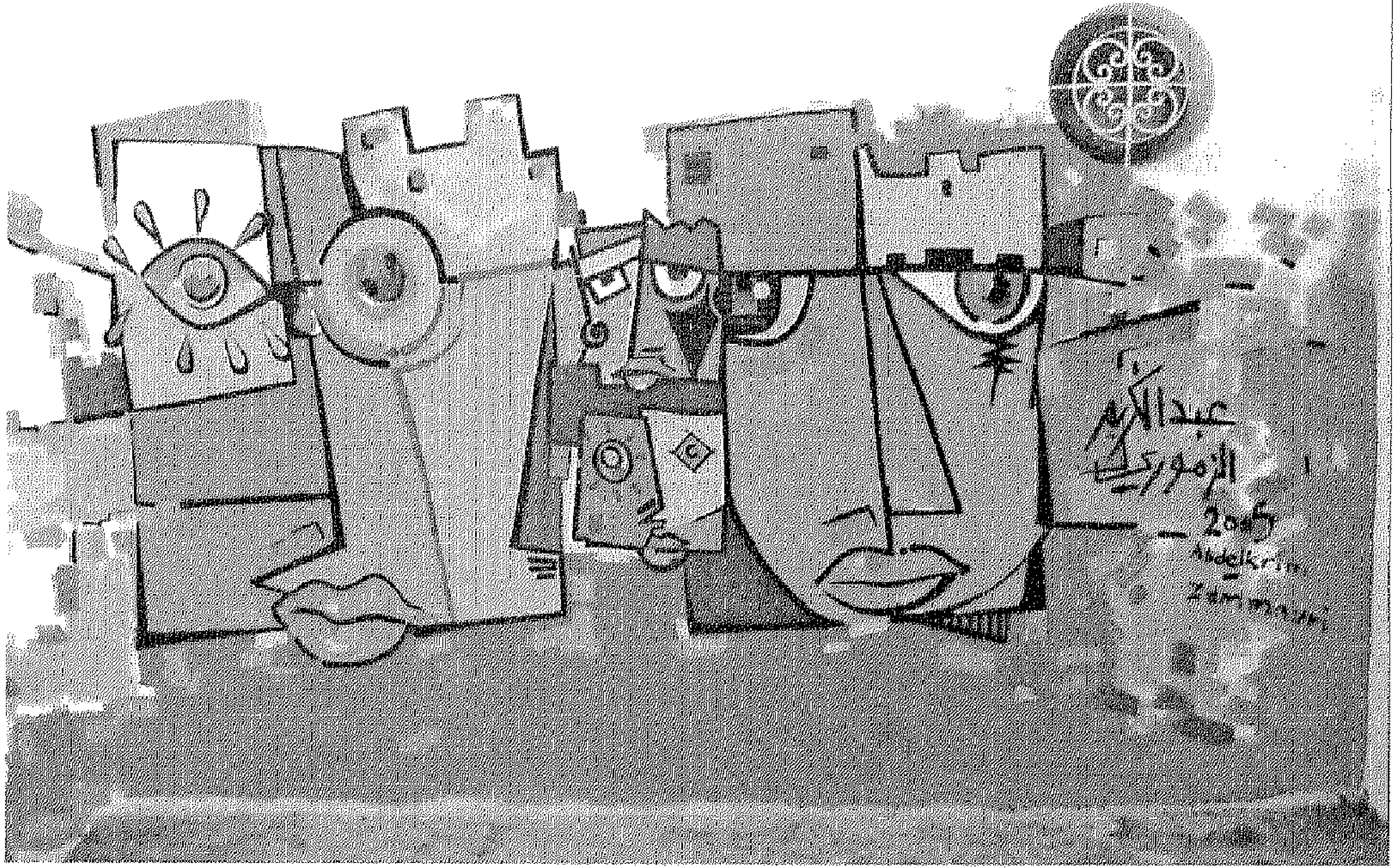
المبدأ الأول: هو موقف المفتي إذا أفتى بما يعتقده من رأي الشريعة في المسألة التي عرضت عليه، فالواجب هنا، يتمسك بموقفه طالما كان يعتقد أنه على حق، ويستند رأيه إلى أصل شرعي ثابت، ومن ثم فلا يأبه بأية ضغوط ترد عليه كي يتراجع عن موقفه، ولو تعرض للهلاك من جراء ذلك، وقول الإمام مالك: «لا خير فيمن لا يؤذى في هذا الأمر» إنما تعني ذلك دون شك، فهو اقتدى بمن سبقه من الأئمة الذين ذكرهم.

المبدأ الثاني: عدم جعل الفتوى لصيقة بالسلطان، بعيدة عن كل المؤثرات، وعندما يكون المفتي يحلل ما قرره الحاكم، ويحرم ما حرمه، فيستند الحاكم إلى الفقهاء في كل ما يقوم به، سواء أكان ذلك موافقا لأحكام الشرع أم مخالفاً له، وفي ذلك فساد للمجتمع، إنما يجب أن تكون الفتوى لعلماء المسلمين، وفقا لأحكام الشريعة الغراء، دون ضغوط أو إكراه أو تزلف، ذلك ما يدل عليه موقف الإمام مالك رحمه الله.

فالإسلام لا يقول بتأليه الإنسان، بل بتكريم الإنسان، كما أن الإسلام لا يقول بتقديس العقل، وإنما بتحرير العقل من السيطرة

واستعرضت التطور الذي صاحب عمل أهل المدينة لدى علماء الأمصار، فأشارت في البداية إلى أن هذا الأصل لم يكن مبتكراً من الإمام مالك، بل قال به بعض الفقهاء قبله، وإنما اشتهر به الإمام مالك لأنه ابتلي به، وفي بعض فتاواه ما يخالف الخبر الذي رواه هو، لكنه اشهر من أخذ به، فنُسب إليه، وقد انبثق عن هذا الأصل أصل آخر، وهو ما جرى به العمل في مصر من الأمصار، ويعتمد هذا الأصل الفرعي على أنه إذا حكم حاكم في قضية، وأخذ فيها بالقول الضعيف دون المشهور، بناء على ضرورة أو حاجة، وجاء بعده من أخذ بهذا الحكم، واستمر ذلك حتى أصبح عرفاً، فيطلق عليه العمل، وينسب إلى المنطقة التي ظهر فيها، فيقال عمل فاس، عمل تونس، عمل طرابلس، وهكذا.

وترتب على ذلك ـ كما ورد في الورقة ـ أن عمل أهل المدينة الذي انبثق عنه عمل الأمصار وجود العديد من النوازل التي استند فيها الفقهاء إلى ما جرى عليه العمل، وتميز الفقه المالكي بهذه النوازل التي أصبحت

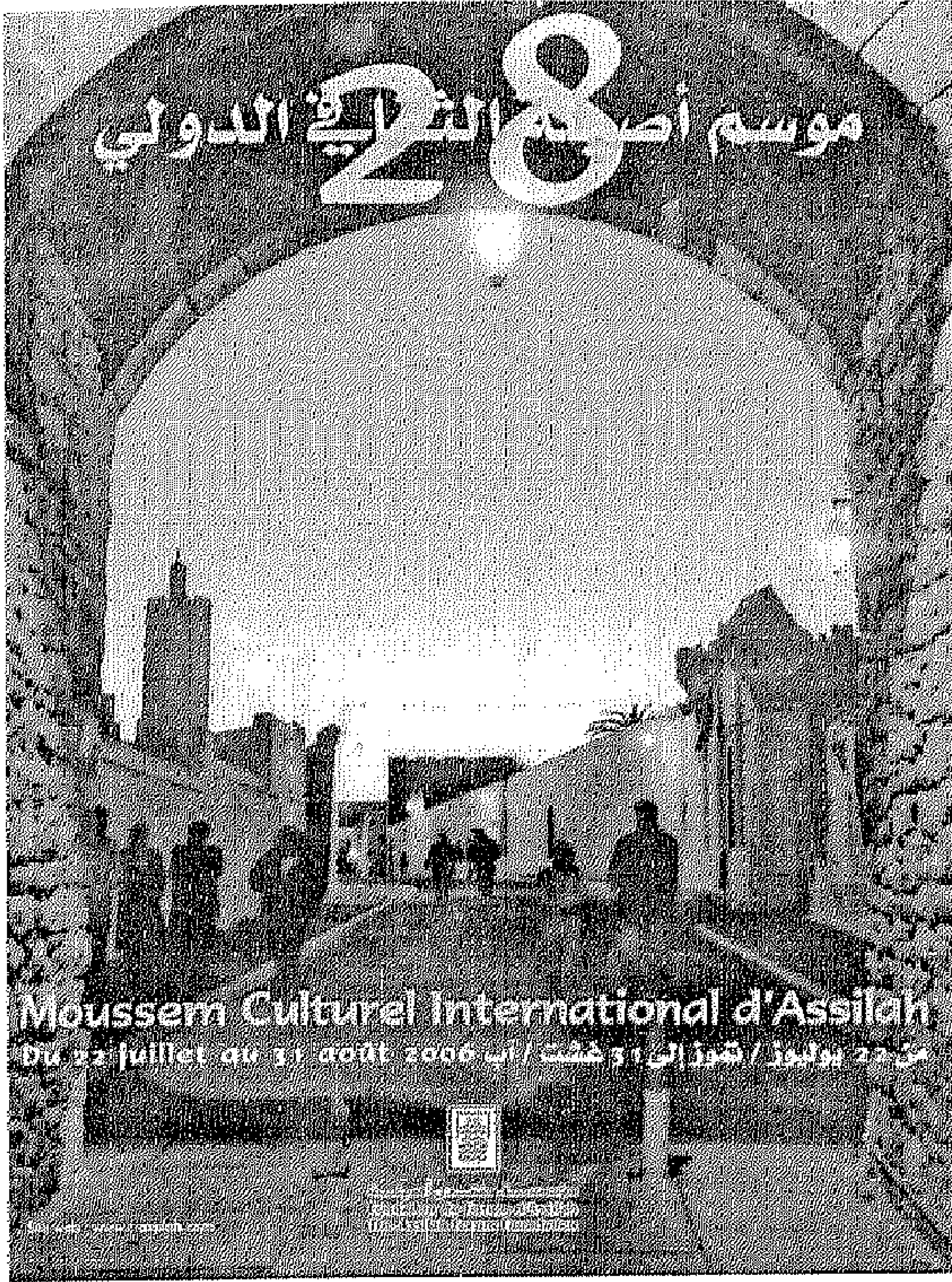


جدارية الفنان المغربي عبد الكريم الزموري ـ أصيلة

كالسوابق القضائية، يعتمد عليها الحكام والمفتون في القضاء والفتوى، فكان له الأثر في مواكبة الوقائع والمستجدات التي تحدث في المجتمع الإسلامي، وبانتشار الفقه، أو الأحكام الفرعية، التي استنبطها المجتهدون من منبع الشريعة، القرآن والسُّنة، خلال القرون الأولى، ووسع دائرتها فقهاء القرون التالية قام الفقه بدور كبير وحاسم في حياتهم، لأنه كان حياً متحركاً، يلائم بيئتهم ويستجيب لحاجيات مجتمعهم، ويأتي بالحلول لكل النوازل التي تقع بينهم، وفي ذلك دليل قوي على أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، وأنها تحمل في طياتها عوامل تجديدها ومواكبتها للعصر.

قدَّم الدكتور فريد يعقوب المفتاح، وكيل وزارة الشؤون الإسلامية بالبحرين، الورقة الثالثة في هذا المحور، وهي تتعلق بعمل أهل المدينة، كأصل من أصول المذهب المالكي، استعرض فيها سيرة الإمام مالك، وذكر أن عمل أهل المدينة، هو أصل تشريعي يمكن الاعتماد عليه، واستعرض من خلال ورقته رسالة الإمام مالك إلى الإمام الليث بن سعد، وانتهى إلى أن عمل أهل المدينة يعتبر أصلاً يجب أن يتم التقيد به، مبيناً أن الإمام مالكاً يعتمد على الأعمال أكثر من الأقوال، وبذلك فهو يمثل النقلة النوعية في إمكانية أن يتم التجديد والتحديث في التشريع من خلال هذا الأصل.

تناول الكلمة بعد ذلك، الشيخ سلمان بن فهد العودة، فقال: عندما نتحدث عن مصادر التشريع، وهي كثيرة وتتكون من ثلاثة أقسام، منها الكتاب والسُّنة والإجماع والقياس والاستصحاب وغيرها، ولكن ثمة فرقاً بين الكتاب والسُّنة، وبين غيرهما من المصادر، فالقسم الأول: الكتاب والسُّنة وقع الاتفاق على حُجيتهما، ولا يوجد أحد من المسلمين إلاَّ ويأخذ بهما، أما القسم الثاني من المصادر، فهناك من يأخذ بها، وهناك من يتركها، فقد وجد ما يعرف بالشغب على الإجماع، إذ لا يوجد إجماع كامل، ولكنه قول الجمهور، والقسم الثالث منها ليس بالمصادر، ولكنه آلية للاستنباط، وأمثلتها كثيرة، منها سد الذرائع، وكذلك



قولهم ما يتم الواجب إلا به فهو واجب، وإذا نظرنا إلى الوقت الحاضر، فإن ثمة أشياء لا تتغير، كالعبادات، فهي باقية على حالها، وهناك أمور يقع فيها التطور كالعادات، ومع ذلك فإن الحاجة إلى فهم الإسلام على حقيقته تعتبر حاجة ماسة في الوقت الحاضر.

كان أخر المتحدثين في هذا الموضوع، الأستاذ عبدالله باها، النائب في مجلس الأمة المغربي، فقال: إن الحداثة الغربية تعتمد على مرتكزات تختلف مع الإسلام، وهي ثلاث مرتكزات: ـ المرتكز الأول ـ إنها تعتمد على تأليه الإنسان، فالإنسان هو كل شيء، بل هو أحق الأشياء التي تسبق عبادة الله، أما المرتكز الثاني، فهو تقديس العقل، أي لا توجد سلطة فوق سلطة العقل، وهنا يكون المعنى أن الوحي لا يرشد العقل، أما المرتكز الثالث، فهو الانكباب على الدنيا، وما يرتبط بها من الإنتاج والاستهلاك والاستمتاع، ويصفها بعض الغربيين بأنها حضارة المتعة.

هناك قدر مشترك بين الإسلام والحضارة الغربية في هذه الأمور، ولكن بمفهوم مختلف، فالإسلام لا يقول بتأليه الإنسان، بل بتكريم الإنسان، والإنسان في وضعنا الحالي غير مكرم، كما أن الإسلام لا يقول بتقديس العقل، وإنما بتحرير العقل من السيطرة مهما كان موضوعها، كما أن الإسلام لا يقول بعبادة الدنيا، وإنما بعمارة الأرض، وأن تكون الدنيا مطية الآخرة.



وإذا أردنا أن نلخص ما دار في هذه الندوة، فيمكن القول باتفاق الحاضرين على ضرورة التحديث في الفكر الإسلامي، وقراءة النصوص قراءة لا تخالف الأصول التي قام عليها الدين الإسلامي، دون أن يسيطر علينا التراث بطريقة لا تمكننا من الانطلاق نحو التقدم، مع ضرورة فتح باب الاجتهاد للعلماء والمفكرين، وتحرير الفتوى من الانغلاق في التأويلات القديمة، واستعمال آليات حديثة في الفكر، تحاول تقديم الحلول لما يعانيه المسلمون اليوم، دون أن نخرج عن الإطار الإسلامي وثوابته المتفق عليها، كما أن الانفتاح على الآخر شيء ضروري للمسلمين، والأخذ بالعلم والتقنية لا يشكل بالضرورة تدخلاً سياسياً من الغرب، بل لا يعتبر مؤامرة يجب الابتعاد عنها، فالأفكار الإنسانية، والتقدم العلمي لفائدة البشرية جميعاً، فنحن لا نريد التغريب ولكن نريد التحديث في مجتمع تسوده العدالة والحرية، وأن ينطلق العقل البشري ضمن إطار النص الديني دون سيطرة التراث القديم بكافة صوره وأنماطه، وإنما بكيفية تجعل المسلمين يعيشون عصر التقدم والتكنولوجيا دون مسخ صورتهم ضمن إطار التغريب.

وعلى هامش الندوة شهدت مدينة أصيلة مشاركات إبداعية وفنية من مختلف مناطق العالم، دعماً للتواصل بين الشعوب التي تتوق بالفطرة والضرورة إلى السلام والمحبة ونبذ الحروب.



- ❖ الأرملة المرضع
- ❖ الراعية الصغيرة (لوحة)، بائعات الفاكهة الصغيرات (لوحة)
- ❖ غرفة الشاعر
- ❖ خيّام العصر في غرفة البؤس
- ❖ المجانين العقلاء، أو الحد الفاصل بين العبقرية والجنون



معروف الرصافي

1 الأرملة المرضع

لَقِيتُهَا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ أَلْقَاهَا   تَمْشِي وَقَدْ أَثْقَلَ الإمْلاقُ مَمْشَاهَا

أَثْوَابُهَا رَثَّةٌ والرِّجْلُ حَافِيَةٌ   وَالدَّمْعُ تَذْرِفُهُ فِي الخَدِّ عَيْنَاهَا

بَكَتْ مِنَ الفَقْرِ فَاحْمَرَّتْ مَدَامِعُهَا   وَاصْفَرَّ كَالوَرْسِ مِنْ جُوعٍ مُحَيَّاهَا

مَاتَ الذي كَانَ يَحْمِيهَا وَيُسْعِدُهَا   فَالدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ بِالفَقْرِ أَشْقَاهَا

المَوْتُ أَفْجَعَهَا وَالفَقْرُ أَوْجَعَهَا   وَالهَمُّ أَنْحَلَهَا وَالغَمُّ أَضْنَاهَا

فَمَنْظَرُ الحُزْنِ مَشْهُودٌ بِمَنْظَرِهَا   وَالبُؤْسُ مَرْآهُ مَقْرُونٌ بِمَرْآهَا

كَرُّ الجَدِيدَيْنِ قَدْ أَبْلَى عَبَاءَتَهَا   فَانْشَقَّ أَسْفَلُهَا وَانْشَقَّ أَعْلاهَا

وَمَزَّقَ الدَّهْرُ، وَيْلَ الدَّهْرِ، مِئْزَرَهَا   حَتَّى بَدَا مِنْ شُقُوقِ الثَّوْبِ جَنْبَاهَا

تَمْشِي بِأَطْمَارِهَا وَالبَرْدُ يَلْسَعُهَا   كَأَنَّهُ عَقْرَبٌ شَالَتْ زُبَانَاهَا

حَتَّى غَدَا جِسْمُهَا بِالبَرْدِ مُرْتَجِفاً   كَالغُصْنِ فِي الرِّيحِ وَاصْطَكَّتْ ثَنَايَاهَا

تَمْشِي وَتَحْمِلُ بِاليُسْرَى وَلِيدَتَهَا   حَمْلاً عَلَى الصَّدْرِ مَدْعُومَا بِيُمْنَاهَا

قَدْ قَمَّطَتْهَا بِأَهْدَامٍ مُمَزَّقَةٍ   فِي العَيْنِ مَنْشَرُهَا سَمْجٌ وَمَطْوَاهَا

مَا أَنْسَ لا أَنْسَ أَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُهَا   تَشْكُو إِلَى رَبِّهَا أَوْصَابَ دُنْيَاهَا

تَقُولُ يَا رَبِّ، لا تَتْرُكْ بِلا لَبَنٍ   هَذِي الرَّضِيعَةَ وَارْحَمْنِي وَإِيَّاهَا

مَا تَصْنَعُ الأُمُّ في تَرْبِيبِ طِفْلَتِهَا … إنْ مَسَّهَا الضُّرُّ حَتَّى جفَّ ثَدْيَاهَا

يَا رَبُّ مَا حِيلَتِي فِيهَا وَقَدْ ذَبُلَتْ … كَزَهْرَةِ الرَّوْضِ فَقْدُ الغَيْثِ أظْمَاهَا

مَا بَالُهَا وَهْيَ طُولَ اللَّيْلِ بَاكِيَةٌ … وَالأُمُّ سَاهِرَةٌ تَبْكِي لِمَبْكَاهَا

يَكَادُ يَنْقَدُّ قَلْبِي حِينَ أنْظُرُهَا … تَبْكِي وَتَفْتَحُ لِي مِنْ جُوعِهَا فَاهَا

وَيْلُمِّهَا طِفْلَةً بَاتَتْ مُرَوَّعَةً … وَبِتُّ مِنْ حَوْلِهَا فِي اللَّيْلِ أرْعَاهَا

تَبْكِي لِتَشْكُو مِنْ دَاءٍ ألَمَّ بِهَا … وَلَسْتُ أفْهَمُ مِنْهَا كُنْهَ شَكْوَاهَا

قَدْ فَاتَهَا النُّطْقُ كَالعَجْمَاءِ، أرْحَمُهَا … وَلَسْتُ أعْلَمُ أيَّ السُّقْمِ آذَاهَا

وَيْحَ ابْنَتِي إنَّ رَيْبَ الدَّهْرِ رَوَّعَهَا … بِالفَقْرِ وَاليُتْمِ، آهًا مِنْهُمَا آهَا

كَانَتْ مُصِيبَتُهَا بِالفَقْرِ وَاحِدَةً … وَمَوْتُ وَالِدِهَا بِاليُتْمِ ثَنَّاهَا

هَذَا الذي في طَرِيقِي كُنْتُ أسْمَعُهُ … مِنْهَا فَأثَّرَ فِي نَفْسِي وَأشْجَاهَا

حَتَّى دَنَوْتُ إلَيْهَا وَهْيَ مَاشِيَةٌ … وَأدْمُعِي أوْسَعَتْ في الخَدِّ مَجْرَاهَا

وَقُلْتُ: يَا أُخْتُ مَهْلا إنَّنِي رَجُلٌ … أُشَارِكُ النَّاسَ طُرًّا في بَلايَاهَا

سَمِعْتُ يَا أُخْتُ شَكْوَى تَهْمِسِينَ بِهَا … في قَالَةٍ أوْجَعَتْ قَلْبِي بِفَحْوَاهَا

هَلْ تَسْمَحُ الأُخْتُ لِي أنِّي أُشَاطِرُهَا … مَا في يَدِيَّ الآنَ أسْتَرْضِي بِهِ اللهَ

ثُمَّ اجْتَذَبْتُ لَهَا مِنْ جَيْبِ مِلْحَفَتِي … دَرَاهِمًا كُنْتُ أسْتَبْقِي بَقَايَاهَا

وَقُلْتُ يَا أُخْتُ أرْجُو مِنْكِ تَكْرِمَتِي … بِأخْذِهَا دُونَ مَا مَنٍّ تَغْشَاهَا

فَأرْسَلَتْ نَظْرَةً رَعْشَاءَ رَاجِفَةً … تَرْمِي السِّهَامَ وَقَلْبِي مِنْ رَمَايَاهَا

وَأخْرَجَتْ زَفَرَاتٍ مِنْ جَوَانِحِهَا … كَالنَّارِ تَصْعَدُ مِنْ أعْمَاقِ أحْشَاهَا

وَأجْهَشَتْ ثُمَّ قَالَتْ وَهْيَ بَاكِيَةٌ … وَاهًا لِمِثْلِكَ مِنْ ذِي رِقَّةٍ وَاهَا

لَوْ عَمَّ فِي النَّاسِ حِسٌّ مِثْلُ حِسِّكَ لِي … مَا تَاهَ فِي فَلَوَاتِ الفَقْرِ مَنْ تَاهَا

أوْ كَانَ فِي النَّاسِ إنْصَافٌ وَمَرْحَمَةٌ … لَمْ تَشْكُ أرْمَلَةٌ ضَنْكًا بِدُنْيَاهَا

هَذِي حِكَايَةُ حَالٍ جِئْتُ أذْكُرُهَا … وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى الأحْرَارِ فَحْوَاهَا

أوْلَى الأنَامِ بِعَطْفِ النَّاسِ أرْمَلَةٌ … وَأشْرَفُ النَّاسِ مَنْ بِالمَالِ وَاسَاهَا

لوحة الراعية الصغيرة

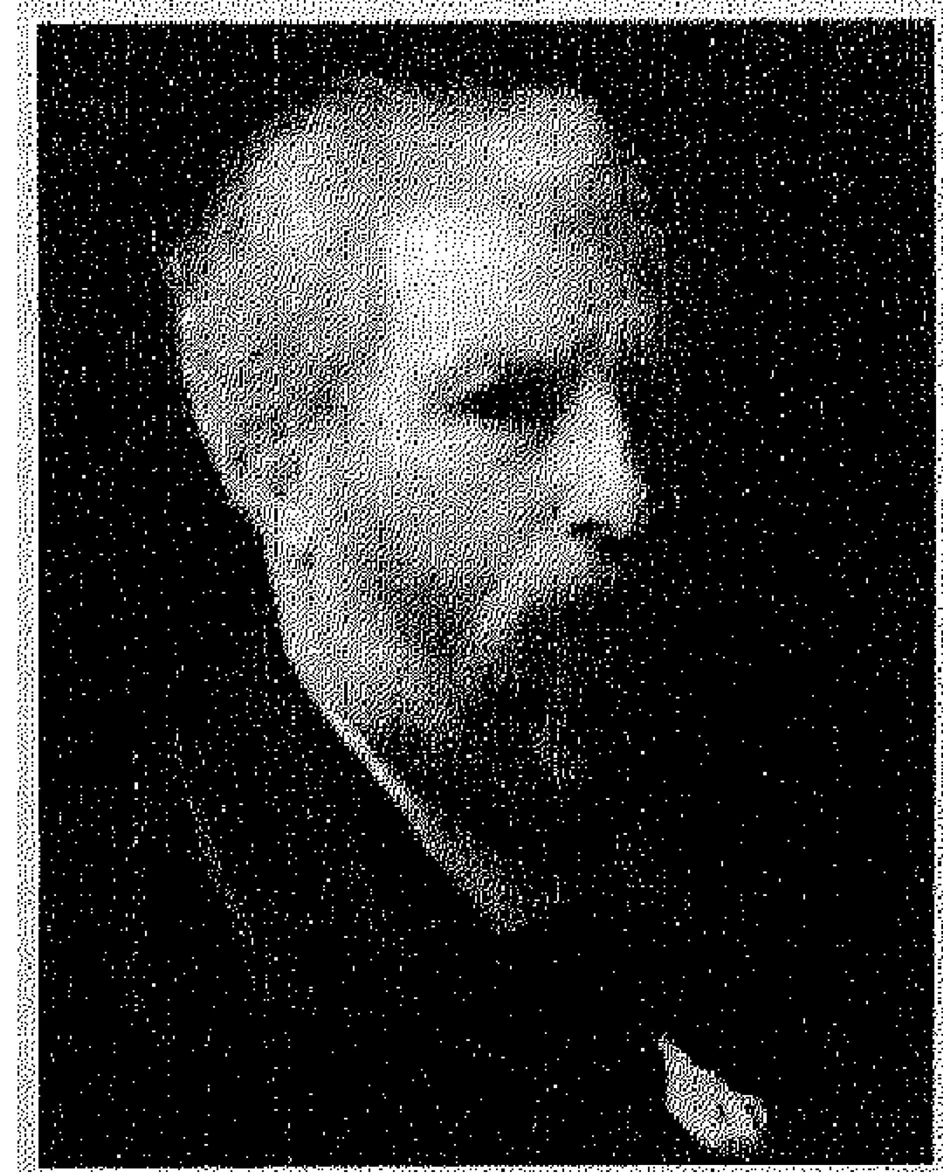
وليام بوجيرو William Bouguereau (1825 - 1905)

وليام بوجيرو رسام فرنسي، أحد أشهر الرسامين في القرن التاسع عشر.

وُلد في La Rochelle سنة 1825 ودرس في مدرسة دي بو للفنون Ecole des Beaux-Arts. وتحصّل على جائزة روما للفنون سنة 1850. وتنتمي أغلب رسوماته إلى ما يُعرف بالمدرسة الميثولوجية (الأسطورية)، حيث تلعب الأساطير والخرافات دوراً في هذا النوع من الرسومات، فتراه يميل إلى رسم الآلهة المجنحة، والملائكة، والحيوانات الأسطورية النصف بشرية (الساتيرات). ومن أشهر لوحات بوجيرو:



- ❖ دانتي وفرجيل في الجحيم
  Dantel and Virigil in Hell
- ❖ القبلة الأولى The First Kiss
- ❖ الحوريات والساتير Nymphs and Satyr
- ❖ الراعية الصغيرة Young Shepherdess
- ❖ مولد ڤينوس The Birth of Venus



وليام بوجيرو بريشته

(❖) صور الشاعر معروف الرصافي الأرملة المرضع بكلماته ووليام بوجيرو يصور الراعية الصغيرة بريشته، ومع ذلك كم هي قريبة تلك الصورة الشعرية من هذه اللوحة الفنية!! رسم الرصافي بكلماته صورة ورسم وليام بريشته صورة، ولو كانا متعاصرين لقلنا أنهما اتفقا على ذلك.. لكنه الابداع هو الذي جعل انتاجهما متقاربان رغم اختلافاتهما التي لا تكاد تحصى.

لوحة بائعات الفاكهة الصغيرات

برثولومي إيستيبان موريللي (1682 - 1617) Bartolomé Esteban Murillo

برثولومي إيستيبان موريللي، رسام أسباني وُلد في إشبيلية (1617) وتوفي فيها (1682).

يعد موريللي من أعظم الرسامين في القرن السابع عشر.

ومن أشهر لوحاته :

- يوحنا المعمدان طفلاً
- بائعات الفاكهة الصغيرات
- طفلان فقيران يتناولان العنب والبطيخ



موريللي بريشته



2 غرفة الشاعر

عبد الحميد الديب

الشاعر البائس في غرفة البؤس

أفي غرفـــــةٍ يـــــا ربّ أم أنـــــا في لحد ألا شـــدّ مـــا ألــقـــى مـــن الــزمـــنِ الـــوَغْـــدِ
أرَى الــنَّــمْــلَ يـخـشـى الـنـاسَ إلا بـأرضِـهـا فــأرجُــلُـــه أمْـضَـى مــن الصّـارمِ الــهـنـدي
تُـسَـاكِـنُـنـي فـيـهـا الأفـاعـي جريـئـةً وفــي جَـوِّهَـا الأمــراضُ تَـفْـتِـكُ أو تـعْـدِي
تَـرَانـي بـهـا كـلَّ الأثـاثِ، فَـمِـعْـطَـفـي فِــرَاشٌ لـنـومـي أو وِقَــاءٌ مِــنَ الـبَــرْدِ
وأمّـا وِسَـاداتـي بـهـا فَـجَـرَائِـدٌ تُـجَـدَّدُ إذ تَـبْـلَـى عـلـى حَـجَـرٍ صَـلْـدِ
تـعَـلَّـمتُ فـيـهـا صَـبْـرَ أيـوب في الضَّـنَـى وذُقْـتُ هُـزَالَ الجوعِ أكْـثَـرَ مـن غَـنْـدِي



ثـمـانـونَ قـرشًـا أهْـلَـكَـتْـنـي كأنـهـا ثـمـانـون ذَنْـبًـا في سِـجِـلٍّ عَـذَابـي
طَـوَيْـتُ لـهـا الـدنـيـا سُـؤالاً وَكُـدْيَـةً فـمـا ظَـفِـرَتْ نـفـسـي بِـرَدٍّ جَـوَابِ
لُـعِـنْـتَ كِـراءَ الـبـيـتِ كَـمْ ذا أهَـنْـتَـنـي وأذلَـلْـتَ كِـبـري بين كـلِّ رِحَـابِ
فـفـي كـلِّ شـهـرٍ لي عُـوَاءٌ بموقِـفٍ يُـبَـاعِـدُ عـنـي أسْـرَتـي وَصِـحَـابـي
وطـول لـيـالي الشـهـرِ يـهـتـاجُ مَـضْـجَـعـي مـخـافـةَ ربِّ الـبـيـتِ يـغـلـقُ بـابـي
يُـطَـالـبـنـي في غِـلْـظَـةٍ ، فَـأجـيـبُـه إجابَـةَ مَـنْ يـرجـو يَـدًا ويـحَـابـي



صـحـوت عـلـى قصـف الـريـاح وصـوتـه ومـا أحـدث الـطـرق الخلـيـع مـن الجرس
يـطـالـبـنـي بـالأجْـرِ في غَـيْـظٍ دَائِـنٍ تَـصَـيّـدَهُ المحتالُ بـالـثـمنِ الـبَخْـسِ
وقالَ يُـدَاري ظُـلْـمَـةُ: أيُّ ضَـامِـنٍ لِـسَـكْـنِـي تَـعَـرَّت عـن سـريـرٍ وعـن كُـرْسـي؟
أراكَ بـهـا كـلَّ الأثـاثِ ولا أرَى سـوى قَـلَـمٍ ثـاوٍ عـلـى الأرضِ أو طِـرسِ

فقلتُ له: هذي جُدودي كما ترى ... فما سَكني في البيتِ بل أنا في رَمْس

وقلتُ مَعاذَ الدّينِ ما كنتُ مَرّةً ... غريمًا ولا أذللتُ يومي ولا أمسي



إذا كانت السُّكنى بأجْرٍ مَذلّةً ... فما أرحبَ المجانَ في غُرفِ الحبْسِ

فإني أرى فيها الطعامَ، ولا أرى ... غريمًا، يلاقيني بعارضة النّحْسِ

وإنْ لم أجِدْ فيها الطّعامَ ميسرًا ... فإني رَخِيُّ البالِ.. أطعمُ من حِسّي

3 خيّام العصر في غرفة البؤس



أحمد الصافي النجفي

أُكَافِحُ البَرْدَ في سِرَاجٍ ... يَكَادُ مِن ضَعْفِهِ يَموتُ

في غُرفَةٍ مِلؤُها ثُقوبٌ ... أو شِئْتَ قُلْ مِلؤُها بيوتُ

يَسْكُنُ فيها بِلا كِراءٍ ... فَأرٌ وَبَقٌّ وَعنكبوتُ

للفَأرِ مِن مَأكلي غِذاءٌ ... والبَقُّ جسمي لَديهِ قُوتُ

واعتزلَ العنكَبوتُ أمْري ... وفي بَقَاهُ معي رَضيتُ

فهو معي مثلُ فيلسوفٍ ... مُعتزِلٍ دَأبُه السّكوتُ

مُشتغِلٍ بِالنّسيجِ عنّي ... يَبني شِباكًا بها حَميتُ

فكم بِهَا صَادَ مِن ذُبَابٍ ... قَد كُنتُ في أمرِهِ عَييتُ

انْعِمْ بِهِ صَائِداً قَديراً ... ذُبَابةٌ مِنهُ مَا تَفُوتُ

كَم صَادَ في الصّيفِ مِن بَعوضٍ ... قَد كُنتُ مِن لَذْعِهِ خَشيتُ

يَنسِجُ فوقَ الثّقوبِ بَيتاً ... بهِ مِنَ الشّمسِ قَد وُقيتُ

يوقِظُني الفَأرُ حينَ أغفو ... بالقَرضِ إن طَابَ لي المَبيتُ

والـبـقُّ بِـالـقـرْص رامَ مَـزحـي — لكـنّـهُ مَـازِحٌ صَـمـوتُ
أغُـرفـةٌ لـلـمَـنـام هَـذي — أم هِـي مَـنـفـىً لـه نُـفـيتُ
أم تِـلـك قَـبْـرُ الحَيَاةِ فـيـهِ — عُـذّبتُ مـن قَـبـلِـمَـا أموتُ
أبيتُ ليـلاً بـهـا كَـأنـي — لِـلـبـرْدِ تحتَ السّـمـا أبـيتُ
جَـمُـدتُ مِـن بَـرْدِهَـا ولكـن — فـي الصّـيـفِ مـن حَـرّهـا شُويتُ
يُـنـثَـرُ مِـن سَـقْـفِـهَـا تُـرابٌ — لولا غِـطَـائـي بـه عُـمـيتُ
كَـأنّ ذاك الـتّـراب رِزقٌ — بِـه مـن الـلـهِ قد حَـيـيتُ
أمشي بـهـا خَـائِـفـاً لأني — أخشى انْـخِـسَـافـاً إذا مَـشـيتُ
لـهـا كَـشُـبّـاكـهـا ثُـقـوب — انـظُـرُ مـنـهـا حـيثُ شِـيتُ

4 المجانين العقلاء أو الحد الفاصل بين العبقرية والجنون

حفظ لنا التاريخ الأدبي والثقافي أخباراً عن أناسٍ اتهموا في سلوكهم بالجنون، وفي الوقت نفسه تصدر عنهم إشراقات لا تنبعث إلا من أعظم الحكماء وأعقلهم.

ولا تكاد ثقافة من الثقافات تخلو من صور لهذا النمط من الناس الذي يُطلق عليه (المجنون العاقل أو العاقل المجنون). وربما هذا ما دعا فيلسوفاً كبيراً مثل ميشيل فوكو أن يكتب أهم وأخطر دراسة لتاريخ الجنون، وهي دراسته المسماة تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي Histore de la Folie a l'age Classiique, وقد صدرت في مطلع الستينيات من القرن الماضي.

لقد حيّر ذلك السلوك المثير العلماء والباحثين قديماً وحديثا. وللمسلمين في هذا الموضوع حظّ وافر، بل ربما كان حظ الثقافة الإسلامية في بحث هذا الموضوع أكثر وفرة من غيرها، فضلاً عن كونها من أسبق الثقافات مناقشةً لهذا الموضوع وإن كانت في شكلٍ أدبيّ، حيث خرجت لنا بمصنّفاتٍ مثل : كتاب (عقلاء المجانين) لأبي القاسم بن حبيب النيسابوري، وكتاب (أخبار الحمقى والمغفلين) لابن الجوزي.

وقد أوذي المجانين قديماً إيذاءً عظيماً، وألصقت بمرضهم خرافات وأساطير، حتى عُدّوا في المجتمعات أجساماً مسكونة بالشر والشياطين. فنُبِذوا وسُجنوا وحُرّقوا.

ولم يتحرّر الغرب من هذه الرؤية القبيحة للمجنون إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

والجنون كما يكون مرضاً، يمكن أن يكون حالة من التفرّد والتوحد يعيشها المرء حينما يخفق في التواصل

مع المجتمع المحيط به، فتعتريه حالات من الذهول والخلط فيرى ما لا يُرى ويسمعُ ما لا يُسمع. وقد وُصِف بهذا السلوك الشعراء والفلاسفة، بله الأنبياء والرسل.

والجنون الإبداعي غير الجنون المرضي، ولذلك ذهب الكثيرون إلى القول بأنه « بين الجنون والعبقرية خيط رفيع » لا يلبث أن ينقطع، وحينئذٍ تغيب الحدود وتضمحلّ الملامح، ولا يعود بالمقدور التفريق بين المجنون والعبقري.

ومن تاريخ الجنون في الثقافة الإسلامية سيقت لنا أخبار تحكي عن أنماطٍ من الناس قد يحكم المرء عليهم للوهلة الأولى بأنهم مجانين، أو دراويش، أو مخبولون، أو مهووسون. ولكن بالتأمل في كلامهم الذي يجري على ألسنتهم يبصر المرء اللبيب ضروباً من الحكمة والفهم لا يمكن أن يصدر إلا عن عقلٍ متميّز.

أسماء المجنون في لغة العرب

الجنون في اللغة: الاستتار. تقول العرب: جنّ الشيء يَجِنُّ جُنوناً: إذا استتر. وأجنّه غيرُه إجناناً: إذا ستره.

وقد أنشد أبو عبد الله محمد بن الحسين الوضّاحي :

يا غافلاً عمّا تَجِنُّ ضلوعي

أنسيتَ ويحك عَبْرتي ودموعي ؟

وجنّ الليلُ يجِنُّ جنوناً وجِناناً: إذا دخل. ومنه قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾

(سورة الأنعام الآية: 76)

وقد سُميت الجنُّ جِنّاً لاستتارهم وخفائهم عن أعين الناس.

وفي العربية يُسمى المجنون أحمق، ومعتوها. وقيل إن المعتوه مَن وُلِدَ مجنونا. ويُسمى : الأخرق، والمائق ويُجمَع على مُوق، والممسوس، والمخبول، ويُسمى أيضاً : بُوهَة، والهائم، والدرويش. والعامة يسمون المجنون بُهلولاً وهو خطأ، لأن البُهلول في اللغة هو السيّد الجامع لكل المحامد، ويُجمع على بهاليل.

طرفٌ من أخبار المجانين العقلاء

إن أكثر من يُنعت بالمجانين العقلاء هم بعض من المتصوفة، والعشّاق لما يصدر عنهم من حكمٍ وأشعارٍ من خلف أسمالهم البالية. ومما يُؤثر عن أبي زيد البسطامي قوله :

«جننتني بي فمت،ثم جننتني به فعشت، ثم جننتني عني وعنه فغبت، ثم أوقفتني في درجة الجنون، وسألتني عن أحوالي الثلاث، فقلتُ : الجنونُ بي فناء، والجنون بك بقاء، والجنون عني وعنك ضنى،وأنت في كلّ الأحوال أولى بنا».

وقيل إن رجلاً قرأ بين يدي معاذ بن نصر

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾

(سورة مَريَم الآية: 39)

فجعل الرجل يتمرّغ في التراب، ويضطرب، ويصيح، ثم هام على وجهه، ولم يوقف له على أثر.

ومن أخبار حيّان بن خيثم المجنون، قال عطاء مررت به يوماً وهو في المقبرة واقفٌ على قبرٍ يُخاطبه، فقلتُ : من تُخاطِبُ ؟ قال: صاحبَ هذا القبر، فإنه كان صديقي ورفيقي. قلت: وما قُلتَ له ؟ قال: قلتُ له:

يا صاحبَ القبرِ يا مَنْ كان يَأنسُ بي

وكان يُكثرُ في الدنيا موافاتي

قلت: وبم أجابك ؟. قال: قال لي:

شُغِلتُ عنك بشيءٍ لستُ واصفَه

من الغُمومِ ولوعَاتٍ وبرحاتِ

ومن أخبار سمنون المجنون أنه قيل له: أيُّ منزلٍ

إذا نزله العبد قام مقام العبادة ؟ قال: إذا ترك التدبير. قال ابن فاتك: سألت سمنون يوماً عن المحبّة، فقال لي: عن محبة الله إياك تسأل ؟ أو عن محبتك إياه ؟ قلت: عن محبّة الله لي. قال: لا تُطيق الملائكة أن تسمع ذلك. فكيف تُطيق أنت ؟!! ثم طفق ينشد:

لا لأني أنساك أُكثرُ ذكراكَ
ولكن بذاك يجري لساني
أنت في النفسِ والجوارح والفكر
وأنت المنى، وفوق الأماني
فإذا أنتَ غِبْتَ عني عَيَاناً
أبصَرتكَ المنى بِكلِّ مكانِ

وسأله أحد الخلفاء: يا سمنون. كيف وصلت إليه؟ قال: ما وصلتُ حتى عملتُ ستة أشياء:

أمَتُّ ما كان حيّاً وهو النفس،وأحييتُ ما كان ميّتاً وهو القلب.

شاهدتُ ما كان غائباً وهي الآخرة، وغيّبتُ ما كان شاهداً وهي الدنيا.

وأبقيتُ ما كان فانياً وهو المراد، وأفنيتُ ما كان باقياً وهو الهوى. واستوحشتُ مما تستأنسون، وآنستُ مما تستوحشون. ثم أنشد:

روحي إليك بكُلّها قد أجمعت
لو أن فيك هلاكها ما أقلعت
تبكي عليك بكُلّها في كُلّها
حتى يقالَ من البُكاءِ تقطّعت
أنظُر إليها نظرةً بِمودّةٍ
فلَرُبّما متّعتُها فتمتّعت

ومن أخبار عبدان المجنون أنه مرّ يوما بقومٍ من بني تيم الله بن ثعلبة، فعبثوا به، وآذوه. فقال: يا بني تيم الله، ما أعلمُ في الدنيا مَن هم خيرٌ منكم. قالوا: وكيف ذاك ؟ قال: بنو أسد ليس فيهم مجنون غيري، وقد قيّدوني وسلسلوني، وكلّكم مجانين وليس فيكم مقيّد واحد.

وكان من المجانين رجلٌ يُدعى بكّار العريان، قال أبو يعقوب السوسي: رأيت ببلدٍ مجنوناً يُقال له بكّار العريان، على سوأته خرقة، وبيده قصبة، على رأسها كالعلم، وهو يعدو ويقول:

كفى حُزناً أني مُقيمٌ بِبلدةٍ
أحِباءَ عنها نازحون بعيدُ
أُقلّبُ طرفِي في البلادِ ولا أرى
وجوهَ أحِبائي الذين أريد

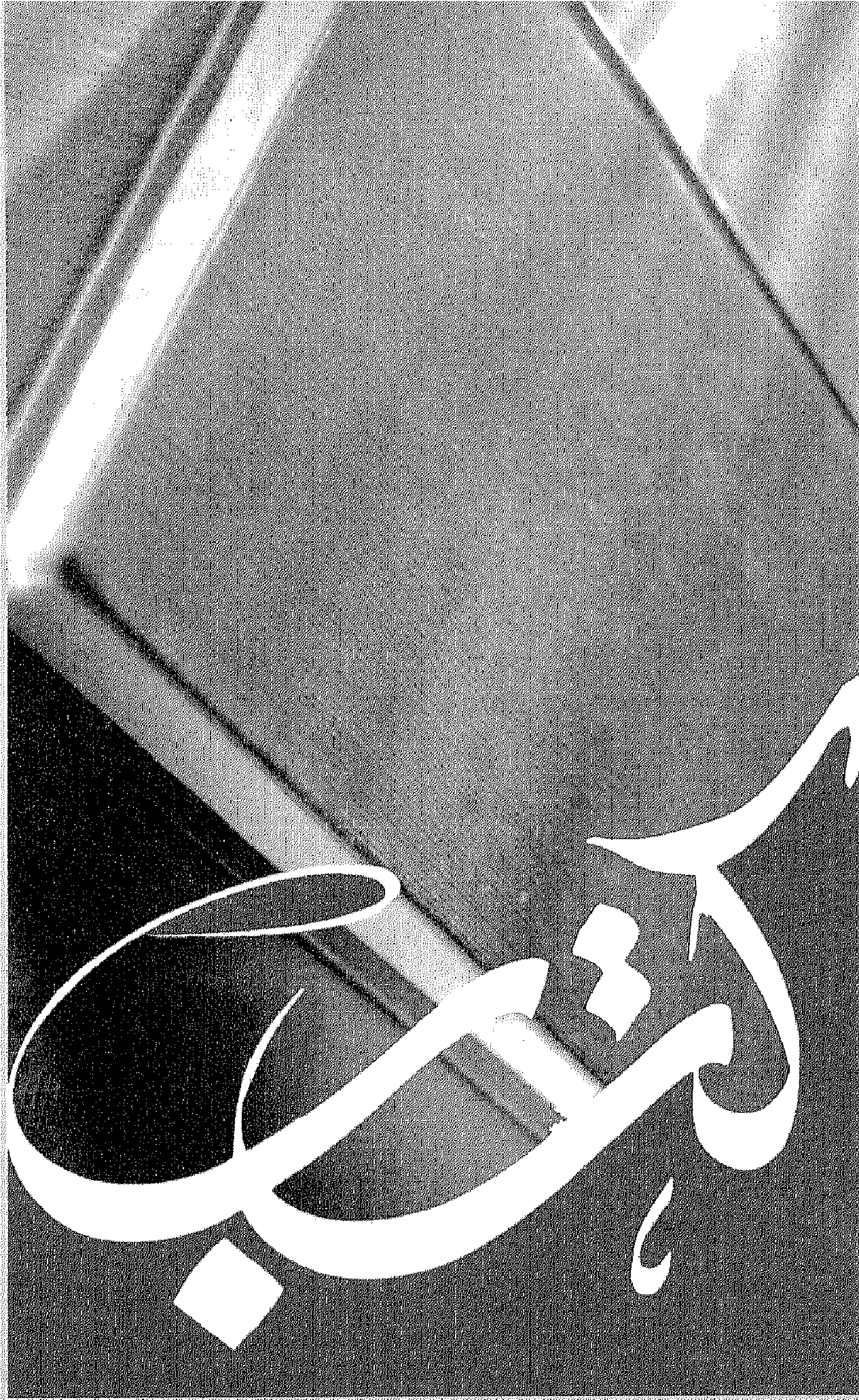
ومن المجانين محمد بن القاسم المعروف بماني الموسوس الشاعر الظريف (وهو غير ماني مؤسس مذهب المانوية)، وأصله من مصر رحل إلى بغداد أيام المتوكّل فكانت له فيها أخبار. ومن أخباره:

دعاه مرةً محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة الحسن بن طالوت لمجلسه، وأمر جاريته (بنّوسة) أن تغني، فغنت من شعر أبي العتاهية:

حجبوها عن الرياحِ لأني
قلتُ للريح بلّغيها السّلاما
لو رضوا بالحجابِ هان ولكن
منعوها يومَ الرّحيلِ الكلاما

فقال ماني الموسوس: ما ضرّ قائل هذا الشعر لو زاد فيه هذين البيتين:

فتنفست ثم قلتُ لطيفي
ويكَ لو زرتَ طيفَها إلماما
حَيّها بالسّلام سرّاً وإلاّ
منعوها لِشِقوتي أن تَنَاما



عرض: أ. الصديق بشير نصر*

* الفكر الإستشراقي في خدمة البنتاغون
* الإسلام ألف سنة من الإيمان والقوة
* المكتبة

* باحث وأستاذ جامعي / ليبيا.

الفكر الاستشراقي في خدمة البنتاغون

كتاب (العقل العربي) ودوره في جرائم سجن أبي غريب

كتاب (العقل العربي) من تأليف المستشرق المجري رفائيل باتاي Raphael Patai صدرت طبعته الأولى سنة 1973 في نيويورك عن دار نشر Charles Scripner's Sons وقد قوبل عند صدوره لأول مرة بتقريظ من المجلات والصحف الأمريكية، ووصف بأنه «مساهمة متميزة في فهم إحدى أشهر الثقافات في العالم»، وأنّ «كلّ من يرغب في الحصول على فهم أعمق لمشاكل الشرق الأوسط لن يجد أفضل من كتاب: «العقل العربي».

وقد طُبعَ الكتاب مرة أخرى في سنة 1976 .

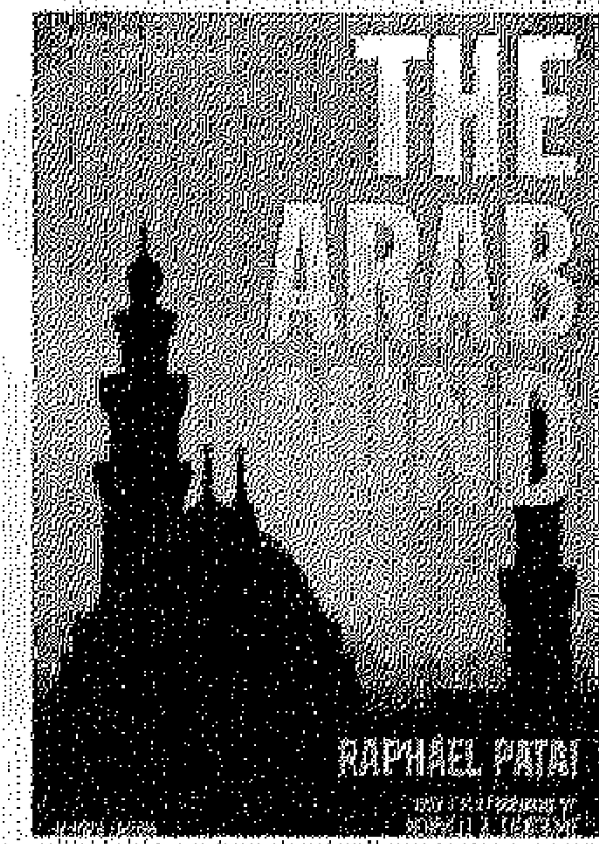
ظلّ الكتاب محصوراً في دائرة المثقفين الضيقة لنحو ثلاثين سنة ، ثم فجأة بدأ الاهتمام به يظهر بشكل مثير، حيث أعيد طبعه بعد أحداث سبتمبر 2001 أكثر من مرة، آخرها كانت سنة 2002 عن دار نشر W. W. Norton & Co. Inc. وهي عن الطبعة المنقحة التي سبقتها في سنة 1983 التي كان قد وضعها المؤلف قبل وفاته في عام 1996 .

ويقع الكتاب في طبعته الأولى في 376 صفحة ، وفي طبعته الأخيرة المنقحة في 466 صفحة .

لقد كان إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) أوّلَ من أشار، بشكلٍ عَرَضيّ ، للكتاب بالنقد بعد صدور طبعته الأولى .

بدأ رفائيل باتاي الفصل الثامن (عالم الجنس

يقع الكتاب في تمهيد وستة عشر فصلاً، وخاتمة.



The Realm of Sex) من كتابه بسوق حكاية التلميذ والفيل الوردي ، ليعبّر عن أثر الكبت الجنسي في تكوين شخصية العربي . وأنّ هذه الشخصية التي هي نتاج للعقل العربي الذي يخضع لقانون (كلّ ما هو ممنوع مرغوب) يمكن تطويعها من خلال فهم (هذا الميكانيزم) الذي يحكمها .

يقول في مطلع هذا الفصل:

«تذكرني مسألة الجنس في العالم العربي، بالقصة القديمة عن تلميذ كان يتدرب عند ساحر مشعوذ sorcerer وحكايته مع الفيل الوردي pink elephant فبعد أن يشرح معلم الكيمياء إلى تلميذه ، الخطوات المعقدة التي يجب اتباعها في صناعة الذهب، يضيف قائلاً: (إن أكثر الأمور أهميةً ، خلال العملية كلها، هو أنه ينبغي ألا تفكر بالفيل الوردي أبداً) وبعد أن انطبع التلميذ تماماً بهذا التحذير، حاول بشدة أن يحترس من التفكير فيه . غير أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في الموضوع المحرّم . وفي الأخير ، كان عليه أن يتخلى عن محاولاته لصنع الذهب ، وأخذ يلوم سيده في أسىً قائلاً: « لماذا يا سيدي طلبت مني ألا أفكر في الفيل الوردي ؟ ولولا أنك طلبت مني ذلك لما فكّرتُ فيه»، ويستطرد قائلاً:

«إن (الفيل الوردي) في كيمياء الحياة العربية the alchemy of Arab life يعني تحريم الجنس . وقد صبغ الآباء والسلطات الأخرى الطفل العربي بفكرة خطيئة الجنس ، وثقافة شاملة تحيط بالفرد وتضعه في جوّ يذكّره باستمرار بالموضوع نفسه. إن فصل الجنسين ، وحجاب المرأة ، والقواعد الدقيقة الأخرى التي تحكم الاتصال بين الرجال والنساء وتقييده ، لها تأثير قوي على جعل الجنس المادة الأولى التي يُستَحوذُ عليها ذهنياً في العالم العربي . إن التحريم الشديد للجنس يخلق نوعاً من ترسيخ التفكير فيه».

وتحت عنوان فرعي في هذا الفصل، وهو (الشرف الجنسي) يحاول الكاتب أن يحلل مفهوم الشرف عند العرب ، واختلاف هذا المفهوم عند الغرب . والشرف مسألة حساسة عند العربي ، وله مفهوم ثقافي وسوسيولوجي مؤثر .

ولذلك فإنّه في « الثقافة السائدة في العالم العربي يكون الموقف مختلفاً جداً، فالروابط العائلية قوية إلى درجة أن كل أعضائها يتألمون من (تسويد الوجه) بسبب الفعل غير المشرف لأي فرد فيها».

وحاول المؤلف أن يفسر حساسية العرب المفرطة من مسألة الجنس ، فقال متسائلاً:

كتاب (العقل العربي) لرفائيل باتاي أصبح «الكتاب المقدس للمحافظين الجدد Neocons في معرفة السلوك العربي»

«ثمة سؤال أخير يظلّ متعلقاً بمفهوم العرض، وهو: ما تفسير هذه الحساسية المفرطة من الشرف الجنسي الأنثوي التي يمارسها المجتمع البدوي على وجه الخصوص، والمجتمع العربي التقليدي بشكل عام؟ لماذا تتطلب الأعراف الشعبية تنفيذ عقوبة الموت بسبب انتهاك تقوم به امرأة ؟ والإجابة عن السؤال يمكن أن تكون فقط بالإشارة إلى عوامل متعددة في الثقافة العربية التقليدية .

إن تنفيذ عقوبة الموت بالنسبة لجريمة الزنا التي ترتكبها المرأة تراث جاهليّ .وهي في الحقيقة ترجع إلى العصر التوراتي وإلى فكرة أن الزنا يسبب العقم، وأنه حقّاً خطيئة كبيرة إلى درجة أنها تجعل جميع الناس أو الجماعة التي ترتكبها آثمين أيضاً، وأنهم سيفنون من الأرض الصالحة. وحيث إنّ المجتمع العربي، كمجتمعات الشرق الأدنى التي

انبعث منها، تميز بظهور السلطة الأبوية في العائلة، والنظام القبلي، وتعدد الزوجات، وأنجب رجلاً كانت له حرية جنسية واسعة، وأن حالته الزوجية لم تضع حداً لنشاطه الجنسي بأي حال من الأحوال . ولا يزال هذا الموقف قائماً إلى الآن . وحتى إن كان الرجل متزوجاً، وحتى إن كان له أربع زوجات - بحسب العدد الذي حددته الشريعة الإسلامية - فانه يستطيع أن يكون علاقات جنسية مع خليلات (الإماء اللائي يملكهن الرجل)، أو مع المومسات، أو مع أية امرأة أخرى ليست تحت كنف رجل آخر ».

وبصرف النظر عما في هذا الكلام من الخلط والتشويش، فإن المؤلف يريد أن يصل إلى نقطة جوهرية في نظره، وهي أنّ العربي بسبب هوسه الجنسيّ تتعطل مداركه، فينحصر كلّ تفكيره وخيالاته في هذا النطاق ، وإن كان يُبدي خلاف ذلك في ظاهر سلوكه . وبسبب براكين الشهوة المكبوتة فيه، ما أيسر استعباده !!

ويلخّص باتاي هذا الأمر بقوله:

«إن كلّ ما يتعلّق بالجنس في العقل العربي يتمثل جلياً في مظهرين يلونان العالم العربي كله (مع بعض الاستثناءات المحلية) الأول: هو أن الرجال والنساء كليهما يرون أفراد الجنس المقابل بشكل أساس بواعث جنسية. والثاني: أن جميع نشاطات النساء يُنظر إليها في أعين الرجال على أنها نوع من أنواع الجنس المبطّن ولا سيّما إذا كانت تلك النشاطات تخل بالقواعد التقليدية لعزل الإناث».

لم تَخْلُ صفحة من هذا الفصل من تشويه، وتصوير نمطيّ لا يختلف عن تلك الصور الباهتة التي خرجت من رحم ثقافة القرون الوسطى، فالعربي مهووس بالجنس، وهو قذر، عفن، وهو

مؤلف الكتاب: رفائيل باتاي

رفائيل باتاي عالم انتروبولوجي واثنوجرافي، يهودي، مجري، ولد في بودابست سنة 1910. كان والده جوزيف باتاي أستاذاً جامعياً معروفاً بكتاباته عن الصهيونية،وبكتابه عن سيرة تيودور هرتزل، وهو أيضاً مؤسس المنظمة الصهيونية في المجر التي لعبت دوراً كبيراً في توطين اليهود في فلسطين أثناء الانتداب البريطاني.

تلقى رافائيل باتاي دروسه الأولى في معاهد أحبار اليهود ،ثم درس في جامعة بودابست ،وجامعة برسلاو التي تحصل منها على درجة الدكتوراه في اللغات السامية والتاريخ الشرقي انتقل إلى فلسطين سنة 1933، وتحصل على درجة دكتوراه ثانية من الجامعة العبرية في سنة 1936. لم يلبث باتاي أن عاد



إلى بودابست ومُنح درجة لاهوتية من محفلها الربّي.

في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات درّس باتاي في جامعة حيفا،والجامعة العبرية، وفي سنة 1944 أسس المعهد الفلسطيني للفلكلور والاثنولوجيا. تزوّج وأنجب بنتين هما جينفر Jennifer (1940) ودافني Daphne (1944). وفي سنة 1947 رحل باتاي إلى المكسيك بمنحة علمية من Viking Fund for Anthropological وذلك لدراسة أحوال اليهود في المكسيك. ثم أقام في الولايات المتحدة وتحصل على الجنسية في سنة 1952. وعمل أستاذاً زائراً بجامعة كولومبيا، وجامعة بنسلفانيا، وجامعة نيويورك، وجامعة برنستون، وجامعة ولاية أوهايو. كما تحصّل على الأستاذية

أشبه بالحيوان ينزو على أنثاه . وهو بالرغم من إقراره بنمطية تلك الصور stereotypes لم ينفكّ يروّج لها وكأنها حقائق ومسلمات . فتحت عنوان فرعي آخر من هذا الفصل (الكبت الجنسيّ) Sexual Repression، يقول باتاي:

«هناك صورتان نمطيتان للحياة الجنسية عند العرب وهما غالباً ما تواجهان في العالم الغربي. وتصور الأولى العرب بأنهم ضحايا التضييقات الشديدة في المسألة الجنسية بفصل النساء المحجبات بصرامة عن الرجال. وتصوّر الثانية العرب رجالاً مسنين قذرين Dirty Old Men، حتى عندما كانوا شباباً. يستمتعون بحركات شهوانية فيها تكسّر وإثارة، ويرقصون بملابس شبه عارية بهزّ البطون أمام الجمهور علنا، ومنغمسين في مجالس خاصة بالعربدة والمجون في حريم بيوتهم. وكما هو معتاد في الصور النمطية فإن هاتين الصورتين تحملان الوجه الأضعف للحقيقة ».

وقد ربط باتاي بين الكبت الجنسي والسلوك العدوانيّ ، واعتبر أن « فيما يتعلّق بكلٍّ من النظرية الفرويدية Freudian Theory وعلماء النفس التجريبيين Experimental psychologists هناك رباط محدّد بين العدوانية والنشاط الجنسي. وليست العدوانية هي وحدها الأكثر بروزاً عند الذكور، ولكن شدتها مرتبطة بقوة بالدافع الجنسي الذكري. وبالرغم من أن هذا النزوع العدواني يكبح منذ الطفولة المبكرة، وعلى طول حياة الفرد، إلا أنه يظلّ جزءاً من عقله الباطن، كما يظهر ذلك من حقيقة أن «إنتاج الرغبات الصبيانية ونزوات الطبيعة الجنسية، يستمر خلال الكبر» وأنّ آلة الكبت في الطفولة المبكرة هي التأثير الأخلاقي للبيئة».

الكاملة في مجال الانتروبولوجيا من كلية دروبسي Dropsie College وجامعة فيرلي ديكنسون Fairleigh Dickinson University. وفي سنة 1952 عهدت إليه الأمم المتحدة بإدارة مشروع بحث عن سوريا ،ولبنان،والأردن،من أجل ملف العلاقات الإنسانية لتلك المناطق.

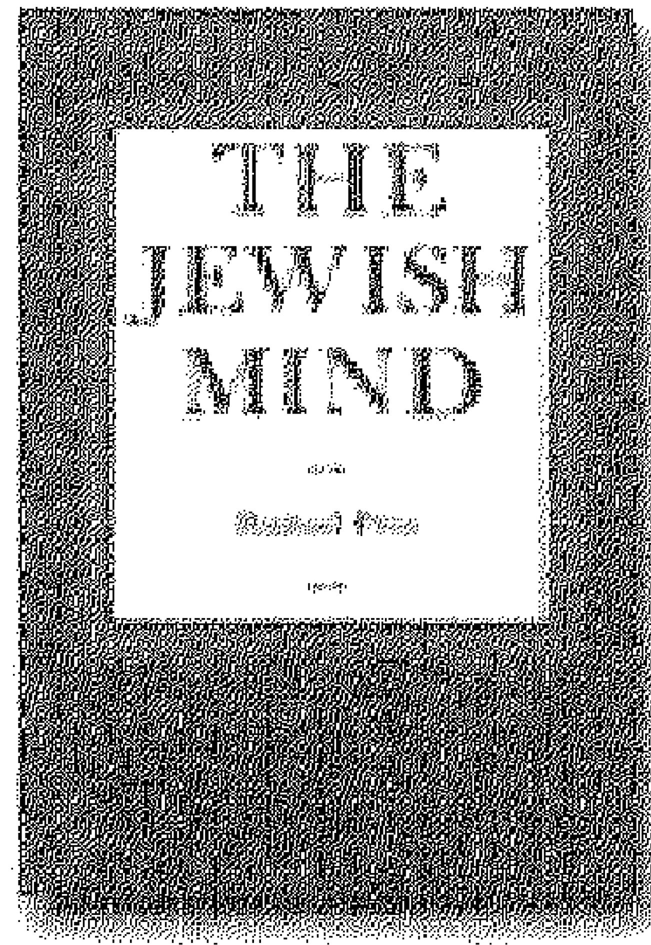
وفي بواكير حياته العلمية ركّز باتاي على دراسة التطور الثقافي للعبرانيين والإسرائيليين القدامى، وعلى انتروبولوجيا الشرق الأوسط بشكل عام.

في سنة 1996 توفي رافائيل باتاي مخلفاً وراءه عدداً كبيراً من المؤلفات، منها:

- ❖ الحكايات الشعبية من فلسطين وإسرائيل.
- ❖ أطفال نوح: الخوف اليهودي من ركوب البحر في العصور القديمة.
- ❖ جديد الإسلام.
- ❖ العقل اليهودي.
- ❖ يهود المجر: التاريخ،الثقافة،النفسية.
- ❖ أرواح وأسرار.
- ❖ وقائع وحركات في اليهودية الحديثة.
- ❖ الكيميائيون اليهود.
- ❖ مفكرون وعلماء في اليهودية الحديثة.
- ❖ يهود كردستان.
- ❖ الآلهة العبرية.
- ❖ أسطورة العرق اليهودي.
- ❖ العقل العربي.
- ❖ ناحوم جولدمان: مهماته إلى الأمميين.
- ❖ بذرة إبراهيم: اليهود والعرب: التواصل والنزاع.
- ❖ الأساطير العبرية: سفر التكوين.
- ❖ بوابات إلى المدينة القديمة: كتاب الخرافات اليهودية.
- ❖ الجنس والعائلة في الكتاب المقدس والشرق الأوسط.

(التوظيف الاستخباراتي لكتاب (العقل العربي)

لقد كان أول من فجّر هذا الموضوع الكاتب الأمريكي سيمور هرش Seymour Hersh في صحيفة النيويوركر The New Yorker في عددها الصادر بتاريخ 24 مايو 2004 في مقالته التي تحمل عنواناً (المنطقة الرمادية) The Gray Zone وذلك في معرض حديثه عن فضائح سجن أبي غريب في العراق . حيث يقول: إنّ كتاب (العقل العربي) قدّم الخلفية الفكرية للتعذيب والإهانة الجنسية في سجن أبي غريب . ويقول إنّ باحثاً أكاديمياً لم يرغب في ذكر اسمه أخبره بأنّ كتاب (العقل العربي) لرفائيل باتاي أصبح « الكتاب المقدس للمحافظين الجدد Neocons في معرفة السلوك العربي»، وقال إن هذا الأكاديمي نفسه أخبره عن نقاش جرى بينه وبين أحد المفكرين المحافظين المؤيدين للحرب، قال فيه هذا المفكّر: « إنّ هناك مسألتين . الأولى: إن العرب لا يفهمون إلا القوة فقط، والثانية: إن أكبر نقطة ضعف عند العرب هي الشعور بالعار والإذلال».



غلاف كتاب العقد اليهودي لرفائيل باتاي

لقد نال الكتاب في طبعته الأخيرة حظاً كبيراً في الدوائر الدبلوماسية والعسكرية. ويقول العقيد المتقاعد نرفل دي اتكين Norvell De Atkine مدير دراسات الشرق الأوسط بمركز JFK Special Warfare في مقدمته للطبعة الأخيرة:

«يُشكّلُ كتابُ (العقل العربي) الذي يُدَرَّسُ في المعهد الذي أتولى فيه تدريس مادة الشؤون العسكرية الأساس الذي تقوم عليه توجيهاتي الثقافية. وعلى مدى الاثنتي عشرة سنة الماضية ، قمت بتدريب مئات من الفرق العسكرية التي تنشر في الشرق الأوسط».

وقد ذكر بعض المعلقين مبرراً ما حدث في سجن أبي غريب بأنّ اللوم فيه ينبغي أن يوجّه إلى ثقافة الضحية وليس للجلاد، وهذا من أبشع ما قيل في الموضوع. وحينما يصير الكاتب والمؤلف والصحفي والمراسل بوقاً لمؤسسات استخباراتية وعسكرية، لا يصدر منه إلا كلّ نشاز، تنقلب المعايير وتضيع الحقائق، بل يُقلبُ الحق باطلاً والباطل حقاً .

وربما لم يكن ليدور بخلد باتاي أن يُوظّفَ كتابه هذا التوظيف المريع الذي سوف تلاحقه لعناته، حتى إن ابنتيه دافني Daphne وهي أستاذة الأدب بجامعت إمهرست ، وجينيفر Jennifer وهي طبيبة في توكسون أصدرتا بياناً للدفاع عن كتاب أبيهما بسبب ما ألصق به من كونه إنجيل الجلادين الأمريكيين في العراق، وأن كتاب أبيهما لا يعدو كونه دراسة في مكونات العقل العربي شأنها شأن الدراسة التي وضعها باتاي عن العقل اليهودي . وبصرف النظر عن نوايا باتاي، على رأي أحد الناقدين، فإن الكتاب فعل فعله السيئ وترتبت عليه عواقب مشينة. وفي الواقع إنّ مقارنة كتاب (العقل العربي) بنظيره (العقل اليهودي) للمؤلف نفسه فيها إجحاف ظاهر. فكتاب (العقل اليهودي) لباتاي مخصص لإظهار تفوق العرق اليهودي على غيره من الأعراق، ولعلّ العناوين الفرعية داخل الفصل الثالث منه الذي يحمل عنوان (رحلة داخل العقل اليهودي) توضح هذا الأمر . فمن بين تلك العناوين: الذكاء اليهودي، والهبة والعبقرية، والمواهب الخاصة.

ولعله من الإنصاف مع ذلك أن نقول إن الكتاب، مع وقوعه في التعميم الذي جرّه إلى أحكام غير منصفة، يظلّ محاولة لا تخلو من فائدة في دراسة العقل العربي.



الإسلام

ألف سنة من الإيمان والقوة

الإسلام: ألف سنة من الإيمان والقوّة.

Islam: A Thousand Years of Faith and Power

كتاب اشترك في تأليفه أستاذان جامعيان: جوناثان بلوم Jonathan Bloom، وشيلا بلير Sheila Blair، وصدر عن مطبعة جامعة يال Yale University Press سنة 2002 .

المؤلف الأول جوناثان بلوم، هو أستاذ تاريخ الفن الإسلامي والعمارة الإسلامية، ويقوم بإلقاء المحاضرات والحلقات العلمية على طلبة الجامعة في الفن الأسباني (الأندلسي) في القرون الوسطى ، وفي تاريخ مدينة القدس.

وقد استكشفت بحوثه تاريخ المنارات وتطورها في العالم الإسلاميّ، بالإضافة إلى تاريخ الورق. وقد ألّف عدّة كتب بالاشتراك مع زوجته الكاتبة شيلا بلير، ومنها هذا الكتاب الذي نستعرضه. ومن مؤلفات جوناثان بلوم:

(تاريخ الفن والعمارة في العصر الفاطمي) و(الورق قبل الطباعة: تاريخ الورق وتأثيره في العالم الإسلامي) وقد نال هذا الكتاب عدداً كبيراً من الجوائز التقديرية، مثل: Charles Rufus Morey Award، وجائزة ألبرت حوراني لدراسات الشرق الأوسط، وجائزة جمعية الصداقة البريطانية الكويتية



جوناثان بلوم

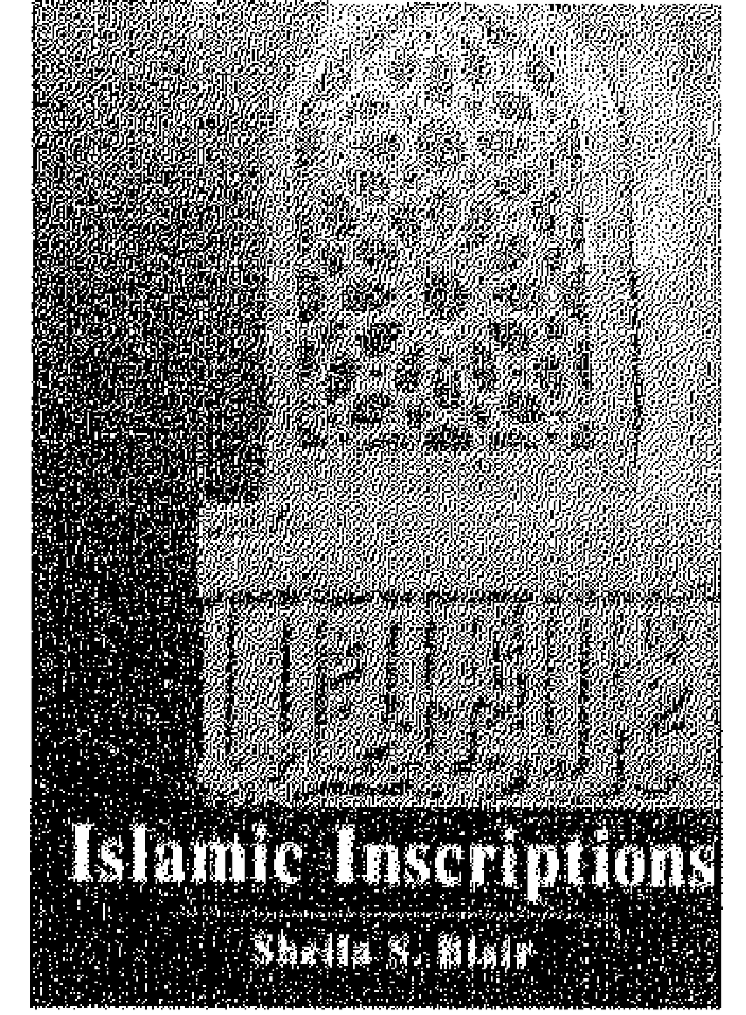


شيلا بلير

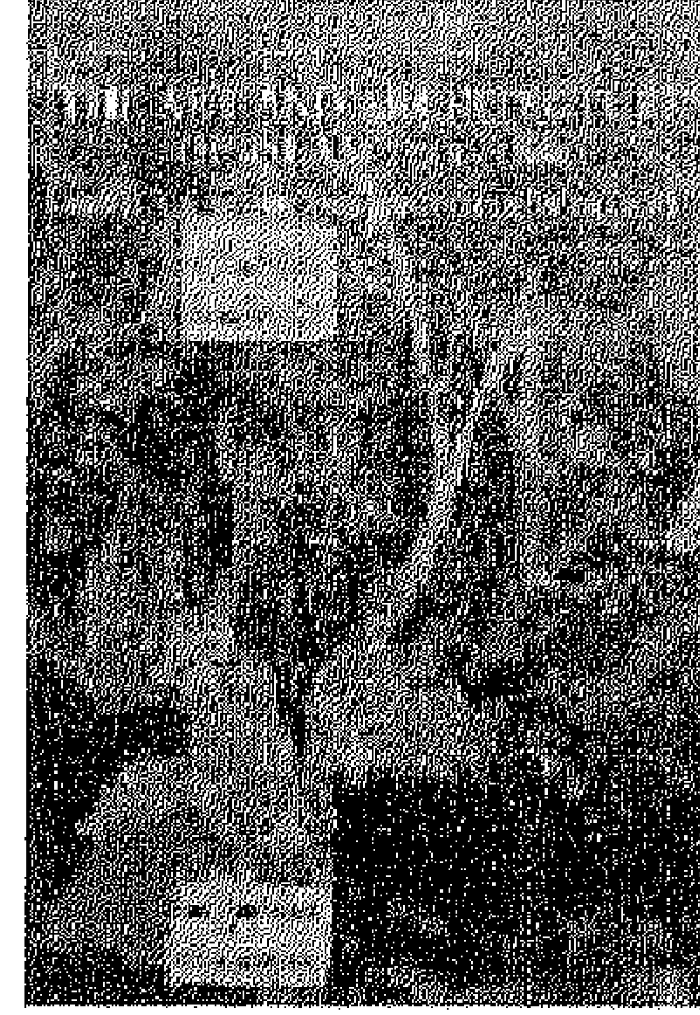
للدراسات الشرق أوسطية، وجميع تلك الجوائز مُنحت في سنة 2002.

ومن مؤلفاته الشهيرة كتابه (المنارة: رمز الإسلام) وهو من مطبوعات جامعة أكسفورد 1989.

والمؤلف الثاني للكتاب هو الباحثة المشهورة شيلا بلير. وهي أيضاً باحثة في تاريخ الفن الإسلاميّ، ولا سيما الفن في إيران ووسط آسيا، والفن المعماري في العصر المغوليّ، وتلقي محاضرات حول مظاهر الفن الإسلاميّ من القرن السابع إلى العصر الحديث، ولها عشرة كتب وأكثر من مائتي مقالة مبثوثة في المجلات والموسوعات العلمية. ومن كتبها المشهورة (النقوش الإسلامية)، وكثير من مؤلفاتها تمت بالاشتراك مع زوجها جوناثان بلوم، كما عملت معه مستشارة فنية



غلاف كتاب النقوش الإسلامية
لشيلا بلير



غلاف كتاب الفن والعمارة
في الإسلام

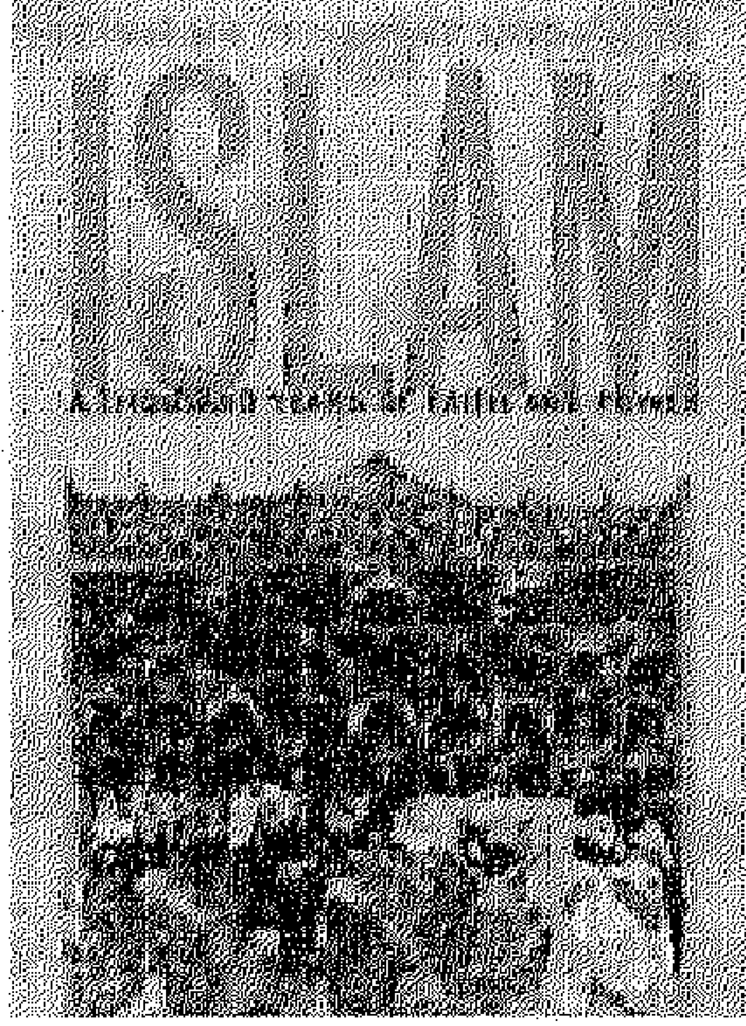
لبرنامج وثائقي عن الإسلام يستغرق ثلاث ساعات تم عرضه بقناة PBS.

يحتوي كتاب (الإسلام: ألف سنة من الإيمان والقوة) على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، ويقع في 269 صفحة.

يقوم الكتاب على فكرتين مبدئيتين: التغيير التاريخي، والمآثر الثقافية. وتتضح الأولى من خلال التسلسل التاريخي للمعلومات، وظهور الدول وسقوطها الواحدة إثر الأخرى.

والكتاب نال اهتماماً طيباً من الدارسين حيث اتصف بكثير من الموضوعية والحيدة العلمية، وإن كان قد تعرّض لبعض النقد، مثل ذلك الذي وجهه إليه مارشال هدسون Marshall Hodgson، وهو نقدٌ في المنهج وليس في الموضوع، حيث يأخذ على المؤلفين أنهما لم يستوعبا الكلام عن موضوعاتٍ مهمة مثل: الفقه الإسلامي، والتصوف. حيث كان نصيب الأول صفحتين، ونصيب الثاني ست صفحات. والكتاب في رأي الناقد «أثريٌّ أكثر من كونه تاريخياً». وهذا رأي صحيح إلى حدّ بعيد، وربما يرجع ذلك في رأينا إلى طبيعة تخصّص المؤلِّفَين في تاريخ الفن والعمارة.

وبالرغم من التجرّد الكبير الذي اتصف به الكتاب، إلا أنه وقع في المأزق الاستشراقي حينما يصف الفاتحين لبلاد المغرب والأندلس بالبرابرة .



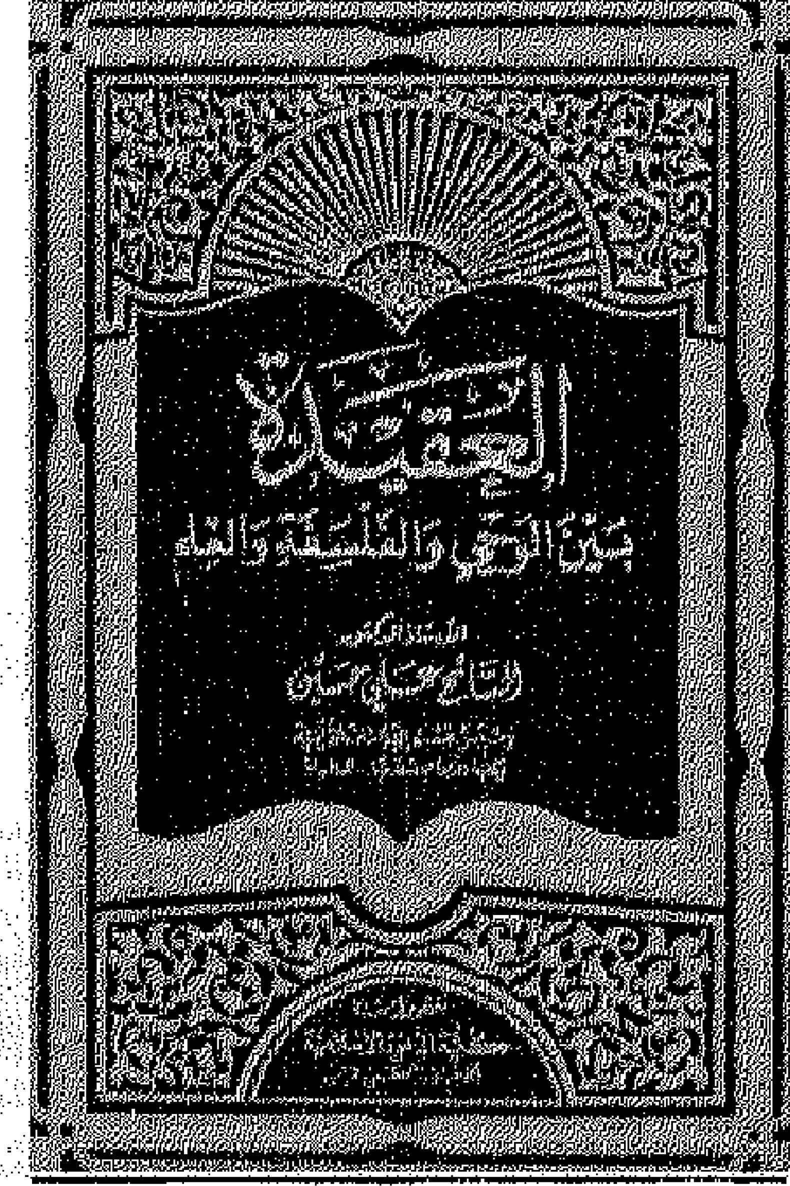
محتويات الكتاب:

العقيدة بين الوحي والفلسفة والعلم

المؤلف : أ. د. / السائح علي حسين

الناشر : كلية الدعوة الإسلامية / طرابلس

485 صفحة / قطع متوسط



يتخطى المؤلف في هذا الكتاب الرتابة المعهودة في بحوث العقيدة التي ظلت تحيا في بيئة علماء الكلام، دون تجديد في الشكل أو المضمون، وآثر أن يشق لنفسه منهجاً انفرد فيه بمعالجة هذه القضية من واقع الرسالات السماوية والفلسفة والعلم، موضحاً في ذلك دور المؤثرات الاجتماعية والثقافية والسياسية في تأويل بعض النصوص، وفرض أنماط من العقائد تقوم على الاستجابة للرغبات والأهواء والسياسات الآتية في مراحل تاريخية معينة، ثم تحولت بفعل التلقين والتقليد والسطحية في التفكير إلى متعلقات قلبية ووجدانية كبلت العقل بقيود صارمة أصيب على أثرها بالخمول والجمود. ويقدم المؤلف للقارئ العقيدة من حيث هي عقيدة، سواء أكانت لربط الإنسان بربه وهي العقيدة الدينية، أم التي تربط الإنسان بمجتمعه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وهي التي تسمى (الأيديولوجيا) وهي عقيدة يُدافَع عنها بكل السبل شأنها شأن العقيدة الدينية. ويتناول المؤلف الإسلام الذي تكفل الله بحفظ مصدره قرآناً يتلى وبوضوح ما جاء فيه عن عقيدة التوحيد التي طرحت بصورة لا يحتاج العقل فيها إلى طرائق استدلالية، لعلاقة الإيمان بوحدانية الله من ناحية، والانجذاب الشعوري الذي يجده الإنسان في معارفه الفطرية والقلبية من ناحية أخرى.

يد الله

تأليف : غريس هالسل

ترجمة : محمد السماك

الناشر : دار النفائس / بيروت

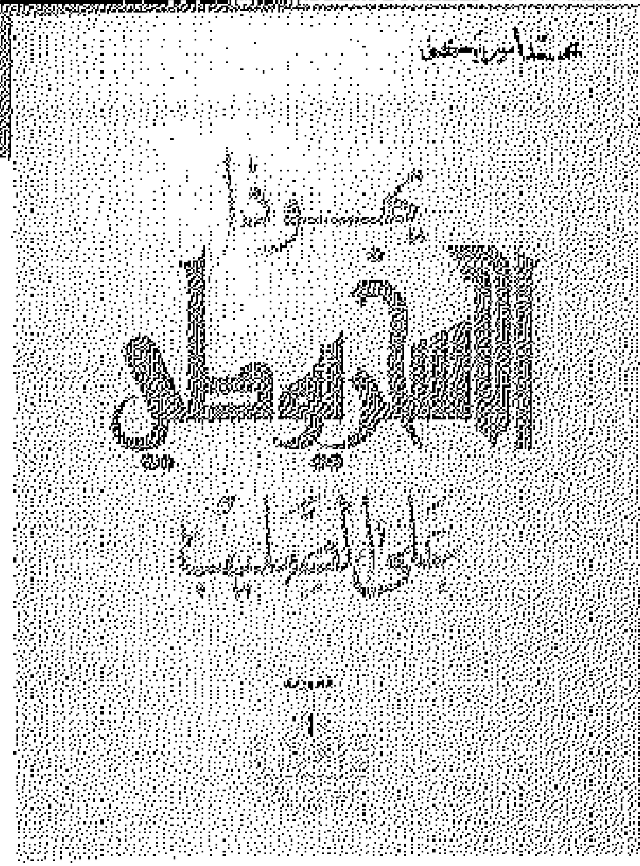
136 صفحة / قطع صغير



يشكل هذا الكتاب صدمة للقارئ الذي لا يعرف شيئاً عن (الصهيونية المسيحية) لما يحتويه من معلومات مذهلة وأفكار غريبة ترقى إلى مستوى القدسية عند كثير من القابضين على زمام الأمور في الولايات المتحدة الأمريكية!! ولكنه يفسر للقارئ لماذا تضحي الولايات المتحدة الأمريكية بمصالحها الخاصة خدمة لـ(إسرائيل) . فاختلاط السياسي بالديني لدى قادتها يجعل التفوق للديني، لأن إرادة الله فوق كل اعتبار. والكتاب يكمل سابقه (النبوءة والسياسة) لنفس المؤلفة (صدر ضمن منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ثم - في طبعة ثانية - عن دار النفائس) ويزيد عنه بما احتواه من معلومات وأسماء شخصيات ومراكز وكهنة يبشرون بالصهيونية المسيحية، ويعملون على تسريع معركة (هرمجدون) التي سيأتي بعدها المسيح فينشر العدل في العالم ألف سنة.

والمؤلفة أحد المرتدين عن (الصهيونية المسيحية) عملت في البيت الأبيض، ومارست الصحافة، وزارت إسرائيل وعاشت مع اليهود، فهي تتحدث عن خبرة ومعرفة ، وتكشف أسرارا تخفى عن معظم الناس.

يهوذا الإسخريوطي على الصليب



المؤلف : محمد أمير يكن

منشورات : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

342 صفحة / قطع كبير

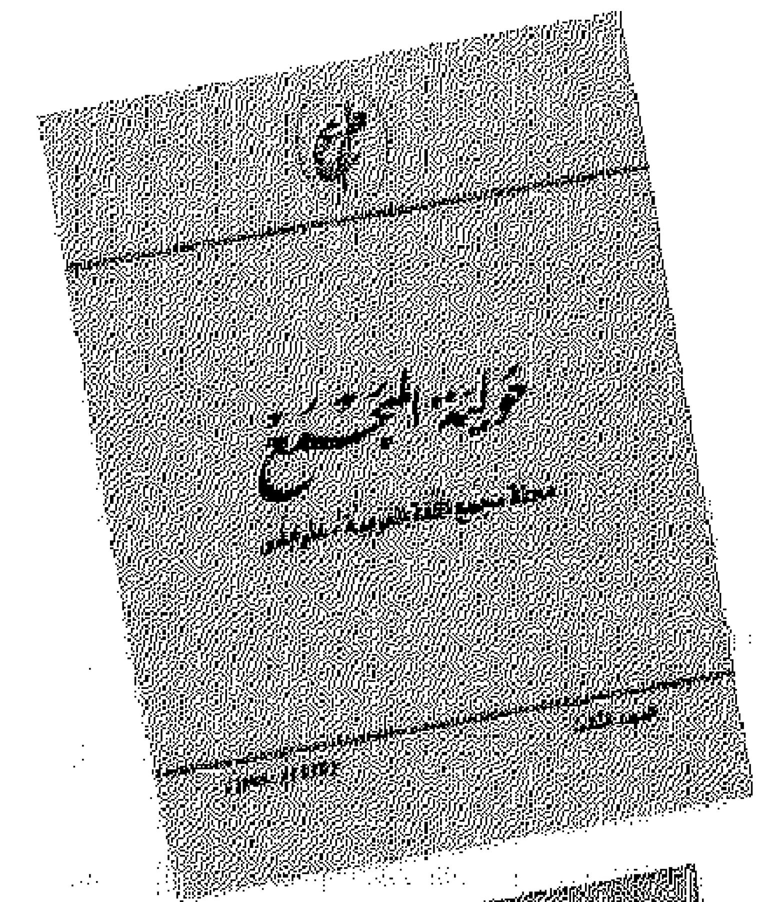
حملات التشكيك بالأديان السماوية، وأصولها، وصدق الأنبياء؛ أصبحت اليوم طوفاناً من الكتب والمقالات، التي تريد أن تنسف ما بناه الأنبياء منذ فجر البشرية حتى اليوم. وينساق كثير من الناس وراء هذه الأكاذيب، ويضيعون في متاهات الكفر والضلال، مصدقين كل ما ينشر تحت عنوان العلم والحقيقة . وباسم حرية الرأي والتعبير ينشر أولئك الكتّاب كل ما يشيع الفوضى ويضيع الحقيقة، وعلى رأس هؤلاء الصهيونية العالمية، التي تدس أنفها في كل مجال، لتزور التاريخ، ولتترجم بشكل خاطئ ومتعمد ما جاء في الرقم، وما اكتشفته الحفريات، خدمة لمصالحها وأغراضها العدوانية التوسعية.

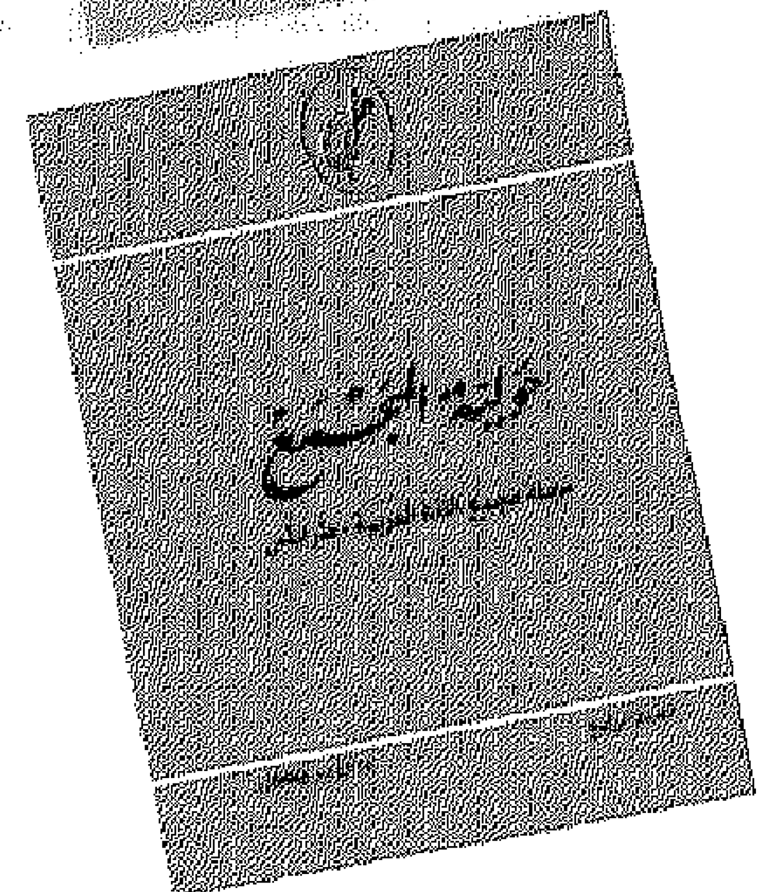
ومضمون هذا الكتاب هو إظهار عظمة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وبيان الأسباب العلمية والتاريخية التي دعت المسلمين لتبني وجهة نظر معينة مخالفة لما جاء في الأناجيل المتداولة والمعتبرة في نظر المسيحيين. كما يبين هذا الكتاب الأسس والقواعد العامة التي تتطابق فيها وجهات النظر عند كل من المسلمين والمسيحيين، والتي يمكن الاستناد إليها لخلق جو من التقارب والتفاهم بين كلا الطرفين.

حولية المجمع

مجلة مجمع اللغة العربية / طرابلس

تسلمت إدارة تحرير التواصل نسخة من العدد الثالث وأخرى من العدد الرابع، من (حولية المجمع) التي يصدرها مجمع اللغة العربية في طرابلس. وقد تضمن العدد الثالث مجموعة من الدراسات والأبحاث في اللغات القديمة، وفي العربية الفصحى ولهجاتها. الدكتور نائل حنون يكتب عن (بلاد الرافدين القديمة: ثنائية لغة في النصوص المسمارية ـ ووحدة قوم على الأرض) ويقدم الدكتور محمد شريف علي (قراءة في النقوش السينائية تبعاً لأماكن العثور عليها بمصر). الدكتور عبد الحفيظ الميار يكتب دراسة تاريخية وأثرية حول (النقائش الفينيقية اليونانية في ليبيا). وفي الدراسات في العربية الفصحى ولهجاتها نطالع للأستاذ طارق دعوب دراسة حول (حركات العربية في الاستخدام اللغوي بين الأسبقية والتثليث) ويكتب الدكتور موسى زنين عن (حرف الظاء) ويعقد الأديب الأستاذ علي مصطفى المصراتي دراسة مقارنة تتناول (الأمثال والتعابير الشعبية بين دارج وفصيح) ويقدم الدكتور الصيد أبو ديب دراسة مقارنة أيضا عنوانها (بين المثل والخرافة).

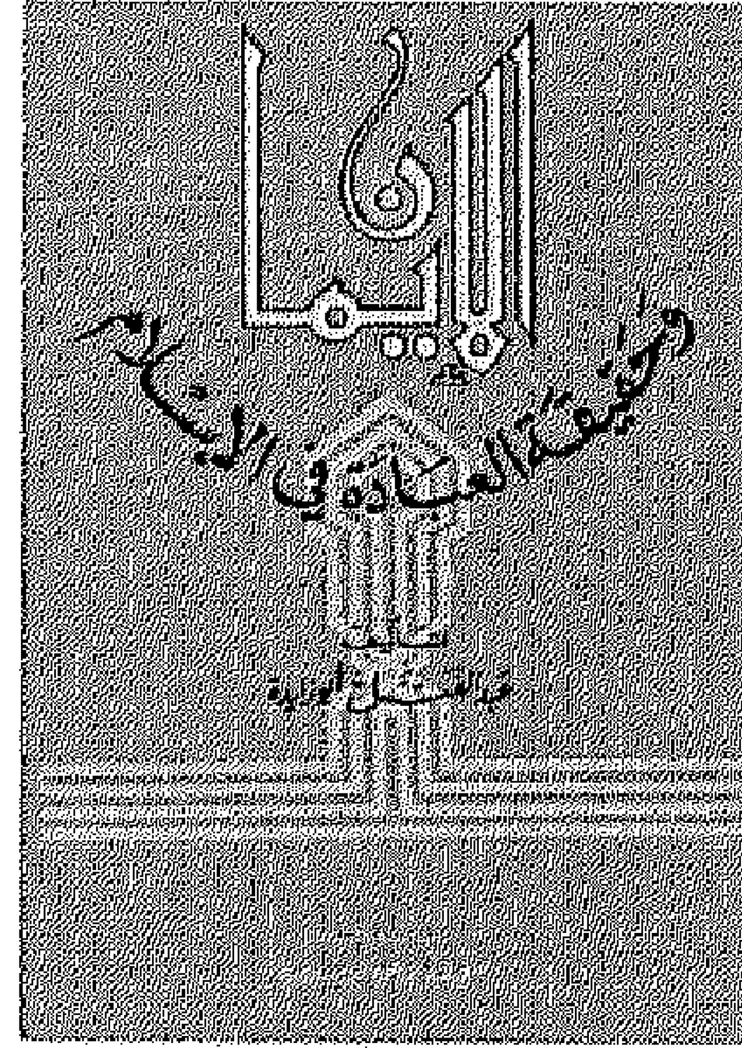




أما في العدد الرابع فنطالع في (العروض والمناقشات اللغوية) موضوعاً بعنوان (تعقيبات وردود) للأستاذ عبد اللطيف الشويرف، ويقدم الدكتور علي بن الأشهر دراسة عن (الكتابة العلمية باللغة العربية) ويتناول الدكتور صالح بلعيد (الخطأ والصواب في لغة الصحافة والإعلام). وفي جانب الآفاق الثقافية نطالع دراسة للدكتور عماد حاتم بعنوان (نحو قراءة جديدة في أدب العصرين المملوكي والعثماني) ويتناول الدكتور عبد الحميد الهرامة (اكتشاف روضة الأزهار أو البرموني الكبير) ويناقش الدكتور محمد مسعود جبران (التفاعل العلمي والمعرفي في الغرب الإسلامي والسودان الأوسط) ويقدم الأستاذ عمار جحيدر نبذة عن (الحياة الثقافية في ليبيا في العهد العثماني الأول، من خلال عبد السلام بن عثمان التاجوري وتراجم شيوخه نموذجاً). كما يتضمن العدد ملفاً توثيقياً عن أخبار المجمع.

الإيمان
وحقيقة العبادة في الإسلام

المؤلف: عبد الفتاح أبو زائدة
منشورات: جمعية الدعوة الإسلامية/ طرابلس
295 صفحة / قطع صغير



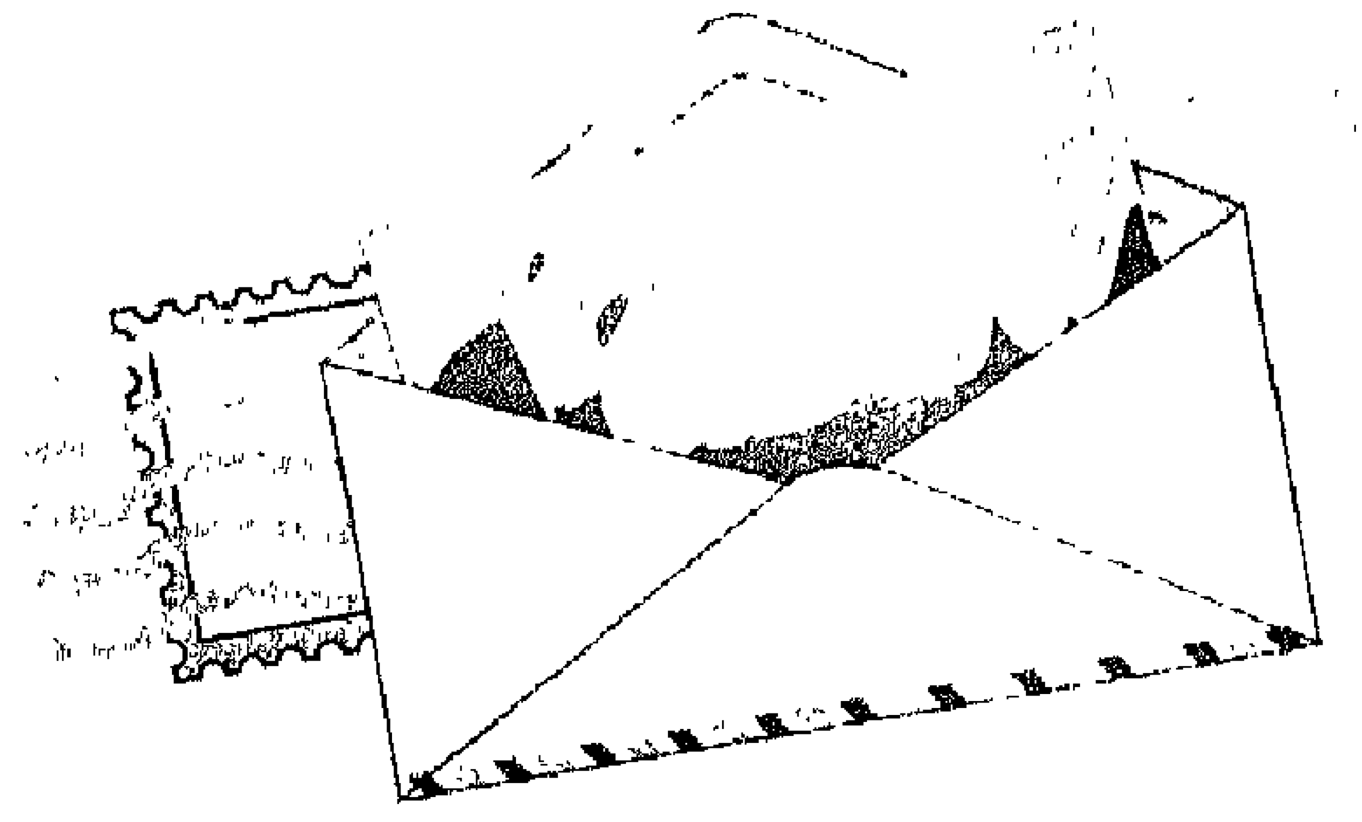
تنصب موضوعات هذا الكتاب على بيان أهمية الإيمان باعتباره حقيقة وجودية أبدية، وتوضيح القيم والمبادئ التي نستقيها من حقيقة العبادة في الإسلام . وينطلق المؤلف من أن عقيدة المسلم تقوم على الإيمان الكامل، ويترتب على هذا الإيمان مسؤولية التنفيذ العملي لأحكام الدين، حيث الإيمان لا يتجرد من العمل، ويوضح المؤلف بيان القرآن للمسلكيات والأخلاقيات التي يجب أن يكون المسلم عليها كأمر طبيعي يترتب على الإيمان، فيكون المسلم نموذجاً في حياته، يقدم للناس حقيقته من خلال سلوكه وتصرفاته التي تنبثق من آداب العبادة في الإسلام. ولأن العبادة ليست فقط حركات تؤدى أو أقوالاً تردد؛ فلا ينبغي أن تقف عند هذا الحد، بل يجب أن يمتد تأثيرها إلى شعب الحياة الإنسانية، فتترسخ العقيدة، وتؤسس النظام الاجتماعي الذي يفترض أن يقوم على العدل والحق والمساواة . وعندما يعي المسلم الحقائق التي تقف وراء العبادة في الإسلام ؛ فإن التغيير سوف يصل إلى الجوهر، وكون المسلم مؤمنا يلزمه أن يعمل جاداً على تمكين الدين من إصلاح الحياة، فالإسلام بكل ما فيه من شرائع ومبادئ منهاج قويم يبني الحضارة الإنسانية على الأسس العلمية الصحيحة بحيث يجد الإنسان راحته فيها، ويعمل من خلال حياته للدار الآخرة.



حديث المنابر

المؤلف : محمد السعدي
منشورات: صحيفة الدعوة الإسلامية/ طرابلس
352 صفحة / قطع متوسط

خطبة الجمعة إنما جُعلت لتساهم في تحقيق رسالة المسجد، فتذكر المسلمين بربهم، وترغبهم في الجنة وترهبهم من النار، وتحض المؤمنين على طاعة الله، وتحثهم على التوبة من المعاصي، وتدعوهم للطهارة والتقوى، وترغبهم في الخير والمعروف، وتنفرهم من الفحشاء والمنكر . وهذا الكتاب يتضمن نماذج لخطبة الجمعة تعالج قضايا متنوعة، ومناسبات مختلفة، مساهمة من المؤلف في إثراء مواضيع الدعوة والإرشاد، وأساليب التوجيه والبلاغ، وطرق الحشد والتعبئة، وتتصدى للدجل والشعوذة، والانحرافات والخرافات التي تشوه الدين، وتكبل العقل . وفي هذه النماذج دعوة للمسلمين إلى وحدة الصف والتكاثف والتعاون، وتحريض على ممارسة الشورى، وتوجيه للسلوك والمواقف على هدي القرآن الكريم، ودعوة إلى العمل والإنتاج من أجل تحقيق الكفاية وضمان الاستقلال والحرية. وفي الخطب أيضاً تبصير للمسلمين بواقعهم، والأخطار المحدقة بهم، ليكونوا على حذر، ويتسلحوا بالقوة لحماية عقيدتهم وأوطانهم، والحفاظ على دينهم وهويتهم، وزرع الأمل والثقة بالله في قلوبهم . كل ذلك في إطار الفكرة الواعية التي تبدد ظلمات الباطل وتنير درب الحق وتفتح سبل الإبداع أمام العقل، وفي أسلوب يتوخى الموعظة الحسنة التي تقوي الإيمان، وتشحذ العزيمة، وتدفع إلى العمل البناء.



الأخ / أمين هيئة التحرير

تحية طيبة.. وبعد

في إطار توطيد علاقات التبادل الثقافي الوثائقي بين مؤسستينا، وخدمة لمصلحة المعرفة والبحث العلمي؛ يشرفنا أن نرسل إليكم العددين 43 و44 من المجلة التونسية لعلوم الاتصال، ونسخة من كتاب (التفكير في مجتمع المعلومات).

نرجو أن تمثل هذه الوثائق إضافة ذات قيمة علمية لمخزونكم الوثائقي، وأن يجد فيها الباحث المرجع القيم في مجال الصحافة والإعلام والاتصال.

ويسرنا أن نعلمكم أن من مصلحتنا أن نرحب بربط صلات التبادل بين مؤسستينا، وذلك من خلال تمكيننا من منشورات تكون من إصداراتكم لتوضع في المكتبة، وفي المقابل نتعهد بإرسال كل منشوراتنا الجديدة بصفة منتظمة.

نرجو أن تكون هذه المبادرة مؤسسة لعلاقة تبادل للوثائق بين مؤسستينا.

وتفضلوا بقبول فائق التقدير والاحترام

محمد حمدان

مدير معهد الصحافة وعلوم الأخبار / تونس

المحرر: نرحب بالتواصل معكم، وتوطيد علاقات التبادل الثقافي، ونشكركم على ما تفضلتم بإرساله إلينا من مطبوعاتكم التي لاقت كل قبول وتقدير من جميع أعضاء أسرة تحرير التواصل. ونفيدكم بأننا سنرسل إليكم نسختين من كل عدد، فضلا عما يصدر عن التواصل من مطبوعات في المستقبل.

الإخوة بمجلة التواصل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نتشرف بالكتابة إليكم باسم جمعية الثقافة لمسلمي بكين الشرقي بالسنغال، لنحييكم على اهتمامكم بشؤون المسلمين في كل مكان، وندعو الله لكم بالتوفيق والسداد. ونود أن نفيدكم بأن جمعيتنا هدفها نشر الدعوة والثقافة العربية الإسلامية في المجتمع السنغالي، ونحن بحاجة للاتصال بالمؤسسات والمراكز الثقافية الإسلامية، وخاصة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، لما لها من أياد بيضاء في خدمة الإسلام والمسلمين.

إننا نرغب في الحصول على إصدارات الجمعية، وخاصة مجلة التواصل، وهذا ما دفعنا للكتابة إليكم.

كما نرجو منكم التكرم بتزويدنا بالعناوين البريدية للمؤسسات والجمعيات الإسلامية، وخاصة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية.

وإننا لواثقون من استجابتكم لهذا الطلب، وجزاكم الله عنا خير الجزاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جمعية الثقافة لمسلمي بكين الشرقي / السنغال

المحرر:

نشكركم على مبادرتكم بالكتابة إلينا، ونحيي ما تقوم به جمعيتكم من جهود لنشر الثقافة العربية الإسلامية. وبخصوص طلبكم الحصول على إصدارات الجمعية فيمكنكم مخاطبة مكتب البحوث والإعلام والنشر بالجمعية مباشرة. ونحن من جانبنا نعدكم بتزويد مكتبة جمعيتكم بثلاث نسخ من كل عدد من مجلة التواصل، وبشكل مستمر.

أعانكم الله، وسدد على طريق الخير خطاكم.

الأخ أمين هيئة تحرير مجلة التواصل

بعد التحية،

يطيب لفرع المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر بسبها؛ الإشادة بهذا المشروع الثقافي الذي يعد إضافة قيمة للمكتبة العربية، والليبية خاصة، بما يحتويه من موضوعات ذات قيمة علمية مهمة. ورغبة من فرع المركز في التواصل معكم من خلال هذه المطبوعة المباركة، وذلك باقتناء نسخ من أعدادها السالفة واللاحقة، لتزويد مكتبة الفرع بهذه الإضافة العلمية الجديدة.

عليه نأمل منكم تزويدنا بثلاث نسخ من كل عدد من الأعداد التي صدرت من هذه المجلة القيمة، كما نامل منكم ترتيب آلية اشتراك مستقبلاً في هذا الإصدار العلمي.

نشكر لكم تعاونكم.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير.

د. صالح معيوف مفتاح

أمين فرع المركز العالمي

لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر بسبها

المحرر:

شكراً على هذه الإشادة بالتواصل وما ينشر على صفحاتها من موضوعات، وبخصوص تزويدكم بالأعداد السالفة واللاحقة فإننا نفيدكم بأن معظم الأعداد السالفة قد نفد، وسنزودكم بما يتوفر لدينا منها. أما الأعداد اللاحقة فيمكنكم ضمان وصولها إليكم من خلال ملء قسيمة الاشتراك وإرسالها إلينا مع المبلغ الذي يغطي الفترة التي ترغبون في الاشتراك فيها.

لكم جزيل الشكر والتحية، وسنظل على تواصل.

الإخوة بمجلة التواصل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد،

يطيب لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث أن يهديكم أطيب تحياته، وفي إطار تعاوننا الثقافي، ونتيجة لحاجة الباحثين والمستفيدين من مكتبة المركز؛ يسرنا أن نبلغكم رغبتنا في الحصول على العددين (5، 8) من مجلتكم الغراء (التواصل) وذلك على سبيل الإهداء، وليكون معيناً لمكتبة المركز على أداء مهمتها الجليلة في خدمة روادها من الباحثين والدارسين.

وإننا إذ نقدر لكم تعاونكم الأخوي والكريم معنا؛ لنتمنى لكم دوام التقدم والنجاح.

وتفضلوا بقبول فائق تحياتنا، مع وافر الشكر والتقدير.

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

دبي / الإمارات العربية المتحدة

المحرر:

أسرة التواصل يسرها إقامة وتوثيق جسور التواصل الفكري والثقافي مع مركزكم الكريم، ونعدكم بإرسال نسخ من العددين (5، 8)، كما نرجو منكم تزويدنا بإصدارات المركز بشكل دوري، إسهاماً منكم في إثراء مكتبة التواصل.

نجدد لكم الشكر والتحية، ونرجو دوام التواصل .

..ونتواصل

جسر التواصل

❖ محمد عبد السلام شاهين(*)

تسعى هذه المطبوعة إلى تجاوز المفاهيم المتداولة للتواصل بين الحضارات، وتفعيل لغة الحوار بين الأديان، وتوسيع سبل التعارف بين الشعوب، وهي في هذا تقيم جسراً دائرياً متعدد الاتجاهات، ليس فيه وقفات سلبية للأنا أو الإغفال والتهميش لإسهامات وإضاءات مختلف الحضارات والأديان والعقائد في أرجاء المعمورة.

يأتي هذا السعي من جوهر الحضارة الإسلامية التي تتأثر بقدر ما تؤثر، تعطي وتأخذ، تقبل وتعمل صالحاً ليكون قبولها من غير المسلمين عن قناعة، بضرورة التعاون بين الشعوب.

من هنا الدعوة إلى التوازن ـ حتى مع طرح الأنا ـ فلا بأس من أن يقدم طرف من أطراف الحوار ما يراه صائباً عبر مسيرة حضارته أو مفردات عقيدته وثوابت ديانته، لكن من غير المقبول أن يشوب طرح الأنا استعلاء، أو نفي وإقصاء لطرف بعينه، كما أصبح من المستهجن التوقف عند مقولات ومفاهيم تؤطر لثقافة متجاوزة، لا يزال الخطاب الإسلامي في بعض مفرداته متشبثاً بها، ومنها القول أن شمس الحضارة الغربية عربية المنشأ فقط، وأن حصادها الذي يتجلى اليوم في العديد من الإنجازات العلمية إنما يعود إلى ما حبرته أقلام العلماء والعرب ـ دون غيرهم ـ في العصور الإسلامية السالفة، وهذه حقائق تاريخية في سياقها المرجعي، ولكن لا مفر من الاعتراف بالتعديدية الحضارية على جسر التواصل، فإذا ما قدم الباحث المنصف دراسة عن أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، سواء كان هذا الأثر علمياً أو فكرياً، أو في مجالات الفنون والعمارة والأدب والشعر ورقص الباليه، فإننا نهيب به عدم إغفال ما قدمته ـ وتقدمه ـ الحضارة الغربية للحضارة الإسلامية، وللإنسان في كل مكان، من اكتشافات تصل اليوم في الفضاء والكون إلى ما بعد المجموعة الشمسية، واجتهادات في شتى مجالات الحياة. ونحسب أنه أصبح من السذاجة الفكرية عند الإعلان عن إنجاز علمي جديد، مثلما تحقق في علم الجينات التعلل بالقول إن كل ذلك جاء ذكره في القرآن الكريم.

التواصل في آفاقه المنشودة لا ينغلق على الذات.. يفتح النوافذ على الثقافات الأخرى.. يتجاوز الإنتماءات.. يتفاعل مع إسهامات الأطراف الأخرى ما دامت تتميز بأصالة، تشكل القاسم المشترك لكافة الحضارات.. عندما نختار التعاون عبر هذا الجسر فإننا نسمو فوق سلبيات الانتقاص والإقصاء والتهميش.. من حق، بل من واجب كل ذي فكر بناء أن يشارك ويتواصل دعماً للتعارف والحوار.

---

* كاتب وباحث / ليبيا.



صحيفة

الدعوة الإسلامية

الآن بـ 5 لغات


الدعوة الإسلامية


AD-DA'AWA AL-ISLAMIYYA

Shugabar Kasar Filipin: Na Zo Libiya Ne Domin Bikin Cika Shekara 30 Da Yarjejeniyar Zaman Lafiya

Shugaban Bosniya Ya Yaba Da Taltafin (IKMD)


AL-DAAWA AL-ISLAMIA

A fresh year of achievements to add up to a continuous march of providence by Islamic al-Fateh Revolution

WICS assistance, hailed


AL-DAWA AL-ISLAMIYA

El presidente de Bosnia Herzegovina visita la AMDI

Los musulmanes celebran con alegria el 37 aniversario de la Revolución de Al-Fateh


Ad-daawa Al-Islamia

Une année de réalisations dans les divers domaines concretisées par la Révolution Islamique d'Al-Fateh

Sri Lanka : estime et gratitude pour le Guide

Les masses musulmanes célèbrent la Révolution d'Al-Fateh


AL-DAWA AL-ISLAMIA

A fresh year of achievements to add up to a continuous march of providence by Islamic al-Fateh Revolution

WICS assistance, hailed

L'événement

Muslim masses mark the 37th anniversary



مع تحيات مجلة التواصل

تنفيذ وطباعة : شركة الآن للطباعة والنشر